الاستعمار والاستغلال والتخلف

للدكتور
جلال يحيى
دكتوراه الدولة من جامعة باريس
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية العلوم الانسانية — جامعة أسيوط

١٩٦٥



الدار القومية للطباعة والنشر


طبع
تليفون ٣٣٤٩١ اسكندرية

الاستعمار والاستغلال والتخلف

للدكتور
جلال يحيى

دكتوراه الدولة من جامعة باريس
استاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية العلوم الانسانية ـ جامعة أسيوط

الدار القومية للطباعة والنشر



مر الاستعمار بتطورات كثيرة ومتتالية طوال الفترات التاريخية المعروفة ، وارتبط منذ نشأته بالاستغلال أوثق إرتباط ، بل كان الاستغلال هدفاً أساسياً من بين أهدافه ، ونتيجة حتمية لنجاح عملياته . ولقد قامت به عناصر قوية ومغامرة ، وتسلحت بأسلحة تمكنها من فرض نفسها على غيرها ، وإخضاعها لها ، واستغلال مواردها وامكانياتها ، وتسخيرها لصالحها ، حتى وإن أدى ذلك الى تخلف هذه الشعوب الضعيفة أو المستضعفة . وكم من مرة تقوضت فيه هذه النظم الاستعمارية ، نتيجة لضعف العناصر القائمة عليها ، أو نمو قوة العناصر الوطنية والكادحة ، وظهور إتجاهات معادية للاستعمار وحركات تحررية وأفكار ثورية ، هنا وهناك وامتد ذلك عبر العصور ، حتى وقتنا الحاضر ، الذي يمكننا أن نصفه دون مغالاة بانه عصر نهاية الاستعمار ، أو عصر الإنهاء عليه وتصفيته .

ولقد ساعدتني دراستي المتخصصة في مصر أولا ، ثم في أوربا ثانيا ، مع البحث في الوثائق الرسمية ودور المحفوظات التاريخية ، وزياراتي لبعض الأقاليم التي خضعت للاستعمار ، ساعدتني على أن أكتب دون تحرج ، أعرض الموضوع في تبسط وتبسيط .

ولقد قسمت الكتاب الى سبعة أبواب ، تحدثت في أولها عن الاستعمار في العصور القديمة ، ومنذ بداية الاستعمار التي سجلها التاريخ في الشرق الأدنى القديم ، إلى نشأة المراكز البحرية الأولى ، وظهور تجار كريت والفينيقيين وأبناء قرطاجة ثم اليونانيون ومستعمراتهم . وكان ذلك تمهيدا للتحدث عن نشأة الامبراطوريات المنظمة في فارس ومقدونيا وفي الشرق

الأقصى ثم ظهور الاستعمار الرومانى وتكوين الامبراطورية الرومانية والنظم التى سارت عليها .

أما الباب الثانى فقد تحدثت فيه عن الاستعمار فى العصور الوسطى وبدأت بغزوات البرابرة وشرحت عمليات الفتح العربى والاسلامى . واحتلت الحملات والحروب الصليبية مكانها فى هذا الباب ، مع ما قامت به من عمليات فى الشرق الأدنى ، وما أنشأته من نظم وجماعات محاربة ومستعمرة . وتنتهى هذه الفترة التاريخية بظهور تحولات وتغيرات تاريخية وسياسية واقتصادية هامة ، سارت مع إزدهار التجارة وتزايد قيمة العملة مع المراكز البحرية ، ومعرفة أهمية تجارة الشرق الأقصى ، ونشأت الجمهوريات التجارية فى جنوب أوربا وبدء عصر الرأسمالية .

وخصصت الباب الثالث لعصر النهضة وغزو أوربا للعالم وتوسعها فيه شرقاً وغرباً ، فمن كريستوف كولمب الى غزو الهند الغربية واكتشاف أمريكا والعمل على استغلال موارد هذه القارة ، ونشأة تجارة تصدير العبيد الى العالم الجديد للعمل فى المزارع . ومن رحلات البرتغاليين حول رأس الرجاء الصالح والوصول الى الشرق ، وعملهم على استغلال هذه الثروات واحتكارها لانفسهم .

أما الباب الرابع فقد خصصته لعصر الشركات الاستعمارية ، من هولندية وبريطانية وفرنسية ، ونظام عمل هذه الشركات ومناطق عملياتها وتأثيرها على المناطق التى عملت فيها ، وتاثيرها كذلك على الاقتصاد العالمى وظهور الروح التجارية .

وتحدثت فى الباب الخامس عن تأثير الفكر الجديد والثورات البرجوازية على النظام الأستعمارى ، وبعد ظهور الفلاسفة الممهدين واتخاذهم موقفا خاصا

من الإستعمار فى القرن الثامن عشر وقفت فرنسا موقفا خاصا تجـاه فقـدها لكندا ، أما الولايات المتحدة فانها قد نشأت نتيجة لإعلان الثورة الامريكية وإعلان الاستقلال عن بريطانيا . وختمت هــذا الباب بشرح نتائج الثورة الفرنسية والتغيرات التى وقعت فى أوربا فى عصر نابليون على النظام الاستعمارى وخاصة ، فى أمريكا اللاتينية ، وظهور مبدأ منرو فى أمريكا الشمالية.

أما الباب السادس فقد خصصته للامبراطوريات الجديدة التى ظهرت مع التسلطية فى القرن التاسع عشر ، وتقسيم العالم وتغلغل الاستعمار فى أفريقية والمحيط الهادى وظهور الامبريالية الامريكية .

وختمت الكتاب بالتحدث عن غروب الاستعمار الاوربى فى القرن العشرين ، نتيجة لإنهيار الغرب وفقره ، وظهور حركات الكفاح الوطنى والتحرر ، ومحاولة الدول الاستعمارية تطوير إستعمارها ، وتغيير لون اســـتغلالها ، واحتفاظهـا بالامتيازات الاقتصادية ، حتى وإن كـان ذلك يؤدى الى الاحتفاظ بمعظم شعوب وسكان العالم فى حالة من التخلف واضحة .

وأرجو أن يقوم هذا الكتاب بسد نقص فى المكتبة العربية ، وأن يفيد القارىء والباحث والدارس ، وما توفيقى إلا بالله .

الاسكندرية فى ٣ فبراير سنة ١٩٦٥

جلال يحيى

فهرس الكتاب

صفحة

الباب الثانى

صفحة

الباب الثالث

صفحة

الباب الرابع

صفحة

الباب السادس

صفحة

الباب السابع

الباب الأول

الاستعمار فى العصور القديمة

الفصل الأول

بداية الاستعمار

ظلت الأرض فى حاجة إلى من يقوم باستعمارها طوال العصور التى خلت فيها من الإنسان . فكانت ميداناً للأسماك والزواحف ، ثم الفيلة والخيول ، ثم الغزلان والقردة إلى أن ظهر الإنسان . ولقد أعمل الإنسان فكره وأيديه ، وتمكن من أن يسلح نفسه بالنار وبالأسلحة البدائية ، فاكتشف ـ شيئا فشيئا ـ أنه سيد هذه الأرض ، وعرف أنها تخضع له . وإنتقل الإنسان من مكان لآخر ، وشنت جماعات منه هجمات على جماعات أخرى ، وبدأت فكرة الاستعمار فى الظهور . فما هى الأشكال الأولى لهذا الاستعمار ؟ وفى أى منطقة ظهرت قبل غيرها ؟

(١) الاشكال الأولى للاستعمار :ـ

لا يمكننا أن ندعى أن إنتزاع الأقاليم الشاسعة من سيطرة الحيوانات المفترسة ، أو الطبيعة القاسية ، والسكن فيها أو إحتلالها ، هو استعمار لها وخاصة فى فجر التاريخ ، ذلك أن تغير المناخ كان سبباً أساسياً أجبر الإنسان على الانتقال من مكان لاخر . فاضطر الإنسان إلى ترك الغابات والإلتجاء إلى الكهوف، كما اضطر إلى ترك الكهوف والإلتجاء إلىالسهول واضطر إلى ترك منطقة إزداد جفافها إلى منطقة مروية .

وحينما تحولت غابات شمال إفريقية إلى سفانا وتحولت السفانا إلى إقليم إستبس ، هاجرت حيوانات الرعى صوب الشمال ، وتبعتها الشعوب الإفريقية ، وسكنت حوض البحر المتوسط ولا شك أن أسبابا مماثلة أجبرت قبائل آسيا على الرحيل صوب أوربا وأمريكا ، وعلى مراحل ، وببطء ، وفوق معابر طبيعية هى البرازخ والأرخبيلات . فانتشر الإنسان على القارات . أما أسباب هذه التحركات والهجرات فهى الحاجة الى الماء وإلى الشمس ، وبالنسبة الى لجماعات الصيد ، فهى تتبع الفريسة والبحث عن أراض ومناطق جديدة للصيد ، وبالنسبة لجماعات الرعى فهى ضرورة العثور على مراعى جديدة لأغنام إفريقية وعجول أسيا . إن هذا الإنسان فى حركته وانتقاله لا يستعمر ، ولكنه ينتشر . ومن الضرورى أن يتوطن هذا الإنسان فى مكان معين ويبدأ فى فلاحته حتى يتحول إلى مستعمر (١) .

وكانت درجة الاستقرار فى أمكانها الأولى نسبية الى درجة بعيدة، ذلك أن الإنسان لم يكن يعتمد على حراثة الأرض ، وكان لا يعرف استخدام الأسمدة ، فاضطره ذلك الى الانتقال بحثا عن أراض أخرى خصبة ، بعد أن تجهد قطعة الأرض التى يقوم بفلاحتها . وكان التكاثر وزيادة الأولاد تجبره على توسيع رقعة أرضه ، أو على إرسالهم لا ستغلال قطع أخرى ، فوجد نفسه ، دون أن يشعر ، يقوم بعملية الاستعمار . وإذا كانت الأراضى الخصبة فى أيدى الغير ، فليس معنى هذا أنه كان يقنع بما لديه . فنشأت

(١) إن كلمة كولونيا Colonia اللاتينية تعنى مزرعة ، أى مسكن تحيط به ارض فلاحية .

الحرب من التنافس على أجود الأراضى ، وأصبح « الغـازى » يستعمر الأراضى التى يستولى عليها بالقوة. أما المغلوب على أمره، فكان ينتقل بدوره الى أراض جديدة ، وفى مناطق أخرى .

ومع حروب القبائل مع بعضها بدأت عملية أخذ الأسرى . وكان من المنطقى قتل هؤلاء الأسرى ، ولكن سرعان ما بدأ الغالب فى التفكير فى استغلالهم فى العمل ، فظهرت العبودية والاسترقاق . وهذه الظاهرة الاجتماعية، مثلها مثل الاستعمار ، لم تنتشر إلا فى عهد الزراعة . ولم تكن القبائل التى تعيش على الصيد أو جمع الطعام فى حاجة إليها، أما الزراعة فقد استتبعت استغلال الأرض ، واستغـلال القوى البشرية الموجودة على الأرض ، فى استغلال الأرض نفسها .

وهكذا يمكننا القول بأن « الهجرة » كانت تعنى انتقال جماعة بشرية إلى أراض خالية أو السكن فيها مع قبيلة متنقلة . ويمكن أن يكون الشعب المهاجر نفسه من الرحل ، الذين يغيرون المنطقة التى يتنقلون فيها ، أو من المتوطنين الذين يغيرون أماكن إقامتهم . وهذه العملية بطيئة ، وقد تتم على مدى أجيال متعددة ، أو حتى على فترة قرون . وكان المهاجر فى أول الأمر ينتقل على رجليه ، مستعينا ببعض دواب الحمل ، وعبر طبيعة معادية ،وكان يسير بدون هدف محدد ، وإن كانت مجارى الأنهار ، وتتبع قرص الشمس فى حركته اليومية صوب الغرب ، قد عملت على توجيه خطواته .

أما « الغزو » فكان يمثل شكلا آخر لانتقال الانسان . ذلك أن

الهجرة كانت تنتهي باحتلال سلمي ، أما الغـزاة فكانوا يتغلبـون على مجتمعات مستقرة ، وكان الغزو يعني استخدام العنف والأسلحة ، والاستيلاء على الممتلكات . ويضطر شعب الاقليم المهزوم الى ترك إقليمه ، وربما يهلك في عملية الغزو . وقد يكون الفرق في المعنى بين الهجرة والغزو بسيطا للغاية ، ويمكننا أن نصل من الظاهرة الأولى الى الظاهـرة الثانية ، فنجـد أن هؤلاء المهاجرين الذين يتوطنـون سلمياً في إحدى المناطق يقومون بالاستيلاء عنوة على منطقة ثانية مجاورة ، أو نجد أن عملية الهجرة نفسها تتحول إلى عمليات غزو ، كما يمكن للغزو أن يؤدي الى عمليـة هجرة ، بعد استيلاء الغزاة على إحدى المناطق ، واجبارهم أهلها على الخـروج ، والبحث عن موطن آخر لهم .

وعلى أي حال فلا يمكننا أن نتحدث عن الهجرات والغزوات كعمليات استعمارية إلا اذا كانت عملية الاستعمار تأتي بعدها بالفعل . ويتطلب هذا من الغزاة أن يعملوا على سيادة السلم والأمن ، وأن يتحول المحـــارب الى مزارع . ويصعب علينا أن نفـرق في العصـور التاريخية الأولى بين الغزو والاستعمار ، وبين الغزاة والمستعمرين ، سواء استندنا في ذلك إلى الأسباب أو الأشكال أو النتائج الخاصة بهذه الحركات . والمهم هـو أنه ممكن « للهجرة » أن تتحول إلى عملية « غزو » اذا ما أخذت الجماعـــة المتنقلة شكل وتنظيم جيش ، ويمكن « للغـزو » أن يتحـول إلى « استعمار » اذا ما تبعت الجيش ادارة مستعدة لاستغلال البلاد المفتوحة .

ويمكننا أن نجد تشابها واضحاً بين عمليات الانتقال البشرية في الآلاف سنة الأولى من العصـــر التاريخي . أما أسبابها فهي مشتركـة ومن أربعة أنواع :ــ

فهناك الأسباب الطبيعية التى تتعلق بتغيرات المناخ ، والمناطق الثلجية ، وامتداد مناطق الجفاف ، والتى تتعلق بالحوادث المحلية من فيضانات الأنهار أو ثورة البراكين . وهناك الأسباب الديموجرافية التى قد تجبر جماعة يتزايد عددها على التفكير فى ضيق المجال الذى تعيش فيه ، وبالتالى على البحث عن « مجال حيوى » سواء أكان هذا المجال خاص بأعشاب الرعى ، أو بحقول الزراعة ، والمواد الأولية اللازمة لها .

وهناك الأسباب السيكولوجية التى قد تتعلق بالموت أو الفشل والتى قد تجعل القبيلة تفكر فى تغيير هذا المكان ، والأسباب التى قد تتعلق بحب المغامرة والأمل فى الحصول على ثروات جديدة . وسواء أكان الدافع هو الخوف أو القلق أو الطموح فالنتيجة واحدة ، وهى أن الجماعة تتحرك . وأخيرا فهناك الأسباب التقنية التى تتعلق بتطور وسائل النقل، من استخدام المجداف إلى الشراع والقوارب فالسفن ، ومن ترويض الحيوانات للركوب والنقل ، ومن استخدام العجلات والعربات ، ومن اكتشاف الطرق البرية والبحرية والرؤوس والمضايق التى تسمح بالعبور من بحر لآخر ، والتيارات المائية التى تسهل سير السفن ، والممرات التى تساعد على اجتياز سلاسل الجبال . ونجد أن الغزاة والمستعمرين كانوا يبدؤن رحلتهم عازمين مصممين وينتهون منها كمؤسسين لأمبراطوريات .

(٢) مصر الفرعونية : —

بدأ التاريخ القديم على ضفاف النيل ، بعد أن استقر فيه سكان إقليم السفانا ، فى العصر الحجرى المتوسط ، وتحولوا إلى مزارعين . ومع هذه الهجرات القادمة من الجنوب والشرق بدأوا فى استخدام المحراث وزراعة

القمح والشعير والنيل ، ثم استخدموا البرونز فى صناعة الحراب والخناجر .
وبعد ذلك عرفوا الحديد والخيول من شعوب منطقة الشرق الادنى القديم .
وبعد قرنين من الخضوع لسيطرة وحكم الهكسوس ، أفادت مصر من الحديد فى صناعة السهام ومن سرعة الخيول فى جر العجلات الحربية ، وفى سهولة تحرك وحداتها المحاربة . وبعد أن كانت مصر تعيش داخل حدودها ، نجد أنها قد تسلحت واستعدت لغزو الأقاليم المجاورة .

وكانت الادارة فى مصر القديمة قوية البنيان ، لها رئيس واحد ، هو الملك ، الذى كان يمثل فى نفس الوقت الإله والمالك لها ، وتجتمع فى أيديه كل السلطات . وكانت الادارة المركزية تتمثل فى قصر الملك ، فنجد حولة الوزراء الذين كانوا يلقبون أنفسهم بفم الملك ولسانه وأعينه وآذانه ، وتتوزع حولهم المكاتب والادارات المالية والمخازن التى يشرف عليها كتاب مهرة ، ومحاسبون ممتازون ، وحراس أقوياء . وكان التنظيم العام يمثل حضارة جماهيرية ، كما هو الحال فى معظم الامبراطوريات الأولى ، ولم يكن للفرد فيها أية أهمية أمام الطبيعة المعادية القاسية ، كما لم يكن فى وسع القبيلة وحدها أن تقوم بأستغلال إقتصاد مناطق شاسعة . وكان النيل هو مورد الحياة بمائه وفيضانه وطميه ، وكان من الضرورى أن يفكر المصريون فى شق الترع وتطهيرها وتوزيع المياه ، واحتاجوا فى ذلك إلى تنظيم جماعى ، وتطلب هذا التنظيم بدوره وجود فرعون ، ووجود امبراطورية.

ولم تكن رغبة التوسع الاستعمارى هى الحافز الذى دفع الفراعنة إلى العمل على السيطرة على فلسطين وسوريا ، بل لقد قام الفراعنة بهذه العملية بعد التخلص من الهكسوس ، ولأسباب تتعلق بأمن البلاد . ونجد من بعدهم

أن البطالمة ثم الجنرال بونابرت قد قاموا بعمليـــات حربية مماثلة ، ولنفس الغرض ، إذ أن باب مصر الوحيد كان هو برزخ السويس ، وكان تحصين هذا الجانب يستتبع السيطرة على الأقاليم المجـــاورة . ولم يرسل الفراعنة قواتهم إلى سيناء من قبـــل ، إلا لحمايه عملية استخراج النحـاس ؛ كما أن المصريين لم يصلوا إلى الأقاليم الساحلية من الشـام إلا لشراء الأخشـاب. أما الان فقد وصلوا اليها فى شكل غزاة ، ولاسباب تتعلق بأمن بلادهم ، بعد تحريرها من حكم الهكسوس . وكان النحاس والخشب من المواد الاولية اللازمة لمصر . ولقد أثر نقص الخشب فى مصر ، على تطـور مصر نفسها وعدم إنشائها اسطولا بحرياً ، وبالتالى على عدم توسعها فيما وراء البحار . وهكذا نجد أن الامبراطوريات المصرية كانت امبراطوريات برية

ولقد إعتز الفراعنة بانتصاراتهم وبغزواتهم فى أول الأمر ، فأعتمـدوا على قواتهم السودانية ، وثبتوا أقدامهم فى هذه المناطق ، معتمدين على القوة، ولم يسمحوا بأية معارضة مادية أو معنوية . فنجـد أن تحتمس الأول قد إفتخر بأنه فتح الاقاليم التى جهلها الاجداد ، ووصف وصوله إلى الفرات بأنه إكتشاف لم يصل اليه ملك من قبل ، فأنتشر اسمه فى كل أرض ، وأقسم به الاهالى فى كل إقليم ، واصبحت الارض كلها تحت أقدامـــه . ونقش تحتمس الثالث على معبد الكرنك العبـــارات التى وجهها الإله آمون له بأنه منحه الارض بطولها وعرضها ، وبأنه أمره بمد حـكمه على البـلاد ، حتى تأتى كل الشعوب وتنحنى أمام « جلالته » . ولـــكن سرعان ما أكتشف

الفراعنة أصول الاستعمار وقوانينه ونظمه ، وظهروا وكأنهم قد أصبحوا أساتذة الاجيال التالية فى هذا الفن ، فأصبح حكمهم العسكرى مقنعا، وأعتمد على بعض الحاميات فى المواقع الاستراتيجية الهامة ، وقدم الأهالى الجزء الأكبر من جنود هذه الحاميات، بينما إقتصر دور المصريين على تدريبها وقيادتها. أما إدارة المناطق المفتوحة فقد تركها الفراعنة فى أيدى الرؤوساء المحليين ، محترمين بذلك عاداتهم وقوانينهم ولغاتهم ودياناتهم . وظهرت هذه الاقاليم وكأنها خاضعة لمجرد « حماية » فرعونية ، تعمل على أستتباب السلم والنظام، وتساعد على زيادة التبادل التجارى ، وتفيد كل من سوريا وفلسطين . ولكن تلك السياسة لم تمنع الامبراطورية من الإفادة من أهالى النوبا فى الجيش والإفادة من أخشاب وحيوانات وجلود وعاج هذه المنطقة ، ولم تمنعها من الأفادة من القمح والفواكه والزيوت والأنبذة والاخشاب الشامية، التى كانت تصل اليها، ومعها جزيه هامه فى كل عام.

وكان الفرعون حاكما مطلقا ، يحكم شعبا يتساوى أفراده فى ضرورة العمل والإنتاج ، وفى علاقتهم بالحاكم . وكان الفرعون يحضر الى مصر أبناء رؤساء الاقاليم الخاضعه له ، حتى يتم تعليمهم ، ثم يعيد ارسالهم الى مناطقهم . فكانوا يخاطبون الفرعون بعد ذلك بأنهم خدام الملك ، وكلاب قصره ، وأنهم يحرسون البلاد له . وكان القصر الفرعوني يرد عليهم آمراً إياهم بضرورة حراسة مدينة الملك التى يقومون بحكمها ، ويحذرهم من أن قواته وعرباته فى أحسن حالة ، وعلى أتم إستعداد . . . وحتى إذا كانت هذه العبارات هى مجرد اسلوب للتخاطب فى هذا العصر ، فان ذلك لا ينفى أهمية الألقاب والسلطات التى منحها الفرعون لنفسه ، أو النظرة التى كان ينظر بها اليه حكام الاقاليم الخاضعة . وحينما أعلنت بعض هذه الاقاليم الثورة فى عهد تحتمس الثالث ، قام هذا الفرعون بالقضاء عليها ، وعاد منها

بالخيول والعربات والسهام والنساء والعجول والاواني . وبكميات وأعداد كبيرة .

وهذا المثـــل الاول للاستعمار سنجده يتكــرر بعد ذلك عبر عصور مختلفة ، ويظهر وكأنه حكم متحرر ، وإن كان في حقيقتـه يحمل معنى الاستغلال والكبت ، وتحتفظ فيـه الدولة المحمية بحكم ذاتي ظاهري، رغم أن مواردها الاقتصادية ونظمها وعـلاقاتها السياسية تـكون تحت اشراف الدولة الحامية

(٣) الشرق الادنى القديم :ـ

ظلت العلاقات ضعيفة ، ولمدة أجيـال طويلة ، بين وادى النيل وبلاد ما بين النهرين ، وساعد ذلك على تطور الحضـارة في كل من هذين المهدين ، دون أن يتأثر هذا التطور في عصوره الأولى ، في المنطقة الأولى ، بالتطور الذي حدث في المنطقة الثانية . وتعاقبت الشعوب وتتالت الامبراطوريات في المنطقة الممتدة من البحر المتوسط إلى الخليج العربي ومن البحر الاسـود إلى البحر الأحمر دون أن يتمكن التاريخ من تحديد دور الاستعمار في هـذا الخليط من الشعوب والدول والامبراطوريات .

وبينما كان النيل يعطي لمصر وحدتها وشخصيتها القومية ، كانت منطقـة الشرق الادنى تمثل التقاء للقبائل النازلة من جبال القوقاز ، مـــع تلك التى تزحف من جوف الصحراء العربية ، ومن العناصر الآتية من سواحل بحر إيجه أو من مرتفعات هضبة إيران . وكانوا في مجموعهم يبحثون عن مناجم الذهب ، ومناجم النحاس ، والاراضي الخصبة في بلاد النهرين . وسـمح ذلك بنمو امبراطوريات مزدهرة حول المدن ومراكز الاستقرار والانتاج.

فنشأت سومر مرتكزة على أور ، وأكاد على المدينة التى تحمل نفس الإسم ، وحكمت بابل امبراطورية واسعة ، وكذلك الحال بالنسبة لامبراطورية الحيثيين وامبراطورية أشور . ثم أخذت كل من هذه الامبراطوريات فى التوسع ، وفى كل اتجاه .

وكان تسلط سومر وامبرياليتها تسلطا بيروقراطياً ، اشرف فيه الموظفون على استغلال الوديان : أما تسلط آكاد فكان يعتمد على الدين ، ما دام الملك يعتبر الإله فى نفس الوقت الذى هو فيه ملك . أما تسلط بابل ، الذى امتد من الخليج العربى حتى الشام ، فكان يستند إلى الدين والى الادارة معاً ، ما دام يركز كل شىء فى « باب عيلو » أو باب الرب ، عاصمة الامبراطورية . وكان الملك هو المسؤول عن العدالة وعن النظام ، ويشرف إشرافاً تاماً على الأقاليم الخاضعة عن طريق موظفين يقوم باختيارهم بنفسه ، وينقلهم من اقليم لآخر ، أو عن طريق امراء محليين . وكان الملك يمنح الجنود والموظفين إقطاعات زراعية ، ومن الأملاك الملكية . أما تسلط الحيثيين فقد إمتد من منطقة الأناضول إلى منطقة السهول الجنوبية ، ومن البحر الاسود صوب الفرات . وكان فرسان تراقيا الأندو أوربيين قد فرضوا انفسهم على مجموع الحيثيين ، وكونوا قياداتهم العليا ، وتمكنوا لمدة قرنين من إنشاء امبراطورية ارستقراطية واقطاعية حاول الملك فيها أن يتشبه بفرعون مصر ، دون أن يستند إلى نفس التشكيل الاجتماعى المنبسط الموجود فى مصر . وكان يعتمد على مجموعة من الفرسان ، ويقوم باستغلال الاراضى ويوزع أعمال السخرة ويستلم المحاصيل والموارد علاوة على الجزية التى يدفعها له عشرة ملوك تابعين . وأما تسلط آشور فكان حربياً فى أساسه وأخضع منطقة كبيرة تمتد من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى واشتملت

على مصر نفسها . وكان التنظيم فيها أقل مركزية من الأمبراطوريات التى ورثتها ، خاصة وانها كانت قد إتسعت واشتملت على قبائل غير مستقرة ، وتحتفظ بالعادات الخشنة لأبناء الصحراء أو الجبال . فعمدت أشور إلى اخضاعهم بالقوة ، والسيطرة عليهم بالخوف ، مادامت سلطتها الادارية غير كافية ، أو معلوماتها عن إدارة الاقاليم الأخرى غير ناضجة . فكان استعمار آشور من أفظع الأشكال ، وحكم بالحرائق ، والتخريب والنهب والسبى والقتل . وكان ينقل الأهالى من منطقة إلى أخرى ، او يقضى عليهم فى اما كنهم : فنجد ان الكلدانيين يستقرون فى صيدا ، والآراميين فى بابل . وكان على كل شعب مغلوب ان يدفع جزية باهظة لأشور ، ويمد جيوشها بالرجال . وكان الكل يخشاها ويكرهها .

وبين هذه التحركات والتقلبات الامبريالية نجد ان الساميين قد بدؤا فى الظهور فى التاريخ مع خروجهم من رمال الصحراء ، واستعدادهم للوصول الى السواحل السورية او إلى مصر . واعتزت احدى جماعاتهم بنفسها ، وأصرت على ان يكون طموحها له لون إلهى . إنها جماعة العبرانيين التى تعتقد فى وجود إله واحد ، والتى تعتقد أنه قد وعدها أرضاً تستعمرها حتى ينهى بذلك عهود تنقلها وتشردها . وتذكر كتبها المقدسة ان الله قد وضع آدم فى الجنة حتى يقوم بفلاحتها . وتذكر كذلك انه قد طرده بعد خطيئته من الجنة حتى يقوم بفلاحة الأرض التى خلقه منها . فهى جماعة تأمل فلاحة الأرض ، وتضعها اساسا لتطور الخلق ، منذ بدء الخليقة ، وأملا لها فى الاستقرار ، وإن كانت عوامل اخرى -اجتماعية واقتصادية- ستسمح لهم بالعمل فى التجارة ، فى الوقت الذى يستمر فيه المزارع فى تفليح الأرض ، كما سنرى فيما بعد . والمهم هو ان هذا الفكر السياسى ، اوالدينى ، قد انتشر

مع العبرانيين او اليهود ، فى الوقت الذى انتشروا فيه فى منطقة الشرق الأدنى .
وبعد ذلك جاءت قصة نوح ، الذى اخذ معه زوجته واولاده وزوجات
اولاده ومن كل جنس اثنين ، وفى سفينته ، حتى يتمكن من استعمار
الأرض كلها بعد نهاية الطوفان ، وبأمر الله . وتستمر الاوامر اليهم مع
ابراهيم لاستعمار الاراضى الممتدة من النيل إلى الفرات . ويطلب موسى من
ربه ارضا خصبا يعيشون فيها ، ولكن الاراضى الخصبة لم تكن خاوية ،
فتتوالى النبوءات بأن الله سينصر شعبه المختار ، فى كل ميدان ، وعلى كل
شعب ، ويحكمه على الممالك والامبراطوريات . أنه استعمار وتسلط بأمر إلهى
وعلى الشعب المشرد المتنقل أن يؤمن به ، ويقوم بتنفيذه . ومع هذه
الاوامر بدأ إعتزاز أبناء هذه الجماعة بشخصيتهم ، رغم ضعفهم ، وبدأت
النزعة العنصرية الواضحة فى عقيدتهم وفى سياستهم الاستعمارية . ورغم ذلك
فلم يتمكنوا من تنفيذ هذه الاوامر الالهية إلا بعد ثلاثة آلاف سنة ، وفى
منطقة صغيرة من فلسطين ، وفى ظروف خاصة .

(٤) الشعوب المتحركة والشعوب المستقرة :—

إذا كانت بعض الشعوب والجماعات تعتقد أن عليها واجبا مقدسا
لاستعمار العالم ، فان غيرها تعيش راضية بحالها منطويه على نفسها قانعة بحظها .
ومهما تعمقنا فى العصور التاريخية الاولى للصين فاننا نجد أن أهلها قد
استقروا فيها وعبدوا أرضهم وربطوا بينها وبين مقدسات معينة . وكان
لكل اقليم إله ، وربما لكل جبل ولكل نهر ، وأثر ذلك فى ارتباط الصينيين
بالارض ، وارتباط الارض بالمعتقدات .

والصينيون مزارعون منذ أقدم عصور التاريخ ، وقاموا بقطع الغابات

وتفليـــح الارض مكانها ، كما قاموا بتجفيف المستنقعات واستغلالها فى الزراعة . وهم صبورون مواظبون يعيشون مع فصول السنة ، وما يتطلبه كل فصل من اعمال زراعية معينة . وفى نفس الوقت الذى تربط المعتقدات الصينيين بأرضهم ، تربطهم نفس المعتقدات بالاباء والاجداد . ولما كان الاموات يعتبرون دائما على انهم اعضاء فى الاسرة ، فقد كان على الاحياء أن يحافظوا على قبورهم . ومنع ذلك الارتباط الصينيين من الهجرة . وكانت هذه المعتقدات تناسب شعبا مستقرا ولا يرضى بالاستقرار بديلا ، ولكنها ساعدت على تأكيد عزلة الصين عن غيرها ، فأصبحت الصين تمثل عالما قائما بنفسه ، وساعدت الصحارى فى الشمال والغرب على منع أى توسع فى الخارج ، أما فى الجنوب فان الجبـال المرتفعة كانت تسد الطريق ، وكان المحيط فى الشرق يخيف هؤلاء المزارعين ، ولذلك فان الاستعمار الصينى لن يحدث إلا فى الصين نفسها . ولكن الصين ستشهد مجىء جماعات اليها من اقاليم المراعى ، ويحاولون حظهم معها ، ثم ستشهد بعد ذلك محـاولات الاوربيين استعمارها.

وليس معنى هذا انه لم يكن هناك استعـمار صينى ، بل أن أهل الصين سيحاولون زيادة التوطن فى وديان الانهار الكبيرة ، واستغلال الاقاليم المتطرفة . وبدأت مجموعات من المتوطنين فى الاتجاه صوب الجنوب والنهر الازرق بقيادة الشانج ، وإزداد عدد الاهالى وظلت الصين دائما هى الصين .

أما الهند فكانت مختلفة قليلا عن الصين . وإذا كانت جبال الهملايا تسد الطريق أمام الهنود صوب الشمال ، فان المحيط لم يكن يخيفهم بنفس الدرجة التى كان يخيف بها جيرانهم الصينيين ، ولذلك نجد أن الهنود يرتبطون بالارض ، ولكن بعض بحـارتهم يقومون بدراسة الرياح ،

ويتعلمون الطرق المؤدية إلى الهند الصينية ، والى جزر التوابل . وقبل أن يذهب الهنود الى بلاد أخرى ، نجد أن غيرهم قد أتى اليهم ، خاصة وأن سهول السند والكنج كانت أسهل دخولا على الجماعات الخارجية من منطقة النهر الأصفر ، كما أن الصلات كانت قد بدأت فى الوصل بين حضارة السند وحضارة ما بين النهرين . ثم جاءت بعد ذلك غزوات الآريين ، الذين لم يكونوا إلا فرعاً من فروع هذه الشعوب المتنقلة على ظهور الخيل ، بين القوقاز والبحر البلطى ، ومن بين الاورال والدانوب . وربما كانت هذه الجماعات الهندية الاوربية من أصل واحد ، ولكن الثابت أنها كانت تتكلم مجموعة من اللغات لها أصل واحد . وكانت قد تنقلت فى السهول وتمكنت من ترويض الخيل للركوب ولجر العربات . وكانوا من الرعاة الذين يحسبون ثرواتهم بعدد رؤوس قطعانهم أو خيولهم ، ولكنهم كانوا يعرفون زراعة الارض وطحن الغلال . وبينما كانت القبائل السابقة لهم فى المنطقة تدفن موتاها ، نجد أن الآريين يقومون بحرق جثثهم . وكانت عادة الدفن تربط الاحياء إلى جوار قبور الموتى ، بينما سمحت عادة حرق الجثث بتحرير الاحياء ، وذلك بتمكينهم من حمل رماد الاباء معهم ، أو لدلالة على قلة إهتمامهم بالاجساد . ومنذ اليوم الذى تعلم فيه الاريون ركوب الخيل وأستخدامها فى جر العربات ، نجد انهم قد بدؤا فى الانتقال والهجرة إلى آفاق جديدة .

أتى الآريون فى الهند ، ويحضرون معهم نظمهم وحبهم للطبقات الاجتماعية التى تؤدى إلى ظهور الطوائف . فهناك رجال الدين والمحاربون والمزارعون من الآريين ، وهم لا يندمجون مع بقية الشعب ، غير الآرية : لكل طبقته ، وإمتيازاته .

أما فى الغرب فنجد أن جماعات هندية أوربية أخرى قد واصلت حركتها، واحتلت مناطق غير آهلة ، أو تغلغلت فى مناطق مسكونة ،وعاشت بين أهلها أو أخذت منها مكانها بالعنف . فانتشرت فى سهول الروسيا ، وجاءت الى مشارف بلاد النهرين ، وعرفت باسم الميديين والفرس ، وانتشرت فى آسيا الصغرى وأرهبت الحيثيين ، وذهبت إلى اليونان وايطاليا وبقية اوربا ، وحتى المحيط الاطلسى ، وعرفت باسماء الصقالبة والجرمان والقوط .

ولكن ، أهى هجرة ؟ او غزو ؟ أو إستعمار ؟ الواقع أن كلمة واحدة لا يمكنها أن تدل على ظاهرة إنسانية ، استمرت تعيش وتتفاعل مدة ألف سنة أو ألفين . لقد بدأت الحركة فى شكل هجرة ، ولكنها أخذت شكل غزو أن عدة غزوات . ولا شك فى أنها لم تتحول الى إستعمار بالمعنى الحقيقى ، اذ ان العناصر الهندية الأوربية كانت منتشرة فى مساحات واسعة، ولم يكن لهم « وطن أم » يحتفظون به ، ولم يقوموا بانشاء امبراطورية منظمة . ورغم انهم لم يستعمروا ، إلا أنهم كانوا اجداد المستعمرين فى العصور الحديثة . ولقد تركوا لاحفادهم الخيل ، وتركوا لهم فكرة عدم المساواه بين العناصر البشرية ، وضرورة سيطرة القوى على الضعيف . واذا كانت هذه الفكرة قد أدت الى ظهور نظام الطوائف فى الهند ، فانها كانت تساير نظام الأسرة عند اليونان والرومان ، والسلطة الابوية المطلقة وخضوع الشعوب « الحليفة » للشعب المسيطر ، كما كانت تساير تقسيم المجتمع الى طبقات ، وتقسيم الأعمال والحرف الى نقابات ، وخضوع المرأة للرجل ، وخضوعهما سويا لله .

كانت هذه النظم الاجتماعية مواتية ومشجعة على الاستعمار ، ذلك

ان المستعمر كان فى حاجة الى الاعتقاد فى انه متفوق على المستعمر ، وفى حاجة الى الشعور بالتفوق ، والاستناد الى الطبقات . ولقد قام احفاد الجماعات الهندية الأوربية باستعمار العالم ، وعلى هذه الاسس .

الفصل الثانى

المراكز البحرية

تحدثنا حتى الآن عن هجرات برية . ولكن سرعان ما يظهر أن هناك طريقين ممكنين ، وأن هناك الطرق البحرية ، علاوة على الطرق البرية ، وأن السفينة وسيلة من وسائل الانتقال ، وتختلف تماما عن الخيول . فنرى أن البحارة فى هذا الطريق الجديد يأخذون مكان الجنود ، وأن التاجر يأخذ مكان المزارع . ونجد مستعمرات بعيدة منفصلة عن الوطن الأم ، وفيما وراء البحار ، تأخذ مكان الأقاليم المجاورة للوطن الأم ، والمتصلة بها بريا . ويمكننا أن نقول أكثر من ذلك ، أننا نجد بدلا من المؤسسات والمنشآت الرسمية ، التى يخلقها ويديرها ويشرف عليها أحد الفراعنة أو الأباطرة أو الملوك أو الدول ، نجد بدلا عنها مؤسسات ومنشآت قد تكون خاصة ، وقد تقوم بها بعض الجماعات أو عدد من الأفراد ، ولحسابهم ، أو حتى لمجرد المغامرة ، والبحث عن مكاسب جديدة ، وآفاق أوسع .

وفى نفس الوقت الذى تنشأ فيه الامبراطوريات البرية حول مصر وسومر وفى الصين ، تنتشر الحضارات البحرية والتجارية . ونجد أن أقدمها هى الحضارة الإيجية ، ومركزها كريت ، وسرعان ما يأتى بعدها الفينيقيون ، وابناء قرطاجة ، ثم اليونانيون .

(١) تجار كريت :-

وتظهر جزيرة كريت عند مدخل بحر إيجه كسفينة راسية تتجه مقدمتها نحو بلاد اليونان ، ومؤخرتها صوب آسيا الصغرى ، ويوازى جانبها الساحل الإفريقى ، وتظهر فى مركز متوسط بين أوربا وآسيا وإفريقية. ولقد ساعدتها الطبيعة على أن يكون إتجاهها بحرياً بحكم موقعها ونظراً لوجود الغابات والأخشاب اللازمة لبناء السفن فيها ، ولوجود مراسى وموانى طبيعية فيها ، تساعد على حماية أساطيلها . وكانت سفن كريت تبلغ حوالى عشرين متراً فى الطول ، وتتوسطها سارية واحدة ، تحمل شراعين ، يساعدان على دفع السفينة بمجاديفها العشرة . ولقد تطورت هذه السفن مع الزمن ، وتزودت بساريتين أو ثلاثة ، وأصبحت ذات طوابق متعددة ، وقام بالتجديف فيها حوالى الثلاثين ، يجلسون فى قاعها . ولم تكن هذه السفن مريحة أو مهيأة لأعالى البحار ، ولكنها كانت كافية لنقل السلع ، والتنقل من خليج إلى آخر.

ولقد تنقلت هذه السفن الكريتية من جزيرة لأخرى ، وعلى طول السواحل ، وإجتذبتها البلاد المتحضرة فى الجنوب والشرق ، كما اجتذبتها الأقاليم الفقيرة والمتخلفة فى الشمال والغرب . وجد تجارة الكريت الثروات فى مصر ، وفى سوريا التى بدأت تتعلم من مصر ، وفى طروادة ، التى إزدهرت الحياة فيها فى فترات مختلفة ، وأما الأقاليم الفقيرة فكانت تتمثل فى بلاد اليونان ، والحوض الغربى للبحر المتوسط . ولم يهمل أبناء كريت أية منطقة ، فتزودوا من البلاد الفقيرة والمتخلفة بالمواد الأولية ، وذهبوا لبيعها فى البلاد المتقدمة . وساعدت هذه العمليات على نمو روح المتاجرة عند أهالى كريت.

نقلوا المعادن والأحجار الكريمة والعاج ، وأستبدلوها بالأوانى والحلى والأسلحة والمنسوجات ، وأضافوا إلى ذلك منتجات بلادهم الأصلية من زيت ونبيذ. وعلمهم كل ذلك استخدام الموازين والمقاييس والحساب ، علاوة على كونهم من البحارة . نقلوا إلى مصر أخشاب لبنان وإلى اليونان الفخار المصرى وعاج النوبة ، وإلى سردينيا نحاس قبرص . ووجدوا الفضة فى اسبانيا ، واشتروا منها القصدير الذى كان يصل إليها من بريطانيا ، والذى كان لازما لصناعة البرونز ، فى بلاد الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وانتشرت سفنهم فى مراسى الشام واليونان والبحر الادرياتى وصقلية وسردينيا والبليار ، ومنها إلى اسبانيا ، متنقلة من ميناء إلى آخر . وكان أبناء كريت يفضلون إرساء سفنهم عند الجزر القريبة من الساحل ، بدلا من إرسائها على الساحل نفسه ، وفعلوا ذلك عند الجزيرة التى نشأت عليها صور فيما بعد ، وعند فاروس التى نشأت عندها الاسكندرية ، وفى غيرها من الجزر الساحلية. واتفقوا مع الحكام المحليين على ترك هذه الجزر لهم ، لعتزود منها سفنهم ، ولكى ينشئوا عليها مخازن لبضائعهم ، فنشأت بهذه الطريقة المراكز البحرية ، التى كانت الأساس فى نشأة المستعمرات .

ولكننا نجد أن أبناء كريت قد احتلوا مناطق مختلفة على بعض السواحل الأخرى ، وأخضعوها لحكمهم . ومن أهم مستعمراتهم مايسين التى قامت بدورها بانشاء مستعمرات أخرى . وكانت مايسين هى المستعمرة الناشئة التى زادت فيها الثروات بدرجة سريعة ، وتمكنت فى فترة ضعف الدولة الكريتية من الاستيلاء على عاصمتها . فتغير تاريخ هذه المنطقة نتيجة لتغير مركز الثقل ، وتغير القيادة فيها .

(٢) الفينيقيون : —

ورث الفينيقيون أبناء بحر إيجه وتجار كريت على البحر ، وكانت سفنهم أكثر قوة من سفن أبناء كريت ، وكانت حوافها أكثر إرتفاعا ، وكانت من الداخل متسعة ، وأكثر عمقا ، ولها مقدمة ومؤخرة فى إرتفاع واحد ، وكانت ثابتة على البحر ، ولا تسير إلا بالشراع هذه هى سفن الفينيقيين التجارية ، وأداة فتوحاتهم الإقتصاديه . وكان للفينيقيين علاوة على ذلك سفنا أخرى أكثر رشاقة ، ولها سارية واحدة ، وخمسين مجداف ، وتحلى مقدمتها رأس فرس ، وتستخدم فى الاستكشاف والحملات . وكانت معظم سفنهم مسلحة ، سواء أكانت تجارية أو حربية ، ويمكنها قذف الأحجار والحراقات ، ويظهر من ذلك أن تجارة الفينيقيين كانت مستعدة لكل الطوارىء ، وأنها كانت مصممة على اتمام الصفقات ، بأى ثمن.

وساعد موقع فينيقيا المتوسط على سهولة الحصول على أخشاب أشجار الأرز من الجبل ، والقطران من البحر الميت ، والنحاس من قبرص ، والتيل اللازم للشراع من مصر . وكانت أنظار الفينيقيين ، مثل أنظار أبناء كريت ، تتجه صوب ذهب السودان ، وفضة أسبانيا ، وقصدير أوربا الشمالية ، وكانوا ينقلون هذا القصدير ، مع نحاس قبرص ، إلى مصر واليونان وآسيا . وكانت القوافل تأتى لى إقليمهم محملة بالأصواف والأحجار الكريمة ، والتوابل والبخور . وكانوا ينقلون هذه السلع ويبيعونها فى أقاليم أخرى ، ويشترون بدلها الزيت والقمح ، والعاج وريش النعام ، وحتى العنبر الذى كان يصل من منطقة البحر البلطى الى البحر المتوسط ، عبر الادرياتى والبحر الاسود . وتطلب تدوين حسابات هذه التجارة وطلبات المناطق المختلفة من

الفينيقيين إختراع الأرقام والحروف . كما دفع حب الربح مع الرغبـــة فى المغامرة تجار صور وصيدا البحريين إلى الاستعمار . ولكنهم ساروا فى هذه الحركة بخطوات وئيدة ، فاستمروا فى عملية نقل البضائع على سفنهم ، وسيطروا على مراسى على الساحل الإفريقى للبحر المتوسط، يبعد الواحد منها عن الآخر بحوالى ثلاثين أو أربعين كيلو متراً . وكانوا يتصلون بالاهالى إذا مارغبوا فى اقامة منشئات دائمة ، ولكنهم كانوا يفضلون إنشاء مراكز تجارتهم البحرية فى الجزر الصغيرة القريبة من الساحل ، حتى يتمكنوا من الدفاع عنها . وأصبحت هذه النقط ، قواعد بحرية ومراكـز تجـارية فى نفس الوقت . وكانوا يحصلون على موافقة الأهالى على إقامتهم فى هـذه المراكز ، أو يفرضون أنفسهم عليهم بالقوة ، ويأخذون عدداً من الاهالى فى الأسر .

وساعـد فقر صور وصيدا وبيروت ، وفقـــر ظهيرها، على انتشار الفينيقيين فى معظم النقط الهـامه حول البحر المتوسط ، مؤسسين قواعدهم البحرية ، ومراكزهم التجارية فى نفس الوقت . ووصلوا الى منطقة عـدن ومنطقة قادس، عند نهاية البحر الأحمر وآخر البحر المتوسـط . وانتشرت مراكـزهم فى مالطة وصقلية وسردينيا وربما فى كورسيكا ، كما انتشـرت فى قبرص . وكانت أهم مستعمراتهم فى شمال إفريقية هى ليكسوس ، قرب العرائش الحالية فى المغرب ، وقرطاجة ، أى المدينة الجديـدة ، فى تونس الحالية . وجاءت الأساطير من بعد ، كى تشرح لنـا أصـل نشأة مدينـة قرطاجة ، ومن أشهرها تلك الأسطورة التى تروى خروج ملك صور مع أهله وممتلكاته هاربا من مدينته ووصوله الى ذلك الخليـج الإفريقى ، وعدم رغبة الأفارقة فى إعطائه قطعة أرض تزيد مساحتها على مساحـة الأرض التى تحيط بجلد الثور . فما كان من الأمير الفينيقى إلا أن قص جلد

الثور الى شرائح رفيعة ، مما سمح له باحتلال قطعة أرض لا بأس بمساحتها . وكان هذا ، حسب هذه الأسطورة ، أصل نشأة قرطاجة . التى دفنت رأس الثور مع رأس فرس فى أرضها ، رمزا الى الصبر والجلد ، وإلى القوة والنشاط : وتعنى هذه الأسطورة أن قرطاجة لم تخضع لصور ، مادام منشئوها قد جاءوا اليها مهاجرين . وليست هذه هى المرة الوحيدة التى تنشأ فيها المستعمرات بمهاجرين ، أو بقوم فارين من العقاب أو العذاب . ولكن قرطاجة قد احتفظت بصلات اتحادية مع صور ، وأرسلت الى معابدها الهدايا فى كل سنة .

وازدهرت قرطاجة نتيجة لاستخدام الفينيقيين لها كقاعدة بحرية ومركزاً تجارياً فى البحر المتوسط . وكان نظام الاستعمار الفينيقى ناجحا فى قرطاجة وفى وغيرها ، وانتشرت المستعمرات الفينيقية فى كل مكان . ويروى اليونانيون أن عدد هذه المستعمرات قد بلغ المائة فى ليبيا وحدها ، ولكنها كانت مستعمرات صغيرة ، وكان لكل مستعمرة منها إدارة خاصة ، وملك وراثى ، يعاونه عدد من رجال الدين الأقوياء ، ومجلس من الحكماء .

ولقد استغلت فينيقيا مستعمراتها الصغيرة ، ولم تفرض حكمها على مناطق واسعه . وكانت هذه المستعمرات هى نهاية طرق القوافل التى تتوغل فى الداخل ، تشهد مجيء قوافل الأهالى محملة بالسلع . وكانت المستعمرات تعيش على فينيقيا ، وكانت فينيقيا تعيش على مستعمراتها ، دون أن تفرض الواحدة منها نفسها على الأخرى ، فى ظل ذلك الترابط والتعاون ، بل التبادل التجارى المربح للطرفين . وظل الحال كذلك إلى أن وقعت صور فى أيدى الأشوريين ثم الفرس . فاصبحت فينيقيا مستعمرة بعد أن كانت رأس امبراطورية استعمارية . وانتهت بذلك الامبراطورية الثانية فيما وراء

البحار . ولكن هذه المرة لم تفقد الامبراطورية مستعمراتها ، بل فقدت المستعمرات وطنها الأم .

(٣) قرطاجة :-

إذا كان اليونانيون هم تلاميذ الفينيقيين ، فان أهالى قرطاجه كانوا أبناءهم . وكانت صور تنظر الى قرطاجه على انها فرع منها ، وهذا يدل على أن العلاقة قد تكون عاطفية أو معنوية بين المستعمرة والوطن الأم ، مادامت هناك صلات بين الاهالى وبين المصالح فى كل منهما ، ولا تكون مجرد علاقة حكم أو تحكم أو استغلال فى كل الحالات . ونجد ان قرطاجه تعمل على تدعيم استقلالها بعد سقوط صور فى أيدى الاشورين ، وغم استمرارها فى دفع الجزية لصور . ولكنها راوغت فى اجابة طلب دارا فى معاونته فى حربه ضد اليونان . ودل هذا على أنها قد أصبحت مستقلة. وعملت قرطاجة على تجميع المستعمرات الفينيقية السابقة حولها ، وساعدها على ذلك قوة اسطولها وكثرة عدد سفنه . ولكن بعض هذه المستعمرات رفضت الخضوع لقرطاجه ، مما اجبر هذه الأخيرة على البحث عن مستعمرات ومراكز جديدة ، ومحاولة انتزاع هذه المراكز من غيرها . فأصبح عليها أن تكون على اتم استعداد لمواصلة اعمالها التجارية ، وللقيام بعمليات بحرية وحربية فى نفس الوقت.

ولقد تمكنت قرطاجة من السيطرة على كل المراكز والمواقع البحرية فى شمال افريقية ، ومن ليبيا الحالية الى تونس والجزائر وسواحل المغرب وعبر بوغاز جبل طارق وطنجة الى المحيط الاطلسى . وانتهزت فرصة تهديد الاهالى لقادس وارسلت معونة للدفاع عنها ، وبقيت فيها واتخذتها مركزا للسيطرة على سواحل شبه جزيرة ايبيريا المطلة على البحر المتوسط . وقامت قرطاجة بتأسيس مستعمرة فى ملقة واخرى فى المرية ، وانشأت

مستعمرات أخرى فى مينورقة. ورغم أن قرطاجة لم تتمكن من تثبيت أقدامها فى جزيرة كورسيكا ، التى كانت قريبة من ايطاليا ، إلا انها تمكنت من اقامه مراكز لها فى سردينيا ، ونقلت اليها عددا من الأفارقة ، للعمل فى الزراعة وفى المناجم ، وتحت اشرافها ، مما أدى الى اعتصام معظم الاهالى بالجبال . وكذلك تمكنت قرطاجه من الابقاء على قواعدها فى سردينيا ، رغم التنافس الشديد بينها وبين اليونانيين ، الذين جاءوا لاستعمار الجزيرة من الشرق . واحتفظت قرطاجة ببعض المراكز والمواقع الهامة فى الجزر الصغيرة التى تفصل بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط ، وبشكل يسمح لها بالتفوق الواضح فى الحوض الغربي منه.

ونجد أن أبناء قرطاجة قد قاموا بعمليات استكشاف واسعة وبعيدة فى المحيط الاطلسى ، فسارت سفنهم مع اسبانيا والبرتغال شمالا حتى سواحل فرنسا الحالية . وسارت سفن هانو من قرطاجة ثم قادس عبر مضيق جبل طارق فى المحيط الاطلسى جنوبا صوب خط الاستواء . ولقد قام هانو بتأسيس المراكز على سواحل المغرب وريو دى أورو والرأس الاخضر وغينيا والكميرون . وكانت قرطاجة تسعى من وراء تأسيس هذه المراكز الى المتاجرة مع الوطنيين عن طريق مبادلة كميات معينة من البضائع بكمية من التبر ، أو مبادلة السلع فى الاسواق بسن الفيل وجلود الحيوانات وزيت النخيل . وقد تتحول المستعمرة الى مدينة حصينة لها اسوار ، وتخزن فيها البضائع وتقوم العمليات التجارية مع الاهالى فيها ، كما قد تقوم بعض سفن قرطاجة بالهجوم على الاهالى ، فى أى منطقة ، وتستولى على ما تشاء بالقوة .

وساعد التبادل التجارى وحاجة قرطاجة الى مواد مصنوعة ، علاوة على

بحاجتها الى صناعة الاسلحة ، على نشأة صناعة فيها . فبدأت فى صهر الحديد والنحاس ، وصناعة الاسلحة والحلى ، ونحت الاحجار الكريمة ، وبناء السفن ، والغزل ، ثم نسج الاقمشة ، ولو أن هذه الصناعة لم تكن متقدمة على صناعة غيرها من بلدان البحر المتوسط . وربما كان هذا التخلف النسبى هو السبب الرئيسى فى اتباع قرطاجة سياسة « الحماية التجارية » وذلك بتحريمها على اليونانيين والرومانيين ، وعلى سفنهم ، الدخول فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، والمتاجرة مع شمال افريقية أو سواحل اسبانيا ، وذلك فى الوقت الذى احتكرت لنفسها التجارة فى معادن ايبيريا وفرنسا وبريطانيا ، وتبر افريقية السوداء ، الذى كان يصل مع القوافل الى سواحل المحيط الاطلسى

وكانت سياسة قرطاجة ، مثل سياسة غيرها من الدول الاستعمارية ، تتلخص فى الكسب من مستعمراتها ، أو بمعنى أدق سياسة استغلالها . فكانت تحتكر التجارة ، وتجمع الضرائب ، وتستغل القوى البشرية فى الانتاج ، وفى المحافظة على تلك الامبراطورية . وكان الاهالى ينقسمون تبعا لذلك ، فى هذه الامبراطورية ، الى نوعين : فنجد من ناحية ، المستعمرين أو المعمرين أو المستوطنين الذين ترسلهم قرطاجة كموظفين ، أو الذين يستوطنون كتجار ، ونجد من ناحية أخرى الاهالى الذين يشبهون فى وضعهم القانونى وضع الرعايا ، لا المواطنين ، والذين يستخدمون فى أعمال السخرة وفى الجيوش . وإذا كان هؤلاء الرعايا لا يقاسون من وضعهم ، فقد كانوا ، على الاقل لا يحبون السادة المسيطرين الآتين من طرف قرطاجة . ولم يحاول رجال قرطاجة التوغل فى داخل البلاد ، بل اكتفوا بالسيطرة وذلك عن طريق الاحتكار التجارى ؛ الذى انقلب فى حالات معينة الى حصار

اقتصادى لمنطقة أو لأخرى ، ولإجبارها على الخضوع لقرطاجة أو التحالف أو التعاون معها ، وتحت سيطرتها . ولقد أدت هذه السياسة مع مضى الوقت ، الى سيطرة قرطاجة على اقليمى تونس وقسطنطينة الحاليين ، ووصل نفوذها الى مشارف اقليم فزان وتبسة ، واخذ اهالى نوميديا فى دفع الجزية لها . وساعدت هذه السياسة على تأمين قرطاجة نفسها من هجمات البربر المحيطين بها ، كما ساعدت على تموين قرطاجة بالمواد الغذائية اللازمة لها . وإذا كان البربر قد تعلموا من قبل رعى البهائم والاغنام ، وزراعة الفول والحبوب ، فان معمرى قرطاجة قد علموهم زراعة العنب ، والاعتناء باشجار الزيتون والرمان والتين ، وحراثة الارض ، وتخزين الحبوب ، ، وجمع شمع العسل ، وتقليم اشجار الموالح .

وكانت قرطاجة تتصل بمستعمراتها عن طريق البحر ، ولذلك فانها لم تهتم بانشاء الطرق ، رغم استخدامها الأفيال فى النقل ، ولم تحاول التوغل فى الداخل صوب الصحراء ، بل كانت تنتظر وصول القوافل التجارية إليها ، على الساحل ، للمتاجرة معها ، وكانت تحتكر رؤوس هذه الطرق ، وتحتكر بالتالى تجارة الصحراء .

وأصبحت قرطاجة تثير غيرة الاهالى والدول المحيطين بها ، نظراً لما تحتله من مواقع استراتيجية ممتازة ، ونظرا لأهمية مدينة قرطاجة نفسها ، التى كانت تمتاز بالحركة والنشاط . وبعمرانها ، وبكميات الذهب الموجودة فيها . وأحاطت قرطاجة نفسها بأسوار محصنة ، بلغ طولها ما يقرب من ٣٤ كيلومتراً . وكانت المدينة تضم شعبا نشطاً ، يعمل تحت إدارة حكومة أوليجاركية ،

أو حكومة أقلية ، قوية . وكانت قرطاجة قد وجدت نفسها فى صقلية فى مواجهة اليونانيين ، أو بعض اليونانيين ، ولم تكن بلاد اليونان قد وصلت بعد إلى الوحدة ، التى تخلق منها قوة يمكنها أن تهدد قرطاجة . ولكن الوضع كان مختلفا بالنسبة للرومان . إذ أن قرطاجة ستواجه هذه المرة كل الرومانيين متحدين ، سواء فى عمليات الدفاع أو الهجوم . وكانت قرطاجة دولة بحرية بينما كان الرومان بريين ، فكيف يمكن لهما أن يلتقيا فى معركة واحدة ؟ لقد عمل كل من الرومان وأبناء قرطاجة على التسلح بسلاح الآخر ، فقامت روما ببناء السفن ، بينما استعدت قرطاجة ، وجمعت المقاتلين من بين البربر وأهالى سردينيا وشبه جزيرة ايبيريا وحتى اليونانيين . ووقع أول اصطدام استعمارى فى صقلية ، حيث تقدم أبناء قرطاجة حتى مسينا وواجهوا الرومان . وقام الرومان بالهجوم ، واستولوا على مسينا وواصلوا هجماتهم على مالطة وسردينيا ، وارسلوا قناصلهم إلى رأس عنابة ، وبدءوا هجوما على قرطاجة ، ولكنهم إنهزموا إمام هذه المدينة . وبعد سنوات طويلة من المناوشات ، انتصرت قوات روما البحرية على قوات قرطاجة ، مما أجبر هذه الدولة الأخيرة على طلب الصلح ، ووافقت فيه على التخلى عن كل ممتلكاتها فى صقلية ، ووافقت مرغمة على دفع غرامة حربية كبيرة .

ونلاحظ هنا أن قرطاجة كانت قد بدأت فى الضعف ، وأنها كانت تحاول الاحتفاظ بمركزها وبمستعمراتها ، وباستغلالاتها ، وبأى ثمن . وكانت قوة قرطاجة السابقة تجبر الاهالى المحيطين بها على خشيتها واحترامها ، ولكن حاجتها إلى المال اللازم لدفع غرامتها الحربية لروما قد أجبرتها على زيادة ضغطها على الأهالى ، وزيادة فرض الضرائب عليهم ، ووصل الحال إلى مصادرتها نصف محاصيلهم . فثار سبعون ألف من الأفارقة ، علاوة على

عشرين الف من الجنود المرتزقة . وفى الوقت الذى تمردت فيه حاميات سردينيا قامت روما بالاستيلاء على هذه الجزيرة ، ورفضت بتزرت إرسال المدد لقرطاجة ، وهى محاصرة . وبعد ثلاث سنوات من الكفاح تمكن أحد الحكام من اخضاع هذه الثورات وظهرت قرطاجة وكأنه يمكنها أن تعيش لفترة أخرى من الزمن ، خاصة وأنها قد حاولت أن تعوض فقد صقلية وسردينيا بزيادة ممتلكاتها فى شبه جزيرة ايبيريا ، فامتد حكمها فيها من الساحل صوب الداخل ، وسيطرت على المرتفعات وعملت على اخضاع القبائل وادخالهم فى نظام استغلالها الإستعمارى . وأصبحت هذه الممتلكات الجديدة أهم أقاليم إمبراطورية قرطاجنة ، وأصبحت عاصمتها « قرطاجة الجديدة » ، أو قرطاجنة ، مدينة مزدهرة ، وتزوج هانيبال من أميرة أيبيرية . وكانت روما مشغولة ، فى غزوات وفى مناطق أخرى ، فلم تلتفت لتوسع قرطاجة لعدة سنوات ، واعتمدت على المعاهدة التى تحدد ممتلكات كل امبراطورية ، وعلى تعهد قرطاجة بعدم توسعها فيما وراء نهر الإيبر . ولكنها اكتشفت عدم سهولة استمرار التعايش السلمى مع قرطاجة ، خاصة وأن وجود هانيبال على رأسها ، وتجنيده للاهالى واستخدامه قوات كبيرة من المرتزقة ، لم تكن بوادر سلم بالنسبة لروما . فبدأت روما بالحرب حتى تمنع قرطاجة من التمكن من تهديدها .

والطريف فى قصة هذا الكفاح ، هو أن الرومان ، وهم من الفلاحين ، كانوا قد انتصروا على أبناء قرطاجة بحرياً ، وأن بحارة قرطاجة قد اثبتوا أنهم جنود بريون ، لهم قيمتهم الحربية . وأخذت قرطاجة فى الزحف صوب روما ، وعلى ممتلكاتها ، مطوقة بذلك البحر المتوسط ، ومحاولة الاستيلاء على روما من الخلف . وسار هانيبال من قرطاجنة : فى جنوب فرنسا ، وعمل على شراء الأهالى فى هذه المنطقة ، ثم عبر جبال الألب ، ووصل إلى ايطاليا

وهدد روما . واستخدمت روما نفس تكتيك هانيبال ، وذلك بالسير فى شبه جزيرة ايبريا ، والاستيلاء على قرطاجنه وقادس ، وباثارة رؤساء البربر فى شمال افريقية . وتمكنت فى موقعة زاما من هزيمة هانيبال . فانهارت امبراطورية قرطاجة ونظمها بضربة واحدة . ونزعت روما سلاحها وخربتها وحرمتها من مستعمراتها وجيشها وسفنها . وتحولت قرطاجة الى مدينة ضعيفة ، بعد أن كانت قد حكمت نصف حوض البحر المتوسط ،ولم تعد لها أية مستعمرات سوى ظهير بسيط ، وبعض المراكز التجارية فى افريقية الغربية . وأصبح عليها ، علاوة على ذلك ، أن تدافع عن نفسها ضد هجمات الأهالى البربر ، المحيطين بها .

وكانت امبراطورية قرطاجة قد اتسعت مما سهل عملية إضعافها، ولم تكن حكومتها قد أصبحت قادرة على الدفاع عنها ، وعجز التجار، رغم كل ما اتصفوا به من حذق ومكر ، عن الوقوف فى وجه جنود روما. وانتهت امبراطورية قرطاجة بنفس الطريقة التى انتهت بها امبراطورية كريت ، والامبراطورية الفينيقية ، إذ أنها قد فسدت من الرأس .

(٤) اليونانيون -

فى الوقت الذى ظهرت فيه قرطاجة ونمت وتوسعت فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، كانت هناك قوة أخرى ، ودولة بحرية ، عملت على استعمار الحوض الشرقى لهذا البحر . وعلينا أن نرجع إلى الوراء لفترة عدة قرون ، حتى نتمكن من معرفة أصول هذا التوسع ، وهذا الاستعمار .

ولم تكن اليونان فى أصلها سوى أمة تعمل على رعى الأغنام والمواشى وفى بلاد وجزر فقيرة . ودفع فقر البلاد الأهالى إلى الحركة ، وامتلأت أساطير اليونان القديمة بقصص الغزو والأسر والهجرة ، التى تثبت حب اليونانيين للمغامرات ، واعطائهم هذه الصفة لآلهتهم أنفسهم . ولما كان البحر يحيط بالأراضى اليونانية أو يفصل بينها وبين بعضها ، فقد كان مصير اليونانيين على الماء ،أو فيما وراء البحار .

وهكذا تحول شعب من الرعاة الى جماعات من البحارة ، الذين تطوروا مع الظروف، الى قراصنة أو تجار. فنجدهمقد خاطروا وذهبوا للاقامةفيما وراء البحار ، وتحولوا الى معمرين أو مستعمرين ، وكان فى وسعهم أن يصبحوا أساتذة فى الاستعمار ، لولم يعيشوا متفرقين فى بلادهم ، وفىجزرهم وفي الاراضى الجديدة التى ذهبوا اليها .وحتى آلهتهم كانت متفرقة ، ومتنافسة ، ويحارب بعضها البعض ، وحتى أمام الاخطار الخارجية . ولم يسمح لهم ذلك بتكوين امبراطورية استعمارية قوية ، رغم انهم تمكنوا من انشاء بعض المدن وبعض المستعمرات ، التى كانت لها نفس الثقافة ، ونفس النظم ، ونفس الفوضى ، والروح الإنفصالية السائدة فى بلاد اليونان نفسها .

وكان السبب الأول في خروج اليونانيين من بلادهم هو هجرات العناصر الهندو أوربية واحتلالها أحسن الأراضى الزراعية ، فخرجت أعداد من اليونانيين إلى آسيا الصغرى ، وإلى كريت ورودس ، وأسست مدناً يونانية فى هذه المناطق . ومع تزايد السكان داخل المدن اليونانية بعد بضعة قرون ، قامت جماعات جديدة بالهجرة للبحث عن أراض جديدة ،

وأقوات لها فى مناطق أخرى ، خاصة وأن الأراضى الزراعية كانت صغيرة ، والسهول نادرة ، ومجارى المياه ضحلة ، والإنتاج الزراعى بسيط ، والافواه متكاثرة ، والأقلية المحاربة تحتفظ بأجود الأراضى وأوسعها ، والعمال الزراعيين فى وضع يضطرهم إلى الهجرة والبحث عن مناطق أخرى . ويمكننا أن نضيف الظروف السياسية عاملا مكملا للظروف الديموجرافية والظروف الاجتماعية فى عملية الهجرة والانتشار . ذلك أن الغزاة كانوا يطردون المنهزمين ، واستمر الصراع بين الطغاة والنبلاء ، وبين الغنى والفقير . وكانت الحروب الداخلية ظاهرة واضحة فى تاريخ اليونان وكثيراً ما انتهت هذه الحروب بأن يقرر المهزومون نفى أنفسهم عن بلادهم . وأخيرا فان حب اليونانيين للبحر قد ساعد على حركتهم ، وعلى تحولهم إلى مستعمرين ، وإلى تجار فيما وراء البحار ، فكانت العملية فى واقع الأمر تتلخص فى البحث عن أقوات جديدة عجزوا عن العثور عليها فى بلادهم ، وعن المواد الأولية اللازمة لصناعاتهم . فكانوا فى حاجة إلى قمح صقلية ونبيذ تراقيا وأخشاب سوريا ، وأصواف أوربا ، وتيل مصر ، وجلود ليبيا ، ورصاص رودس ونحاس قبرص وقصدير المناطق الشمالية ، وعاج إفريقية . كما كانوا فى حاجة إلى أسواق يبيعون فيها مصنوعاتهم الحديدية والفخارية والسجاجيد . وكانت عملية السيطرة على هذه الأسواق ضرورية للتصدير والتسويق ، وضرورية بالتالى لعملية استيراد المواد الأولية اللازمة للصناعة . فما أن بدأ ضعف الفينيقيين حتى أخذ اليونانيون مكانهم فى نشاطهم البحرى والتجارى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وفى نفس الوقت الذى أخذ فيه أبناء قرطاجة مكان الفينيقيين فى الحوض الغربى منه .

ولقد سيطر اليونانيون على طرق المواصلات والمراكز الاستراتيجية ،

حتى يتمكنوا من السيطرة على الأسواق ومراكـز الاستغلال . فاحتفظوا بمضيق مسينا والبوسفور والدردنيل . وكان يمكنهم فرض الضرائب على التجارة والسلع التى تمر من هذه النقط ، أو إحتكار المرور فيها . وأقاموا نقطا ومراكزاً على طول الطرق ، وتحولت بالتالى الى أسواق للبيع والشراء ، واشتملت على مخازن للسلع . فنمت عملية التوسع والاستعمار التجارى ، جنبا إلى جنب مع نمو التوسع والاستعمار الفلاحى . وأصبح اليونانيون يشبهون فى هذه العملية أبناء كريت وفينيقيا وقرطاجة .

وكان البحر معروفاً اليونانيين ، سواء فى هدوئه أو فى هياجه ، وامتلأت أساطيرهم بالروايات عنـــه . أما سفنهم فكانت تشبه فى أول الأمر سفن الفينيقيين ، ثم أدخلت كورنثا عليها بعض التعديلات ، فوضعت المجـدفين على ثلاث صفوف فى سفن حـمولتها مائة طـن ، ويمكنها أن تحمل مائتى رجل : منهم مائة وخمسين من المجدفين . وكان طول هذه السفن ٣٥ متراً وعرضها أربعة أمتار وغاطسها متراً وعشرون سنتيمترا ، ولها خمسة أشرع ويمكنها أن تسير بسرعة تسعة عقد (أى تسعة أميال بحرية فى الساعـة) . ودخل التطور ، مع الزمن على هـذا النوع من السفن ، فوصل عدد صفوف المجدفين الى ثمانية ثم عشرة . أما السفن التجارية فكانت أكثر اتساعا ، وتسير بالشراع ، ويمكنها أن تحمل مائتين وخمسين طنا ، وتسير بسرعة سبع عقد ، ويمكنها عند الضرورة ، أن تسير فى أعالى البحار .

وإذا كانت السفن هى أداة البحارة ، فان النقود هى أداة التجار ، وكان اليونانيون هم مخترعوها . وكان اليونانيون فى بداية تاريخهم ، وكشعوب رعوية ، يدفعون ثمن مشترياتهم بعدد من الأغنام أو البهائم أو القطعان .

ثم استخدموا منتجاتهم ، من قدور وأوانى برونزية ، وسيلة للمقايضة ، ولكنهم سرعان ما شعروا بحاجتهم إلى وسيلة جديدة وعملية ، وخاصة بعد أن تحولوا إلى البحر ، واتسعت الأسواق أمامهم ، وابتعدت عنهم. وظهرت بعض القطع المعدنية فى بعض المدن اليونانية فى آسيا الصغرى ، وتعود الأهالى على استخدامها ، ثم صكت ايونيا وليديا قطعاً معدنية ، خلطت فيها الذهب والفضة . أما المدن الأخرى ، التى حذت حذوها ، فلم تصك إلا القطع الفضية ، مثل أثينا التى صكت قطعاً قيمتها أربعة درخمات . ولقد انتشرت هذه القطع الفضية بنوعيها فى كل الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وأصبحت تمثل ثورة فى نظام الملكية ، وتحولاً من الملكية العقارية — كأساس للثروة — إلى الرأسمالية ، وهزت الإقطاعيين وامتيازاتهم ،وفتحت باب العمل أمام طبقة تجارية نشطة متوسعة ، متنقلة مخاطرة . واستخدم التجار النقود ، التى سهلت العمليات التجارية والاتصال ، وأصبحت بذلك وسيلة لنقل الاراء والحضارة الهيلينية . مثلها فى ذلك مثل الأسلحة ووسيلة للتغلغل والإستعمار .

وبعد السفن والنقود ،التى كانت وسائل مادية تساعد على التوسع ، احتاج اليونانيون إلى دافع معنوى ، فاشركوا معهم آلهتهم فى مشروعاتهم التجارية والبحرية والاستعمارية . ولذلك فان اليونانيين قد قاموا بطقوس معينة عند إنشائهم لمستعمراتهم ، ونسبوا إنشاء هذه المستعمرات إلى شخصيات مقدسة. فكانوا يشعلون النار فى وطنهم ويحملون شعلة منها إلى مستعمراتهم ،ويحافظون عليها مشتعلة حتى يعملوا على إطالة عمر النار فى الوطن الأم . أما مؤسس المستعمرة فكان فرداً من أفراد إحدى الأسر الدينية فى المدينة الأصلية، وكان يقوم بطقوس معينة عند إنشائه للمستعمرة ، تشبه الطقوس التى عملت

عند إنشاء المدينة الأم ، وكان يتحول بعد موته ويرتفع إلى مصاف الآلهة .
ولقد كانت نفس هذه الصلات موجودة بين قرطاجة وصور ، كما قام هانو
بنقل المقدسات التى أرشدته إلى مراكز الاستعمار حول إفريقية فى المحيط
الأطلسى . وظل هذا العامل مؤثراً فى كل التاريخ القديم حتى عصر روما ،
التى أبلغ الرهبان فيها دائما أوامر الالهة بتأسيس المستعمرات . وكان
اليونانيون تستشيرون نبوءة دلف . قبل ركوبهم سفنهم ، وعزمهم على
تأسيس مستعمرات جديدة .

ولكنا نلاحظ من ناحية أخرى ، أن العوامل أو الروابط السياسية
كانت ضعيفة فى حركة الاستعمار اليونانى ، وأن هذه المستعمرات كانت
تشكل بنفسها دولا كاملة ومستقلة ، وكانت حرة فى علاقتها مع المدينة
الأصلية ، وكثيراً ما كانت تفوقها قوة . وإذا ما تحالفت معها ، فان هذا
التحالف كان يقوم بين طرفين حرين ومتساويين . ولكن الروابط الدينية
كانت هى الأساس ، إذ كانوا يشعلون نفس النار ، ويعبدون نفس الآلهة .
وكانت هذه الروابط أقوى من روابط الخضوع ، وكانت المستعمرة ترسل
ممثليها إلى الألعاب الأولمبية ، وسفاراتها الى الأعياد المقدسة فى الوطن الأم
وترسل الجزية الى معابده ، وتساعده عسكريا عند الأخطار الخارجية ،
وتطلب منه المعونة عندما تهددها قوى أخرى . وكانت المستعمرة تحتفظ
بلغة الوطن الأم وبكتابته وتقاليده ، وبدافع من الولاء ، أكثر من دافع
المصلحة . وأصبح العامل الدينى أساسا لروابط فكرية ومالية
وفنية وعسكرية .

وهذا النظام من الاستعمار اليونانى ، الذى نشأ نتيجة لهجرة بعض

اليـونانيين ، والذى إعتمد على النزعة الدينية عنــــدهم ، كان يـترك لكل مستعمرة الحرية فى وضع دستورها وقوانينها وصك عملتها ، وكان المعمرون فى ظله يخضعون كمواطنين لقوانين دولتهم الجديدة ، لا لقوانين المدينة الأم. ولكن أثينا أنشأت نظاما آخـر للاستعمار ، بعد فترة من الزمن ، وكان لا يعتمد على الهجرة ، بل على تهجير بعض المواطنين ، الذين يقع الإختيار عليهم بالقرعة ، وإرسالهم إلى أقاليم تم فتحها وضمها إلى الوطن الأم ، وتـوزيع الأراضى الزراعية عليهم . وكـان المواطن فى هذه الحالة يحتفظ بحقوقه فى دولته الأصلية ، وتظل المستعمرة خاضعة لهذه الدولة الأم . ولكن هـذا النظام لم يظهر ولم ينتشر إلا نتيجة لزيادة ضغط الفرس على التوســـع اليونانى فى آسيا الصغرى ، وضغط قرطاجة والرومان على الاستعمار اليونانى فى أوربا ، وساعد عليه ضعف العامل الدينى والشعور بالحاجة إلى عامل آخر يحل محله فى التوحيد بين اليونانيين . وكـان هذا العامل الجديد هو العامل السياسى . ولقد مرت قرون عديدة قبل أن يستقر هـذا النوع الجديد من الاستعمار ، مما يسمح لنا بالقول بأن استقلال المستعمرة عن الوطـن الأم ، كان هو القاعدة فى الاستعمار اليونانى ، وأن هـــذه النزعة إلى الحرية ، وبالتالى إلى الانفصال ، قد أضعفت اليونانيين أمام القـوى المنافسة لهم ، والمتوسعـــة إستعماريا فى نفس عصرهم ، والتى كانت تتوسع فى إتجاه مضاد لهم .

(٥) المستعمرات اليونانية :ـ

حينما بدأ الدوريون فى الضغط على سكان بلاد اليونان ، إضطـر هؤلاء إلى الخروج والتوجه إلى الجزر وإلى آسيا ، فخرجوا من تـاليا وأقاموا

فى ليسبوس والسواحل الآسيوية المجاورة والتى نشأت فيها أزمير فيما بعد ، وخرج غيرهم من إقليم أثينا ، وأقاموا فى خيوس وساموس ، وهاجر آخرون ، ومن بينهم بعض الدوريون ، فيما بعد ، وأقاموا فى رودس . ولقد مزجت هذه المستعمرات بين فكرة استقلالها ، وبين فكرة أصلها المشترك ، فهى مستعمرات حرة ، مستقلة ، ولكنها يونانية .

ولقد ازدهرت المستعمرات اليونانية فى آسيا إلى درجة أنها أخذت بعدها فى إنشاء مستعمرات أخرى لها ، وذلك فى الوقت الذى بدأت فيه موجات يونانية أخرى فى الخروج من بلادها ، باحثة عن أراض جديدة ، وفى أوربا هذه المرة . واتجهت أنظار اليونانيين إلى الغرب ، وخاصة تلك المنطقة الواقعة فى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية ، والتى يكاد كعب الحذاء الإيطالى فيها يجاور بلاد اليونان ، والتى يشبه مناخها مناخ اليونان تمام الشبه . وكان من السهل على اليونانيين عبور خليج أوترانت ، خاصة وأنهم إتخذوا من جزيرة كورفو محطة لهم فى منتصف الطريق . فعبروا شبه الجزيرة عند قاعدتها ، وأقاموا أمام ميسين فى إيشيا ، التى تسمح للبحارة الأجانب بالإتصال بالأهالى بسهولة ، وكانت جزيرة قريبة من الساحل بشكل يسهل الوصول اليه ، وبعيدة عنه بدرجة تسمح بالدفاع عنها بسهولة ، صغيرة بحيث تكفى بعض المعمرين ، وكبيرة بالدرجة التى تسمح باعطائهم ما يلزمهم من غذاء .

وبدأ اليونانيون علاقاتهم مع السواحل الإيطالية ، وتزايد ، مع الزمن ، عدد مستعمراتهم عليها . وكانت هذه المستعمرات اليونانية فى إيطاليا تجارية وزراعية فى نفس الوقت ، وكانت تمون اليونان بالحبوب والخشب والمعادن ، وتصرف لها الأوانى والأقمشة والأدوات المصنوعة . ولقد

جاء اليونانيون إلى هذه المناطق ومعهم آلهتهم وثقافتهم وطـــرق معيشتهم بشكل أعطى لوناً واحداً أو موحداً للمناطق التى أقاموا فيـها . ولكن هذه الإمبراطورية من المستعمـرات اليونانية كـانت ضعيفة ، إذ أنها كانت لا تحتل إلا بضعة أجزاء من الشريط الساحلى حول المراكـز التى تجمعوا فيها ، أما داخلية البلاد فقد بقيت ، فى مجموعها ، فى أيدى السكان الأصليين . ولم يكن عدد اليونانيين أو قوتهم تسمح لهم بالتحـــكم الكامل فى كل المنطقة ، وإن كانوا قـــد احتفظوا قبل كل شىء بالمراكـز الاستراتيجية الهامة ، وخاصة المسيطرة على خليج مسينا .

أما فى صقلية فنجد أن اليونانيين يضغطون على الفينيقيين وأبناء قرطاجة ، ويقيمون عند سفح جبل إتنا . وانتشرت قراصنتهم فى المياه القريبة ، وأقام غيرهم فى سرياقوس وسيطروا على الأهالى فى منطقتها ، وحـــولوهم إلى تابعين ونزلوا بهم الى مستوى العبيد . ولقد انتشرت المستعمرات اليـونانية فى هذه الجزيرة بسرعة ، وأثر ذلك على أبناء قرطاجة الذين تحصنوا فى بالرمو ، وعلى الأهالى الذين ابتعدوا عن الساحل ، وإن كـانوا قد احتفظوا بعلاقات ودية من الغزاة البحريين ، فتاجروا مع أبناء قرطاجة ، وقبـــلوا آلهة اليونان .

ولقد اعتمد اليونانيون على مراكـزهم ومستعمراتهم فى إيطاليا وصقلية وحاولوا الإنتشار جهة الغرب . ويروى لنا التـاريخ قصة كولاوس الذى وصلت سفنه إلى جنوب اسبانيا ، وعاد منها بحمـولة كبيرة من الفضـة . وسار غيره فى نفس الاتجـاه ، ولكنهم اضطروا إلى ترك ملقـة ، بعد أن طردهم منها أبناء قرطاجة ، وواصلوا السير صوب الشمال وخليج ليـــون ، وأسسوا مستعمرة مساليا التى تحولت فيما بعد إلى مرسيليا الحالية . ونمت

هذه المستعمرة بسرعة وخاصة بعد أن وصل اليها كثير من المهاجرين اليونانيين،الذين فروا من مستعمرات آسيا الصغرى نتيجة لزحف الفرس ، وسيطرت مسانيا على المستعمرات الأخرى التى نشأت فى أما كن آرل وأنتيوب ونيس وموناكو وبرشلونة الحالية .

ورغم أن قرطاجة كانت تحرم نزول اليونانيين إلى شمال إفريقية، إلا أن ليبيا كانت بعيدة عن رقابة قرطاجة . ولكن السواحل الليبية كانت قاحلة مما يثبط عزائم اليونانيين ، فجاءت نبوءة دلف آمرة لهم باستعمارها ، ومهددة إياهم فى حالة الرفض . وكانت هناك أسبابا سياسية واضحة لهذه النبوءة ،التى هدفت فى حقيقة الأمر إلى سد الطريق أمام توسع أبناء قرطاجة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط . فهى نبوءة تخدم التيارات السياسية ، وبالتالى ، التيارات الإقتصادية العامة فى المنطقة . وبدأ اليونانيون فى الإقامة فى بعض النقط الساحلية فى ليبيا،واتصلوا بالقوافل الآتية من الواحات الداخلية . وإذا كانت أراضى برقة لا تنتج الكثير من الكروم والزيوت والحبوب ، فقد كانت صالحة للرعى،ولتربية الخيول .

ولم يكن من السهل على التجار والبحارة اليونانيين السيطرة على مصر ، ولها حكومتها وفرعونها : إلا أن الزبائن المصريين كانوا يستحقون عناية خاصة ، فبدأ اليونانيون بانشاء أحد المراكز ، ثم تمكنوا من الإفادة من أحوال مصر الداخلية ، وعمل عدد منهم كجنود مرتزقة فى خدمة الفراعنة ، وأقاموا فى معسكر خاص بهم فى منف . وجاء التجار بعد الجنود، وانتشروا فى الدلتا ، وتمكنوا من إنشاء مستعمرة لهم فى نقراطيس ، على الفرع الغربى للنيل . وامتلأت هذه المستعمرة بالنشاط والحركة والأسواق وبيوت اللهو ، وكان المصريون يجدون فيها ما يلزمهم من نبيذ

وزيوت وأواني وأسلحة ولهو ، ويبيعون فيها بعض الحبوب وأوراق البردي.

ولم يتمكن اليونانيون من إقامة المستعمرات على الساحل السورى إلا فى هذا الجزء القريب من قبرص . ولكن مستعمراتهم تكاثرت بشكل واضح قرب الدردنيل وفى شمال بحر إيجه الذى امتلأ بالجزر القريبة من الساحل ، وعلى سواحل البحر الاسود . واشتملت المضايق نفسها على تسعين مستعمرة يونانية ، كانت أهمها ايوكسينوس التى تحولت فيما بعد إلى بيزنطة ، ثم القسطنطينية . أما البحر الاسود فقد إزدهرت فيه المستعمرات اليونانية عند مصب نهر الدانوب ومصب الدنيستر ، ومصب الدنيبر ، وفى القرم ، وعند آزوف والدونيتس ، وعند سفح جبال القوقاز وفى مكان سينوب .

وهكذا نجد أن العالم اليونانى ، أو مجموع المستعمرات اليونانية ، قد انتشرت من بحر إيجة الى اسبانيا والقوقاز ، وتركز على قارات أوربا وإفريقية وآسيا . ولكنه لم يتوغل صوب الداخل ، بل اكتفى بواجهة بحرية على السواحل ، وتدعمها بعض المراكز والمستعمرات . وكانت علاقة اليونانيين بالأهالى ، فى الغالب ، هى علاقة الجنس الأسمى بالجنس الأدنى ، أو علاقة الرئيس بالمرؤوس ، والمتحضر بالمتوحش المتبربر . وكثيرا ما كانت علاقة اليونانيين بالأهالى تصل إلى حد الاشتباك ، كما حدث فى برقة ، أما فى صقلية فان مجيء اليونانيين قد دفع الأهالى صوب داخل الجزيرة ، وأخضعهم فى منطقة سرياقوس لحكمه ، وإستعبدهم ، وسمح لنفسه بالاستيلاء على الأراضى المنتجة . وكان اليونانيون يقسمون شعوب العالم إلى هلينيين وبرابرة ، وذكر أفلاطون أنه من الطبيعى أن يطيع

البرابرة سادتهم اليونانيين. أما أرسطو فقد شرح أن الطبيعة قد قسمت العالم إلى أولئك الذين يأمرون ، ويمكنهم بحكمتهم أن يتصرفوا فى كل شيء ، وأولئك الذين يطيعون ، والذين لا يمكنهم أن يشاركوا فى المصلحة العامة إلا بخدمات بدنية . أنه نفس تقسيم العالم إلى سادة وعبيد ، خاصة وأن أرسطو قد أصر على أنه لا يمكن للبرابرة أن يظهروا ما يدل على سموهم الطبيعى ، وعلى أن مجتماعتهم تتألف من عبيد ، ومن الجنسين . وكان فلاسفة اليونان ، فى ذلك ، من أنصار الطبقات ، ومن دعاة الاستعمار . ويظهر ذلك واضحا حينما يشرح أرسطو أن الحرب هى وسيلة طبيعية ، وأنها تستخدم ضد هؤلاء الذين ولدوا لكى يطيعوا ، والذين يرفضون القيام بذلك .

وكان اليونانيون يؤمنون بهذا التميز العنصرى ويستندون إلى أنهم قد أتوا بالحضارة والمدنية للمناطق والجماعات المتبربرة ، وإلى أن الاستعمار اليونانى بالتالى هو نعمة لهذه الشعوب . ألم يخرجها من الظلمات ويشركها فى حضارة لامثيل لها فى العالم ؟ وكان اليونانيون قد أحضروا معهم ، إلى مستعمراتهم ، فن الكتابة ، والنقود والرفاهية ، والمعرفة والجمال والثروة ، وهى فى نظرهم لا تقارن بما يحصلون عليه من بعض المواد الأولية .

ولقد أفادت المستعمرات اليونانية من ذلك ، وتعلمت ، وتمكن بعضها من التفوق على سادتهم فى اليونان ، وخاصة فى الازدهار المادى وفى القوة . وكانت مواردهم كبيرة ، وسكانهم أقل كثافة . فصدروا المواد الأولية ، وبكثرة ، وفى صالح ميزانهم التجارى . وأدى ذلك إلى إزدهار فى المستعمرات، ساعد بالتالى على نمو العلوم والفنون والآداب فيها . وأعطت

تارنت للمدنية فيثاغورس ، كما أعطت سرياقوس أرشميدس . وما زالت آثار بعض المستعمرات اليونانية تبهرنا بنفس درجة الآثار فى اليونان نفسها . ولقد ازدهرت هذه المستعمرات ، بثرواتها ، ومنتجات أرضها ، وبصناعاتها ، وزاد العمران فيها ، وأدى ذلك إلى زيادة أهميتها السياسية. ومع زيادة الثروة إزدادت درجة الرفاهية ، وأصبح اللهو من صلب حياة الأهالى فى هذه المستعمرات . ولكنها ظلت مراكز للاشعاع ،فانتشرت حولها الثقافة وكذلك قطع العملة ، ووصلت اليها المواد الأولية والمعادن . ولكن اليونانيين كانوا يحتفظون لأنفسهم بأهم شيء من هذه العملية، وهى السيطرة عليها ، والحصول على الغلة . ورغم أن المستعمرات اليونانية كانت تعيش فى استقلال عن بعضها ، وتحت لواء الحرية ، إلا أنها كانت تتمتع بشخصيةفردية ، وكثيراً ما قامت إحدى هذه المستعمرات بالهجوم على مستعمرة أخرى ، وسيطرت عليها وأدخلتها فى نطاق نظامها الاستغلالى . وكانت كل مستعمرة ، فى داخلها ، تشتمل على صراع بين الأحزاب ،وبين الطبقات . فالكل يحاول السيطرة ، وبالتالى يحاول الاستغلال.

ولقد حاولت بعض المدن أن تسيطر على جزء ، إن لم يكن على كل العالم اليونانى ، ولكن هذا الإتجاه التسلطى أو الامبريالى ، كان يصطدم بالفردية اليونانية ، ولا يتمكن من المعيشة لفترة طويلة . ويمكننا أن نذكر منها مجاولات أثينا ، ثم اسبرطه وطيبه ثم سرياقوس

وكان تهديد الفرس قد ساعد على تكوين جامعة إتحادية هلينية ، وأصبحت أثينا هى رأس هذه الجامعة بعد انسحاب إسبرطة منها ، فجمعت حولها المدن البحرية ، وأصبحت لها القيادة السياسية والعسكرية . وكان لهذه الجامعة خزانة عامة ، تدفع فيها كل من المدن المتحدة نصيبها ، ولها

مجلس فيدرالى، يشارك فيه مندوبوا المدن ، ويصوتون بالمساواة . وكان هدف هذه الجامعة هى التمكن من محاربة الفرس ، ولكن أثينا أبقت على هذه المنظمة بعد انتهاء الخطر الفارسى . وأصرت على ضرورة دفع المدن لأنصبتها فى الخزانة ، التى نقلتها من ديلوس إلى أثينا ، وأنزلت درجة المدن المتحدة إلى مصاف الدول التابعة لها ، بعد أن اختفى المجلس الفيدرالى . فأصبحت أثينا تتصرف فى ميزانية الاتحاد بالشكل الذى يحلو لها . ولقد قامت أثينا بدور رأس الامبراطورية ، رغم أنها كانت ديمقراطية ، وأجبرت المدن الأخرى على البقاء فى هذه المنظمة ، وعاقبت نا كسوس ثم ساموس حينما حاولت الانفصال عنها . وقسمت هذا العالم الى خمس أقاليم تحت سيطرتها ، وأرسلت أثينا مندوبيها وقضاتها الى هذه المدن ، وحرمتها بذلك من سيادتها القضائية ، كما أجبرتها على دفع أنصبتها ، واستخدمت هذه الأموال فى الانفاق على الأعياد والاحتفالات ، وحرمت عليها صك العملة وفرضت عليها إستخدام النقود الآثينية . وأجبرت أثينا هذه المدن على اعطاء الأراضى لأهالى « العاصمة » فتحول بذلك عدد كبير من الملاك القدماء إلى مزارعين ، وأصبح عليهم دفع ايجار عن أرضهم ، للسادة الجدد . وكان ذلك يؤثر على حقوق المدن التى لا يسمح « للأجانب » بتملك الأراضى ، وكان فى نفس الوقت يرفع من قيمة أبناء أثينا المقيمين فى ناسوس أو ليسبوس . وكانت أثينا فى الواقع تحاول توحيد اليونان ، ولكنها عملت على إلغاء حقوق المدن مع احتفاظها بحقوقها هى ، وتدعيمها ، وعلى حساب غيرها ، أكثر من قبل فعمل ذلك على إثارة الأهالى ، وتمكنت كورنثا ثم اسبرطة من الاستقلال ، وأدى ذلك إلى تفكك الامبراطورية الآثينية ، التى لم تعش إلا أربعين سنة . وحاولت أثينا بعد ذلك أن تعود

الى فكرة الوحدة من جديد ، وبدون جنود ومندوبين ، ولكن الامبراطورية الجديدة تفككت بسرعة .

وقامت اسبرطة بعد ذلك بتجربتها ، واعتمدت فى ذلك على اتحاد فيدرالى كان يجمع بعض المدن حولها ، فى شكل تحالف عسكرى وسياسى مع احترام كل منها للاستقلال المحلى للاخرين . وكان التصويت فى مجلسه بالأغلبية ، إلا فى حالة تدخل الآلهة أو الأبطال . وأعلنت اسبرطة استقلال المدن الخاضعة لأثينا ، وسيطرت على الحركة الجديدة ، وعينت المندوبين وأقامت الحاميات وأنشأت نظام حكم الأقلية (الاوليجاركية) . ولكن المدن اليونانية كانت تحاول الإحتفاظ باستقلالها وبحقوقها . وكان فى وسع اسبرطة أن ترسل الحاميات وتطلب المشاركة فى النفقات ، ولكن فرض سيطرتها السياسية كان صعباً ، ولم تتمكن من ممارسة هذه السيطرة ، ولفترة سنوات، إلا بمساعدة الفرس . ورفضت أثينا الاعتراف بهذه الزعامة ، وخرجت طيبة منها ، فكان الفشل من جديد .

أما السيطرة الطيبية فكانت ضحلة وجاءت بعد انتصار هذه المدينة على اسبرطه، وإدعائها وراثتها لها . ولم يستمر الاتحاد الذى أنشأته إلا لمدة سنوات

وكانت كل هذه المحاولات قد تناست المستعمرات والمدن اليونانية الواقعة فيما وراء البحار ، ودل هذا على ضعف الصلات الدينية بينهم ، ونمو المستعمرات بشكل يمنع اليونانيين من السيطرة عليها . ولقد حاولت مساليا إنشاء امبراطورية أو اتحاد حولها ، وقامت سرياقوس بنفس الدور ونجحت فيه الى درجة أبعد من مرسيليا . وفرضت سرياقوس نفوذها على عدد كبير من المدن والمستعمرات اليونانية فى صقلية وفى إيطاليا ، ولكنها كانت امبراطورية ضعيفة ، مثلها فى ذلك مثل امبراطوريات أثينا واسبرطه وطيبة،

إذ أنها كانت تعتمد ، مثلهم ، على شخصية من الشخصيات الفذة الكبيرة ، كان هؤلاء القادة يسيرون فى اتجاه مضاد لطبيعة الأشياء ، ولطبيعة اليونانيين أنفسهم ، وكانت مشروعاتهم تتفكك وتنهار غالبا مع إختفائهم.

وظلت المدينة هى الأساس ، والوحدة السياسية ، فى العالم اليونانى. وإعتمد الاستعمار اليونانى على المعرفة والتجارة أكثر من استنادة إلى الحقوق والقوانين ، وحمل فى نفس الوقت عناصر ضعفه ونهايته ، ما دام يعتمد على الفردية ، وعلى الطبقية . وكانت الامبراطوريات البرية تحيط به من كل جانب ، فهناك الفرس ، والمقدونيين والرومان . ووصل اليونانيون إلى مرحلة تسمح لهم بالانتقال إلى مستوى المستعمرين، بعد أن فشلوا فى إتمام دورهم كمستعمرين .

الفصل الثالث

الامبراطوريات المنظمة

إذا كانت الشعوب البحرية قد قامت ، فى العصور القديمة بانشاء المراكز البحرية والتجارية على طول السواحل ، وقامت بعملية الإستعمار ، بدون خطة منظمة لها ، فان شعوبا أخرى قد قامت فى نفس الوقت بالإتجاه صوب البر ، وأنشأت مستعمرات متماسكة ومترابطة الأقاليم . ولقد قاموا فعلا باستعمار يمكننا أن نسميه باستعمار الدولة ، ودعموا نظامه بسلطة مركزية ، وباخضاع المناطق المفتوحة لهم إخضاعا تاما . والإستعمار هنا مرسوم ، وتنظيم هذه الأمبراطويات مرتبط بفن الحكم والسياسة . ويمكننا أن نأخذ لهذا اللون من الإستعمار أمثلة من الأمبراطورية الفارسية ، والأمبراطورية المقدونية وأمبراطوريات الشرق الأقصى القديم .

(١) الامبراطورية الفارسية : —

بدأت الأمبراطورية الفارسية من هضبة إيران التى كانت موطناً للميديين والفرس فى نفس الوقت . ولقد أفاد الميديون من ضعف الأمبراطورية الأشورية وتفككها وأستولوا على أعالى وادى الفرات ، والتفوا ، من الشمال ، حول ما بقى من أمبراطورية بابل . وبعد أن وصل أحد أمراء الفرس إلى عرش الميديين ، إهتزت بابل وإهتزت معها كل آسيا الداخلية ، وتمكن الفرس ، فى مدة ثلث قرن ، من إنشاء امبراطورية كبيرة ، إمتدت فى الغرب إلى الدانوب وإلى برقة ، وفى الشرق حتى السند . وقام

بهذه العملية ثلاث ملوك فارسيون هم كيروز وأبنه قمبيز وأبن عمه دارا .

ولقد إعتمد التوسع الفارسى — إلى درجة بعيدة — على التفوق الحربى ، وظهر هذا التفوق فى قوة الضـــرب بالأسهم وفى سرعة الحركة بوحدات راكبة ، وخاصة على الجمال . كما أعتمد على السياسة التى إنتهجها الفرس ، بأعطائهم أنفسهم شخصية المحررين للشعوب التى حاولوا إخضاعها ، فأعادوا الجماعات التى قامت أشور بنقلهـــا من مناطقهـا ، إلى أقاليمهـا الأصلية ، وخلصوا اليهود من الأسر البابيلونى . فظهروا وكأنهم يعملون للسلم ، بعد فظائع الآشوريين .

وتتالت خطوات ومراحل الغزو الفارسى بسرعة : فاستولى كيروز على كل آسيا الصغرى ، بما فيها المدن اليونانية الساحلية المطلة على بحر إيجه ، ثم أسرع شرقا حتى حدود الهنـد ، وعاد واستولى على بابل . أما قمبيز فانه قد هاجم مصر وأستولى عليها ، وأخضع اليونانيين المقيمين فى برقة ، وسار مع النيل حتى الشلال الثالث . وأما دارا فانه قد أخضع الثورات المحلية ، ثم عبر الدردنيل ، وسار حتى السواحل الشمالية للبحر الأسود ، مستوليا على تراقيا وفارضاً حمايته على مقدونيا ، ثم أرسل حملة إلى بلاد السند . فامتدت الأقاليم الخـاضعة له على طول خمسة آلاف كيلو متراً ، وأشتملت على ثلاثـة ملايين كيلو متراً مربعاً ، من البحـر المتوسط إلى بحر إيجـه والبحر الأسود وبحر قزوين إلى بحر عمـــان والبحـر الأحمر ، وأصبـح ملـكا على الميديين ، وأمبراطوراً على بابل وفرعونا على مصر . لقد اصبـح ملك الملوك ، ومستعمر المستعمرين .

وأخذت المملكـة الفارسية فى تنظيـم ممتلـكاتها ، فظهر أن الفتـوح والغزوات العسكرية كانت وسيلة ، لا غاية . وصدرت الأوامر إلى كل

الملوك بالحضور وتقديم فروض الطاعة والولاء لملك الفرس ، وتقبيل أقدامه. كما صدرت إليهم الأوامر بدفع الجزية ، وإرسال الرجال للخدمة في الجيوش. ودفعت المدن اليونانية « هدايا » ، كانت فارس تحدد قيمتها . وأرسل كيروز مندوبين عنه إلى الأقاليم الخاضعة ، يمثلونه فيها، ويشرفون على النظام والعدالة والمالية . وحاولت فارس الا تركز كل السلطات فى أيدى هؤلاء المندوبين ، خاصة وأنهم كانوا يمتازون بانتسابهم لأسر كبيرة ، أو كانوا حتى من الأسرة المالكة ، ويمكن لمنصبهم أن يصبح وراثيا من بعدهم . فأرسلت إلى جوارهم رئيساً عسكريا لقيادة الجنود ، ومندوبا عن الدولة ، لكى يشرف على رجال الأمن . فأصبح كل من هؤلاء الثلاثة يراقب الآخرين ويتصل بالبلاط ، ويقوم البلاط بالاتصال بالمندوبين الملكيين ، وبارسال المفتشين .

وكان ملك فارس هو القمة لهذا النظام الاقطاعى ، وكان ملكا مطلقاً ، وكان الرئيس الأعلى للقضاء ، والقائد الأعلى للقوات. وكانت له قصور وحدائق ومنتزهات مليئة بالطيور وحيوانات الصيد . وكان الحرس الملكى يبلغ عشرة آلاف رجل من الميديين والفرس، وذلك للدفاع عن شخص الملك. ولكن الملك كان يعتمد على قوات مسلحة كبيرة لاخضاع الامبراطورية. فبلغ عدد الجيش ما يزيد على مليون ونصف مليون مقاتل ، من بينهم فرسان السهوب وراكبى الجمال من العرب ، وله عربات حربية أما الأسطول فقد بلغت عدد سفنه الحربية مائتين والف .

واعتمدت الامبراطورية الفارسية على الطرق لتدعيم الاتصال بين الأقاليم، والوصول بالتالى إلى الاتحاد والسيطرة . وكان أشهرها ذلك الطريق الممتد من قرب المضايق إلى شمال الخليج الفارسى ، والذى بلغ طوله ٢٤٠٠

كيلو متراً ، أى ما يوازى شهرين متتاليين من السير على الأقـدام . وكان هذا الطريق يمر فى السهول وعلى الجبال ، وبنيت على طوله القلاع ومراكز الراحة وتبديل الخيول . وكـان هذا الطريق ، مـع الطرق الثانوية العديدة ، يسهل إتصال الملك بمندوبيه فى الأقاليم ، ويسهل الاتصال التجارى بين الشرق والغرب . ويكفينا اثباتا لذلك وصول طاووس الهنـد فى ذلك العصر إلى بلاد اليونان . وسهلت الامبراطورية الفارسية كذلك الإتصال البحرى بين أقاليمها ، فأفادت من أحـد فروع النيل ، وإحـدى الترع ، لتسيير السفن بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وبالتالى الى الخليج العربى والمحيط الهندى . وحاولت الامبراطورية العمـل على زيادة التقـارب بين الأقاليم باتخاذ الايرانية لغة رسمية والآراميـة لغة للتجـارة ، وبتوحيد المقاييس والموازين،وعملت على تعميم استخدام عملة ذهبية تحمل رسم دارا حاملا للقوس ، وبلغت قيمتها عشرين مثقالا من الفضة .

وكانت الامبراطورية الفارسية ، بطريقة نموها وطبيعة تشكيلها ، تظهر على أنها تفضـل الاتحاد على الوحدة ، اتحادا تقبله الشعوب المختـلفة التى وضعتها داخل الامبراطورية . وكانت الامبراطورية تسيرعلى هذه السياسة، فى « الظروف السعيدة » ، فنجد أن كيروز يعفو عن الملوك الذين عزلهم ،وأن قمبيزيترك حكومة مصر لأحد المصريين ، ويترك أسرة كيليكيا القديمـة فى إقليمها ، ويترك للمدن اليونانية استقلالا ذاتياً واضحا . ويـترك لبعض الممالك حكوماتها بعد إعلان خضوعها .

وحاول دارا أن يكسب الأهالى ، فتحاشى تخريب المدن ونقل السكان من منطقة لأخرى ، وسوى بين رعاياه فى الحقوق . وترك لكل اقليم عاداته

وتقاليده وموظفيه ، وحتى آلهته . وكانت هذه سياسة حكيمة من الفرس ، الذين قبلوا تعـــدد الآله فى الأقاليم ، رغم أن « المتعلمين » منهم كانوا قد أعتادوا عبادة إله واحد ، هو الخالق ، والعادل . ولكن هذه السياسة لم تستمر لفترة طويلة . فنجد أن دارا يلغى عند عودته من إتيوبيا تعدد الآله فى مصر ، ويحطم تماثيل العجل أبيس ، وغيرها من التماثيل ، ويأمر بأقفال المعابد . واستمر خلفـاؤه فى تطبيق هذه السياسة ، وخاصة فى بابل ويظهر من هذا أن تحرر الفرس لم يكن إلا ستاراً رقيقاً ، ولم يستمر لفترة طويلة ، وكان يخفى فى نفس الوقت روح التحـكم والطغيان . وسرعان ما أثبت التاريـخ أن الفارسيين قد حطموا المدن وكبتوا الأهالى ، وبكل قسوة عند إعلانهم الثـــورة . وحتى إذا كان الفرس قد أعلنوا المساواة بين كل الرعايا ، فانهم كانوا يحتفظون لأنفسهم بامتيازات خاصة ، فكانوا يقصرون على أنفسهم حق تقلد الوظائف الكبيرة ، وكانوا لا يدفعون أية ضرائب ، فى الوقت الذى ثقلت فيه هـــذه الضرائب على كاهل الأهالى . ولقد بلغت قيمة الجزية التى يرسلها مندوبوا الملك إلى العاصمة ما قيمتـه ٣٥٠ طنـاً من الفضه سنوياً، وهى قيمـة لم تتمكن أى دولة أخـرى من جمعهـا فى السنة. ويمكننا أن نضيف إلى ذلك الهدايا النوعية من خيول ونبيذ وملح وخبوب وبخور وكلاب صيد وتبر ، وحتى الخصيان والصبية والفتيات ، علاوة على سن الفيل والأبنوس ، حسب إنتاج كل أقليم . وكانت الامبراطوريةتقوم بتخزين الأموال فى عاصمتها ، حتى أن الأسكندر المقـدونى قد أستولى عند إستيلائه عليها على ما يزن ٤٦٠٠ طن من سبائك الفضة ، أى ما يوازى جزية ثلاثة عشر عاما من أقاليم الامبراطورية الفارسية كلها .

ولكن الامبراطورية الفارسية أخذت فى الضعف وبسرعة ، ورغم غناها وتكدس الأموال فى خزائنها . وكان إتساعهـا سببا أساسياً فى ضعفهـا ،

فاستولى المندوبون الملكيون على السلطة فى أقاليمهم ، بعد عهد دارا ، وفسد الحكم ، وتفكك الجيش ، وأنهارت الأخلاق . وخضع البلاط لمؤامرات الحريم ، وبخاصة مع إزدياد عدد زوجات الملك ، وبالتالى تزايد المنافسة لوصول الأبناء إلى العرش .

وتزايدت الهزائم على مر الأيام . وإذا كان قمبيز قد تراجع عن مهاجمة قرطاجة وعن فتح النوبة ، وكاد دارا أن ينهزم فى اليونان ، فان مقاومة اليونانيين كانت مذلة للامبراطورية الفارسية . وأضطر ملك الفرس إلى أن يضع تكتيكا خاصا ، بعد ماراثون وسلامين ، لكى يفرض نفوذه على المدن الهلينية . وسرعان ما نشبت الثورة فى مصر وقبرص وفينيقيا ، وتمكنت تراقيا والهند من الخروج عن حكم الفارسيين ،وأعلن عدد من المندوبين الملكيين ثورتهم على عاصمة الامبراطورية ، التى تمكنت من الاحتفاظ بالأساسى ، والقريب ، من الأقاليم .

وكانت الامبراطورية الفارسية، التى نشأت فى فترة ثلاثين عاما ، قد عاشت لمدة قرنين ، ولكنها عاشت كجثة متحللة ، تنفصل عظامها عن بعضها عند أول صدمة، وإنهارت فى مجموعها أمام الأسكندر.

(٢) الامبراطوزية المقدونية :-

نشأت مقدونيا فى شمال بلاد اليونان ، التى تنازعت مدنها السلطة ، وتنافست فيما بينها . ونشأت فى منطقة فقيرة ، قل فيها الحرث والرعى ، وعجزت عن أطعام الأهالى ، الذين نظر إليهم بقية اليونانيين على أنهم من المتبربرين . ولقد نجحت مقدونيا من الحصول على إستقلالها بعد أن تخلصت من سيطرة الفرس. ونجح الملك فيليب فى توحيدها ، والقضاء على

الفوضى والانقسامات الداخلية الموجودة فيها .وكان شابا قوياً جريئاً ، إرتقى العرش وعمره ثلاثة وعشرون سنة ، وظل يحكم مقدونيا لفترة مماثلة ،ونجح فى فرض نفسه على بلاد اليونان ،ووضع أسس الامبراطورية المقدونية . ولقد وضع خطته على أساس تقوية مملكته ،ثم توحيد بلاد اليونان ، فالقضاء على الامبراطورية الفارسية .ونجح فى المرحلتين الأولتين، وأتم إبنه الباقى ، وأكثر من الباقى .

بدأ فيليب بتحويل مقدونيا إلى دولة قوية ، فاخضع الرؤساء الإقطاعيين ، ووزع الأراضى على القبائل المتنقلة لتوطينهم ، واتخذهم أساساً لتزويد جيشه بالرجال . ولم يعتمد فيليب على الجنود المرتزقة ، بل فرض الخدمة العسكرية على هؤلاء المزارعين . وأنشأ بذلك جيشاً ثابتاً مرتبطاً بالدولة، ومرتبطاً بفلاحة الأرض ، ومرتبطاً بشخصه . واستخدم النبلاء فى قوة الفرسان ،وظل هذا الجيش بمشاته وفرسانه أداة فعالة ، ولمدة قرنين . واستغل فيليب مناجم الفضة والذهب ، وضرب عملة خاصة به ، نافس بها العملات الأخرى الموجودة ، ودفع بها مرتبات جنده ، واشترى بها ما يلزمه ، كما اشترى بها الحلفاء فى المناطق المجاورة.

وبدأ فيليب بتأمين دولته من العناصر المتبربرة الساكنة فى الشمال ، ومد حدود مملكته إلى الدانوب والبحر الأسود ،ثم استعد لغزو العالم اليونانى . وتمت هذه العملية فى فترة وجيزة ، هى إثنى عشر سنة . وكانت تكفيه بعض الذرائع للتدخل، وبعض العمليات الدبلوماسية ، ثم معركة فاصلة ،لفرض نفسه . فاصبح سيداً على بلاد اليونان ، ووضع حامياته فى النقط الاستراتيجية الهامة التى تسيطر عليها ، وتمنع هجوم الفرس عليها . وجمع مندوبى المدن فى كورنثا ، وأجبرهم على إنشاء جامعة اتحادية ، عقدت

الصلح، وعقدت محالفة دفاعية هجومية معه . وظلت المدن اليونانية المشتركة في هذه الجامعة الاتحادية حرة مستقلة ، ولكن بشروط معينة . ذلك أنها تعهدت بعدم تغيير دستورها ، أو تقسيم أرضها ، أو تحرير العبيد فيها ، أو إلغاء الديون . كما أنها اتفقت على اختيار فيليب منفذاً فيدبرالياً لقرارات مجلسها ، أي رئيسا لها ، فاصبحت حريتها واستقلالها نسبية . في حقيقة الأمر . وهكذا نجح ملك مقدونيا في الوصول إلى توحيد اليونان ،وبحد السيف ، بعد أن كانت كل من أسبرطة ، وأثينا وطيبه قد فشلت في ذلك . وأصبح فيليب هو المحرك لهذا الاتحاد الذي قرر إعلان الحرب على الفرس، وجندت كل مدينة قوة حربية ، أو أسطولا بحريا ، ووضعتها تحت قيادة ملك مقدونيا . ولعبت شخصية فيليب ، مع توجيه الأنظار الى خطر الفرس الخارجي ، ومع رفع الروح المعنوية ، وإلقاء الشعارات الخاصة بتحرير المدن اليونانية في آسيا الصغرى ـ لعبت دوراً كبيرا في توحيد اليونانيين. وكانت فترة ثورية في تاريخ اليونان والعالم ، بما في ذلك من نظم وأفكار سياسية ، وأحوال اقتصادية . وقتل فيها فيليب ، وأعطى ذلك فرصة قصيرة للامبراطورية الفارسية ، في الوقت الذي زادت فيه درجة الغليان في اليونان .

وتولى الاسكندر عرش أبيه . وتدل قصة ركوبه الفرس الجامح ، التي رواها بلوتارك ، وتعليق والدة على ذلك بأن مقدونيا واليونان لن تكون كافية له ، على وجود دعاية خاصة في هذا العصر ، توجه الانظار إلى ضرورة التوسع تحت هذه القيادة ، والخروج عن محيط العالم اليوناني، أي الى ضرورة الاستعمار . وكان الاسكندر جنديا ، امتاز بصلابة عوده وحبه للحرب ، في نفس الوقت الذي امتاز فيه بثقافته اليونانية . وقضى على

أخطار البرابرة وعلى الحركات الانفصالية ، ثم أسرع بعبـــور الدردنيل، وبدأ المعارك والانتصارات . وخضعت له آسيا الصغرى ، وأسرع ملك الفرس بطلب الصلح ، وقدم للاسكندر الهدايا والأقاليم ، ومنحه ابنته كزوجة ، وابنه كرهينة . ولكن الاسكندر لم يكتفى بذلك ، إذ كانت أهدافه فيما وراء آسيا الصغرى . فاستمرت الغزوات والفتوحات معه ثمانية سنوات ، واشتملت على الشام ومصر وبابل والفرس وبلاد الميديين ، ثم وصلت الى الهند بعد اجتياز نهر السند . ولكن انهاك الجنود والقواد إضطرهم الى العودة .

وكان الاسكندر رجل دولة ، ولم تكن حركته مجرد هجرة أو غزو بدون نتيجة ثابتة ، بل حركة استعمار واضحة فكان يترك الجرحى والمصابين فى محطات ثابتة على الطريق ، ويحولهم الى مزارعين ومتوطنين . وكان يجبر القبائل على التوطن فى مناطق معينة ، بعد أن يهزمهم فى الحرب . وكانت الخضرة والحبوب تسير زاحفة على نفس الخط الذى يسير عليه ، إذا كان يعمر ويصلح ويصدر الأوامر بضرورة الزراعة والإنتاج والاستغلال . وربما كان الإسكندر يقاسى من شعوره بأن اليونانيين ينظرون الى أهالى مقدونيا على أنهم من المتبربرين ، فعامل الشعوب على أنها متساوية ، وفتح صفوف جيشه للميديين ولكل الشعوب التى « حررها » من حكم الفرس ، رغم أنهم دخلوا هذه الصفوف كجنود ، وظلت القيادات فى أيدى اليونانيين . وشجع الاسكندر زواج جنوده وضباطه بنساء من الأهالى ، فى الاقاليم التى فتحها ، وضرب المثل لذلك ، واحتفل بزواج عشرة آلاف من رجاله بنساء من جنوب الفرس ، خاصة وأن طبيعة حياة الجنود ، وطول مدة غيبتهم عن بلادهم، كانت تدفعه الى

إنتهاج هذه السياسة . ولكن ، هل يغير زواج عشرة آلاف من حياة شعوب ؟ وكذلك نجد أن الاسكندر فى الميدان الإدارى يعين مندوبا مقدونيا عنه فى الفرس ، ومندوبين فارسيين على مصر وبابل . ولكنه إضطر إلى الإحتفاظ ببعض الملوك المحليين والرؤساء على مناطقهم ، وإضطر كذلك إلى ترك مفتشين -من المقدونيين- إلى جوارهم، للاشراف على المالية وشئون الجند . فهل هذه هى الوحدة ؟ إن الاسكندر لم يعلن نفسه إمبراطورا لهذا العالم ، بل إحتفظ بالألقاب الإقليمية ، وجمعها كلها لنفسه ، فهو ملك مقدونيا وحامى اليونان ، وخليفة الفراعنة ، وملك الفرس . وكان يرتدى الملابس التقليدية لكل إقليم بعد أن يفتحه ، ويعامل بعض الملوك على انهم ملوك . فكانت امبراطورية عبارة عن مجموعة إتحادية للدول السابقة لها ، أو الخاضعة له ، أو الموضوعة تحت حمايته . وكان الاسكندر يحكم بالكرم ، وبمساعدة الجميع ، لا بالخوف والإرهاب . وكان فى وسع هذه السياسة أن تستمر ما دامت قبضته الحديدية موجودة ، ولكنها هيأت الجو لتغيرات أساسية عند موت الاسكندر .

وكان الاسكندر متحررا مع الآلهة كما كان متحررا مع الشعوب ، فقبل كل الآلهة ، وعبدها ، وقدم الذبائح لها ، ووصل به الحال إلى أن أعلن علاقته بها ، حتى يدعم نفوذه على امبراطوريته . فانتشرت الإشاعات عن أصله ، وعن المعجزات التى صاحبت مولده ، وعن تحدثه مع الآلهة أمام صور وفى واحة سيوة . وكان يستخدم وسائل أكثر واقعية لتدعيم هذا النفوذ ، فكان يقتل بعض القواد أو كبار الموظفين حتى يتخلص منهم ، ولأسباب تتعلق بالدولة ، وكان يأمر بابادة المدن التى تقاومه ، ويبيع كل سكانها . ولكنه كان يردف ذلك بالتسامح ، ورد الاعتبار ، والمنح ، حتى

يظهر و كأنه فوق مستوى الرجال .

وعلينا ان نعترف بعظمة الاسكندر من الناحية السياسية ، رغم تغييره وتقلبه بين العظمة والضعف ، والتسامح والوحشية . ذلك أنه قد عرف أن نظام المدن الحرة فى اليونان كان يساعد على تنافسها وضعفها ، وأن وقت الإنفصال قد انتهى ، وأن الامبراطورية يجب أن تجمع شمل الجميع . وكان يرغب فى أن يصبح جميع الرجال مواطنون، وفى دولة واحدة ، ولهم نفس نظام المعيشة ، كما لو كانت الانسانية كلها تشبه قطيعا واحدا يرعى فى أرض مشتركة ، على حد قول بلوتارك . وجاء التطبيق بشكل جعل من العالم كله مستعمرة مقدونية ، إنتشرت فيها اللغة والنظم والافكار والحضارة اليونانية .

وكانت النتائج هامة . فنجد من الناحية الإقتصادية أن مقدونيا الفقيرة قد أغنت العالم القديم وقت سيطرتها عليه، بعد أن استولى الاسكندر على كنوز وأموال الفرس المكدسة ، ودفعها فى الاسواق : ٤٦٠٠ طن من الفضة فى خزانة ملك الفرس ، علاوة على الكميات الموجودة فى خزائن نواب الملك فى الأقاليم وفى الهند، وسبعمائة طن قيمة الجزية السنوية ، التى تكدست لمدة عدة سنوات فى خزانة الدولة . وأخرج الاسكندر هذه القطع والسبائك والحلى ، ودفع بها ديون جنوده ، وأعطى منها الهدايا والمنح . فساعد ذلك على حركتها ، وأستغلالها ، ودورتها ، وقيام المشروعات . وتوسعت التجارة والإقتصاد خارج أسوار المدن . وكان الاسكندر قد أحضر معه عددا من المهندسين إلى آسيا ، فبنيت الموانى ، وشقت الطرق وحفرت الترع ، وأصبح كل من الدجلة والفرات صالح

للملاحة ، وروِيت الوديان وبنيت المعابد.

أما من الناحية الإجتماعية فنجد أن جزء كبيرا من الأهالى قد تحول من سكان للبوادى والسهول إلى سكان للمدن التى بنيت فى هذا العصر ، ودل ذلك على تحول عدد من الأهالى من الإنتاج الزراعى إلى العمل فى التجارة. وينسب التاريخ إلى الاسكندر إنشاء سبعين مدينة على طول الطريق الذى سار فيه . وكان بعضها عبارة عن حصون فى مواقع إستراتيجية ، وفيها الحاميات ، وبعضها مدنا تجارية أو إدارية فى مواقع متوسطة ، أو مراكز للراحة على الطريق ، أو لتوطين عدد من الاهالى الرحل . ولكنها أصبحت كلها مراكز لإشعاع الثقافة وإنتشار الحضارة اليونانية .

وهكذا نجد أن الاسكندر قد أتخذ وسيلتين للاستعمار : الأولى هى الامبراطورية التى تجمع داخلها كل الأقاليم وتوحد بينها ، والثانية هى المراكز المتفرقة ، والتى يجمع فيها المتوطنين فى مراكز معينة : وسيلة سياسية ووسيلة عملية ، سياسة المجموع التى تدفع الأقاليم إلى الإتحاد أو الوحدة بدفعها صوب الداخل ، وسياسة توسع نقط ومراكز ، وإشعاعها فيما حولها. وسنجد أن روما ستتخذ نفس الوسيلتين ، وتستخدمهما سويا كذلك. ولكننا سنجد أن المدن هى التى تبقى بعد موت الاسكندر ، فى الوقت الذى تتصدع فيه الامبراطورية ، وتنقسم على نفسها .

لقد حاول عدد من قواد الاسكندر الحصول على أكبر نصيب من امبراطوريته بعد موته ، وأنتشرت الثورات ، وحركات العصيان ، والفوضى والحروب الأهلية والمعارك والقتل ، وظهرت ثلاث دول مكان هذه

الامبراطورية . وظلت اليونان مركزا للاشعاع بهذه الحكومات الثلاث ، وبذلك العدد من اليونانيين الذين تركوا بلادهم الأصلية ، وأخذوا فى الهجرة إلى هذا العالم الذى وحده الاسكندر ، باحثين عن الثروة أو جريا وراء المغامرات . ونشأت مدن يونانية حقيقية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وكانت لها مجالسها التقليدية وأمتيازاتها ومعاهدها ومسارحها ، ومناظراتها الفلسفية والسياسية . وأخذت الثقافة « الهلينية » فى الإنتشار وفى التوسع والتغلغل ، وقامت بدور الإستعمار الثقافى والحضارى .

وحصلت بعض « المدن » فى مصر وسوريا على إمتيازات المدن الحرة فى اليونان ، وتحولت بعض المراكز والمواقع العسكرية المقدونية إلى مدن أخرى . وتمكنت هذه المدن من القيام بنشاط تجارى هام ، فى داخلها وفى المنطقة المحيطة بها ، وظهر أن اليونانيين قد سيطروا تماما على النشاط التجارى فى بلاد الامبراطوريات الشرقية .

ولقد زرع اليونانيون أشجار الزيتون فى آسيا الصغرى ، وكذلك الكروم ، وأدخلوا الماشية فى أفريقية ، وجاؤا معهم بعملتهم وبلغتهم التى إنتشرت بسرعة . ولقد عملت بعض الطبقات فى سوريا ومصر على التزود من الثقافة الهلينية ، وأرسلت أبناءها إلى المدارس اليونانية ، وحاولت بذلك أن تصل إلى مستوى « المواطنين » . أما مجموع الأهالى فقد ظل بعيدا عن التأثر باليونانيين ، وكانوا أغلبية ، ونظروا إلى اليونانيين على انهم أقلية . فظلت الحضارة اليونانية فى واقع الأمر سطحية فى المناطق التى دخلت اليها . ولقد كان الفلاح فى مصر يئن تحت ثقل أعباء النظام الإقتصادى ، وثقل الضرائب ، فحاول التخلص من النفوذ اليونانى سواء بالهرب منه إلى المعابد

والمناطق النائية ، أو بالثورات . وأدى هذا الى التقليل من نجاح اليونانين. فاذا كان اليونانيون قد نجحوا فى التغلغل فى المدن والسيطرة عليها ، فقد فشلوا فى الدخول الى البادية والأرياف . ولكن علينا أن نعترف بأن اليونانيين قد نجحوا فى تحويل عملية الاستعمار ، من عملية تتلخص فى الاحتلال والاستعباد ، الى عملية تهدف الى الوحدة أو التوحيد بين الشعوب، ومنذ عهد الاسكندر ، وأن كانت قد أدت الى ظهور طبقات جديدة،داخل البنيان الجديد ، عملت على استغلال بقية الأهالى ، ومن الناحية التجارية « الرأسمالية » ، بعد أن كان الاستغلال يتعلق بالأرض ، وبزراعى الأرض .

وظلت الثقافة اليونانية منتشرة فى المنطقة حتى بعد استيلاء الرومان عليها .

(٣) الشرق الاقصى : ـ

كان تأثير الاسكندر على الهند تأثيراً بسيطا ، اقتصر على بعض المراكز التجارية التى أنشأها فى وادى السند ، وبعض الموانى التى بناها . ولكن الهند حاولت أن تخرج من حالة التفكك والإنفصال التى عاشت فيها ، والوصول الى إنشاء امبراطورية موحدة ، متأثرة فى ذلك بنظم الفرس ثم بنظم المقدونيين .

وكانت العوامل الجغرافية تساعد على تفكك الهند من الناحية السياسية، خاصة وأن الأنهار تسير فيها بين الشرق والغرب ، ثم تأتى منطقة صحراوية تفصل الشمال عن الجنوب . وكان سكان شمال الهند من الآريين ، بينما نجد سكان الجنوب من الدرافيديين . وكانت النظم الاجتماعية والدينية تقسم

الأهالى الى طوائف وطبقات محددة ، وتساعد على التفكك والإنفصال بين أبناء المنطقة الواحدة . فهناك البراهمة ، أو رجال الدين ، ثم طبقة النبلاء ورجال الحرب ، ثم الطبقة الثالثة من الآريبين الذين يعملون فى الزراعة والتجارة ، ثم طبقة من غير الأريبين، وهم الذين يقومون بالأعمال اليدوية . ونشأت عن هذه الطبقات طوائف متعددة ، إزدادت مع الزمن ، وأصبحت وراثية ومقفلة ، من حيث الزواج والعمل والإتصال بأبناء الطوائف الأخرى ، أو حتى تناول طعام لمسوه بأيديهم فى بعض الحالات . وكان هذا البناء الاجتماعى يتعارض مع الإتصال بالخارج ،وبالتالى مع الاستعمار ، كما يتعارض مع الوحدة أو حتى الاتحاد داخل الهند نفسها .

وظل الحال كذلك فى الهند ، التى إنقسمت إلى إمارات وممالك متحاربة متطاحنة ، الى أن ظهر شاندرا جوبتا الذى كان قد إتصل بالاسكندر عند نهر السند ، ثم أعان الثورة على الحاميات اليونانية فى المنطقة بعد انسحاب المقدونيين . ولقد تمكن من إنشاء مملكة له على وادى السند ووادى الكنج . واستمر إبنه فى توسيع هذه المملكة التى اشتملت على كل الهند فى عهد حفيده أسوكا . واشتملت هذه الامبراطورية على المملكة الأم ، التى تحتوى عاصمة الامبراطور وقصره ، علاوة على أقاليم يديرها نواب باسمه ، وأقاليم يديرها أمراؤها الخاضعون له ، ويمثله فيها مندوبون له. وعملت هذه الادارة ، مستندة الى الجيش وقوات الأمن ، على تدعيم نفوذ الملك فى جميع أنحاء الامبراطورية ، كما عملت على التوحيد بين الأقاليم وبعضها ، وعملت على جمع الضرائب ومراقبة الأثمان وضرب العملة وصيانة الطرق ، والمحافظة على أمن التجارة والمدن ،وزيادة احتياطى الذهب فى الخزائن العامة .

ولقد استخدم أسوكا العامل الديني وسيلة لتوحيد الهند ، والإبقاء على هذه الوحدة لمدة أطول من مجرد عملية إدارية أو سياسية . وساعده على ذلك أنه اعتنق نفسه المذهب البوذي،ودون أن يترك مذهب البراهمة. وأخذ أسوكا في نشر هذا المذهب في جميع انحاء الهند ، وبخاصة مبادىء الحب والعدل والسلام ، وأمر رجال الطوائف باحترامها ، وظل يحترم البراهمة لأنه منهم ، ولكنه نشر مبادىء البوذيين ، لكي يزيد من سعادة الهنود . وبينما كانت نظرية البراهمة نظرية تعتز بالشخصية وتفصل بين اتباعها وغيرهم ، كانت للبوذية صفة عالمية . ودعا أسوكا الهند إلى التوسع ، في الوقت الذي وجهها فيه صوب البوذية . فانتشر الدعاة البوذيين في التركستان الصينية والصين وكامبودج وأنام وجزر التوابل ، وتغلغل وراءهم التجار ثم الغزاة . فاستعمر هنود البنجاب ومنطقة آسيا الوسطى ، وازدهرت البوذية في التبت والصين واليابان ، رغم عدم توسعها في الهند نفسها . وتغلغلت التجارة الهندية في سومطرة وجاوة ، وكل جزر التوابل . ومما لاشك فيه أن التحركات الديموجرافية قد ساعدت على خروج عدد من الهنود من بلادهم ، كما أن ثروات بلاد وجزر الشرق الأقصى قد أغرت الهنود بالذهاب اليها ، ولكن نشاط البوذيين كان قد مهد الطريق أمامهم. وكان نمو البوذية حول الهند يتطلب نموها في الهند نفسها ، كقاعدة تستند إليها ، كما أن عملية هدم الطبقات الاجتماعية والطوائف في الهند لم تكن سهلة ، وغير ممكنة، بمجرد الوعظ والارشاد ، ونشر المبادىء الجديدة . وأثر هذا في الهند، بمجرد موت أسوكا : إذ سرعان ما انتشرت فيها الاضطرابات والفتن والثورات وتحطمت الامبراطورية .

أما في بلاد الأرض الصفراء، فان مملكة الصين قد قامت بدور توحيد

الأهالى وإنشاء امبراطورية ، وإعطاء اسمها لها ، بعد أن استخدمت فى هذه العملية كل الوسائل الممكنة ، من حرب وسياسة ، ومحاصرة وضم . وبعد حكم شى هوانج تى سادت الفوضى فى بلاد الصين ، ولكن لفترة قصيرة، إذ أن ليوبانج تمكن على رأس جماعة من المغـــامرين من الإستيلاء على السلطة ، وإعادة الامبراطورية ، مؤسسا لها أسرة جديدة هى أسرة الهان ، التى حكمت البلاد مدة أربعة قرون . ولقد عمل ملوك هذه الأسرة على زيادة سلطاتهم ، والقضاء على امتيازات الاقطاعيين، وإبعاد العناصر المتبربرة عن الصين وبعد أن وصلت الامبراطورية الصينية إلى وادى النهر الأصفـر ، ووادى النهر الأزرق إمتدت شمالا الى حتى كوريا ، وجنوبا الى فيتـنام ، وغرباً حتى هضبة بامير ، ولم تعوقها إلا صحراء منغوليا وهضبة التبت .

وتذكر لنا الروايات أن أحد الحكام قد ذاق طعم البرتقال ، وأن حاكما آخر رأى الخيزران ، فأمر كل منهما بالاستيلاء على الاقليم المنتج لهـــذه السلعة. ولكن الأمر يبدو أكثر عمقاً. إذ أنه يرتبط بالعوامل الديموجرافية والسياسية، علاوة على ارتباطه بالعوامل الإقتصادية. ذلك أن تزايد السكان وضعف استغلال الأراضى دفع الصين إلى ضرورة البحث عن ميدان للتوسع فى المناطق المحيطة بها ، خاصة وأن هـــذه المناطق كانت تسكنها عناصر متبربرة متنقلة ، تغير على الصين من وقت لآخر. فنجد أن الصين قد أخذت فى بناء سورها العظيم فى الشمال ، فى منتصف القرن الثانى قبل الميـــلاد ، ووطنت إلى جواره قبائل الهان حتى تتمكن من الدفاع عن نفسها . وعملت الصين فى الجنوب على ضم العناصر المهددة لها ، وحاولت صهرهم مع الأهالى . أما فى الشرق فانها قدسيطرت على المنطقة المنتجة والمصدرة للحرير. ولقـد استخدم الصينيون القسوة الفائقة فى انشائهم لامبراطوريتهم ، وكانت

معاركهم تنتهى بأهرامات من رؤوس القتلى ، مكدسة على بعضها . وكانت الصين تجند الأهالى ،وتنقل السكان من مناطقهم ، وتجبرهم على التوطن فى مناطق جديدة،واستعمارها ، فكانت قوات المزارعين تسير وراء الجيوش ، وأثبتت الصين بذلك أن لها سياسة منظمة للتهجير والتوطين والاستغلال ، كما حدث فى منطقة كانتون . ولكن الصين كانت أكثر تسامحاً فى مناطق أخرى ، وحاولت بذلك ضم الأهالى وهضمهم على مدى طويل : فاحترمت عادات الأهالى وتقاليدهم ولغاتهم ، كما هو الحال فى كل من كوريا وفيتنام، ولكنها قدمت لهم الجند لفلاحة الأراضى ، والضباط لملاحظة المزارع ، والموظفين لمراقبة المتوطنين الجدد . وكانت الصين هى التى تقسم الأراضى وتنظم عمليات الرى وتشق الطرق والترع .

وربط ملوك الصين بين مبادىء كنفشيوز ، التى نادت باحترام الذات واحترام الغير ، وبين نظرية « الدولة » فى الداخل ، وبينها وبين نظرية التسلط الامبريالى فى الخارج . فنادوا بخضوع كل الأهالى للامبراطور ، وخضوع الامبراطور للسماء . ويمكن بالطبع استخدام القوة لإخضاع الأهالى للامبراطور . وهكذا نجد أن امبراطورية الهان قد نشرت مبادىء الدولة المرتبطة بمبادىء كنفشيوز مع ما تتطلبها من تنظيم ادارى . وبعد عدة قرون ، انتشر الفساد فى البلاط ، بعد أن غرق فى الرفاهية والملذات ، وضعفت سلطته ، وانكمشت عن الأقاليم النائية .

(٤) الامبراطوريات فى مجموعها . -

نلاحظ مما سبق أن هجرات العناصر الأندو أوربية قد أثرت وغيرت من وجه التاريخ فى الألف سنة السابقة للميلاد ، وهى الفترة التى شهدت

الامبراطوريات الأولى ، سواء أكانت هذه الامبراطوريات بحرية أو برية .

ولقد اضطرنا منهج العرض إلى التحدث عنها منفصلة عن بعضها، وكل منها بعد الأخرى ، رغم أن التاريخ مشترك فى هذه الفترة وفى هذا الجزء من العالم القديم . ذلك أن الدول الاستعمارية كانت تطمع فى نفس الموانى ونفس الوديان ونفس الطرق . فمن الذى يمكنه السيطرة على نحاس قبرص أو فضة أسبانيا أو قمح صقلية ؟ وربما كانت قرطاجة متحالفة مع الفرس ضد اليونان . ويروى لنا التاريخ أن سرياقوس قد حاربت أبناء قرطاجة فى نفس الوقت الذى حاربت فيه اليونان الفرس فى معركة سلامين .

والمهم هو أن منتجات الصين كانت تسير غربا إلى العالم اليونانى الرومانى عبر طريق عرف فيما بعد باسم طريق« الحرير » من النهر الأصفر إلى هضبة البامير ، حيث تقابل قوافل أخرى تأتى من الغرب وتحمل سن الفيل الهندى وسجاجيد فارس وبخور البلاد العربية . وكان التجار يبادلون سلعهم فى هذا المكان ، ثم تستمر قوافل الحرير فى سيرها غربا إلى الجنوب من بحر قوزين ، وتعبر الدجلة والفرات وتصل الى أنطاكية، ومنها إلى كل موانى البحر المتوسط . وكان سكان البحر المتوسط يشترون كميات كبيرة من حرير الصين . واضطر ذلك التجار إلى ارسال سلعهم إلى الغرب عن طريق ثان ، بحرى ، يبدأ من موانى الصين ، سواء فى تونكين أو كوشنشين، ويسير حول شبه جزيرة ملقا ، وحول الهند وبلاد العرب الى الموانى المصرية الواقعة على البحر الأحمر . وكان هذا الطريق ينقل حرير الصين وأقطان الهند الى الاسكندرية، التى تقوم بتوزيعها على تجار وموانى

البحر المتوسط . وأصبح هذا الطريق الثانى البحرى ، يعرف بعد ذلك بأسم طريق التوابل . ومعنى استخدام هذا الطريق البحرى بسفن صغيرة ، هو أن البحارة قد درسوا الرياح الموسمية ، وبدءوا فى تنظيم رحلاتهم على أساس الإقلاع صوب الشرق فى أشهر يوليو وأغسطس وسبتمبر ، والإقلاع صوب الغرب فى أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير وفبراير .

ونلاحظ بشكل عام مما سبق أن الموطن الأصلى للامبراطوريات كان متواضعا وفقيرا ، مثل صور وكريت وقرطاجة وأثينا ، أو حتى إقليم الفرس وإقليم مقدونيا . وكانوا يستعمرون بلادا أخرى مسكونة ، ويبدؤن بقاعدة ، يشترونها أو يغتصبونها ، ثم يقومون باستغلال منتجات الإقليم المجاور وأبنائه ، ويفرضون أنفسهم عليهم ، أو يقضون عليهم ، إن تطلب الأمر ذلك . أما العلاقة بين المستعمرين والمستعمرة فكانت تختلف من الاستقلال شبه التام ، إلى الإتحاد ، إلى الخضوع ، وكانت تختلف من التعاون الى التحكم . وكانت هناك صفات مشتركة لتألية رأس الدولة فى مصر وبابل وحتى مقدونيا ، ونظم مشتركة فى حكم الأقاليم ، عن طريق تقسيم السلطة بين حاكم مدني ، وقائد عسكرى ومراقب مالى ، كل منهم يراقب الآخرين ، ويضمن عدم أستقلالهم بحكم الإقليم .

أما أهداف الإستعمار فكانت السيطرة بكلما تحمله من معنى . وكانت هذه السيطرة إقتصادية ، ووضح ذلك فى استعمار كريت والفينيقيين وأبناء قرطاجة واليونان ، أو سياسية ، كما هو الحال فى استعمار آشور والفرس ومقدونيا والصين ، وقد تكون هذه السيطرة دينية . ولكن الاستغلال الإقتصادى كان أساسا فى كل هذه العمليات ، حتى ولو لفترة الغزو والحروب السابقة للاستعمار ، مع ما يصحبها من قتل وسلب ونهب . وكان

المستعمر هو الذى يحصل على الربح بتهجير الأهالى من المناطق الفقيرة التى تسكنها ، وبالتالى بالتخفيف من حدة الضغط الديموجرافى لديه ، وبمساعدته الأهالى على الحصول على أرض زراعية جديدة ، كثيرا ما يكون قد اغتصبها لهم من الشعوب المغلوبة ، وبتحسينه لميزانه التجارى نتيجة لتصديره منتجاته المصنوعة الى هذه المستعمرات ، وبزيادة الثروة فى أيدى الوطن الأم، نتيجة لورود الضرائب والفدية والجزيات اليها . ولكن عملية الاستعمار ، مثلها فى ذلك مثل كل عملية ، يمكنها أن تكون خاسرة للدولة المستعمرة ، إذا ما خسرت فيها كثيرا من الأرواح ، واذا ما عملت على توزيع قوى الدولة وإمكانياتها ، وبالتالى إذا ما ساعدت على إضعافها .

وكانت الشعوب تخشى الاستعمار ، خاصة وأنه كان يمثل أمامها الخضوع السياسى والاستعباد والارهاب والاستغلال والكبت . وكانت الشعوب فى مناهضتها للاستعمار ، عاملا أساسيا فى القضاء عليه ، وقوة رئيسية مميتة له . أما التنافس بين دولتين استعماريتين فكان فى حقيقة الأمر لا يقضى على الاستعمار ، بل ينقل المستعمرة من سيطرة دولة إلى سيطرة دولة أخرى ، ويغير الدولة المستغلة دون إن يقضى على عملية الاستغلال ، سواء أكانت اقتصادية أو بشرية ، أو سياسية أو معنوية .

ولقد عاشت معظم هذه الامبراطوريات فترات تاريخية تتراوح بين قرن أو قرنين، وخمسة قرون أو ستة ، وكانت الامبراطورية المقدونية أقلها عمراً، إذ أنها لم تعش إلا فترة أربعة وثلاثين عاما ، من أول إنتصارات فيليب حتى موت الاسكندر .

وأخيرا فان معظم الامبراطوريات فى العصور القديمة قد أنتهت بسقوط عاصمتها ، أو فساد رأسها ، أو وفاته ، ولم تنته بتفكك المستعمرات من حول الوطن الأم .

الفصل الرابع

الاستعمار الرومانى

استمرت أسباب الإستعمار ودوافعه ، ونظمه ووسائله مع روما كما كانت عليه من قبل . ولكنا نلاحظ أن الإستعمار الروماني كان فريدا من نوعه من حيث قوته وطول المدة التى عاشها ، حتى تظهر إلى جواره كل التجارب الإستعمارية السابقة ، وعدد كبير من التجارب الإستعمارية اللاحقة، بسيطة للغاية . ونلاحظ كذلك أن موطن هذه الامبراطورية كان صغيرا وفقيرا ، لا يزيد عن قرية روما ، التى تقع على نهر التيبر القليل الأهمية ، رغم أن الأجيال التالية قد أعطته من الأهمية أكثر مما يستحق ، وربطت بين نشأته وقصص وخرافات متعددة ، وجعلت منه مركزاً للعالم . وكانت روما إحدى المستعمرات فى أول الأمر ، ولكنها تحررت وتمكنت من فرض سيطرتها على المستعمرات الأخرى فى إقليم « لاتيوم » فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية . وإزداد توسع روما على مضى الأيام ، وعاشت امبراطوريتها ما يقرب من ألف سنة ، أنفقت القرون الستة الأولى منها فى إنشاء هذه الامبراطورية ، والأربعة قرون التالية فى محاولتها الأحتفاظ بها . فما هى خطوات التوسع الرومانى ، ووسائله ؟ وما هى أهداف روما ، ونظمها الامبراطورية ؟ ومساؤها ومحاسنها ؟

(١) خطوات التوسع — :

لا يشتمل تاريخ روما فى الستة قرون الأولى على أعمال خارقة للعادة ،

بل نجد أن كل من الشيوخ العنيدين ، والقواد المتطلعين للمعارك ، والأمراء الديماجوجيين ، قد شاركوا فى إنشاء هذه الامبراطورية ، وأن الجمهورية قد بدأت العملية ، لكى تسلمها إلى الامبراطورية . وكانت روما تعيش لكى تحارب ، وتحارب لكى تعيش فى نفس الوقت . واستمرت فى النمو والاتساع ، بعد إقليم لانيوم ، لكى تشمل كل شبه الجزيرة الإيطالية ، ثم حوض البحر المتوسط ، وظلت دائما كما كانت : روما .

وأفادت روما فى أول الأمر من المشكلات الناشئة بين جيرانها اللاتينيين وحاولت كسبهم كحلفاء ، أو الاستيلاء على ممتلكاتهم أو القضاء عليهم . وإتجهت روما إلى إنروريا ، وإلى تسكانيا ، ثم اتجهت صوب جنوب شبه الجزيرة ، وحاربت فيها عدة حروب ، فشل فيها اليونانيون فى الثبات أمام الرومانيين ، واتسعت روما حتى اشتملت على كل شبه الجزيرة الإيطالية .

وأخذت العمليات الرومانية وقتها ، إذ كانت ممتدة على قرون عدة ، وكانت روما تواصلها بعناد وصبر ، رغم ما قد يعترضها من صعوبات أو فشل ، أو مشكلات داخلية .

وتوسعت روما فى منطقة وادى بو ، ثم عبرت البحر الادرياتى الى البلقان متجهة صوب اليونان . كما أفادت من ترك قرطاجة لكورسيكا وسردينيا ، فاحتلتهما . أما فى صقلية ، فان نفوذ وسلطة قرطاجة كانا موجودين ، وعرفت روما أن قرطاجة منافسة لها فى سيادتها وتوسعها ، وأن عليها — عاجلا أو آجلا — أن تحطمها ، قبل أن تقوم قرطاجة بتحطيمها هى . وبدأت الحروب البونية (١) بين روما وقرطاجة فى صقلية ، وامتدت لفترة

---

(١) انظر ص ٤٣ — ٤٦

١١٨ سنة ، وأمتلأت بالحقد المتبادل والمستمر ، أكثر من استمرار المعارك الحربية . وكانت حروبا استعمارية ، رغم أن أساسها كان « وجود » الطرفين المتحاربين نفسهما . وأنتصرت روما وورثت امبراطورية واسعة ، اضطرتها الى العمل خارج حدود شبه الجزيرة الإيطالية : فقد كانت اهناك صقلية ، وفيها سريافوس حليفة قرطاجة ، وهناك اسبانيا البونيةالتى استولى شيبيو عليها ، وجزء من شمال افريقية يحيط بقرطاجة المنهزمة . ولم يكن فى وسع روما ترك مثل هذا الميراث ، واضطرت الى القيام بعمليات حربية جديدة ضد الاهالى الثائرين ، حتى تضمن ملكيتها لهذه الاقاليم .

وكان فى وسع روما أن توقف توسعها عند ذلك الحد . ولكن طبيعة نشأتها وتكوينها ، والعوامل الداخلية فيها ، والخارجية المحيطة بها ، دفعتها الى الإستمرار فى التوسع . فنجد أن عددا من الأمراء والملوك يوصون ، قبل موتهم ، بضم ممالكهم لروما ، كما نجد شعوبا مهددة تطلب مساعدة روما لها فى ابعاد المعتدين عنها ولا شك انهم كانوا يقدرون معنى هذه الخطوة وما تحمله من نتائج لهم . كما أن روما نفسها قد أستخدمت نفس الطريقة كوسيلة دعائية لتبرير تدخلها فى منطقة أو أخرى . فوصلت روما بهذه الطريقة الى برقة وليبيا ، كما وصلت الى البحر الأسود ، وحاولت استخدامها لضم مصر وفلسطين . والمهم هو أن قوة روما ونفوذها جعل الملوك يحاولون التقرب إليها ، وأعطوها بذلك ذرائع أو أسباب استندت اليها فى تدخلها وفى توسعها .

ولقد طلب اليونانيون فى مرسيليا من مجلس الشيوخ الرومانى مرتين مساعدتهم ضد جماعات الصقلب ، وقامت روما بالدفاع عنهم ، ودفع الخطر عن مدينتهم ، ولكن الرومانيين لم يخرجوا من مرسيليا فى المرة الثانية

وإتخذوها قاعدة لإقليم جديد يصل بين إيطاليا وأقاليمها الجديدة فى شبه جزيرة أيبيريا . وكذلك الحال مع أحد رؤساء البربر الذى حاول الإستيلاء على نوميديا (شمال إفريقية) بمساعدة روما ، فلقد ساعدته روما وحصلت على مزايا فى المنطقة بعد ذلك . وطلبت مصر من بومبى القضاء على إحدى الثورات ، ثم قام قيصر بالقضاء على ثورة الاسكندرية ، قبل أن تلقى كليوباتره بنفسها فى أحضان أنطونيو ، ولم تتمكن مصر من الهرب من روما . وطلبت غاليا (فرنسا الحالية) من قيصر مساعدتها ضد بعض قبائل البرابرة ، فساعدها ، ولم تخرج غاليا من العالم الرومانى قبل عدة قرون . وطلب أبناء فلسطين تدخل روما ، ودخلت فلسطين فى نطاق الدولة الرومانية .

وهكذا بنت روما امبراطوريتها . ولم تقاوم غاليا إلا لمدة ثمان سنوات . وتقدمت روما إلى اليونان على أنها ستعيد الحريات الهلينية ، وكان هذا الموقف يعنى الابقاء على الفرقة ، والإنشقاق الداخلى ، والذى لم يكن فى وسع أى أحد ــ سوى الإستعمار الرومانى ــ أن يقضى عليها . ولعب ماريوس دور الجمهورى ، وسيلا دور الأوليجاركى ، وتركت الفرائس نفسها تقع فى المصيدة ، الواحدة بعد الأخرى . ولقد إنتصر بومبى وهو يحتفظ بالأوضاع القانونية ، وإنتصر قيصر وهو يتفاداها . والمهم هى أن الثورات كانت تنتهى ، وأن روما كانت تضيف الأقاليم إلى الامبراطورية الرومانية .

وحينما بدأ أغسطس سلطته المطلقة كان من الممكن اعتبار أن العالم الرومانى قد تم انشاؤه ، رغم أنه كان يحتاج إلى تنظيف بعض الجيوب

وضم بعض المناطق الموجودة تحت الحماية ، والوصول بالحدود الشمالية إلى نهر الدانوب ، ومد سلطة روما على كل سواحل افريقية من الاسكندرية إلى طنجة . وأوصى أغسطس خلفاءه بعدم توسيع الامبراطورية اكثر من ذلك . ولكنا نجد أن الاباطرة يحملون نسور روما الى أبعد من ذلك ، فيقوم كلوديوس بغزو الجزر البريطانية ، التى كان قيصر قد أوضح معالم الطرق المؤدية إليها ، وعبرت قوات تراجان الدانوب ، ونزلت مع الفرات واستولت على أرمينيا وآشور وما بين النهرين ، وأوصلت حدود روما الى الخليج الفارسى . فاصبحت امبراطورية هذه المدينة الخالدة تمتد من بحر الشمال إلى رمال الصحراء ، ومن المحيط الأطلسى الى المحيط الهندى .

ولقد استمرت عملية التوسع مدة ستة قرون . فكيف نجحت روما فيها ؟ وأى الوسائل استخدمت ؟

(٢) وسائل الغزو والاحتلال :-

لقد استندت روما إلى وسائل ثلاث ، وهى الجنود ، والسفن ، والدبلوماسية ، وتمكنت بها من غزو العالم .

وكانت أول وسيلة وأهمها هى الجنود . وكان أبناء روما قد تعودوا شن الغارات على غيرهم قبل أن يعملوا فى الجيش ويدافعوا عن أنفسهم . وكانوا من الفلاحين ويعرفون قيمة الأرض ، ومستعدون للتضحية من أجل الحصول عليها ، واستعمارها . ولم يخدم فى الجيش ، فى أول الأمر ، سوى المواطنين ، وأصحاب الأملاك من بينهم . وكانوا يعتبرون أنهم سيدافعون عن روما بقدر ما يمتلكوه فيها ، وكان هذا سببا فى عدم تجنيدهم للفقراء ، واستخدامهم الأغنياء كفرسان . وكانوا جميعا قد تعودوا حياة

الخشونة ، وتمرنوا على المعيشة فى الهواء الطلق مع عملهـــم فى الحقول والزراعة . وبمضى الوقت تمكنوا من التوفيق بين الفلاحة والحرب .

وزادت حاجات روما مع نموهـا ، واضطرت فى عهـد ماريوس إلى استخدام طبقة العمال فى الجيش ، فى الوقت الذى اخذت فيه طبقة الملاك فى التهرب من الخدمة العسكرية . وأصبح التجنيد بعد ذلك عملا مسـتمراً فى عهد الامبراطور أغسطس ، ووصلت مدته إلى سـتة عشر سـنة للحرس البريتورى ، وعشرين للفرق التى تضم كل المواطنين ، وخمسة وعشرين للفرق الإحتياطيه . وأصبح على أبناء روما ، الذين يجندوا فى سـن العشرين ، أن يبقوا فى الجيـش حتى ما يقرب من سن الأربعين ، فـكانوا يقضون بذلك جزءا هاماً من حياتهم « تحت السلاح » . وكان هذا الجيش أداة عسكرية وسياسة هامة فى أيدى القياصرة ، كما كـان فى نفس الوقت أداة للاستعمار. فـكانوا بعد المعارك يهتمون بالأراضى ، وبالحقول ويبنون المدن ويشقون الطرق التى تستخدمها روما فى استغلال المناطق الخاضعة . وكانت اللاتينيـة هى لغتهم ، أو لغة أغلبيتهم ، وكانوا ينقلونها معهم فى المناطق التى يذهبون إليها ، ويعلمونها للأهالى ، ويساهمون بذلك فى تطوير الامبراطـورية ، واعطائها خاصيتها الرومانية .

أما الاسطول فقد كان وسيلة هامة من وسائل الغزو الرومانى ، وإن كان أقل أهمية من الجيش . حقيقة أن روما لم تكن على السـاحل مثل صور وقرطاجة ، كما أن شبه الجزيرة الايطالية نفسها كانت تتوغل فى البحر ، بعكس الحال فى اليونان ، حيث تتوغل الميـاه داخـل الأرض ، ولـكن الصراع مع قرطاجة وتصميم روما على الاستيلاء على امبراطورية قرطاجة البحرية ، جعلها تهتم بقواتها البحرية وبانشاء السفن واستخدام العبيد والفقراء

فى التجديف . وسارت روما على هذا المنهج بتصميم ، حتى تمكنت من إنشاء أسطول قوى ، تمكن من هزيمة أسطول قرطاجة .

واستخدمت روما الدبلوماسية وسيلة ثالثة تعتمد عليها فى التوسع والغزو، واستغلت فى ذلك المكر والخداع ، والتغلغل السياسى ، والحكمة والتأنى ، حتى تصل إلى أهدافها ، وتحصل على نتائج مؤكدة ، وبأقل خسائر ممكنة . فانتهزت فرص قيام نزاع على مناطق مختلفة بين دولتين ، لكى تقوم هى بضم هذه المناطق ، كما فسرت المادة التى تنص على تنازل قرطاجة لها عن الجزر الواقعة بين صقلية وايطاليا ، بعد الحرب البونية الأولى ، على أنها تعنى جزيرتى سردينيا وكورسيكا ، وقامت بالاستيلاء عليهما . وكانت مصالحها هى التى تملى عليها الاحتفاظ بالمعاهدات أو إيجاد ذريعة لالغائها . وكانت صداقة روما مخيفة ، إذ انها كانت تمهد للحماية ، وبالتالى للضم . وقامت روما بتحويل مملكة كبادوشيا إلى مقاطعة رومانية ، رغم أن ملكها كان صديقا لها ، وانتهزت فرصة مقتل ملك تراقيا وضمت اقليمه للامبراطورية ، رغم أنه كان تحت حمايتها ، وضمت موريتانيا رغم أن ملكها كان « حليفا » لروما ، وكانت روما سخية بعد ذلك فى منح الألقاب والأسماء الطنانة للمدن والأقاليم ، فهذه عاصمة ، وهذه المدينة الأولى فى آسيا ، مما جعل هذه المدن تعتقد فى أنها مهمة ، وأنها حرة . ولكن روما كانت دائما تنشىء حزباً موالياً لها فى الداخل ، يقوم بعملية الصراع ، حتى يحرر المدينة من طغيان الحاكم وفساده ، وعند نجاح هذا الحزب ، تقع المدينة تحت سيطرة روما واستغلالها ، وفى الوقت الذى تعتقد فيه أنها قد تحررت.

ولم تكن روما متسرعة فى تطبيق سياستها ، بل كانت تعتمد على الوقت

وتنتظر نضج الثمرة . وكثيراً ما كانت ترفض ضم أحد الأقاليم أو غزوها إذا كان هذا الاقليم بعيداً عنها ، أو كانت إدارته تكلفها الأموال أو الرجال . وهكذا رفضت روما ضم نوميديا بعد انتصارها عليها ، حتى لا تتحمل الكثير من المسؤلية ، ورفضت ضم مدن برقة واكتفت بالاستيلاء على ممتلكات ملكها السابق ووزعت الاقليم على رؤساء قبائل البربر ، نظير تعهدهم بدفع جزية سنوية لها ، وتركت مناطق جرمانية كبيرة واكتفت بالراين حداً لتوسعها واستغلالها ، وأمرت باخلاء ما بين النهرين وآشور بعد أن تأكدت من خطر الاهالي وصعوبة ضمهم . وكان السبب الاساسى لهذا التمهل السياسى والحكمة هو الإقتصاد ، إذ أن روما كانت تحاول الإقتصاد فى أموالها ، وأرواح رجالها ، حتى تكون العملية مربحة لها ، أى تعود عليها بالدخل أكثر مما تنفقه عليها ، وهو أساس العمليات الاستغلالية الناجحة .

وكان دور الاحتلال يأتى بعد دور الغزو ، الذى أعتبرته روما وسيلة للتنظيم والاستقرار والاستغلال . واستخدمت روما وسيلتين هامتين للاحتلال : الأولى هى إنشاء المدن ، والثانية هى إنشاء الطرق .

أما المدن فقد نشأت فى غالبيتها فى شكل المعسكرات(١) التى أقامها الجند فى المواقع الاستراتيجية الهامة ، أو حول أبراج الحراسة والحصون ، والتى لا تزال كثير من أسماء المدن تحمل ما يدل على أصل نشأتها بهذه الطريقة(٢)

(١) معسكر Castra ونجد هذا الاصل فى اسماء بعض المدن الفرنسية مثل Castre وشاتر chetre ، وبعض المدن البريطانية مثل Cestor وشستر chester والسويسرية مثل Gastern والالمانية مثل Cassel .

(٢) من كلمة Burgi وصلنا الى كلمة burg الالمانية و borough الانجليزية و bourg الفرنسيه و borgo الايطالية وبرج الافريقية والعربية .

ونشأت مدن أخرى بمرسوم امبراطورى منح بعض المواطنين الرومانيين أرضا فى اقليم مفتوح ، واستخدمت روما هذه الطريقة لتوطين بعض عناصر الفقراء بعيداً عنها ، وللتخلص بهذة الطريقة منهم ، أو لتوطين بعض قدماء المحاربين الذين بلغوا سن الخامسة والأربعين ، فأقطعتهم قطعاً من الأرض ، عليها أحد المنازل ، واشترطت عليهم عدم التصرف فيها قبل مضى عشرين سنة . وكانت المدن الناشئة بهذه الكيفية تسمى مستعمرة ، وهى تنشأ بأمر السلطات العامة وتحت إشرافها ، وكان على الاقليم أن يرحب بقدوم الجماعة الجديدة ، سواء أكان ذلك للاقامة فى المدينة المحتلة ، أو فى مدينة جديدة مجاورة لها . ولقد أنشأت الجمهورية الرومانية مثل هذه المستعمرات فى أنحاء كثيرة من شبه الجزيرة الايطالية ، أما القياصرة فقد انشؤا مدناً جديدة أو مستعمرات بجوار المدن الأصلية فى جميع أنحاء الامبراطورية ، كما هو الحال فى ليون ونيم وتمجاد وجميلة ، ولايزال بعضها يحمل اسم « المستعمرة » مثل لنكولن فى انجلترا وكولونيا على نهر الراين. وكانت هذه المستعمرات أو المدن عبارة عن قلاع قرب الحدود ، يسكنها جماعة من قدماء المحاربين . وكانت كذلك مراكز زراعية وإدارية وتجارية، تعقد فيها الاسواق ، وتجمع فيها الضرائب ، وتنتشر منها اللغة اللاتينية ، والعادات والتقاليد الرومانية . كما كانت مراكز للراحة على الطرق ، تبدل فيها الخيول ، ويستريح فيها المسافرون .

وكذلك استخدمت روما الطرق وسيلة من وسائل الاستعمار . وإذا كانت المدن هى مراكز إحتلال ، فان الطريق كان وسيلة إتصال مستمرة . وأنشأت روما الطرق على خطوط مستقيمة ، ورصفتها بالاحجار أو الصخور ، وزودتها بعلامات للمسافة ، ومراكز لراحة المسافرين وخيولهم .

وانشأت روما شبكة الطرق فيها على أساس امبراطورى ، إذ كان عدداً كبيراً من هذه الطرق يبدأ من العاصمة ويتوغل فى القارة الأوربية ، وكان غيرها يدور حول البحر الادرياتى ويصل إلى اثينا ، أو يصل بين مصب الراين ومصب الدانوب . أما فى آسيا فقد امتدت الطرق من المضايق ، حتى جبال القوقاز ، مارة إلى جانب سواحل البحر الاسود ، وإمتدت غيرها من انطاكية إلى صور إلى غزة فمصر . واما فى افريقية فقد امتدت إلى جوار الساحل من مصر إلى برقة ثم الى قرطاجة وشرشال ، ثم ابتعدت عن الساحل قليلا لكى تواصل امتدادها الى طنجة ووليلى . وامتدت طرق أخرى حتى غدامس ، وسارت غيرها الى جوار النيل . وكانت لبعض هذه الطرق أهمية استراتيجية واضحة ، ولكنها كانت كلها ذات أهمية إقتصادية هامة : فكانت توزع المنتجات ، وتجعل من روما مركز العالم ، وأهم مخزن فيه ، وتمد المدن الناشئة عليها بما يلزمها ، وتساعد على استمرار نموها وإزدهارها ، وتحولها إلى عواصم ، كما هو الحال مع ليون ومع انطاكية. وأخيراً قد ربطت هذه الطرق روما بالتجارة العالمية ، ووصلت بينها وبين بلاد « العنبر » وسواحل البحر البلطى ، كما ربطت بينها وبين بلاد الحرير فى الصين .

وهكذا نجد أن روما قد اعتمدت فى استعمارها على الجيوش التى تغزو وتحتل ، وعلى المحاربين الذين يتحولون إلى مزارعين أو تجار بعد تركهم الجيش ، واستخدمت سياسة خاصة للافادة من المواقف المعينة ، ولكنها لم تتراجع عن إنشاء المدن وشق الطرق. واستخدمت روما إمكانيات ضخمة فى استعمارها ، وكان الازدهار الناتج إزدهارا كبيراً كذلك .

(٣) الاهداف :ـ

إذا ما تتبعنا مجرد تاريخ غزوات الرومان وفتوحاتهم ، لاعتقدنا أن هدفهم لم يكن إلا طموح القائمين على أمر الدولة ، والحقيقة أنه لا يمكننا إستبعاد العامل الشخصى ، والبحث عن المجد وأكاليل الغار ، من المشروعات الرومانية ، سواء أكان ذلك فى عهد القناصل أو عهود القياصرة . ولكن هناك عوامل أخرى ، جماعية ، كانت تدفع مجموع الرومان فى هذا الطريق . وكانت هذه العوامل سياسية ، ومالية ، وإقتصادية .

أما العوامل السياسية فقد ظهرت فى أول الأمر أمام الأخطار الأجنبية ، ومع ضرورة الكفاح من أجل البقاء . فلم يكن فى وسع روما أن تتراجع أمام قرطاجة ، وكان من الضرورى أن يقضى أحد الخصمين على الآخر . وتمكنت روما من الانتصار فى ذلك الصراع وورثت مستعمرات قرطاجة . وكان هناك أمن الدولة ، ولم يكن فى وسع روما أن تترك العصابات تدور فى مناطقها المتطرفة ، ولا القراصنة يتعرضون لسفنها . وكان هذا هو السبب الذى اضطر أغسطس الى القيام بحملة إتيوبيا ، والذى اضطره إلى تعيين حكام فى شمال افريقية لترويض القبائل غير الخاضعة ، ودفع من يرفض التوطن منهم فى مناطق معينة إلى داخل الصحراء . وكانت هناك أخطار قبائل البرابرة من جرمان وصقالب ، والتى دفعت روما الى العمل فى مناطق الراين والدانوب ، وإلى العمل فى الجزر البريطانية حتى تدافع بذلك عن مراكزها فى غاليا . ويظهر من ذلك أن روما كانت تقوم بالهجوم لكى تدافع عن نفسها وممتلكاتها وأقاليمها ، أى أن امبرياليتها هى امبريالية دفاعية ، فتغطى غاليا ببريطانيا ، ونوميديا بموريتانيا ، وسوريا بما بين النهرين ، ولكن كل من هذه «الأغطية» أصبح يحتاج إلى غطاء جديد بمضى الوقت ، وأصبح كل غزو يتطلب غزو آخر .

وأما العوامل المالية والارباح فتظهر واضحة فى عصر الجمهورية . فلم يكن هناك نصر بدون أسلاب ، ولا إخضاع بدون إستلام للجزية . ولقد شهد عصر الجمهورية علاوة على ذلك إزدهار نوع من الرأسمالية القائمة على الإستغلال الإستعمارى ،ومرتطبة به ، وبشكل يسمح لنا بالقول بأن الإستعمار الرومانى قد أنشأ الرأسمالية ، وأن الرأسمالية الرومانيــة كانت فى حاجة إلى الإستعمار .

ولقد تحولت الثروات من عقارية إلى مالية مع ظهور النقود وإزدهار التجارة ومع النشاط الإستعمارى . ووجد الرومان فى دولتهم النامية فرصا للأعمال ، من توريد ، إلى إستصلاح الأراضى ، ومشروعات إستغــلال المناجم ، إلى الأشغال العمومية والتزامات جمــع الضرائب . وكانت هــذه الأعمال تزيد فى غالب الأحيان عن مقدرة شخص واحد . فتكونت الشركات المساهمة ، أو ذات الأنصبة ،والتى كانت تسمى بالشركات العامة، والتى لم تتراجع عن إستغلال الأقاليم . وأصبحت هـــذه الشركات تجمع العشور على القمح فى صقلية ، والضرائب على الشمع فى سردينيا ،وجميع الضرائب فى آسيا . وقامت ببناء القناطر ، وشق الطرق ، وإنشاء القصـور والمعابد ، وأقرضت الأقاليم المفتوحة حتى تتمــكن من دفع الغرامة الحربية وحصلت على أرباح ، فى هذه العملية الأخـــيرة ، وصلت الى ٤٨ ٪ . وحاولت هذه الشركات الحصـول على الأرباح ، بأى شكل ، وأستغلت فى ذلك المستعمرات . ولم يكن فى وسع حكام الأقاليم التدخل فى مثل هذه العمليات ، التى كانت مركزة فى أيدى رجال الأعمــال فى روما نفسها ، وكان بعض الحكام قد استدانوا حتى يتمكـنوا من الحصول على مناصبهم ، فاحتاجوا إلى الإتفاق مع هذه الشركـات حتي يتمكنوا من دفع ديونهم ،

ولقد حاول بعض المشرعين تحديد هذه العمليات الاستغلالية الفاضحة ، فحرمت روما على أعضاء مجلس الشيوخ ، وأبنائهم ، تملك سفن تزيد حمولتها على تسعة أطنان ، وحرمت عليهم العمل فى التجارة ، ولكن العمليات أستمرت ، وبأسماء مستعارة . وعمل سيلا على استخلاص عملية جمع الضرائب من أيدى الفرسان ، ولكنهم حصلوا على عمليات رأسمالية أخرى ، وفى مناطق مختلفة . وأستمر الحال كذلك حتى عهد أغسطس الذى تمكن من ضرب الشركات الرأسمالية ضربة شديدة،وذلك بتأميمه للمناجم ، وبحصره عملية جمع الضرائب فى أيدى الدولة . فاضطرت رؤوس الأموال الى البحث عن عمليات فى ميادين أخرى ، وأصبحت المستعمرات ملكا للدولة .

وأخيرا ، فهناك العوامل الإقتصادية . ولقد كانت روما فى حاجة الى الأراضى والمنتجات علاوة على حاجتها الى الأرباح ، وأحتاجت اليها فى أول نموها للتنفيس عن السكان المتزايدين بسرعة ، وفى أرض فقيرة ، وأحتاجت اليها كلما طالب العمال فى روما بضرورة ايجاد عمل لهم ، ولإبعاد المهزومين فى الحروب. فاستخدمت العاطلين والمهجرين فى تعمير مستعمراتها، ومع الزمن زاد احتياج روما الى المنتجات والى الفاخر منها ، فاحتاجت الى الإستعمار والاستغلال بعد عمليات الغزو والفتح .

وكانت إيطاليا شرهة إلى درجة كبيرة ، وكانت اراض شاسعة قد تحولت من زراعة الحبوب إلى زراعة الكروم التى تتطلب عملا أبسط ، ومجهودا أقل ، فاحتجزت روما لنفسها قمح صقلية وإفريقية وغاليا ومنطقة المضايق . وأستوردت روما الجبن من غاليا ، والأسماك المملحة

من اسبانيا ، والتمر والتين من آسيا الصغرى وسوريا وقبرص وافريقية ، والعسل من اليونان ، والخضروات والفواكه من قرطاجة . أما الأغنياء فكانوا يطلبون الاصداف من بوردو والطاوس من ساموس .

وكانت روما تحتاج كذلك الى المواد الأولية الموجودة فى امبراطوريتها، مثل الذهب الموجود فى مقدونيا وتراقيا وجزر بحر إيجه واسبانيا وغاليا وبريطانيا ودلماسيا ، ومثل الفضة الموجودة فى اسبانيا وسردينيا وغاليا ، والنحاس الموجود فى قبرص ومقدونيا واسبانيا ، والرصاص الموجود فى افريقية وكيليكيا وبريطانيا ، علاوة على الحديد والرخام والجرانيت والفخار الموجودة فى جميع أنحاء الامبراطورية . وكانت المناجم قد اصبحت ملكا امبراطورياً ، واستغلتها روما فى انشاء القصور والمعابد وتجميلها .

وكانت روما تطلب من أقاليمها تزويدها بالمنتجات المحلية ، مثل التيل من غاليا وفينيقية ، والأصواف من اليونان واسبانيا ، والاقمشة الموشاة من سوريا ومصر . أما اليونان فكانت تزودها بالروائح و التحف الفنية .

وكانت روما قد تعلمت من الشرق الرفاهية والفخامة والاستمتاع ، واستغلت الامبراطورية كلها ، حتى تتمكن من العيش فى هذا المستوى ؛ وكانت تبيع أسرى الحرب فى عهد الجمهورية كعبيد ، وبلغت اعدادهم فى سوق ديلوس ما يقرب من عشرة آلاف فى اليوم ، واستغلتهم فى العمل والانتاج بدلا من العمال العاديين . أما فى عهد الامبراطورية فكانت تحضر العبيد من غاليا والشرق واستغلتهم كقوة منتجة ، وأيضا ككتاب وشعراء وموسيقيين فى القصور الكبيرة ، واحاط الاغنياء أنفسهم بهم ، كما يحيطون أنفسهم بالعاج الافريقى ، وجلود ما بين النهرين

وأحضر الأباطرة الأسود من إفريقية، والتماسيح من أعالي النيل، وأصبحوا يقتنون السجاجيد الموشاة واللآلىء والتماثيل النادرة، بعد أن عاش أجدادهم فى بساطة متناهية . ولا يمكننا القول بأن روما كانت تحاول أن تعيش فى هذا العصر ، بل لقد تطورت وأصبحت ترغب فى العيش فى الرفاهية . لقد أصبحت روما تأكل وتشرب وتتسلى وتستهلك ، وأصبحت فى حاجة إلى امبراطوريتها لرفاهيتها وملذاتها ولإستمرارها فى الإفراط فى هذه الرفاهية والملذات .

(٤) الامبراطورية : -

بلغت مساحة الامبراطورية الرومانية أربعة ملايين كيلو مترا مربعا ، وإمتدت على طول خمسة آلاف كيلو متر ، من شمال أسكتلندا إلى اثيوبيا ، أو من السواحل الأطلسية لموريتانيا حتى القوقاز ، وكانت حدودها هى بحر الشمال والخط الواصل بين الراين والدانوب ثم البحر الاسود والقوقاز ثم فارس والخليج العربي وجزيرة العرب ثم الصحراء الكبرى . وبلغ عدد سكانها ثمانين مليونا منهم سبعة فى إيطاليا و ٣٥ فى أوربا و ٢٢ فى آسيا وستة عشر مليونا فى إفريقية . وكان هذا العدد يمثل أكثر من ثلث سكان العالم القديم ، وأكثر من ربع سكان العالم فى ذلك الوقت . وبلغ عدد سكان مدينة روما مليون نسمة ، وكذلك الإسكندرية . وبلغ عدد سكان إنطاكية سبعمائة ألف وسكان قرطاجة نصف مليون .

وكانت هذه الامبراطورية تشرف على كل سواحل البحر المتوسط وتسيطر على كل جزره والمضايق المؤدية إليه ، حتى حق للرومانيين فى ذلك العصر أن يلقبوه بأنه بحرهم Mare Nostrum .

وإنقسمت الامبراطورية فى عصر إزدهارها إلى خمسين اقليما حول روما وإيطاليا ، وكان أقدمها هو اقليم صقلية الذى استولت عليه فى الحرب البونية الأولى،ثم اقليم كورسيكا وسردينيا ، وبعد ذلك بقية الاقاليم التى غزاها الرومان،سواء فى أوربا أو آسيا أو إفريقية . وأهتمت روما بمناطق الحدود أهتماما خاصا للدفاع عن نفسها أمام أخطار البرابرة . وفضلت روما الحدود الطبيعية ، من محيطات وبحار وأنهار وجبال وصحارى ، على غيرها من الحدود ، ولكنها اضطرت إلى الدفاع عن امبراطوريتها فى منطقة الراين والدانوب بانشائها لطريق حربي ،ثم دعمته باقامة التحصينات من جذوع الأشجار،ثم من الاحجار ، وبنت القلاع والابراج على طول هذا الخط . وعملت روما على توطين بعض أهالى غاليا وبريطانيا وراء هذه التحصينات للدفاع عنها ، وفرضت ضريبة العشور على محصولاتهم الزراعية فى نفس الوقت . وأضطرت روما إلى إنشاء خطوط حدود محصنة كذلك فى بريطانيا . أما بقية الحدود الطبيعية فقد أنشأت روما عليها ابراج المراقبة ، والخنادق فى بعض الجهات ، وحسب طبيعة الأرض . ودل هذا على أن غزاة روما قد تحولوا إلى مدافعين عن امبراطوريتهم وأن ناشرى فكرة « الوحدة العالمية » ، وإن كانت تحت ظل روما ، قد تحولوا إلى محافظين . ووزعت روما فرقها العسكرية على هذه الحدود ولم تترك داخل الامبراطورية إلا عددا بسيطا من الجند ، وذلك نتيجة لخوفها من القبائل الجرمانية ، ومن بدو الصحراء ، ومن الاتيوبيين ومن بربر شمال افريقية . ولم يمنع ذلك روما من ارسال بعض حملات الإستطلاع والإستكشاف الى ماوراء هذه الحدود ، وخاصة الى جزر هبريدة ، والى الصحراء الكبرى ، ولكن روما لم تحاول مد سلطتها الى هذه المناطق ، وانتظرت مجيء قوافل الأهالى اليها ، محملة بريش النعام وسن الفيل الافريقي أو جرير

الصين .

ولقد تطورت نظم الحكم الرومانى ، أو علاقة الرومانيين بالشعوب الخاضعة لهم ، مع مرور الزمن . فنجد أن روما فرضت سلطتها فى أول الأمر على رعاياها ، كأطفال لم يبلغوا بعد سن الرشد . وكانت هذه السلطة مطلقة ، ولكنها ضعفت ، وأصبحت كل ايطاليا تحكم الامبراطورية، ثم أصبحت أقاليم الامبراطورية متحدة مع بعضها ، وعلى قدم المساواة ، وأصبح كل سكان الامبراطورية من الرومان.وأصبح أبناء روما يمثلون أقلية فى الامبراطورية التى تحمل إسمهم .

فلقد كانت جمهورية روما فى أول الأمر جمهورية ارستقراطية ، يحكمها الملاك وأبناء الاسر بمجلس الشيوخ ، ويتحكمون فى « الجماهير » أو « الشعب » الذى كان عليه أن يعمل ويطيع . ونظمت روما نفس الوضع بالنسبة للشعوب المغلوبة التى خضعت لها ، وأعتمدت على الاحزاب الارستقراطية ضد الإتجاهات والقوى الشعبية ، وفصلت بين الرومانيين وبقية سكان الامبراطورية ، وقصرت الحقوق الرومانية على تلك الفئة المنتسبة إلى أحد قبائل روما القديمة ، وجعلت أبناءها يتمتعون بهذه الحقوق فى أى منطقة من الامبراطورية يقيمون فيها . أما بقية سكان الامبراطورية فكانوا « رعايا » لا يتمتعون بحق التصويت ، أو حق امتلاك الأراضى الرومانية ، أو حتى حق الزواج بالرومانيين ، وكانوا يدفعون الضرائب ويعاملون معاملة خاصة فى الجيش ويحصلون من الاسلاب والغنائم على أنصبة أقل من أنصبة الرومانيين . ولقد دفعت هذه التفرقة أبناء المدن الداخلة فى نطاق الامبراطورية الى محاولة الوصول الى مرتبة الرومانيين ، حتى يتمتعوا بامتيازاتهم المعنوية والسياسية والإقتصادية ، دفعتهم الى المطالبة بهذه الوضعية

ودعتهم إلى الكفاح من أجل الوحدة أو الاتحاد مع أبناء الدوله الغازية . واضطرت روما الى اعطاء الحقوق السياسية لكل اللاتينيين ، ثم اضطرت الى معاملة كل سكان ايطاليا على انهم من الرومانيين نتيجة لضغطهم عليها ، وفى فترة حروبها مع الخارج ، وحاجتها اليهم فى هذه الحروب . إنها رغبة المحكومين فى الحصول على امتياز الحكام والاتحاد معهم ، ولكنها تحمل فى نفس الوقت معنى رغبتهم فى فرض انفسهم على غيرهم من أبناء المناطق الأخرى ، والتمتع فيها بالامتيازات التى منحها الرومان لانفسهم فى ايطاليا نفسها فى أول الامر . ونظمت روما العملية ، ودعمت مركزها بقصرها على من له ثلاثة أبناء أو من يبنى سفينة لها حمولة معينة أو من يستورد القمح الى روما ، فأرتفع عدد المواطنين الذين هم فى سن حمل السلاح من ثلاثمائة ألف بعد الحرب البونية الثانية الى ثلاثة أضعاف هذا العدد ، بعد اعطاء الحقوق الرومانية لابناء ايطاليا ، ثم وصل الى أربعة ملايين فى عهد قيصر وخمسة ملايين فى عهد أغسطس وستة ملايين فى عهد كلوديوس . ثم امتدت هذه الحقوق الى سكان صقلية ثم سردينيا واسبانيا ثم غاليا ، وتحول الجميع الى رومانيين فى عهد كراكالا . وأصبح هذا التطور يعنى الغاء النظرة السابقة التى تفرق بين الغازى والمهزوم ، فالكل سواء ، ومن الجزر البريطانية الى ما بين النهرين ، وإن كانت سلطة خاصة قد أخذت فى النمو فوقهم ، هى سلطة القياصرة . وبعد أن كانت الارستقراطية تعتمد على مجلس الشيوخ فى حكم غيرها ، أصبح الأمر بحكم الشعب .

وإنقسمت الاقاليم فى الامبراطورية تبعا لذلك إلى أقاليم خاضعة لمجلس الشيوخ ، مثل صقلية وإفريقية ، وأقاليم امبراطورية مثل غاليا وسوريا التى تحتاج الى بقاء قوات فيها ، وأقاليم ملكا خاصا للأمير ، مثل مصر

التى كانت لها تقاليد ملكية قديمة . وأصبح لكل نوع من هذه الاقاليم خزانة خاصة بها، تجمع فيها الضرائب . وسمح هذا بازدياد سلطة القيصر ، الذى اعتمد على موارد مصر وإمكانياتها المالية ، وتضاءل فى نفس الوقت نفوذ مجلس الشيوخ نتيجة لقلة إمكانياته . وأفاد القيصر من نشوب الثورات فى الاقاليم ، فكان يرسل اليها قواته ثم يعمل على ابقاء هذه القوات فى الاقاليم وتحويل وضعيتها الى ملكيته القيصرية . وقامت خزانته بتقديم المعونة لخزانة الاقاليم الخاضعة لمجلس الشيوخ ثم سيطرت عليها . وفى الوقت الذى كان فيه لمجلس الشيوخ الحق فى اصدار النقود النحاسية ، احتفظ القيصر لنفسه بحق ضرب القطع الذهبية. ووصل الحال بأعضاء مجلس الشيوخ الى اعفائهم من حضور الجلسات ، مع احتفاظهم بالقابهم الفخرية . فأصبح الامر كله فى يد الامبراطور ، وتركزت فى شخصه كل السلطات من تشريعية وقضائية وادارية ومالية . ومع امتداد حدود روما الى حدود الامبراطورية أصبح الامبراطور يعيش كما يحلو له فى أى إقليم من أقاليمها ، ونجد أن تراجان الذى ولد فى اسبانيا قد قضى نصف مدة حكمه على الحدود ، ومات فى آسيا ، كما نجد أن هادريان الذى ولد كذلك فى اسبانيا ، قد قضى عشر سنوات فى التفتيش على الاقاليم . وجاء الوقت الذى أصبح فيه أباطرة روما من أبناء الاقاليم ، وأصبحوا يتركون روما ويعيشون فى مدن أو مناطق أخرى ، حتى يمكننا القول بأن الامبراطورية قد استعمرت بدورها روما .

وتذهب بعض النظريات إلى وصف روما بالتحرر لدرجة تنفى عنها وعن امبراطوريتها فكرة الاستعمار . ولكن هذه النظريات خاطئة كل الخطأ ،خاصة وأن روما قد احتفظت للأرستقراطيين بالحقوق والامتيازات

وعلى حساب غيرهم ، ولم تمد هذه الحقوق والامتيـازات إلى كل اللاتينيين (سكان اقليم لا تيوم) إلا نتيجة للضغط ، وأمام إمكانية سيطرة الجميع على مناطق جديدة ، وشعـوب أخرى . واستمـر الحال على هذا المنوال حتى إمتـــد إلى كل الامبراطورية . وحتى فى هذه المرحلة نجـد أن نمو سلطة القيصر وامتداد نفوذه قد ساعدعلى إيجاد « طبقة » من الموظفين الخاضعين له فى الأقاليم . وكانت لهذه الطبقة سلطاتها وامتيازاتها التى تفصل بينها وبين « المواطنين » وبشكل واضح . وأما عن تحرر روما وعـدم فرضها لغتها على الأهالى فانها كانت تعلم أن لغتها ستنتشر مع الزمن ، ومع رجال الفرق العسكرية ، ومع عملية توطين قدماء المحاربين فى كل مكان . والواقع أن روما والامبراطورية الرومانية كانت تحاول الاحتفاظ بسلطاتها وامتيازاتها حتى الوقت الذى تضطرها فيه الظـروف الى التسليم بمطالب وباتجاهات الاغلبية ، وكانت هذه «المرونة » هى التى تسمح لها بالتشكل بشكل جديد ، حسب الظروف الجديدة . ويظهر هـذا واضحـا حتى فى الاضطهـاد الذى ذاقـه المسيحيون الاوائل والذين اعتبرتهم روما فى أول الأمر من « الخوارج » الذين يرفضون عبادة الامبراطور ويفضلون عليها عبادة الخالق ومن المخربين الذين يسوون بين العبد والحر ، ومن « الثـوار » الذين يكافحون ضد الاستعمار . ولكن مرونة روما هى التى جعلتها تتخـذ المسيحية دينا رسمياً لها فيما بعد ، وسمحت بذلك لنفسها بفترة أخرى من الحياة . وإن « نظام » المسيحية نفسه قـــد تطور وتأثر بانشاء الكنيسة وبعلاقتها بالقيصر ، وعلاقتها وسلطـاتها ونفوذها على الأهالى .

(٥) الاحتضار :—

ولقد تأثرت روما نفسها بالتطور الناتج عن اتساع الامبراطورية وعن

تفاعل العناصر والعوامل مع بعضها فى داخلها . فأدى اتساع أقاليمها، وهى منتجة للقمح ، إلى انخفاض أسعاره فى روما نفسها ، وتحـول الأراضى الرومانية إلى زراعة الكروم والزيتون وتربية المواشى والبهائم وكان هذا التحول يحتاج الى رؤوس أموال ، فاختفت الملكيات الصغـيرة أمام الملكيات الكبيرة،وحدثت هجرة من الريف إلى المدن وتحول عـدد كبير من أبنـاء الريف الى « طبقـة عمال ».واحتاجت إيطاليـا إلى منتجـات امبراطوريتها ، وعاشت عليها ، وجاءت هذه المنتجات لكى تنافس منتجات إيطاليا نفسها ، ومن حيث النوع والسعر.مثل الأنبذة والزيوت والفواكه. وكان بعض هذه المنتجات مصنوعة ، مثل الأقمشة والتحـف ، وتفوقت على مصنوعات إيطاليا،وفى الوقت الذى قلت فيه رغبة الرومانيين فى الانتاج، وأخذوا فى معيشة الترف ،واحتاجوا للكماليات .

وكانت الحروب الرومانية من المساوىء الواضحة لهذه الامبراطـورية مع اشتملت عليه من قسوة وتخريب ، وسبى وسلب ونهب، وما تبعتها من غرامات حربية ، ثم جزية وضرائب . وجاءت بعد ذلك مساوىء حـكام الأقاليم وجمعهم تحف الاقليم وكل ما خف حمله وارتفع ثمنه ، ونقلهم إياه إلى روما ، كما حدث فى صقلية ، فى عهد الجمهورية . وكانت روما هى التى تقرر قيمة الضرائب ، وكانت غالبا مرتفعة وثقيلة على كاهل الأهـالى فى الأقاليم ، كما كان الحال مع مصر . ولقد أمرت روما بتقليع الكـروم فى غاليا حتى لا تنافس أنبذتها ، وحولت كل سكان بيتينى إلى العبـــودية ، نتيجة لعدم دفعهم ديونهم للامبراطورية ، وضغطت على مرسيليا مستندة إلى انها فضلت بومبى على قيصر . وكانت الامبراطـورية هى التى تستغـل المناجم والمعادن فى كل الأقاليم ، وبطريقة استغلالية وإحتكارية . ويمكننا

أن نضيف إلى ذلك العلاقة السياسية بين الرومان وأبناء الأقاليم ، وسيطرتهم عليهم ، حتى أن العرب والبربر والجرمان والايرلنديين قد قاوموا الحكم الرومانى ، ورفضوا فكرة التحول إلى رومانيين ، كما أن اسبانيا قد كافحت لمدة قرنين ، وبحرب عصابات شبه مستمرة ، قبل أن تستقر الأحوال بها . ولكن أمامنا مثل غاليا التى إنصهرت فى البوتقة الرومانية كما أن ثروة الأقاليم كانت تساعدها على الاستمرار فى التصدير لروما ، وفى صالح ميزانها التجارى ، معوضة بذلك الغرامات الحربية والضرائب التى تدفعها . وأخيراً فان روما لم تكتنز الثروات ، بل قامت بانفاق دخلها على انشاء الامبراطورية ، بطرقها ومدنها وقناطرها ومعابدها ، مما يسمح بالقول بأن جزءاً كبيراً من ضرائب الأقاليم قد عادت إليها فى شكل مشروعات للانشاء والتعمير .

ولقد قامت الامبراطورية الرومانية باستصلاح الأراضى واستغلالها ، وساعدت على استغلال المعادن وانتشار المصنوعات ، وساعدت كذلك على ازدياد التبادل التجارى بين الأقاليم وبعضها ، وبينها وبين المناطق الواقعة خارج الامبراطورية . وإمتد العمران الى مناطق نائية ، ولا تزال مواقع الحفائر الرومانية تشهد بذلك ، كما تشهد بوجود حضارة متقدمة فى هذه المدن المزودة بالمياه والمجارى والتدفئة الصناعية والحمامات والمسارح . ولقد أعطت روما لأبنائها الأمن والنظام والقانون ، وإن كانت قد أخذت عن الشرق ، فانها قد أعطت للغرب ، وتمكنت من صبغ جزء كبير منه بالصبغة الرومانية .

وأخذ الضعف يدب فى جسد هذه الامبراطورية ، بعد أن بدأ من الرأس . وكانت القيصرية قد نشأت دون التعرض لنظام الجمهورية أو التفكير فى إلغائها ، ودون أن تكون هذه القيصرية وراثية ، فتدخلت القوات لحل هذه المشكلة ،

وساعد ذلك على التنافس بين القواد . وحاولت روما توزيع السلطة بين قيصرين ، كل على اقليم ، وأدى ذلك إلى زيادة عدد القياصرة ، وانقسام الامبراطورية . وجاءت البيروقراطية ، كمرض جديد يفتك فى جسدالدولة، وتحولت السلطة إلى توجيه ، وتعددت الادارات ، ومجالس الدراسة ، واللجان التنفيذية ، وأخذ الموظفون فى مراقبة بعضهم البعض ، ما بين سلطات مدنية ، وسلطات عسكرية ، وشرطة وجواسيس. وتدخلت الدولة فى النقابات وجعلتها وراثية ، كما تدخلت فى الأسعار وشلت العمليات الإقتصادية.وإذا كان عددالعبيدقد قل فى الامبراطورية ، فانالتحكمالادارى قد هدد بتحويل المواطنين جميعاً الى عبيد له . وبعد انهيار الارستقراطية الأولى فى عهد الجمهورية ، ظهرت ارستقراطية جديدة حربية، كانت توصل الأباطرة إلى الحكم . ولم تخضع القوات لحكام الأقاليم بل للقواد ، وأخذ التجنيد شكلا إقليميا . ولم تعد الفرق مدرسة تنصهر فيها العناصر غير الرومانية مع أبناء روما ، بل أصبحت مدرسة تسمح بنشوء قوميات أخرى، ومحلية ، فى داخلها . ومهدت الرفاهية وكثرة الأموال مع الفراغ السبيل أمام الكسل وعيشة اللهو والفساد .

وظهرت نزعة معادية للاستعمار عند « المثقفين » فى روما ، فحكموا على قسوة الرومان وجشعهم ، ونادى غيرهم بالسلام وضرورة « نزع السلاح » وفضحوا نزعات القياصرة الاستبدادية وتصرفاتهم الشخصية ، وندموا على توسع روما فيما وراء صقلية وافريقية ، أو حتى فيهما ، وهاجموا الاستعمار الرومانى فى مجموعه ،متسائلين عما إذا كانت الشعوب التى خضعت لروما قد عرفت يوما ما ترتكبه روما نفسها ، وفى مدينتها ،من جرائم.وجاء انتصار المسيحية لكى يقضى على الامبراطورية الرومانية، بعد

أن تركت روما عباداتها السابقة واعترفت بأخطائها . وكانت فكرة المسيحية تزيد فى « عالميتها » على الفكرة الرومانية ، كما كانت تحمل معنى القضاء على الاستعمار وعلى التفرقة العنصرية ، ما دام الكل سواء . وحكمت روما باعتناقها المسيحية ، على مجدها الامبراطورى الذى دام عشرة قرون. ورغم ذلك فقد بقيت الامبراطورية الرومانية ، مستندة الى مجدها السالف. ولكن الثورات زادت فى الأقاليم ، نتيجة لتحكم الحكام واستغلالهم لنفوذهم وسلطاتهم ، أو نتيجة لظهور المسيحية واضطهاد معتنقيها ، ثم جاءت غزوات قبائل البرابرة وضغطهم على حدود الدولة ثم توغلهم فيها . واضطرت الامبراطورية إلى اقطاعهم بعض الأراضى، للاقامة فيها واستغلالها. ولكن ضغط هذه القبائل تزايد على الدولة ، التى لم تكن لها القوة اللازمة لوقفه،وطالت مدة احتضار الامبراطورية ، وهى تتفكك اقليما بعد إقليم . وانتهت روما ، ولكن فكرة « الامبراطورية الرومانية » ظلت قائمة فى بيزنطه وعند القوط ، وفى بريطانيا ، وظهرت فيما بعد مع شرلمان .

وكانت الامبراطورية الرومانية أطول الامبراطوريات الاستعمارية عمراً. وإذا كانت اليونان قد اتخذت « الحرية » شعاراً لحركتها ، فان روما قد علمت غيرها معنى « الوحدة » واحتفظت لها كثير من مستعمراتها وأقاليمها السابقة بذكرى مجدها .

الباب الثانى

الاستعمار فى العصور الوسطى

الفصل الخامس

البرابرة

يسهل على المتحدث فى تاريخ الاستعمار أن يتجاهل خمسة قرون أو أكثر، بعد سقوط روما، قبل أن يواصل شرح عمليات الاستعمار، ويمكنه أن يستند فى ذلك الى التقهقر المادى والمعنوى الذى أصاب العالم فى ذلك الوقت. ولكنه يصعب على الباحث المدقق أن يتجاهل تماماً دور هذه الشعوب الجديدة، التى تحولت من التنقل إلى التوطن، والتى غيرت شكل تاريخ العالم بما أنشأته من إمبراطوريات. حقيقة أن عملية تنقلهم كانت تشبه الهجرة أو الغزو أكثر من شبهها بعملية الاستعمار، وكان بعض هؤلاء الغزاة يهدمون أكثر مما يبنون، ولكن بعض عناصرهم إرتبطت بالارض، وتوطنت، وأخذت فى العمل فى الفلاحة، فتحولت بذلك الى مجموعات من المتوطنين أو المستعمرين. كما أن بعض امبراطورياتهم عاشت لفترة طويلة، وأدت خدمات جليلة للمدنية.

وقد تظهر عمليات البرابرة، بعد الامبراطورية الرومانية، وكأنها مشوهة، ولكن روما نفسها بدأت تاريخها ببعض عناصر البرابرة. وإذا كان من الضرورى أن يشعر المستعمر بتفوق على الأهالى الذين يقوم باستعمارهم، فلقد كانت قبائل الهون والمجر من الفرسان، واستخدم العرب الجياد المطهمة، وقام النورمنديون بغارات بحرية على السواحل، ثم استمروا فى تنقلهم بعد ذلك على ظهور الخيل. وهذا التفوق فى ركوب الخيل يعود بنا ألفى سنة إلى الوراء، أى إلى الفترة التى ظهرت فيها العناصر الهندو أوربية. وكان الحصان قد أعطى للانسان أول وسيلة للاستعمار، ولكن التوطن حول الفرسان إلى مشاه، كما هو الحال فى عصور اليونان والرومان. ومع غزوات

البرابرة زادت أهمية الخيل ، وظلت هذه الأهمية موجودة حتى عصر المعارك المنظمة فى العصور الحديثة ، مما يسمح لنا بالقول ، وبدون خطأ كبير ، بأن الشعوب المتنقلة تستخدم الخيل فى استعمارها ، أما العناصر المتوطنة فتستعمر كمشاة .

ولقد انتقلت عناصر البرابرة ومثلها فى ذلك مثل الهجرات الهندو أوربية ، من الشرق إلى الغرب ، متتبعة فى ذلك حركة قرص الشمس اليومية . وجاء بعضها من وسط أوربا والبعض الآخر من وسط آسيا . وكانت قبائلهم لا تزيد على مائة الف ، بما فيها من نساء وأطفال وشيوخ ، بشكل لا يسمح بوجود أكثر من بضعة عشرات آلاف من المقاتلين فيها . ولكنهم كانوا يأتون على دفعات وفى شكل موجات ، مما يحول الغزوات الصغيرة إلى غزوات ديموجرافية . وانتصرت جماعات صغيرة من البرابرة على امبراطوريات كبيرة ، ورجع ذلك إلى ضعف هذه الامبراطوريات مادياً ومعنويا . فلقد كانوا من الفرسان والبحارة فى وقت قلت فيه الخيول والسفن فى الامبراطورية الرومانية ، وعملت المسيحية على تغيير مثلها ومعنوياتها . ونشأ عن هذه الغزوات شعور بالفوضى وعدم الاستقرار ، وضعفت النظم الادارية ، وكذلك النشاط التجارى فى المدن التى كانت مهددة بالهجوم أو السلب والنهب والحرائق ، فقل الانتاج واعتمد على الزراعة ، وتحول الاستعمار من عمليات مركزة فى المدن فى عصور اليونان والرومان ، إلى عمليات مرتبطة بالارض ، كما كان فى أول الأمر .

(١) الجرمان :ـ

لقد بدأت العمليات الخاصة بغزوات البرابرة بزحف قبائل الهون عبر أقاليم الإستبس ، وزحزحتها لقبائل الآلان والسويف والقوط الغربيين

والشرقيين . ودفعت قبائل الآلان والسويف أمامها الوندال ، وقبل أن تستقر في شرق شبه جزيرة ايبيريا ، وجنوبها ، زحزحت قبائل الساكسون والانجليز والفرنجة والبورجنديين . فهاجرت قبائل الساكسون والانجليز إلى بريطانيا مزحزحة أمامها البريتون ، أما البرجنديون فقد تركوا وادي الراين الى سافوا ، ودخلت قبائل الفرنجة في شمال غاليا . وبدأت قبائل القوط الغربية مغامراتها في تسكانيا ، أما قبائل القوط الشرقية فقد انتقلت . ونتيجة للضغط الواقع عليها ، من البلقان إلى اقليم البندقية وميلان ، ثم سارت في شبه الجزيرة الايطالية ونهبت روما ثم عبرت جبال الألب وسارت في أكويتانيا ، ودفعت امامها الوندال الذين استقروا في إسبانيا . وانفتح الطريق أمام الوندال في إفريقية ، فوصلوا الى قرطاجة ، وتشعبوا منها في صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار .

لقد استمرت هذه العملية ، من بداية زحف قبائل الهون ، لمدة قرن واحد ، وعندما انتهت في اواسط القرن الخامس كانت القبائل الجرمانية قد احتلت كل أوربا ، ولم تبق منها إلا إجزاء صغيرة في أيدي الصقلب وأيدي الهون ، وفي بيزنطة التي حاولت الاحتفاظ بما تبقى من الامبراطورية الرومانية . وتتالت الموجات على الأراضي الرومانية ، كما تعاقبت بعض الأجيال ، وكأنها كانت تمهد لإعطاء صبغة جرمانية للرومان ، أو صبغة رومانية للجرمان . ولقد احتفظ هؤلاء الغزاة باستقلالهم وبرؤسائهم وقوانينهم ، وحصلوا على الأراضي الزراعية لفلاحتها أو للعمل فيها ، كلما وجدت أراضي خالية من السكان . ولكن الضرورة حتمت اقتسام الارض بينهم وبين الأهالي الموجودين عليها ، في حالة عدم وجود أراض خالية . وكانت العادة هي احتفاظ أبناء الاقليم بثلثي أرضهم ، واعطاء الثلث للوافدين عليهم .

وكانت هذه العملية تستمر بعد مجيء موجات جديدة من الوافدين ، وإن كانت النسبة قد اختلفت من إقليم الى آخر . فنجد أن الفرنجة قد اكتفوا بمصادرة الاملاك الامبراطورية فى غاليا ، وذلك بسبب قلة عددهم ، أما فى إيطاليا فان اللومبارديين قد صادروا الاملاك الامبراطورية واملاك الكنيسة علاوة على ثلث غلة الاراضى الزراعية التى كان على الرومانيين أن يقدموها لهم ، أما البورجنديون فقد طالبوا بنصف الأراضى الزراعيـة الموجودة فى ايدى الأهالى،وطالب القوط فى غاليا واسبانيا بثلثى الأراضى الزراعية ، وقام الوندال فى افريقيـــة بالاحتفاظ بملكية كل الاراضى الزراعـــية ، ولم يتركوا للاهالى إلا حرية الاختيار بين الهجرة أو البقاء فى خـــدمة الغزاة .

ولقد تمكنت هذه الحفنة من الرجال ، والذين لم يصل عـددهم إلى أكثر من نصف مليون،وتجاه شعوب الامبراطورية الرومانية،التى بلغت ثمانين مليونا ، من السيطرة ومن فرض نفسها ، وتكوين ممالك أعطوها أسماءهم : فأصبحت بلاد الفرنجة تسمى فرنسا ، وبلاد الساكسون تسمى إسكس وويسكس وسسكس ، ونشأ اسم انجلترا من كلمة الانجليز ، وكتالاينا من كلمتى القوط والآلان ، والاندلس من كلمة فاندالوسيا ، أى بلاد الوندال ، كما أعطى اللومبارديون إسمهم للمنطقة وكذلك البورجنديون . ورغم ذلك فاننا نجد أن قسما كبيرا من الجرمان قد اصطبغوا بصبغة رومانية ، فى الوقت الذى لم يتأثر فيه أبناء الامبراطورية الرومانية السـابقة بالصبغة الجرمانية لحد بعيد . وبدأ البرابرة فى اســتخدام ألفاظ لاتينية كثيرة فى لغاتهم ، وكتبوا وثائقهم باللغة اللاتينية ثم اعتنقوا المسيحية .

ولقد ترك البرابرة الأهالى يعيشون فى المناطق التى دخلوا إليها حسب

عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم ، وبقيت الانظمة الرومانية المتعلقة بالزراعة موجودة ، رغم اندثار الانظمة الرومانية الخاصة بالمدن . وظلت « الفيلا » هي الوحدة الأساسية في الاقتصاد ، كخلية شبه مستقلة تعيش على مواردها ، وتشتمل على الحدادين والغزالين والنجارين ، واحتفظت لنفسها بالمباني والغابات والمراعي وبعض الأراضي الزراعية ، ووزعت الباقي على الفلاحين وهم المعمرين . وكان هذا النظام وسطا بين « الحرية » « والعبودية » ، لأن الفلاح كان رجلا حراً ، ولكنه كان يعتبر جزء من المزرعة في نفس الوقت . وكانت روما قد ربطت في نظمها وضرائبها بين الرجال والارض حتى يسهل عليها القيام بعمليات الاحصاء ، وحتى تمنع الهجرة من الريف إلى المدن ، وبالتالي خراب المزارع . وفي ظل هذه النظم تحول البرابرة إلى معمرين وتحول غيرهم إلى سادة . وعلينا ألا نأخذ هذا النظام على أنه نظام استعماري ، ولكنه يعتبر مثلا من أمثلة تحول المجتمع وتطوره ، من العصر الروماني إلى عصر الإقطاع ، بما يحمله ذلك من عودة نشوء الطبقات ونمو إمتيازات السادة ، وزيادة إستغلالها للقوى العاملة معها ولها .

وبدأ اندماج المحتلين مع الخاضعين ، مع رغبة البرابرة في التمدن، وساعد ذلك على تركيز الاوضاع في هذه المناطق . فنجد أن الفرنجة قد يتمكنوا من الوصول إلى نوع من الوحدة في غاليا ، كما أن القوط قد اندمجوا مع جموع الاسبانيين عن طريق التزاوج والخضوع للقوانين الرومانية ، وأخذ اللومبارديون يرتدون الملابس الرومانية . ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا الوندال الذين استمروا في فرض انفسهم كغزاة ، وعذبوا الكاثوليك ، وعزلوا أنفسهم عن البربر والرومانيين في افريقية، واجبروهم على كراهيتهم.

كان هذا هو الاستعمار الجرماني الذي إمتاز بالمؤامرات في القصور وبقتل

الأقارب وبالحروب الداخلية ، فقل الاستقرار السياسى ، وتقهقر الاقتصاد ، واندثرت الفنون ، كما تقهقر العالم من المعابد الفخمة الى داخل الأكواخ ، واختفت النقود وشحت ، وعادت المقايضة إلى الظهور .

(٢) مشروعات لامبراطوريات : ـ

ومع تحدثنا عن البرابرة واستمرار تنقلهم من مكان لآخر ، علينا ألا ننسى تلك الامبراطوريات التى تمكنت من البقاء لفترة طويلة ، مثل الامبراطورية البيزنطية ، أو التى نشأت لفترة مؤقتة ، وارتبطت بشخص منشئها ، مثل شرلمان وأوتو ، أو بأسرة كبيرة مثل الساسانيين . وكانت هذه محاولات بسيطة للاحتفاظ بالنظام وسط جو من الفوضى ، وبالعمار والاستعمار فى مناطق لم تمتد اليها البربرية .

أما بيزنطة فقد ورثت روما واعتبرت نفسها جارسة المبادىء الامبراطورية ، والمحافظة على اللغة اللاتينية ، لغتها الرسمية ، وعلى العملة الذهبية ، والقانون الرومانى ، الذى كتبته وشرحته وطورت فيه ، وحاملة لواء المسيحية ، ولكن بشرط اعتبار الامبراطور مختاراً من الله. وقامت بيزنطة بدورها ومدت فى عمر الامبراطورية وأعادت تكوينها ولو بشكل جزئى . وتمكن جستنيان من أن يضيف الى البلقان ومقاطعات آسيا ومصر ، ايطاليا بعد إعادة غزوها ، ثم صقلية وسردينيا وكورسيكا ودلماشيا وسواحل افريقية وجنوب اسبانيا . أما هرقل فقد حارب الفرس . ولكن هذه الانتصارات كانت مؤقتة ، وانحصرت الامبراطورية بعد ذلك فى القسطنطينية ، واستعدت للدفاع عن نفسها بدلا من أن تقوم بالهجوم . وكان فى وسعها ان تحافظ على «الفكرة» الامبراطورية » لا على الامبراطورية نفسها .

وورثت بيزنطة كذلك الشرق ، بكل ما فيه من عادات وتقاليد وعظمة واحتفالات وسلطة بيروقراطية مطلقة ، علاوة على الثقافة الهلينية .

وسارت بيزنطة فى نظام استعمارها على اساس المقاطعات الخاضعة لتسلسل ادارى ثابت . وكانت توجه الاقتصاد ، وتشرف على الاسعار ، وتسيطر على الصناعة والحرف ، وتنقل الأهالى من اقليم لآخر . وكان من حظها أنها تمكنت من الاحتفاظ لفترة طويلة باحتكار التجارة العالمية مع فارس والشرق ، وكانت تصدر لهم الدقيق وتستورد التوابل والسكر والحرير والقطن واللؤلؤ والاحجار الكريمة ، حتى أصبحت أكبر مركز للتجارة ، وأضمحلت أمامها أهمية كل من الاسكندرية وأنطاكية . وعرفت بيزنطة دود القز ، وأخذت فى تربيته ، وزادت الثروات فيها نتيجة لاحتكارها للتجارة العالمية ، وسمح لها ذلك بدفع الجزية ، أو التخلص من تهديد البرابرة المحيطين بها .

ولقد حاولت دولة أخرى فى الغرب ، أن تحمل مشعل روما وشعارها ، رغم أنها كانت نفسها ضعيفة . وكانت هذه هى مملكة الفرنجة التى حاولت إنشاء امبراطورية ، فى عهد شارل العظيم ، أو شارلمان . وكان هذا الملك قد تمكن من توسيع رقعة الاقاليم الخاضعة له ، وانتهز فرصة مساعدته للبابا وضم مملكة اللومبارديين فى ايطاليا ، وسارت قواته حتى برشلونة ، وغزت جيوشه ما وراء الراين ووصلت الى الإلب ، وأعتبر أن العناصر السلافية خاضعة له . ولم يكن فى وسع البابا أن يرفض أى طلب له ، فتوجه ، وأصبح شارلمان امبراطور الرومانيين . وتمكن من الإستيلاء على البندقية ، وأجبر بيزنطة على الاعتراف بلقبه ، رغم انه لم يكن له من الوسائل التى تسمح له بالإبقاء على هذه « الامبراطورية » . ولقد كان شخص الامبراطور هو العامل الوحيد الذى بنيت حوله الامبراطورية . وكان شارلمان يحكم من عاصمته آخن ، أو إكس لاشابيل ، كحاكم مطلق مستنير . فكان يرسل

مفتشين عموميين للاقاليم لجمع الشكاوى والاشراف على الامن والنظام ، رغم أن الإدارة نفسها كانت بدائية ، وغير كافية ، وتشتمل على كثير من المتناقضات ، خاصة وأن أحدا لم يكن يعرف الممثل الحقيقى للسلطة ، وهل هو الموظف العلمانى ، أو الموظف المسيحى ، النبيل المسئوول عن إدارة الإقليم ، أو الأسقف الذى يصدر المراسيم ويشرف على تنفيذها . وكان كل شيء يبدأ من الامبراطور ، وكل شيء يعود اليه . ولكن البناء الامبراطورى كان ينقصه كثيرا من التوازن . فلقد كانت كل من اكويتانيا ولومبارديا مملكة تحت حكم أحد أبنائه ، وكانت اقاليم أخرى تخضع لدوق أو لكونت أو لرؤساء عسكريين ، فى الوقت الذى ظلت فيه روما ودوله القديس بطرس فى أيدى البابا ، ودون أن نعرف إلى أى حد قد أصبح البابا خاضعا للامبراطور ، أو موضوعا تحت حمايته . وكان كل اقليم يعيش فى واقع الأمر بنفسه ولنفسه ، ودون أن يرتبط بغيره ، وله أوضاع إقتصادية خاصة به . وكان نظام ولاية العرش عند الفرنجة عقبة فى سبيل استمرار الامبراطورية ووحدتها ، خاصة وانهم كانوا يقسمون الملك بين أبناء الملك بعد وفاته ، ولم يكن فى وسع شارلمان أن يغير من هذا التقليد . وبعد وفاة إبنى شارلمان ورث ابنه الثالث التاج الامبراطورى . وحاول لوى الناسك أن يؤكد أن الامبراطورية واحدة ، ولا تنقسم ، ولن تنقسم ، وكان يحلم بإمبراطورية متحدة ، لها دين واحد وتخضع لسلطة واحدة . ولكن هذا الحلم كان قصير المدى ، إذ سرعان ما ثار عليه ابناؤه ، واستندوا فى ذلك الى تقاليد الفرنجة ، والى مصالحهم ، وطالبوا بنصيبهم من الميراث ، وعزلوه مرتين ، حتى تخلى عن أحلامه . وساد الانقسام عند موته ، وتفككت الامبراطورية وظهرت دول أخرى فوق أنقاضها .

ولقد بقى لقب الامبراطور الرومانى ، ما دام كل ملك كارلوني أو لومباردى كان يطمع فيه . وعمل اوتو دوق ساكس بعد تتويجه ملكا على جرمانيا على الحصول عليه ، فضم الاقاليم ، وعين أقاربه دوقات . وعين معارفه فى مناصب الاساقفة ، ثم تدخل فى فرنسا ، وسار الى ايطاليا ، وتوج نفسه ملكا ، ثم دخل روما فرسمه البابا امبراطورا . فعادت الامبراطورية الرومانية من جديد ، ولكن بالاسم فقط ، وأصبحت تعرف بالامبراطورية المقدسة ، ثم بالامبراطورية المقدسة الرومانية الجرمانية ، وإن كانت لا تستحق إلا صفتها الجرمانية فقط ، ولكنها كانت تحاول أن تكون مقدسة ورومانية، وذلك باستنادها الى الاساقفة فى المانيا ، وباستنادها الى البابا خارج المانيا . وكان فى وسع الامبراطور أن يستريح الى الأساقفة مادامت مناصبهم غير وراثية ، وكان من الممكن الحصول على أساقفة مرنين إذا ما أحسن أختيارهم ، ولذلك فان الامبراطور كان يرغب فى الحصول على سلطة اختيارهم وتعينهم . وكان هذا يدفعه إلى محاولة السيطرة على روما ، ويدفع خلفاءه الى محاولة التدخل فى الفاتيكان . فنشأت الخلافات بين الاباطرة والباباوات .

وكان من الممكن تجاهل هذه التطورات التاريخية للامبراطورية المقدسة عند التحدث عن الإستعمار ، إلا أنها كانت تحمل معها قصة دفع البولنديين الى ما وراء نهر الأودر ، وكانت هذه الامبراطورية هى التى فرضت سيادتها على بوهيميا ، وضمت مملكة بورجنديا ، وكلها عمليات استعمارية . ووصل الحال الى « إدماج » شبه جزيرة ايطاليا كما كان قيصر يفعل تماما مع أى اقليم يستعمره . وتحدث المؤرخون عن الاخاء والمساواة فى عهد فردريك برباورسا ، ولكن الاخاء الجرماني كان مفروضا بالخوف

والارهاب . وظل اللقب الامبراطورى بالانتخاب نتيجـة لإصرار كل من البابا وفرنسا على هذا النظام ، فتحول هـــذا اللقب من اسرة الى أخرى ، وبشكل ساعد على بقاء الفوضى ، بصفة شبه مستمرة ، فى المانيـا . وكانت الامبراطورية خيالية أكثر منها فعلية فى معظم الأوقات ، وكانت لا تحتفظ من الامبراطورية إلا بالاسم ، وغالبا ما كانت فى صراع مع الـــكرسى البابوى ، كما كانت إقطاعية أكثر منها امبراطورية ، وجرمانية أكثر منها رومانية . وهكذا استمرت روما فى الغرب وفى الشرق ، ولكن فى هيئة « كاريكاتير » ، وتمكن جستنيان وشارلمان وبرباروسا من غزو الأقاليم ، ولكنهم فشلوا فى اعادة روما الى الحياة ، بعد أن فشلوا فى معرفة سر الوحدة وسر التنظيم المستمر .

وإذا اتجهنا صوب الشرق لوجدنا أن أحد أحفاد ساسان قد تمكن من الاستيلاء على كل فارس وتمـكن من تأسيس الدولة الساسانية التى أنشأت امبراطورية ضخمة امتدت من القوقاز الى بلاد العرب ومن الفـــرات حتى السند . واعتبر ملك الملوك نفسه خليفة دارا . وعاش فى قصور فخمة تحيط بها الحدائق التى تجمع داخلها النعام والغزلان والأسود والطاووس . وكانت الامبراطورية تنقسم الى أربعة أقاليم ، على رأس كل منهـــا نائب للملك ، وينقسم كل اقليم بـدوره الى مقاطعات ، وعلى رأس كل منها حاكم ، كما كـان لكل قرية رئيس ، ومن النبلاء . وكـانت الدولة الساسانية تتحـكم وتوجه وتعتمد على الجاسوسية ، وتحكم عن طريق بيروقراطيـة ، تسمى الدواوين (١) وكـانت تـراقب الاقاليم عن طـــريق ادارة للبريد خاصة بمراسلات الدولة ، على ظهور الخيل أو الجمال أو على الاقدام ، وتستخـدم

(١) اصل الكلمة تعنى حجرة تحيط بها الوسائد .

طرقا ـ مزودة بأماكن للنزول وللراحة ـ لتوصيل الخطابات والموظفين والتقارير . وكانت الضرائب مرتفعة ، أولها على الرؤوس ، والثانية على العقارات ، وتصل الى ثلث المحصول أو نصفه . وكان على الفلاح أن يترك الثمار على الاشجار والغلة فى السنابل فى الحقول الى أن يمر جامعوا الضرائب ، حتى ولو تعرضت للتلف . ولم يكن من حق أى فرد أن يناقش نسبة الضرائب التى يفرضها الملك . وكان الشعب ينقسم الى طبقات أربع : رجال الدين من المجوس ، والمحاربين ، وموظفى المكاتب ، والباقين من الفلاحين والتجار وأصحاب الحرف . واستخدم الساسانيون عادة نقل القبائل أو الأسرى من اقليم ، وتوطينهم فى اقليم آخر ، وهو من نظم الاستعمار المعروفة .

وكانت فارس دولة غنية بما تنتجه من انسجة موشاة ومن سجاجيد ، كما كانت التجارة بين الصين وبيزنطة تمر عبر بلادها . ولكنها كانت ضعيفة فى نفس الوقت ، خاصة وأن الملك كان انتخابيا فى آل ساسان . فانتشرت المؤامرات والقتل والاغتيال حول العرش . وعاشت امبراطورية فارس أربعة قرون ونصف قرن بعظمتها وثروتها وكنوزها ، ولكنها بلغت مرحلة واضحة من الضعف والهزال ، وقت الغزوات العربية ، ولم تصمد فى الميدان .

(٣) الغزو العربى والحضارة الاسلامية :ـ

إذا نظرنا الى حالة الامبراطوريات فى العالم فى اواسط القرن السابع الميلادى لوجدنا امبراطورية الصين قوية ، ويمكنها أن تقاوم الغزو الخارجى ، أما الهند وفارس فكانت امبراطوريات قد وصلت الى مرحلة من النضوج تسمح بجنيها ، وأما بيزنطة فلم تكن إلا ستارا يخفى وراءه

الضعف ، وأما ممالك غرب أوربا فكانت تمتاز بحيوية . فكان فى وسع العرب أن ينتشروا فى كل إتجاه ، دون أن يجدوا مقاومة فعالة ، إلا فى الشرق الأقصى ، حيث كان فى وسع امبراطورية الصين وقف هجومهم ، وفى أقصى الغرب حيث تمكن الفرنجة بالفعل من وقف هذا الانتشار والتوسع .

ويدخل تاريخ الاستعمار عمليات الغزو العربية فى نطاقه ، ويستند فى ذلك الى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التى سادت شبه جزيرة العرب فى أواسط القرن السابع الميلادى ، وتسلح العرب باسلحة مادية ومعنوية جديدة ، وخروجهم من بلادهم الفقيرة نسبياً ، صوب الفرس ، وبيزنطة والغرب ، أى صوب أقاليم غنية ومزدهرة . وهذه النظرة السطحية تشوه التاريخ ، وتدل على ضحالة فى فهمه وفهم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى العالم فى ذلك الوقت . ويمكننا أن نقول أن انتشار العروبة والاسلام كان عبارة عن هدم للاستعمار القائم فى العالم فى ذلك الوقت ، والمجىء بمبادىء اجتماعية واقتصادية جديدة ، ونشرها بشكل ثورى فى الاقاليم المحيطة بالعالم العربى ، وإن كان احتكاك العرب بأهالى هذه المناطق ونظمهم قد أثر فى العرب ، وعمل على تثبيت وتركيز حركتهم ، ثم تطورها مع الزمن ، ونتيجة لعوامل داخلية وخارجية خاصة بهذه الاقاليم ، مما يصل بنا وبهم الى المرحلة التى تهم تاريخ الاستعمار ، وتهم دارسى نمو ونشوء الطبقات الاجتماعية .

وكانت أحوال بلاد العرب قبل الاسلام معروفة بالفوضى والإنقسام وحب الثأر ، وكان المجتمع فقيراً نسبيا ، رغم اشتغال العرب بنقل التجارة الى اليمن فى الجنوب ، والى الشام فى الشمال ، مسهمين بذلك فى تسهيل التجارة العالمية ،

ومستفيدين منها . وكان أبناء القبائل يعتزون بحسبهم ونسبهم على غيرهم ، ويرفعون أنفسهم بذلك عن مستوى الآخرين ، كما كان التجار يمتازون بالجشع وبأخذ الربا وبالتحكم فى السلع وبالتالى فى المستهلكين . فجاء الاسلام معلنا مبادىء جديدة ، تتلخص فى المساواة والديمقراطية ، والعدالة الاجتماعية والاشتراكية ، والوحدة بل والعالمية . ونظم العلاقة بين الفرد والفرد ، والسيد والعبد ، والمرأة والزوج ، فكون من العرب قوة هائلة ، وكلفهم بنشر هذه المبادىء فى كل مكان ، وبهدم القيصرية والطبقية ، والقضاء على الفردية والتحكم ، والاستغلال والتعنت ، والأصنام وعبادة الشخصية ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى. ولذلك فان ظهور الاسلام كان ثورة ، بل ومن أكبر الثورات الاجتماعية التى ظهرت فى العالم ، وبدأ بعقيدة ، وكان على هذه العقيدة أن تنتشر فيما حولها، وكان من اللازم إيجاد قوة مادية للدفاع عن هذه الثورة ، ونشرها فى كل مكان . وفى هذا ما يسقط النظرية التى تستند إلى فقر الجزيرة العربية ، وانتشار الحضرة والازدهار فى الاقاليم المحيطة بها ، لكى تدعى خروج العرب اليها للاستيلاء على ما فيها من ثروات . بل ان تحول العرب إلى مكافحين ثوريين بظهور الاسلام ، وطبيعة الاسلام العالمية ، ومعرفة العرب باحوال الانهيار والاستغلال والتحكم والطغيان الموجودة فى الاقاليم المحيطة بهم هو الذى دفعهم إلى نشر مبادئهم الثورية فى هذه المناطق . وجاء تطور نظم الحكم العربية فى هذه الاقاليم فيما بعد ، ونتيجة للاحتكاك بعوامل داخلية وخارجية فى هذه الاقاليم ، وتطور العناصر الاسلامية على مرور الزمن ، فى هذه الأجواء الجديدة الذى ذهبوا اليها ، وعاشوا فيها .

ولقد نشأت الجمهورية العربية الاسلامية الأولى فى المدينة ، مع هجرة

الرسول ، وتحولت بعد ذلك الى مكة ، ورأينا الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، مسلمين قانتين ، ودفع الاغنياء ما فى أموالهم من حق للسائل والمحروم ، واستمر امتداد هذه « الثورة الاجتماعية العالمية » حتى اشتملت على شبه الجزيرة قبل وفاة الرسول . وساعدت أحوال الاقاليم المحيطة على سهولة الغزو الاسلامى ، وباعداد بسيطة من المقاتلين ، فلقد كانت الانقسامات الدينية على اشدها فى بيزنطة ، وكانت كل من انطاكية والاسكندرية تمر بأزمة اقتصادية ، وكانت امبراطورية الفرس فى حالة انهيار . فبدأ العرب ببلاد الرافدين وانتزعوها من حكم الفرس ثم واصلوا عملهم الى الغرب فى الشام ، وانتزعوها من البيزنطيين ، وسقطت فى ايديهم دمشق وصور وبيت المقدس وبابل ، كما اتجهوا إلى فارس وانهوا حكم الساسانيين ، ولم تقاومهم مصر ، التى كانت تئن تحت تحكم وطغيان بيزنطة واستغلالها ، ولا سواحل برقة وسواحل البحر الأحمر . وتوغل العرب فى آسيا الصغرى حتى تفليس ، واستعانوا بالاساطيل المصرية والسورية للوصول إلى قبرص ورودس وجزر بحر إيجه ، وان كانوا قد فشلوا فى دخول بيزنطه . وأفاد العرب من الفرقة الموجودة بين العناصر التركية فى آسيا الوسطى فوصلوا الى كابل وسمرقند وتفتحت أمامهم أبواب الهند بما فيها من انقسام وطوائف ، وان كانت امبراطورية الصين قد تمكنت من الصمود فى قاشغار عند مدخل الواحات التى يمر فيها طريق قوافل الحرير . وأما فى الغرب فان الغزو الاسلامى قد استمر بعد تونس وتأسيس القيروان ، وان كان البربر قد قاوموهم فى أول الأمر . ووصل العرب إلى طنجة والمحيط الأطلسى ، « بحر الظلمات » وحتى وادى سوس . وامتدت غزوات العرب بعد ذلك إلى شبه جزيرة ايبيريا ، وبعد طريف ، قاد طارق بن زياد خمسة آلاف رجل ، ومعظمهم من البربر ، وسار

بهم فى أسبانيا ، معطياً اسمه لجبل طارق ، وهزم القوط ، ودخل قرطبة وطليطلة .

وتوغل العرب فيما وراء جبال البرانس مع سواحل البحر المتوسط وتقدموا فى وادى الرون ، ثم توغلوا فيما وراءها مع سواحل المحيط الاطلسى واستولوا على بوردو ووصلوا الى مابين بواتية وتور . ولكن زحفهم توقف فى هذا الاتجاه بعد موقعتهم مع قوات شارل مارتيل من الفرنجة . ولم تؤثر مواقف الفرنجة والصين وبزنطة على حيوية العرب ، بل استمروا فى تهديدهم للغرب ، وفى توسعهم صوب الجنوب والشرق ، مع تغلغلهم فى داخل الاقاليم التى قاموا بغزوها ؛ فانتشرت السفن العربية فى البحر المتوسط وهددت مرسيليا وروما وهاجمت كورسيكا وسردينيا وسيطرت على صقلية واحتلت بارى . وعبر الاسلام الصحراء ووصل إلى إمبراطورية غانا القديمة وإلى مالى . وسار العرب جنوبا فى النوبة ، وسيطروا على سواحل افريقية الشرقية ، وانشئوا المراكز التجارية والبنادر فى مقديشو وممبسه وممبا وزنجبار وكلوة وجزر القمور ووصلوا حتى موزمبيق وسوفاله . واخذت القوافل تسير من هذه المراكز صوب مراكز أخرى ومخازن موجودة فى داخل القارة ، وحملت التبر والعاج والابنوس وريش النعام إلى الساحل . ولقد وصل العرب الى مدغشقر واندمجوا مع الاهالى ، كما زاد عدد السلطنات الاسلامية في شمال الهند ، وسارت سفن العرب فى المحيط الهندى مع الرياح الموسمية ، فوصلت إلى سيام ومالزيا وميناثى هانوى وكانتون الحاليتين . وأقام العرب المراكز التجارية فى خليج البنغال وسومطرة وجاوه وملقة ، وعلى أسس تجارية ثابتة . وأصبح العرب يوردون لبلاط بغداد الحرير والتوابل من الشرق الاقصى ، والعبيد وسن الفيل وريش النعام من إفريقية ، والاحجار الكريمة واللالىء من الفرس والخليج الفارسى .

ولقد امتدت هذه الامبراطورية من خليج جاسكونيا إلى بحر قزوين ، ومن موزمبيق الى البحر الأسود ، ومن السنغال الى بلاد التوابل ، وعلى طول سبعة آلاف كيلو متر بين الشمال والجنوب ، وخمسة عشر ألف كيلومتر بين الشرق والغرب . ولكن هل يمكننا أن نسميها امبراطورية ؟ وهل هى عسكرية أو تجارية أو دينية ؟ وهل كانت تهدف الى الحكم والتحكم أو إلى الاستغلال أو إلى إرشاد الناس إلى دين الله الحنيف ؟ لقد كانت هذه الامبراطورية ذات صبغة عسكريه غالبة فى الغرب ، وصبغة تجارية غالبة فى الشرق ، وكانت فى مجموعها ذات أيديولوجية واحدة ، وهى الاسلام .

وكانت وسائل الاسلام فعاله ، فلقد اعتمد على عناصر مكافحة ، ومسلحة بالاسلام ، كايديولوجية ثورية ، علاوة على مهارتهم فى ركوب الخيل وأعمال الفروسية ، ومهارتهم فى استخدام السيوف واطلاق السهام . ولم تكن اعدادهم كبيرة فى أول الأمر ، وإن كانت الصفوف مفتوحة دائما لكل من يعتنق الاسلام ، ويرغب فى الجهاد من أجله ، حتى نجد أن جيوش العرب فى الاندلس كانت فى غالبيتها تتكون من أبناء البربر فى شمال إفريقية ، وهم الذين أصبحوا من أشد جنود الاسلام غيرة عليه . وأصبح العرب يكونون قيادات لهذه الجيوش ، واستقر كثير منهم فى المناطق المفتوحة وتحولوا مع الزمن الى ارستقراطية محاربة ، أو حاكمة ، أو متفقهة فى الدين .

وأغرى الاسلام بعدالته وسماحته وبساطته ، كدين للفطرة ، كثيراً من أبناء الاقاليم المفتوحة على الدخول فيه ، فكانوا يعفون من ضرائب الرؤوس ، ويتحملون واجب الحرب والجهاد . وكان القرآن قد نزل عربيا ، فتعلم الأهالى لغة الضاد وانتشرت العروبة مع إنتشار الاسلام . ولم يكن الاسلام يعترف بالتفرقة العنصرية ويرفض أي فضل لعربى على عجمي إلا

بالتقوى ، ورغم احترامه لأهل الذمة ووضعهم تحت حمايته ، إلا أنه سمح بالتزاوج من نسائهم ، فزاد الاندماج بين العرب وغيرهم ، وزادت أعداد المسلمين ، وانتشرت اللغة العربية .

وإذا كان الرومان قد حددوا أشكال الحكم ، وتركوا الديانات ، فان الاسلام قد أصر على العقيدة وترك للأهالى الحرية فى اختيار أشكال الحكم التى تناسبهم، على أساس ألا تتعرض هذه الأشكال مع العقيدة . ولم يحدد الرسول شكل هذه الدولة ولم يعين خلفا له ، فساعد ذلك ، مع اختلاف الأقاليم المفتوحة وتباين العناصر والعوامل والمصالح الموجودة فيها ، على تعدد أشكال الحكومات وعلى انتقال العاصمة من مكة الى دمشق ، ومنها الى بغداد، وظهور عاصمة وخلافة ثانية فى الأندلس والمغرب، وكان نفوذ العرب مسيطراً فى « مملكة » دمشق ، ولكن سلطة الموالى والشعوب غير العربية زادت فى « امبراطورية » بغداد . ورغم عوامل الوحدة بين أقاليم الدولة ، فان ظهور شخصيات قوية ، واستخدام قوى عسكرية خاصة فى الأقاليم قد ساعد على تبلور وحدات خاصة شبه مستقلة داخل الدولة ، وبالتالى قد ساعد على ظهور إمارات وسلطنات مستقلة ، رغم اعترافها بالخلافة . وكانت الخلافات قد ظهرت منذ عهد الخلفاء الراشدين حول اختيار رأس الدولة، وانقسم المسلمون إلى اتجاهات ثلاثة ، يمينى يطالب بضرورة كونه من أهل بيت الرسول ، معتزين فى ذلك بالحسب والنسب أى بالدماء الشريفة ، ووسط يفضله من أهل الجماعة ، أى من الارستقراطية التجارية التى كانت تسيطر على الحجاز وصاحبت الرسول ، ويسارى لا يفرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى. إنها اتجاهات الشيعة والسنة والخوارج ، وتشبه الى حد ما اتجاهات الاقطاع ، والبرجوازية والاتجاه الشعبى فى

العصور الحديثة ، ولكن دون أن تكون متطابقة معه . وأثرت هـذه الاتجاهات على الدول الاسلامية التى نشأت فيما بعد ، وعلى علاقة كل منها بالقوى الاسلامية وغير الاسلامية المحيطة بها ، والمتفاعلة معها .

ولا يمكن لأحد أن يتناسى المحققات الحضارية لانتشار العروبة والاسلام فى هذه المنطقة الهائلة من العالم . لقد ورث الاسلام امبراطوريات الروم والبيزنطيين والفرس ، ولكن المسلمون تعلموا ما وجدوا فى هذه المناطق ثم هضموه وزادوا عليه ، وأسلموه للأجيال التالية ، ونقلوه الى الغرب الذى أفاد بدوره منه ، فى عصر النهضة .

حقيقة أن قرطاجة ووليلى قد تهدمت أو أهملت ، ولكن العرب بنوا القيروان والفسطاط والقاهرة وفاس ومراكش وبغداد ، وجميع البنادر المنتشرة على سواحل افريقية الشرقية . وحقيقة ثانية هى أن العرب لم يعملوا فى الزراعة ، ولكنهم إهتموا بالتجارة مع وسط افريقية ، ومع الشرق الأقصى وغرب اوربا ، وبنوا المدن والمراكز التجارية . وأثرت الأقاليم الاسلامية من هذا التبادل والنشاط التجارى الى حد كبير . ونقل العرب الورق من الفرس والصين عن طريق دمشق وبغداد الى غرب أوربا ، كما أفادوا من حديد الهند ، وحرير بيزنطة والصين ، وأغنام افريقية وحقيقة ثالثة هى أن العرب قد أخذوا الأرقام من الهند ، وأنهم أفادوا من علوم اليونان ، ولكنهم أصبحوا اساتذة العالم فى العصور الوسطى فى الرياضيات والجبر وحساب المثلثات والفيزياء والطب والفلك والكيمياء . وكذلك فعل العرب فى الفلسفة ، والاداب والموسيقى وفن المعمار ، ولكنهم وصلوا إلى هضم كل ذلك ، والإضافة إليه واخراجه بأشكال وخطوط وأنغام جديدة ، تدل على وجود حضارة وتراث ، وجب على الانسانية أن تفخر

بها ، وتعتز بدور العرب فيها . ولولاها لتأخر ظهور عصر النهضة فى أوربا ، وتأخر بالتالى وصول العالم الى المرحلة التى وصل اليها الآن .

(٤) امبراطورية الشمال : -

أخذت أحدى الامبراطوريات فى النمو فى شمال أوربا فى الوقت الذى كان فيه العرب ينتشرون فى جنوبها . و كانت عناصر الشمال لاتشبه العرب، إذ انهم كانوا من البحارة ، وتحولوا فى بعض الظروف الى فرسان ، أما العرب فكانوا من الفرسان ولم يركبوا البحر إلا عند الضرورة ، كما أن العرب كانوا يعملون على نشر الاسلام ، دون أن يتحولوا عن دينهم ، أما العناصر الشمالية فقد تركت نفسها ، وهى غازية ، تتحول الى المسيحية ، دين المناطق التى توسعت فيها .

وهذه العناصر الشمالية كانت من أصل نى جرما ، وجاءت من البلاد الاسكندنافية على سفنها ، وكانوا يسمون الفيكنج ، أى رجال الخليج ، إذ أن حياتهم كانت مرتبطة بالخلجان ، التى أعتبروها مدنا وقواعد لهم ، كما اعتبروا سفنهم الراسية فيها منازل لهم .

ولا نعرف حتى الان الأسباب التى دفعتهم إلى الخروج من بلادهم ، ولا أن نقتنع بان تزايد السكان كان هو السبب الرئيسى فيها ، ولكن المرجح هو أن خروج هذه العناصر الاسكندنافية قد جاء نتيجة لطرد شرلمان لكثير من الساكسون صوب الدانيمرك ، ونتيجة لتقدم فنون البحر ، علاوة على البحث عن ارزاق جديدة ، أو أسلاب سهلة .

وأستخدموا سفنا يزيد طولها على عشرين مترا ، ويبلغ عرضها خمسة امتار ، ولها سارية يصل طولها الى ١٣ مترا تحمل شراعا مربعا ، ولا يزيد

غاطسها على متر واحد فى الماء،مما يسمح لها بالدخول فى الانهار . وكانوا يستخدمون أحد المجاديف الكبيرة كدفة لسفنهم ، التى تحمل من ستين الى ثمانين رجلا ، منهم ثلاثين للتجديف ، والتى تسير بسرعة عشر عقد . ودل خروجهم على هذه السفن الصغيرة الى عرض البحر على انهم كانوا من البحارة المهرة ، وأنهم عرفوا الفصول، والتيارات المائية ، وربما الأبرة المغناطيسية .

وسار هؤلاء الشماليون، أو النورمانديون ، فى اتجاهات ثلاث ، فخرج السويديون ، وهم تجار أكثر منهم غزاة صوب الجنوب الشرقى ، أما النرويجيون وهم بحارة مهرة فقد توسعوا فى اتجاة الغرب،وأما الدانيمركيون وهم محاربون ، فقد توسعوا فى اتجاه الجنوب الغربى . وكانت كل عملية من هذه العمليات مختلفة عن غيرها ، ومرتبطة بطبيعة القائمين عليها ، والظروف التى وجدوا أنفسهم فيها ، ولكنها كانت كلها عمليات وتجارب استعمارية .

فلقد خرج السويديون على دفعات صوب خلجان فنلندا وريجا ، وساروا مع طريق العنبر القديم حتى وصلوا الى الدنيبر الأعلى ، الذى كانوا ينزلون معه كل سنة ، بعد ذوبان الجليد ، صوب كييف وحتى البحر الاسود ، وأعطاهم الفنلنديون اسم الروس نسبة الى احدى مقاطعات السويد . وكانوا عبارة عن تجار مسلحين يحاولون فتح الطريق الى بيزنطة ، سواء للاتجار معها ، أو للدخول فى خدمة الامبراطور ، أو لتهديده . وأنشئوا آخر مركز لهم عند مصب الفولجا حيث باعوا الفراء والريش والصوف وزيت السمك ، واتصلوا حتى بخليفة بغداد . وقاموا بانشاء المراكز المسلحة

والمعسكرات المحصنة لحراسة سفنهم التى تسير فى الانهار ، ولكنهم كانوا يسيطرون على المدن التى يتاجرون معها ، كما هو الحال مع نوفجورود وكيف ، وينشئون مراكزهم التجارية فى كل المناطق المحيطة ، وبشكل يساعد على تطور هذه المراكز فيما بعد إلى عواصم لإمارات . وإنضمت بعض الاقاليم السلافية إلى هؤلاء الامراء التجار ، ودفعت لهم الجزية وقدمت لهم الهدايا فى شكل فراء وشمع وعسل ورقيق ، رغم إحتفاظها بامرائها المحليين . ونشأت روسيا حول هؤلاء النورمانديين ، رجال الشمال ، الذين تحولوا إلى اقلية ، وسط هذا العدد الكبير من الاهالى ، والذين أبقوا فى نفس الوقت على علاقاتهم مع وطنهم الشمالى .

أما النرويجيون فكانت تجربتهم مختلفة ، فلقد خرجوا بعد الفيوردات الغربية فى اسكندينافيا والتى تحمل موانيه مقطع فيك Vik مثل كلمة الفيكنج نفسها . ومثل نارفيك . ودافيك — وعبروا بحر الشمال واستولوا على شيتلاندو هبريده وظهروا على سواحل اسكتلندا وايرلندا . واحتلوا جزيرة مان والساحل البريطاني المجاور ، ثم هجموا على ايسلندا ، واسسوا راكيافيك ، عاصمتها . وكان استعمار هذه الجزيرة الاخيرة سهلا للغاية ، خاصة وانها لم تكن مسكونه الا ببعض العناصر الايرلندية . فوصل اليها أحد الامراء النورمنديين ومعه أربعمائة رجل ، ثم تلته السفن تحمل ثلاثين الف نورماندى . فقسموا الاراضى فيما بينهم ، وكانوا يوقدون النار على حدودها ، ويبنون مساكنهم الخاصة عليها . ولقد أحضر النرويجيون معهم قوانين بلادهم ، وانشئوا حكومة خاصة بهم ، واصبح لهم مجلس يشبه البرلمان ، وان كان فى شكل بدائى . واستخدموا ايسلندا قاعدة لحملات أخرى صوب سبتزبرج وجرينلاند وامريكا نفسها عن طريق الشمال . .

وأما المجموعة الثالثة من رجال الشمال فكانت محاربة ، وخرجت من الدانيمارك وبدأت فى الهجوم على أوربا ، وعلى دفعات إمتدت لفترة قرن من الزمان . وكانوا بحارة ، فسارت سفنهم بحذاء الساحل ودخلت فى مصبات الأنهار . وكانوا يتخذون إحدى الجزر الواقعة بقرب المصب كقاعدة لهم ، يجمعون فيها اسلحتهم ، ويعودون إليها بالاسلاب . وكان من بين أسلابهم الخيول التى ساعدتهم على زيادة حركتهم وعلى توسيع نطاق هجماتهم وعلى مضاعفة أسلابهم . وكانوا ينهبون الكنائس والكاتدائيات ويفرضون الغرامة على المدن ، ثم يعودون إلى قواعدهم وإلى سفنهم. ولقد هاجموا سواحل انجلترا ومملكة الفرنجة ، وشبه جزيرة ايبيريا فى مجموعات يتراوح عددها بين خمسة آلاف وثلاثين ألف رجل ، ووصلوا إلى مصبات الإلب والراين والتاميز والسين واللوار والتاج ، واستولوا على كولونيا ونانت وبوردو ويورك ولندن، ووقعت باريس فى أيديهم خمس مرات ، وقاموا بهجمة عجيبة أوصلتهم إلى البحر المتوسط وإلى بيزا ، قبل أن يعودوا إلى سفنهم محملين بالغنائم والاسلاب .

وكانت معظم الدول تحاول ابعادهم أكثر من محاولتها محاربتهم ، فكانت تدفع لهم الفدية ، وجمعت انجلترا ضريبة عقارية خاصة لتدفع منها الـ Dane-geld أى نقود الدانيمركيين . وخرجت بذلك الاطنان من الفضة من أوربا الغربية وذهبت إلى البلاد الاسكندنافية .

ولكن العملية لم تكن مجرد سلب ونهب ، إذ ان بعض المهاجمين قد استقروا فى بعض المناطق وتحولوا الى مزارعين ، واعتنقوا المسيحية . وكانت انجلترا باعشابها وسمائها الملبدة بالغيوم، هى الدولة التى تعجبهم أكثر من غيرها، فاقاموا المستعمرات فى يورك ونورويتش وهارويتش وجرينويتش،

وانتشرت القوى انين الدانيمركية فى انجلترا ، وتوج الانجلوساكسون كنوت ، شقيق ملك الدانيمرك ، ملكا عليهم ، فاعتنق المسيحية، وأمر قواته باحترام العادات والتقاليد ، ولكنه استمر فى جمع « الدينجلد » ، نقود الدانيمركيين. وورث كنوت ملك الدانيمرك بعد وفاة أخيه ،وتمكن من غزو النرويج ، وقدم له ملك اسكتلندا ولاءه ، فتكونت بذلك امبراطورية الشمال الكبيرة ، من جرينلاند الى البحر البلطى ،وكانت تضم انجلترا واسكندنافيا وايرلندا وايسلندا ، ولكنها كانت امبراطورية فصلت البحار بين اقاليمها . وانتهزت ايرلندا فرصة موت كنوت وخرجت من الامبراطورية ، كما عادت بريطانيا الى حكم الملوك الانجلوساكسون ، وانتهت الامبراطورية .

وكانت مجموعة أخرى من الدانيمركيين والنرويجيين قد وصلت إلى موانى وخلجان شمال فرنسا واستقرت فيها بعد أن أعتنق رئيسها المسيحية واعطت اسمها لمنطقة نورماندى ، ونسيت هذه المجموعة ، مع مرور الزمن، لغتها وعاداتها وتفرنست بسرعة ، ولكنها استمرت فى غاراتها بعد أن وصلت إليها موجات أخرى من الدانيمرك . وأخذ رؤساؤهم يعرضون سيوفهم وخدماتهم علي امراء ايطاليا وبيزنطة ، واستولوا على كلابريا وانتزعوا صقلية من المسلمين ، ثم مالطة ،ووضعوا الأسس لانشاء مملكة الصقليتين النورماندية .وكانت أول مملكة منظمة فى الغرب المتبربر ،إذ كانت لها إدارة مركزية ، ونظام ضرائب سجلات، ونظام قضائى، مقبسة من بيزنطة والعرب وانجلترا وفرنسا . وكان ملوك صقلية النورمنديون يتحدثون الفرنسية ويعيشون معيشة السلاطين ، وكانوا تلاميذ اللاتين واليونان والعرب ، وكان بلاطهم نورماندي وبيزنطي واسلامي فى نفس الوقت .

وأخيرا فان النورمانديين ،فى شمال فرنسا ، لم ينسوا انجلترا ،وإنتهزوا لم فرصة قيام نزاع على العرش فيها لكى يطالب باحقيته هو بهذا التاج، كوارث الكنوت الكبير . وعاد النورمانديون إلى البحر لعبور القناة الانجليزية واستخدموا فى ذلك سبعمائه وخمسين سفينة ، حملت إثنتى عشر ألف رجل . كانت الموقعة ، وتمكن الفرسان النورمانديون من تطويق المشاه الانجليز ، وتوج وليم نفسه ملكا فى وستمنستر.وخضعت له كل الجزيرة فيما عدا اسكتلندا ومنطقة ويلز ، وجميع الضريبة المالية الخاصة بالدانيمركيين ، ووزع الاقطاعات على البارونات النورمانديين . فأصبحت انجلترا مستعمرة نورماندية ، أو أصبح اقليم نورماندى مستعمرة انجليزية.

والمهم هو أن غـــزاة الشمال كانوا قد بدؤا كعصابات تشن الهجمات ، وتعيش على السلب والنهب ، ولكنهم استقروا فى بعض المناطق ، وعملوا فى الفلاحة ، وتزوجوا من الاهالى . وبقيت ايسلندا اسكندنافية ، ونشأت روسيا حول إمارة كييف ، واحتفظت الأسر النورماندية بصقلية أكثر من قرن ، أما بريطانيا فسيكون ملوكها من سلالة وليم الفاتح . ولقد تعلم النورمانديون اللغات السلافية فى شرق أوربا والانجلوسكسونية فى انجلترا والفرنسية فى فرنسا، وهضمتهم الاقاليم التى دخلوا اليها لغويا ودينيا، واختلفوا بذلك عن العرب الذين نشروا لغتهم ودينهم فى كل مكان دخلوا اليه .

(٥) امبرطوريات الشرق :ـ

ولا يمكننا إكمال الحديث عن البرابرة الا بالتحدث عن تلك العناصر التى خرجت من إقليم الاستبس فى أواسط آسيا قبيل تحرك الجرمان ، والتى استمرت غاراتهما وهجماتهما حتى بعد الفيكنج والنورمانديين، أى انها

استمرت مـا يقرب من الف سنة . وتركت بعض هذه العناصر ظهور الخيل وعملت فى الفلاحة وكونت امبرطوريات ، وكذلك فان عمليا نها تدخـل فى نطاق الاستعمار .

وكانت قبائل الهون هى المسئولة ، بظهورها فى أفق أوربا ، عن تحرك الجرمان . وكانت هذه القبائل قد سيطرت على منغوليـا ، ثم إنقسمت الى جماعات مختلفة دخلت إحداها الصين ، وتوغلت الثانية فى الهنـد ، وعبرت الثالثة جبال الأورال وغزت مناطق الدانوب فى أوربا ، وكونت دولة بقيادة أتيلا واضطرت بيزنطة إلى دفع الجزية لها . ولكن هذه الدولة انتهت بموت اتيلا ، وانسحب أغلبهم الى منطقة الاستبس الروسية شمال البحـر الأسود ، وانصهرت بقيتهم مع الأهالى فى المناطق التى وصلت اليهـا فى شرق أوربا .

أما قبائل الآفار فانها قد زحفت فى منطقة جنوب الروسيا ، واستغلت العناصر السلافية ، ووصلت الى الدانوب وهددت بيزنطة ، ونهبت البلقان وهجمت على آسيا الصغرى كما هددت بافاريا . ولكن هذه القبائل إصطدمت بشرلمان ، الذى أقطعها أراضى فى الشرق ، أوستريا ، أو النمسا الحالـية ، وعمل على نشر المسيحية بينها . وأما قبائل البلغار فانها قد زحفت على نفس الطريق ، وانتشرت فى منطقة الدانوب والبلقان ، واستعبـــدت العناصر السلافية الجنوبية(يوجوسلاف)والتفت حول بيزنطة وأسست امبراطورية إمتدت ، فى القرن العاشر ، من البحر الادرياتى ، إلى البحر الأسود . ولقد ساعد إتصالهم بأسرى الحرب وبشعوب البلقان على إعتناقهم المسيحـــية وتحدثهم اللغات السلافية ، فاتخذ رئيسهم لقب القيصر وترك لقب«خان»

السابق ، وأصبحت المسيحية دين دولتهم ، والسلافيـــة لغتهم الرسمية ، وستنشأ بلغاريا نتيجة لاستقرارهم فى هذه المنطقة . وأما قبائل المجـــر أو المجيار فانها كانت قد زحفت صوب بحر آزوف ثم عبرت جبـال الكربات وسيطرت على منطقة السهول وواصلت هجماتها على ألمانيا وإيطاليا وفرنسا إلى ان إصطدمت بقوات الامبراطور أوتو ، وفشلت أمام بيزنطة. وتحولت هذه القبائل إلى التوطن ، وعملت فى الزراعة واعتنق رئيسها إتين المسيحية ، وأسس دولة على النظام الغربي ، وعملت هذه القبائل على استغلال منطقـة المجر الحالية .

وكانت هناك جماعات وجماعات من البرابرة ، والقبائل المتنقلة،التى أثرت فى تاريخ العالم . وإذا كانت كل المجموعات التى ذكرناهـا والتى أتت من الشرق إلى أوروبا قد تحولت الى المسيحية ، فان مجموعة واحدة قـد اعتنقت الإسلام ، وأصبحت خطراً على أوربا ، وعلى العناصر التى خرجت قبلها من وسط آسيا وتوطنت فى البلقان ، وهى مجموعة الأتراك . ولقد وصل الأتراك من مراتب الرقيق وصغار الجنود فى الدول الاسلامـية إلى أرفع المناصب ، وسيطروا على بلاد الأفغان وأصبحوا يكونون الحرس الشخصى لخليفة بغداد ، وحكموا مصر وعرفوا باسم المماليك . وخرجت مجموعات أخرى منهم وسيطرت على التركستان ثم استـــولت على فارس وانتشرت فى آسيا الصغرى ، وأخذت تتطلع منها إلى قباب بيزنطـة ، كما كانت تفكر فى السيطرة على مصر وتوحيدها مع شمال أفريقيـــة . إنهم الأتراك العثمانيين ، فهل ينجحوا فى إخضاع أوربا ؟ أو تقـــوم أوربا

باخضاعهم واستعمار المناطق التي يسيطرون عليها ؟

. . .

وهكذا نرى أن البرابرة قد فشلوا في تكوين امبراطوريات ، أودول، يمكنها أن تقف إلى جانب الامبراطـــورية الرومانية ، وكان عمر دولهم قصيراً ، وأرتبطت هذه الدول بشخص مؤسسها مثل أتيلا وشرلمان وأوتو وكـنوت وكانت تنتهي بموته . وكان من الصعب معرفة عاصمة هذه الدول، ما دام حكامها ونبلاؤها يتنقلون بصفـة مستمرة ، ولكنهـم زودوا أوربا بدماء جديدة ، وصبغوا الأقاليم التي دخلوها بصبغات خاصة ، ساعدت على نشوء القوميات فيما بعد ، فهنا فرنسا ، وهناك بلغاريا أو المجر ، وأثروا في اللغات والعادات والتقاليد الخاصة بكل إقليم .

أما من الناحية الاقتصادية فنجد أن غارات البرابرة قد أدخلت الرعب في قلوب الأهالي ، وقل الانتاج ، كما أن قلة أمن الطرق والمواصـلات قد أثرت تأثيراً كبيراً على التجارة التي تقهقـرت . وجاءت غارات السلب والنهب لكي تخرج كميات كبيرة من الذهب والفضة من أيدي الأهـــالي ، فتقهقر المستوى الاقتصادي لغرب أوربا خاصة، وأن تجارة الشرق الأقصى كانت في أيدي العرب والمسلمين . فسادت المبادلة والمقايضة بعـد عمليـات البيع والشراء .

ولكن أوربا تزودت بعناصر محاربة جديدة ، وفي هـــذه المـره سيكون إتجاه الزحف من الغرب إلى الشرق ، وفي اتجاه مخالف لسير قرص الشمس في رحلته اليومية ، بعد نداء البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت للمسيحية بإعداد الحملات الصليبية

الفصل السادس

الصليبيون

إمتازت المسيحية بأنها ديانة لها صفة « العالمية » ، أي انها لا تعرف لنفسها وطن محدد ، أو شعب معين ، فهي ملك للجميع في كل انحاء الأرض ، ومن واجب المسيحيين نشرها ، والتبشير بها ، بين العناصر غير المسيحية . وزاد شعور المسيحيين الأوربيين بضرورة القيام بهذا العمل ، بعد غزوات البرابره ، وانتشارهم في جميع انحاء القارة . وساعد عليه وجود الكنيسة ونشأة جماعات الرهبان ، والصراع الناشيء بين السلطة الدينية والزمنية في اوربا ، بين البابا والامبراطورية والملوك والأمراء . ولكن هل يبقى التبشير وسيلة تعتمد على الإقناع ، أو توضع له النظم والقوانين التي تحتم انتشاره ، بل وتحتم تطبيقه ؟ وهل تكفي القوانين والمراسيم لنشره في المناطق التي تخرج عن حدود « الدول » الأوربية المسيحية ، أو أن الأمر يتطلب استخدام القوة ؟ وإذا كانت هناك عوامل اقتصادية تتعلق بالاوضاع في اوربا نفسها ، وبسيطرة المسلمين على تجارة الشرق الادنى ، وعوامل سياسية تتعلق برغبة البابوية في القيام بحركة عامة تسيطر بها على كل أمراء ومحاربي اوربا ، وتفتح المجال أمامهم وأمامها في العالم الاسلامي ، فأي وسيلة تلزم لتحقيق هذه الاهداف ؟

(١) التبشير والكنيسة : -

كانت المسيحية قد انتصرت في الامبراطورية الرومانية بعد عهود طويلة

من الكفاح والعذاب . وأصبحت المسيحية هي التي تمثل هيبة روما ، وخاصة امام عناصر البرابرة الذين انتشروا في جميع انحاء اوربا . وشعر المسيحيون بضرورة تحويل هذه العناصر الى المسيحية ، وشرح القديس اغسطس أن سقوط روما يعني نهاية دولة ، ولكنه لا يعني نهاية العالم ، وأن الانسانية تشتمل على نوعين من البشرية ، الاول يعيش كرجال ، والثاني يعيش كما رسم الله ، وأنه من الواجب خلق مكان للعناصر البربرية التي تتمسح في داخل الدولة المثالية . وقامت حركة كبيرة لتوصيل « كلمة الرب » لكل الشعوب ، سواء أكانوا من الجرمان أو الفرنجة أو من البرجنديين أو القوط أو غيرهم ممن انتشر في اوربا أو من الانجليز والساكسون الذين انتشروا في الجزر البريطانية . ولقد رفض البريطانيون التبشير بين عناصر البرابرة التي احتلت بلادهم ، وأخذت منهم اراضيهم ، وكأنهم كانوا يرفضون بذلك الالتقاء بهم كمسيحيين ، في الجنة ، بعد أن ضاقوا بوجودهم على ارضهم في الحياة ! فاضطرت روما الى ارسال مبشرين منها الى الجزر البريطانية ، وقام الايرلنديون بدورهم في هذه العملية ، بل وانتشروا مبشرين بالمسيحية على القارة الاوربية كلها . وانتشر المبشرون من بيزنطة كذلك في مناطق البلغار والروس وبوهيميا وبروسيا . وانتصرت المسيحية في المجر وبولندا والاقاليم الاسكندنافية . أما النساطرة الذين كانوا يعتقدون في وجود صفتين مزدوجتين ، انسانية وآلهية للمسيح ، والذين اعتبرتهم روما من الهراطقة ، فانهم قد حملوا الانجيل الى فارس والهند وسيلان والصين .

وكانت هذه العملية تعتمد على الإقناع . وتعتمد كذلك على بعض « المعجزات » التي تؤثر في عقلية الشعوب غير المسيحية . وكان المبشرون

يغامرون فى واقع الامر بحياتهم ، ويثيرون اعجاب البرابرة . وكانت السياسة تلعب دورا هاما فى التبشير كذلك ، فيقتنع كلوفيس بأهمية الحصول على تأييد الاساقفة له أمام الفرنجة ، ويعتقد دوق المجر أن التحول الى المسيحية هى الفرصة العملية الوحيدة الموجودة امام شعبه ، ويجد دوق بولندا فى اعتناق المسيحية وسيلة للاستناد الى روما تمكنه من التخلص من تحكم الاباطرة الجرمانيين ، ويركز كنوت الاسكندنافى امبراطوريته على اساس العمل ضد الكفر . وكانت عملية التبشير فى بعض الاحيان تعتمد على التخويف والارهاب ، وسيلة تصل بها الى اهدافها . فنجد أن شرلمان يعاقب بالموت كل من يسرق ادوات الكنائس ، وكذلك كل من يرفض الصيام ، أو يأكل اللحم فى يوم الجمعة ، أو يرفض التعميد ، واستخدم اوتو الكبير نفس وسائل الاكراه فى تحويل الأهالى الى المسيحية .

وكثيرا ما حاولت الكنيسة أن تضع المسيح فى أماكن الآلهة غير المسيحية ، فتحولت معابد كثيرة الى كنائس ، كما تحولت اعياد قديمة الى اعياد مسيحية . واعتمدت المسيحية بعد ذلك على جماعات الرهبان « كمكافحين » مسيحيين ، يعملون على زيادة تغلغل المسيحية بين الشعوب ، وتغلغلها فى نفوسهم ، واعتمدت عليهم كذلك فى عملية « الاستعمار المسيحى »

وأصل كلمة راهب هى « الوحدة » monos أو الفرد ، أو « النفر » ، إذ أن العملية كانت تبدأ بعزلته عن العالم ، حتى يتمكن من التفكير والبحث والتمعن ، وان كانت الاديرة قد تطورت واصبحت تضم مجموعات كبيرة من الرهبان . وبدأت هذه العملية فى الشرق ، حيث كان الرهبان ينعزلون فى الصحارى ، بعيدا عن العالم ومغرياته . ثم أخذوا فى التجمع ، فى مجموعات

صغيرة ، يعيش الافراد فيها نفس المعيشة ، وتكون صلواتهم جماعية .
وانتشرت هذه المرحلة فى الغرب ، وكانت تجمع الرجال أو النساء بعيدا
عن العالم ، وتضعهم فى خدمة الرب . ونشأت الاديرة فى روما وقرب ميلان
ثم فى فرنسا . اما المرحلة الثالثة بعد « الجماعة » ، فكانت « جماعة الجماعات » .
ولقد قام بها القديس بنوا ، وذلك بتكوينه جماعات صغيرة من الرهبان ، ثم
بتأسيسه دير مونت كاسينو ، وبوضعه نظاما « محددا » للرهبان الموجودين
فيه ، ومبادىء تتلخص فى الفقر ، والخشوع ، والإستمرار . واصبح اتباعه
يعرفون باسم البندكتيين . وبلغت عدد اديرة البندكتيين ثلاثة عند موت
القديس بنوا ، ولكنها بلغت مائة بعد قرن من الزمان . وتسابق الاثرياء
والاساقفة والملوك والامراء فى بناء الاديرة واعطاء الهبات لها . وأدخل
كلينى تعديلا أساسيا على نظام البندكتيين ، وذلك بتقسيمه اوقات الرهبان
بين الصلوات والعمل ، وأصر على ضرورة التمرن على الصمت التام ، وعلى
الطهارة والنظافة والتواضع . فزاد هذا من تنظيم الجماعة وسط الفوضى المحيطة
بها من كل جانب . وكان تنظيم الجماعة له شكل تسلسلى ومركزى بين
الاديرة والكنائس ، وله قيادة عامة تشرف وتوجه وتفتش على مجموعات
اصغر ، وتشرف كل منها بدورها على مجموعات اصغر منها ، وهكذا .
وعملت هذه الوحدات ، وعمرت واستعمرت . وقبل مضى قرن على وفاة
كلينى بلغ عدد الوحدات التابعة لجماعته ١٤٥٠ وحدة ، معظمها فى فرنسا
وبعضها فى المانيا وايطاليا وبريطانيا واسبانيا وبولندا ، وبلغ عدد رهبانها
ستة آلاف راهب ، موزعين على اوربا ومكونين جيشا منظما مسيحيا ،
يسيطر على امبراطورية دينية ليس لها نظير . وحمل القديس برنار المشعل من
بعده ، وأعتبر أن الرهبان منذ عهد كلينى كانوا يهتمون بالحياة الدنيا اكثر

من اللازم ، فاصر على ضرورة التضحية ، وأمر اتباعه بارتداء الملابس البيضاء ، التي تدل على الطهارة ، بدلا من ارتداء اللون الاسود منذ عهد كلينى . وتزايد عدد وحدات الرهبان فى عهده ، وفى كل مكان . وكان ينصح الملوك ، ويختار البابوات ، وينادى « بالزهد » فى كل شىء ماعدا الزهد فى « العمل »

وقامت جماعات اخرى وأزدهرت فيما بعد ، وأهمهم « الاخوان العمال » أنصار القديس فرنسوا ، و « الاخوان المبشرين » انصار القديس دومينيك واصبح كل من الفرنسيسكان والدمينيكان ، جنودا للمسيح ، وكونوا جيشا متنقلا ، وخرجوا بعشرات ومئات من الالاف من الأديرة ، لهداية الناس . فخرج بذلك استعمار روما من ظلام الأديرة الى وضح النهار . وكانت هذه الحركة حركة استعمار ، وإن كان الرهبان لا يعملون من أجل الدول ، فانهم كانوا يعملون من اجل روما ، روما البابوية ، والتى قامت بدورها بابعاد سلطة الأسقفيات عنهم ، وأخضعتهم لها بطريقة مباشرة ، حتى تتخذهم وسائل وأدوات لعملها ، وفى كل الممالك . وكانت حركة استعمار ، لأن الرهبان لم يقصروا عملهم على هداية البشر . بل نزلوا إلى ميدان الزراعة وفلاحة الارض وقطع الغابات وتجفيف المستنقعات ، فى الاراضى التابعة لهم . وكذلك عملوا على بناء الكنائس والقرى فى مناطق متعددة ، وأضاف الرهبان الى ذلك نشاطا صناعيا وتجاريا ، فقامت الاديرة والكنائس باعمال الحدادة والنجارة واشتغل الرهبان فى انجلترا بنسج الصوف ، وعقدوا الاسواق وأقاموا المعارض بالقرب من اديرتهم ، وبنوا الملاجىء والفنادق والقناطر علاوة على الكنائس والكاندرائيات . وتمكنت المسيحية باعتمادها على هؤلاء الجنود العاملين المكافحين فى الميادين الزراعية والحرفية وميادين الفن والتعليم ، أن

تصمد فى وجه البرابرة ، وأن تدفع خطرهم عن أوربا . ولكن عمل هـؤلاء الرهبان كان داخلا فى نطاق النشاط القومى لدول اوربا ، وكان فى وسع البابوية وحدها أن تعمل على تجميعهم ، وتعطى لحركتهم لونا «عالميا »، وتحطم بذلك الإطارات القومية ، التى كانت تعوقها وتنافسها ، وتتحكم فيها فى بعض الظروف .

ولقد عملت المسيحية فى أول الأمر وسط فوضى البرابرة ، ولكنها استمرت فى عملها بعد ذلك وسط النظام الإقطاعى السائد فى أوربا ، وعملت على اخضاعه لها وسيطرتها عليه ، حتى من الناحية الزمنية .

وكان الإقطاع فى أساسه « القانونى » عبارة عن عقد أو إتفاق بشأن تنازل عن بعض الحقوق المتعلقة بالعقارات ، فكان السيد أو الملك يمنح أحد كبار الموظفين ، فوائد ومحصول وثمار أحد الإقطاعات . وكان المالك يمنح جزءا من أرضه إلى من يقوم بخدمتها واستغلالها وبشروط معينة . وكان المعطى هو السيد والآخذ هو التابع الذى يتعهد ويرتبط ويقسم على شروط معينة تجاه السيد ، وكان من حقه أن يقتسم « العين » مع غيره ، أو يوزع بعضها أو كلها على من يرتبط معه بدوره بشروط وتعهدات خاصة . ومع الزمن أصبحت هذه المنحة المؤقتة وراثية ، فنشأ نظام هذا البنيان الإقطاعى الهرمى الطبقى ، بما فيه من أرض ورجال وألقاب . ولكن الأصل « التاريخى » للاقطاع مختلف عن ذلك ، ونشأ نتيجة للشعور بالحاجة العامة للحماية من الغزوات والغارات والفوضى . فطلب الفلاح من السيد الصغير ، القريب منه ، أن يقوم بحمايته والدفاع عنه ، وطلب هـذا السيد الصغير نفس الشيء من سيد أكبر وأقوى منه ، دون تفكير فى جنس الحامى وأصله ، وعلى أساس ان تكون الحماية فعلية قبل كل شيء .

وأخذت الاقطاعات تمر من ملكية سيد إلى ملكية آخر ، حسب نظام الوراثة والزواج ، فلا نعجب لرؤية بعض السادة الانجليز على رأس بعض الإقطاعات فى فرنسا ، أو النورمانديين فى إيطاليا . وكان الامراء يفيدون من هذا النظام الاقطاعى ، فنجد هنرى الثانى ملك بريطانيا يرث أنجو من من والده ، ونورمانديا من والدته ، ويسيطر على اكويتانيا بالزواج ، ويصبح دوقاً لتولوز ، ويزوج ابنه بوارثة دوقية بريتانى ، وبناته مع ملك قشتالة ، وملك صقلية ، ودوق ساكس وباقاريا . وكانت بعض المشكلات تنشأ من هذه العملية ، ولكن الأهالى كانوا يقاسون منها ، دون أن يشاركوا فيها .

ولقد رأت الكنيسة أنه يمكنها الإفادة من هذا الجو الإقطاعى دون أن يكون لها مشروعات زواج وميراث . فلقد كانت لها الكنائس والاسقفيات التى تبرع لها المسيحيون بالأراضى ، وكان من السهل اعتبار المطران أو الأسقف سيداً إقطاعيا بالمعنى « بالقانونى » . وكان تغلغل الكنيسة فى هذا العالم لا يسمح لها بالخروج منه ، بل يدفعها الى محاولة السيطرة على هذا « النظام » حتى تتمكن من القيام « برسالتها العالمية » . وكانت الكنيسة تتدخل لفرض الصلح أو عقد هدنات بين السادة الاقطاعيين ، ثم عملت على تنصير الفرسان حسب الطقوس الجرمانية ، فكان الفارس يستلم سيفه من سيده وهو يسمع إسمى القديسين ميخائيل وجرجس ، ثم يقسم أمام الله ، ويصبح جنديا من جنود السيد المسيح . وفرضت الكنيسة امبراطوريتها على المجتمع بادخال « الرب » فى الحياة الإقطاعية ، ووسعت ميدان عملها الروحى ، من سلام الأرواح إلى أمن الأراضى والأهالى .

وكانت البابوية قد ورثت الكثير عن الإطار الامبراطورى القديم ،

واحتفظت بالأقاليم والمدن . فعملت على التخلص من سيطرة بيزنطة ، ثم من تهديد اللومبارد ، واستندت إلى ملوك الفرنجة ، ووسعت دولتها حتى اشتملت على روما وبيروجا ورافنا . وعاشت هذه الدولة أكثر من ألف عام . ثم عملت بعد ذلك على أن تكون لها السيادة على كل الممالك المسيحية، لا كدولة مثل غيرها ، بل دولة فوق الدول ، ما دامت الكنيسة كاثوليكية و « عالمية » . وركع رؤساء البرابرة أمام الأساقفة ، وجاء كل من شرلمان وأوتو إلى روما لكي يتوجهم البابا أباطرة .

حقيقة أن بعض الملوك والأمراء كانوا يناصبون روما العداء أو يرفضون الخضوع لها ، وكان ذلك الموقف منهكا لهم ولروما ، وانتهى بهم الأمر إلى اظهار خضوعهم لها ، وخاصة الألمان ، حتى يتمكنوا من الوصول الى توحيد بلادهم : وكان البابا يستخدم وسائل فعالة في فرض سلطته ونفوذه الزمنيين على الأمراء والملوك ، وذلك باعلان حرمانهم أو باعلان عزلهم ، أو التدخل لتأييد أمير آخر ضدهم . وكانت البابوية تحلم بأخوة كاثوليكية شاملة ، ومسيحية عالمية ، واستخدام الصليب وسيلة لتوحيد العالم واستعماره ، وتدعيم السلام الدائم بين الرجال . وسارت البابوية في سياسة إخضاع الأمراء ، والتبشير في العالم ، ونجحت إلى حد كبير ، ولكنها اصطدمت في خلال هذه العملية بالاسلام ، وبالأتراك ، واستغلت هذا الصدام وسيلة لاتمام تحقيق أهدافها في أوربا أولا ، وفي بقية العالم بعد ذلك . فليذهب الصليب لغزو آسيا ، إنها مشيئة الرب ، كما أعلنها البابا ، فمن الذي يقدر على معارضتها ؟

(٢) الحملات الصليبية :ـ

كانت المسيحية قد إنكمشت أمام الغزو العربي ، والمنافسة الاسلامية ، وفقدت الشام وآسيا الصغرى وشمال افريقية واسبانيا ، ثم شعرت بنوع من مركبات النقص ، ولها من العمر سبعة قرون أو ثمانية ، أمام قوة الإسلام وحيوية العرب . فأخذت فى تقليد الاسلام ، وأفادت من وسائله . وفرضت ضريبة العشور التي كانت سارية لدى المسلمين ، كما أن الحج إلى الإماكن المقدسة قد إنتشر لتقليد حج المسلمين لمكة ، وكذلك الصيام . وأخذت الكنيسة فى إعداد الفرسان المسيحيين لتتمكن بهم من منازلة مجاهدى الإسلام .

ولم يكن هجوم المسيحية المضاد من عمل المسيحية وحدها ، إذ كان سياسيا فى نفس الوقت ، فنجد أن شرلمان يرسل جنود الفرنجة الى جنوب جبال البرانس ، والممالك المسيحية الصغيرة فى نافار وقشتالة تقف فى وجه المسلمين ، ونداء صاحب برشلونة يلقى استجابة من فرسان فرنسا لمساندته والدفاع عنه . كل ذلك يجرى والبابا يصدر صكوك الغفران لمن يعمل على إعادة غزو اسبانيا . ووصلت الإمدادات من كل أوربا ، حتى تمكن المسيحيون من الإستيلاء على طليطلة ثم بلنسية ، ومن الوصول الى مصب التاج . وفى الوقت الذى كانت المسيحية تزحزح فيه الحكم الإسلامى صوب غرناطة كانت هناك عملية مستمرة لتوطين المسيحيين القادمين من اوربا على هضاب اسبانيا ، مكان المسلمين . واستمر هذا الصراع فى اسبانيا لفترة طويلة ، وكانت الإنتصارات فيه مرتبطة بوصول فرسان جدد من اوربا ، أو وصول عناصر محاربة جديدة من شمال افريقية ، ولكنه كان فى صلبه وأساسه حربا صليبية .

وحاولت بيزنطة أن تدفع الإسلام بعيدا عن اوربا من الجانب الآخر ، كما حاولت الإستيلاء على سوريا أو أرمينيا . وقام أهالى بيزا وجنوا فى وسط البحر المتوسط ، بالإستيلاء على سردينيا ، وهاجمت سفنهم عنابة وتونس ، أما النورمانديون الذين إستولوا على صقلية ومالطة من العرب ، فانهم سيتخذونها قواعد يهاجمون منها طرابلس وسوس وسفاقس . وكانت هذه العمليات منفصلة ، وتأخذ شكل الثأر ، وكان ينقصها التنظيم ، والتوحيد والتوجيه، الى هدف أهم ، لكى تكون حربا عالمية مسيحية . فلتتجه الى بيت المقدس ، ولتعمل على احتلال كل الساحل السورى الواقع الى جنوب طرابلس ، فتصبح مسيحية ، وتسيطر فى نفس الوقت على واجهة آسيا التجارية المطلة على الغرب .

وكانت هناك حركة تحاول تعبئة الشعور الدينى فى الغرب ، وتعمل على اعداد المسيحيين لهذه الحروب ، وبخاصة بين الحجاج الذين يأتون الى الشرق الادنى . وهناك المعجزات التى ساعدت على هذه العملية ، مثل العثور على بقايا القديس جاك فى غاليسيا ، وما تبع ذلك من ذهاب الحجاج من فرنسيين والمان وبولنديين ومجر وانجليز الى هذا الموقع . وليس هناك من شك فى ان هذه العملية كانت تعمل على تعبئة الشعور الدينى عند المسيحيين، وفى اسبانيا ، وفى الوقت الذى كانت تعمل فيه على طرد العرب منها . وأطلق المسيحيون على هذا القديس اسم «ماتامور» أى قاتل المغاربة ، واعتقدوا فى انه كان على رأس المسيحيين ، فى حربهم ضد المسلمين .

وكانت بيت المقدس ابعد عن الاوربيين من غاليسيا ، ولكن روما فرضت الحج اليها . فكان الحجاج يعبرون ايطاليا ، على اقدامهم ، او على

ظهور الدواب ، وبعـــد زيارة روما ، يركبون سفنـا من برنديزى ، لها اشرعة قد رسم عليها الصليب ، ويواصلون سفـــرهم لمدة اسابيـع قبل أن يصلوا الى عكا أو قيصرية أو يافا أو عسقلان ، ومنهـا الى بيت المقـدس . وكان غيرهم من الحجاج يسير بريا ، عبر بيزنطة ، الى انطـاكية ، ثم فى الجليل الى الناصرة . ولم يكن العرب والمسلمون يعارضون فى مجىء الحجاج، إذ كان تسامحهم يفرض عليهم ذلك ، وكانت مصلحتهم الإقتصادية تدفعهم الى تشجيـع هذه الحركـة « السياحية » . ولكن سرعان ما ظهرت حركة فى الغـــرب ، ادعت أن المسلمين كـانوا يعملـــون على اهانة المسيحيين ، ويفرضون عليهم الضرائب ، قبل دخول بيت المقدس . فهل يصل الحـال الى اقفال الحج امام المسيحيين ؟ لقد كـان الشعور معبأ ، وقام اربعة اساقفة من الالمان بقيادة سبعة آلاف رجل مسلح ، الى الاراضى المقدسة سنة ١٠٦٥ م ، فأصبـح الصدام ممكنا ، وفى أى لحظة ، وخاصة بعـد التعبئـــة النفسية ، والاستعداد للحج بقوة السلاح .

ونادى البابا أوربان الثاني فى كليرمونت بضرورة توحيـــد المسيحيين لقواهم ، والسير صوب الأراضى المقدسة ، ضامنين المجد الأزلى، الذى ينتظرهم فى الجنة . وطلب منهم أن ينسوا أنفسهم ، ويحملون الصليب . وجاء هـذا النداء محـــددا وفى وقته . واجتمعت الحملة وكـان هدفها بيت المقـدس ، ووسائلها دينية برئاسة الـــكرسى المقدس ، وعسكرية بمساعدة فرسان الغرب . وسار المنادون فى كل أوربا يـكررون كلمات البـابا ، ويفضحون المترددين من الاثرياء أو الكسالى ، ويعدون الحجـاج بالغفـران الكامل . وبقى الأسبان بعيدين عن هذه الحركـة ، نظرا لانشغالهم فى بلادهم ، ولكن شعور الحماس الدينى سرى فى بقية اوربا ، وأخـذ النـاس يستعدون للسفر ،

وانتشرت الاشاعات عن حدوث معجزات ، وكذلك النبؤات عن عودة شرلمان الى الحياة ، وقيادته للجيوش . وكانت للبابوية اهدافا ديموجرافية وسياسية من وراء هذه الحملة ، إذ أن البابا كان قد شرح أن اراضى المسيحيين قد ضاقت بهم ، وأصبحت تكاد لا تكفى إطعام من يعيشون عليها ، كما أنه قد أمر الإقطاعيين بالكف عن محاربة بعضهم ، والسير جميعا فى طريق بيت المقدس . فيمكن إذن للحرب الصليبية أن تحل محل الحروب الداخلية ، وتوجه غرائز الحرب عند الفرسان ، أو عند قاطعى الطرق ، الى اهداف دينية . وكان البابا يخشى من خطر ضغط الاتراك والإسلام على اوربا ، مما قد يؤدى الى سقوط بيزنطة ، آخر معقل للغرب ، وبشكل يهدد كل المسيحية . كما أن نجاح البابا فى تكوين جيش كبير من كل بلاد أوربا كان يعنى انه فوق كل الملوك ، وخاصة فى هذا الوقت ، الذى خرج فيه كل من ملك فرنسا وملك انجلترا والامبراطور الالمانى من الكنيسة ، والذى كان فيه امبراطور بيزنطة منشقا عليها . ففى وسع الكنيسة إذن أن تثبت انها فى غير حاجة اليهم ، وانه يمكنها العمل بدونهم . وربما فكر البابا فى الحصول على املاك فى الاراضى المقدسة ، وفى بيت المقدس ، يمكنها بالاضافة الى روما أن تكون دولة زمنية ، تفرض نفسها على كل أمراء العالم .

وبدأت جموع كبيرة فى السفر قبل الوقت المحدد ، على الاقدام ، وفى العربات ، متجهة صوب الشرق . ولكنها كانت بدون أى برنامج ، وسادها الفوضى ، ونقصتها المؤن ، وبدأت فى السلب والنهب ، وخاصة بعد أن قوتها ودعمتها بعض عصابات من الايطاليين والألمان . وتخلص منهم امبراطور بيزنطة ونقلهم بسرعة عبر البوسفور ، وبقى منهم ٢٥ ألفا بعد اشتباكاتهم مع المجر والبلغار ، وهزمهم الاتراك هزيمة ساحقة ، ولم يعد منهم إلا

ثلاثة آلاف، وأضطرت بيزنطة إلى إعتقالهم ، دفاعا عن الامن والنظام فيها .

أما الحملة الحقيقة فكانت معدة ومنظمة ومجهزة ، وقسمها البابا إلى أربعة جيوش تشتمل على ابناء اللورين والفلمنك والألمان ، وعلى نورمانديي ايطاليا ، وعلى الفرنسيين ، وعلى النورمانديين . وكان عليها ان تسير مع الدانوب ، وعن طريق البلقان ، وعن طريق ايطاليا الشمالية وعن طريق روما والبحر الادرياتي، لكي تتقابل كلها ، في القسطنطينية. وخشي ابناء بيزنطة من مجيء هذا العدد من الفرسان إلى مدينتهم ، وأسرع الامبراطور وأعلن ان الاراضي التي يقصدونها كانت ملكا لبيزنطة ، فاقسم له معظم رؤساء الصليبيين بالولاء ، وقبلوا أن يكونوا تابعين له . وتعهد الامبراطور من جانبه بتموينهم وامدادهم عسكريا ، ولكنه اسرع بالتخلص منهم، ونقلهم الى الشاطيء الاسيوي . وتمكن الصليبيون من دخول انطاكية بعد حصار طويل ، انتشر في اثنائه الطاعون . وبدأ الوهن يدب بين صفوف الصليبيين، إلا أن مجيء عناصر اسكندنافية كامداد لهم ، عن طريق البحر ، سمح لهم بمواصلة السير حتى وصلوا إلى بيت المقدس . ولكن عددهم كان قد إنخفض من ١٥٠ ألف إلى ما لا يزيد عن خمسة عشر ألف ، بعد هذه الرحلة التي استغرقت ثلاث سنوات . وحاصروا المدينة ثم هاجموها واستولوا عليها . ونزل الصليبيون بأسلحتهم من فوق الاسوار داخل المدينة ، وقتلوا كل من صادفهم ، ولم يتركوا إمرأة ولا طفل ، حتى تكدست الاجساد والرؤوس وسدت الطرقات . وكان هذا الغضب ، بعد سير إستمر ثلاث سنوات ، وهذا الانتقام من اهالي بيت المقدس ، خطأ سياسيا كبيرا ، خاصة وان عددا من سكان هذه المدينة كانوا من المسيحيين ، كما ان هذا القتل قد صعب عملية اخضاع مدن فلسطين الأخرى ، وأخر الاستيلاء عليها .

ونجح الصليبيون فى عمليات تبعد ثلاثةآلاف كيلو متراً عن قواعـدهم ، وأمام أعداء أقوياء ، ورجع ذلك إلى تفوقهم فى المعدات ، وخاصت الدروع كما رجع إلى حسن التنظيم للتموين والامداد فى أثنـــاء العمليات ، إذ أن أساطيل بولونيا والبندقية وجنوا ورودس وقبرص كانت تسـير بحـــذاء السواحل، وتقدم لهم ما يلزمهم، ومرحلة بمرحلة كما أفاد الصليبيون من الفرقة القائمة فى العالم الأسلامى فى ذلك الوقت . ولـكن سرعان ما نشأ الانقسام بين الصليبين أنفسهم ، وبعد إنشائهم لمالـكهم واقطاعياتهم المسيحية فى الشرق العربى . كما نشأت الفرقة بينهم وبين إمبراطور بيزنطـة ، الذى لم يتمكن من تعضيدهم وإمدادهم ، وظهـــر الخلاف بين رجال الدين من كاثوليك وارثوذكس ، ورفضت الـكنيسة الكاثوليكية تســـليم انطاكية للـكنيسة اليونانية ، ورفض بارونات الفرنجه توجيهات مندوبى الامبراطـور . وبعد الانشقاق والخلاف والتنافس ، وصل الحال إلى العداء السافر ، وحـــول الصليبيون احدى حملاتهم الى بيزنطة ونصبوا أباطرة لاتينيين بدلا من اليونانيين .

وإذا كان الانقسام سائدا فى صفوف المسيحيين من ناحية ، وسائدا فى صفوف العرب والمسلمين من ناحية أخرى، فلم يكن هذا كافيا لرفض أى فـكرة لتعاون ممكن بين بعض المشارقة وبين الصليبيين ، أو تعاون بعضهم مع البزنطيين ضد الصليبيين . فنجد بيزنطة تحاول التقرب إلى بعض الأتراك والتحالف معهم ضد الفرنجه ، وتقوم محولات لإنشاء علاقات بين وحـدات هذه القوى الثلاث ، صيليبيين غربيين ، وبزنطيين ، وعرب، وتحـاول كل قوة من هذه القوى ، الإقطاعية ، الاحتفاظ بامتيازاتها ، أو الحصـول على امتيـازات جديدة ، وبمناورات خاصة ، تجاه القوى الأخرى الموجودة فى الميدان . فظهر الموقف على أنه بعيد كل البعد عن معنى الصليبيات فى أساسها،

وكانت طبيعة القوى ومصالحها هى التى تفرض عليها ، وعلى قيــادآتها ، إمكانيات الحركة . ونجد أن المسلمين ، بعد إستعادتهم لبيت المقدس ، يعلنون إمكانية عودة الحجاج المسيحيين اليهـا . وحين يعود الصليبيون إلى نفس المدينة يتركـون المسلمين يؤدون صلواتهم فى مسجد عمر والمسجد الأقصى . وكان هذا التسامح جميلا فى ذاته، لو لم يكن يخفى، فى حقيقته ، ضعف القوى الموجودة فى كل معسكر ، ومحاولة القيادات الإبقاء على امتيازاتها بأى ثمن .

وكانت الدول المسيحية فى المشرق ضعيفة ، ولا تمثل إلا شريطاً ضيقاً على الساحل السورى . وكان من الصعب على الصليبيين الاحتفاظ بحلب ودمشق إذا ما قرر المشارقة استعادة بلادهم ، وبلاد أجدادهم ، وعملوا على توحيد صفوفهم ، والاستعداد ليوم جـديد . وزاد هذا الخطر وتبلور مع ظهـور صلاح الدين . ولم يتمكن الصليبيون من الاحتفاظ إلا بطرابلس وطرطوس وأنطاكية ، وفشلوا فى الاستمرار فى المقـاومة مع ظهـور بيبرس ، الذى سيطرت قواته على المنطقة بأكملها ، ومن النوبة حتى الفرات .

وتتالت الحملات الصليبية على المشرق ، ومن بينهـا تلك الحمله التى قام بها بعض صغار الشبان ، أو الصبية ، والتى سارت على طريق الجوع ، الصعوبات ، وإلى الأسر . ولقـد كانت بعض هذه الصليبيات قريبة من الروح الصليبية الحقيقة ، ولكنها فشلت نتيجة لوجود « حالة نفسية » فى أوربا ، بعيدة عن الواقع العملى ، أو بمعنى آخر نتيجة لقوة الدعاية ، بدرجة تبعدها عن الحقيقة المادية . وأصبح الاوربيون لايشاركون فى الحملات لتخليص قـبر المسيح ، أكثر من رغبتهم فى رؤية المشرق بثرواته ونسائه الجميلات ، أو اكثر من رغبـتهم فى المتـاجرة فى تـوابل الشرق الاقصـى .

وأرسل الامبراطور فردريك الثانى حملة صليبية لكى يمكن زوجته ايزابلا من إستعلام حقها من ميراث عرش بيت المقدس ، وجاءت حملة أخرى لتدعيم نفوذ البندقية تجاه بزنطة ، ولمساعدتها على الانتقام منها . وكانت حملة القديس لوى تهتم بالمسيحية قبل غيرها ، فظهرت غريبة فى هذا الجو الذى غلبت عليه صفات المادية . ولقد أفاد الملوك من الحملات الصليبية لكى يدعموا نفوذهم فى مناطق الأمراء والفرسان الغائبين فى المشرق . وظهر أن الحملات الصليبية بعيدة عن كونها مجرد عمليات « مسيحية » وأنها عمليات سياسية واقتصادية ، أى أنها عمليات إستعمارية واستغلالية .

(٣) سياسة الاستعمار :-

وكانت المذابح التى قام بها الصليبيون فى بيت المقدس ، قد أخلت المدينة والمنطقة من عدد كبير من سكانها . وسرعان ماشعر الصليبيون بهذا الفراغ حولهم ، فهل يتركون بيت المقدس خاوياً ؟ ومن الذى يقوم بخدمة هؤلاء السادة القادمين ؟ وفكر الصليبيون فى استدعاء بعض أهالى أوربا لتعمير الأراضى المقدسة ، ثم اتصلوا بالمسيحيين الموجودين فى آسيا ، ثم سمحوا أخيراً ببقاء بعض الأهالى من المسلمين . وتحول الصليبيون بذلك ، وبحكم ضرورة الظروف ، من الحرب المقدسة ، الى ما يحمل معنى التسامح ، ومن حرب الإبادة الى محاولة إغراء الأهالى على التعاون معهم .

وكان فى وسع الصليبيين أن يعتمدوا على أوربا لتعمير أو استعمار الأراضى المقدسة ، وخاصة فى ذلك الوقت الذى تزايد فيه عدد سكان أوربا بشكل ملحوظ . ويقدر عدد الصليبيين الذين تركوا أوربا بمليون شخص ، وإن لم يصل منهم الى الأراضى المقدسة إلا نصف هذا العدد .

ولكن مثل هذه السياسة لم تكن تبشر بالنجاح ، خاصة وأن عدداً كبيراً من الصليبيين قد عاد إلى بلاده ، بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، ومعرفتهم بأن الأراضى المقدسة ليست هى الجنة ، التى يرغبون فى المعيشة فيها. حقيقة أن عدداً من الأوربيين كان يحاول الوصول الى الأراضى المقدسة ، للحج أو للتوطن ، ولكن حالة الحرب والتعبئة الموجودة فى الشرق الأدنى ، وأخطار الوقوع فى المهالك ، كان يثنى الكثيرين منهم عن عزمهم . وعلى أى حال فقد كان فى وسع الصليبيين أن يعتمدوا على مجىء العناصر المغامرة التى ترغب فى القتال وفى السلب والنهب ، أكثر من اعتمادهم على العناصر المسالمة الراغبة فى العمل والتوطن والاسترزاق . وكان معظم الوافدين من أصل فرنسى أو ايطالى ، وعملوا فى قوات السادة الإقطاعيين الصليبيين .

وشجع الصليبيون العناصر اليونانية والسريانية ، واليعاقبة والنساطرة على المجىء إلى الأراضى المقدسة ، مع نسائهم وأولادهم ، وعلى توطنهم فيها. وكانوا يعرفون صعوبة ضمهم إلى الكنيسة الكاثوليكية ، وإن كانوا يعتقدون فى إمكانية إدماجهم من الناحية السياسية ، ويفضلونهم على المسلمين . وأخذ بعض الصليبيين يتزوجون من بنات المسيحيين الشرقيين . وظل خطر مجىء أعداد كبيرة من المسلمين الى المنطقة يهدد مشروعاتهم ، وأمن مستعمراتهم .

ولقد عمل المحتلون على تطبيق النظام الاقطاعى ، الذى أحضروه معهم من اوربا . ورغم أن هذا النظام كان قد نما وتطور فى أوربا نتيجة لظروف وعوامل متعددة ومتفاعلة مع بعضها ولمدة طويلة ، فان الصليبيين

قد عملوا على تطبيقه فى الشرق الأدنى كما هو. وأخذوا فى كتابة قواعد هذا النظام ، رغم أنها لم تكن مكتوبة فى أوربا نفسها . وتحول السادة إلى ملوك وأمراء وكونتات ، أما الفرسان فقد تحولوا إلى بارونات ، فأصبح هناك أمير طبرية وأمير الجليل وصاحب يافا وسيد صيدا أو نابلس ، وهكذا .

وكانت هناك مشكلة العلاقة بين مملكة بيت المقدس والبابوية . وكان البابا اوربان الثانى يهدف من وراء ارسال الحملات الصليبية الى الشرق الأدنى، توسيع الأراضى الخاضعة لدولة القديس بطرس ، وتكوين دولة خاضعة للسيادة البابوية . ولكن موت مندوبه فى الأراضى المقدسة ، ثم وفاته هو، قد أثرت فى هذه العملية ونشأ نزاع بين أمير صليبى وبطريرك بيت المقدس، على لقب ملك بيت المقدس،وانتصر الأمير،وظلت المملكة مسيحية ،ولكنها لم تكن خاضعة سياسيا للبابا .

وكان الصليبيون قد تعهدوا عند مرورهم فى بيزنطة بالولاء لامبراطورها، ولكنهم عادوا وتناسوا تعهدهم، مدعين أنه لم يقدم لهم المعونات التى كان قد وعد بها . ودفع هذا امبراطور بيزنطه الى الاستعانة بالأتراك ، لكى يفرض سيادته على أمير أنطاكية.

وكان ملك بيت المقدس يلقب بياور ملك الفرنجة ، ولكن هذا اللقب لم يكن يحمل معنى التبعية ، رغم الصلات الوطيدة الموجودة بين الطرفين . وكان ملك بيت المقدس يأخذ سلطاته من « الرب » رأسا ، رغم أن دولته كانت إنعكاساً لفرنسا ونظمها ولغتها ، وظل رأس الدولة نفسه فرنسيا لمدة طويله . وعرف الشرق الصليبيون عامة على أنهم « فرنجة » .

وكان فرسان الفرنجة هم المسيطرون على السلطة ، ويكونون قمة المجتمع الجديد ، ويحتلون المناصب ، ويحتفظون لأنفسهم بالامتيازات . وكانوا يعاملون الأهالى من حيث الضرائب والعدالة والنظم المالية ، كما كانوا يعاملون الفلاحين فى فرنسا فى ذلك الوقت ، أى طبقا لنظام الاقطاع . وكان السادة يخرجون للصيد فى إقطاعاتهم ، ويستخدمون أصحاء الأبدان من المسيحيين فى قواتهم ، ويتركون الباقين لخدمة الأرض . ولم يكن من حق أى سورى أن يبارز فرنجى . وكان الأهالى يدفعون ضريبة معينة فى عكا لكى يسمح لهم بالمتاجرة ، وكانوا يعيشون فى أحياء خاصة بهم .

ولقد تأثر الصليبيون كثيرا بالمشرق ، وظهر هذا التأثير حتى فى قطع العملة التى ضربوها فى الأراضى المقدسة . وتأثر الصليبيون بالعادات والتقاليد المحلية ، وساعدهم الجو على نزع دروعهم ، وارتداء الملابس الشرقية ، وأطلقوا لحاهم ، وجلسوا على الأرض تحت الشجر لاستقبال السفراء ، وتزوج بعضهم بأكثر من سيدة ، وتطورت الأحوال مع التوطن ، ونسى بعضهم بلاده ، وأصبح الفقير منهم غنيا ، وتحول الغزو المسيحى إلى عملية إستعمار .

ولقد استمرت مملكة بيت المقدس لمدة ٨٩ سنة ، وعاصمتها القدس ، ثم استمرت بعدها لعدة سنوات واتخذت عكا عاصمة لها . وملأت الحروب الصليبية ، بأحداثها وشخصياتها ، حياة أوربا وآدابها ، كما أثرت فى العلوم والفنون فيها ، وعلمت الأوربيين الكثير . وانتهت هذه التجربة الاستعمارية باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس . وأظهر صلاح الدين من التسامح

والكرم والإنسانية مع أعدائه الكثير، مما أجبرهم على احترامه . وترك لليونانيين والنساطرة واليعاقبة والأرمن الأراضى والممتلكات التى كانت فى أيديهم ، والتى كانوا قد استولوا عليها بمساعدة الصليبيين .

(٤) الجماعات المسيحية المحاربة :-

لقد نشأت من الحملات الصليبية بعض الجماعات المسيحية التى واصلت العمل الصليبى ، والاستعمار المسيحى ، ونقلته الى ميادين أخرى . وكانت الجماعات المسيحية تعمل لأغراض سلميه قبل الحملات الصليبية . وتمكن تاجرين من الحصول على تصريح بانشاء دير للبندكتيين فى بيت المقدس، مع مستشفى لإيواء ومعالجة الحجاج . فنشأت بهذه الطريقة جماعة الاسبتالية، وأدت دوراً كبيراً فى معالجة الجرحى فى أثناء الحروب الصليبية . ثم أخذ بعض الرهبان فى العمل على حراسة الطرق المؤدية إلى بيت المقدس ، والمحافظة على الأمن داخل المدينة فنشأت جماعة جديدة تسمى جماعة إخوان المعبد، نسبة إلى معبد الملك سليمان القديم.

وتحولت هذه الجماعات الى جماعات محاربة ، وزادت أعمالها الحربية على أعمالها الدينية ، وأدت خدمات للاستعمار ، أكثر مما أدت للبابا . وأصبح الاسبتالية وفرسان المعبد يمثلون أكثر قوات الصليبيين قوة ، وقاموا بحراسة الأقاليم والمواقع المتطرفة . وكان أسلوبهم حربيا أكثر منه دينياً فكانوا يخضعون «لسيد أعظم» يشرف على عدد من الآمرين commandeur ويسمون فرسانا إذا كانوا من النبلاء ، ويمثلون « الحرس » الخاص بالمستعمرة . وأخذوا يدافعون عن السلطة الزمنية ، رغم أنهم من الرهبان وتحولوا بذلك الى « ميليشيا » إقطاعية . وأخذ كل من الاسبتالية وفرسان

المعبد فى منافسة بعضهم بعضا ، ثم اخذوا فى وضع المؤامرات حول العرش وأصحاب الإقطاعات ، وابتعدوا عن الأسس والمبادىء الخاصة بحياة الرهبان . ولكن علينا أن نعترف بقوتهم فى الحرب ، واستماتتهم فى المعارك ، كما شهد بذلك حصار طرابلس ثم اسوار عكا وتحصيناتها .

وإذا كانت هاتين المعركتين هما آخر معارك الصليبيين فى الشرق الادنى فانها لم تكن آخر معارك الاسبتالية وفرسان المعبد : إذ نجد أن فرسان المعبد قد حاربوا بعد ذلك مع الإسبانيين ضد العرب ، وأستولوا على اماكن محصنة . وواصلوا فى فرنسا نشاطهم الدنيوى ، وجمعوا الثروات الطائلة ، وقدموا القروض بالربا ، حتى اتهم الملك بالمضاربة والخيانة ، وأمر بالقاء القبض عليهم ، واحراق سيدهم الاعظم . أما الإستبالية فقد انتقلوا بعد الاراضى المقدسة إلى قبرص ، ثم إحتلوا جزيرة رودس التى كانت خاضعة لبيزنطة ، وسمحت لهم الثروات التى ورثوها عن جماعة فرسان المعبد بالاستقرار ، وبتنظيم جماعتهم وتقويتها . وبلغ عددهم فى رودس ما يتراوح بين أربعمائة وستمائة فارس ، مقسمين حسب اللغات التى يتكلمونها . وتمكنوا من الاحتفاظ بهذه الجزيرة لمدة قرنين أمام هجمات المسلمين . كما قاموا بالهجوم على الاسكندرية ، وأحتفظوا بأزمير لمدة تزيد عن نصف قرن ، ثم نجحوا فى رد خمس غارات للمسلمين على الجزيرة ؛ إلى أن جاء أسطول سليمان القانونى المكون من ثلاثمائة سفينة ، ومائة الف مقاتل ، فسلم الفرسان ، وتعهد الاتراك بعدم التعرض للكنائس والاحتفاظ بحرية ممارسة العقائد . وترك الفرسان الجزيرة ومعهم أربعة آلاف يونانى ، وأستولوا على مالطة ، التى تركها لهم شارل الخامس ، للدفاع عنها أمام العرب ،

ولاتخاذها قاعدة لشن الهجمات على شمال إفريقية ، وعلى السفن الإسلامية فى البحر المتوسط . وأقاموا حكما إقطاعيا فى هـذه الجزيرة ، وأستغـلوا إمكانياتها ، وتحكموا فى أهلها الذين ثاروا ضدهم أكثر من مرة . واعترف فرسان الاستبالية بسيادة روما عليهم ، رغم أن هذه السيادة كانت إسمية . ونجحوا فى إقفال الطريق فى وجه الأتراك العثمانيين صوب الغرب . وظلوا فى الجزيرة إلى أن أستولى عليها الجنرال بونابرت ، وهو فى طريقه إلى مصر ، فأستولى على اموال الجماعة وممتلكاتها ، وأمر بدفع معاشات لهم ، وانهى بذلك تاريخهم الاستعمارى .

ولقد نشأت جماعة فرسان ثالثة ، المانية ، فى اثناء الحروب الصليبية ، هى جماعة الإخوان الفرسان « التيوتون » والتى منحهـا البابا حق عـلاج الجرحى ، ومقاتلة « الكفار » ، ونفس حقوق وامتيـازات جماعتى فرسان المعبد والاستبالية . والواقع أن تكوين هذه الجماعة وقيادتها من الألمانيين ، فى الوقت الذى كانت فيه الجماعتان الأخرتان تضم العنـاصر اللاتينية فى صفوفها وفى قيادتها ، كان يـدل على أن روما ، وهى تحـارب من اجل العالمية ، كانت تسمح ، فى نفس الوقت ، وتساعد على تبلور القوميات داخـل المؤسسات والمنظمات التابعة لها .

ولقد اثرت الجماعة التيوتونية نتيجة للأملاك والثروات التى جمعتها من الاراضى المقدسة . ثم قام أحد أمراء بولندا بدعوة فرسان هـذه الجماعة لمساعدته ضد جيرانه البروسيين ، وأقطعهم مقـاطعة كبيرة على حـدوده ، وأغراهم بترك كل الأراضى التى يقـومون بفتحها ملـكا لهم . وضمن الامبراطور فريدريك الثانى نفس الشروط ، وأمرهم بمهاجمة البروسيين ، وأكـد البابا ان اراضى الجـماعة ستـكون من ممتلـكات القديس بطرس

والكنيسة الرومانية ، ولكنها ستترك للتيوتونيين ، بشكل يجعلهم يمتلكونها ملكية تامة. فحصل الفرسان التيوتونيون بهذا الشكل على موافقة كل من بولندا والامبراطورية والبابوية على إعطائهم حرية العمل، وحرية الملكية لكل ارض ينتصرون فيها ، وينتزعونها من البروسيين .

وكانت المانيا قد بدأت منذ ذلك الوقت ، عملية توسعها صوب الشرق ، وأخذت فى دفع العناصر السلافية فى هذا الاتجاه . وأخذ الالمان يستعمرون الاراضى الواقعة فيما وراء نهر الإلب ، مدفوعين فى هذه العملية بكثرة اعدادهم ، وبالرغبة فى الحصول على أراض جديدة . وتمكنوا من إخلاء براندبورج من العناصر السلافية ، وانزال ما بقى منهم فيها الى مرتبة العبيد . كما اخذ بلاط بوهيميا يتحول الى الألمانية ويستخدم فرسانا من البافاريين والساكسون ، ويمنحهم الامتيازات . ولكن النجاح هنا كان نسبيا ، خاصة وأن الالمان كانوا لا يندمجون مع الاهالى ، ويحتقرونهم ، فبقى لكل منهم عاداته وتقاليده . وكذلك الحال فى بولندا التى كانت تمنح المهاجرين من الألمان امتيازات خاصة . وكانت هناك مجموعة من الفرسان الألمانيين قد احتلت استونيا ، وإن كانت قد فشلت فى اماج الاهالى ، واعطائهم لغتها وعاداتها وتقاليدها . وبقيت منطقة بروسيا على حالها ، فلم تعتنق المسيحية ، وظل أهلها يعيشون فى الغابات والمستنقعات ، ويرتدون جلود الحيوانات ، ويعبدون الطبيعة ، ويقتلون المسيحيين . وكانوا من أصل سلافى وفنلندى. وبلغ عددهم ما يقرب من مائتى ألف نسمة ، وكانوا ميدانا خصبا لعمل جماعة الفرسان التيوتونيين.

ولقد استمرت هذه الصليبية الشمالية ما يزيد على نصف قرن . وقاوم البروسيون ، ولكن الفرسان تمكنوا من اخضاعهم بطريقة

منظمة ، خاصة وأن البروسيين كانوا غير منظمين ، وكان الفرسان يلبسون الدروع ، ولهم تكنيك معين فى المعارك ، ويستخدمون السهام التى تمرنوا عليها فى الشرق الاوسط . وكان الفرسان يعتمدون على المفاجأة ، ويقيمون على المرتفعات أو على جزيرة فى وسط الماء ، وفى أماكن تتحول فيما بعد الى حصون . كما كانوا ينشئون قرى المهاجرين الالمان أسفل هذه المرتفعات أو على ضفاف البحيرة . وكان الغزو يتقدم خطوة بخطوة ، وبنفس الطريقة ، حتى وصلوا الى سواحل البحر البلطى ، وأصبحت مواصلاتهم سهلة مع المانيا .

وكان هؤلاء الفرسان ينادون السيدة العذراء فى أثناء المعارك ، ولكنهم ظلوا يقتلون أعداءهم ، وفى حرب ابادة ، طوال مدة سبع وخمسين سنة . واستخدم الفرسان الالمان كل وسيلة ممكنة ، ومنها الغدر ، للوصول إلى أهدافهم . فكانوا يقيمون الحفلات للبروسيين ، ويقدمون لهم الشراب ، ثم يحرقون بهم مكان الحفل ، ويأسرون من يحاول الخروج من بين النيران . ولم يحاولوا التبشير بالمسيحية بين البروسيين ، ورفضوا علاوة على ذلك السماح لهم بدخول الكنائس ، حتى أخذ البابا نفسه فى الشكوى من هذه الطريقة ، ولكن بدون جدوى ، إذ أن الفرسان كانوا قد وضعوا نصب أعينهم إبادة هـذا الشعب البروسى ، والاستيلاء على منطقته خاوية من السكان . ولقد نجحت هذه الطريقة ، وسلم البروسيون ، واختفى شعبهم ولغتهم من خريطة العالم .

وسيطر الفرسان التيوتونيون على بروسيا ، واستولوا على أملاك جماعات الفرسان الالمانية الاخرى التى كانت تمتد الى أقاليم البحر البلطى ، وأصبحوا يسيطرون على هذا البحر ، وعلى الانهار التى تصب فيه ، بسفنهم .

كما سيطروا على مداخل بولندا . واعتمدوا على خط دفاع يتكـون من قلاع متتاليه ، كما إعتمدوا على قوة هجوم من الفرسان المدربين الغلاظ القلوب . وكانوا لا يسمحون للاساقفة بالتدخل فى عملياتهم ، ورفضوا الاستجابة لتوجيهات الكرسى البابوى . وكانت دولتهم أرستقراطية ، تنتخب رئيسها من مجلس خاص ، ويقوم هـــذا الرئيس بتعين النبلاء ، ويحكم بموافقة سادة المانيا . وخضع الفرسان فى هذه الدولة لنظـام دقيق وصارم ، فكانوا ينامون بملابسهم ، والسيوف الى جـوارهم ، وقامـوا باستعمار بروسيا مع بعض العناصر السلافية التى بقت فيها ، وبنوا القرى والمدن ، وأنشئوا المطاحن ، وتاجروا فى الصوف .

وتمكنت هذه الجماعة من انتزاع استونيا من حكم الدانيمرك ، وأنشأت كونجزبرج ، أى مدينة الملك ، ملك بوهيميا ، ثم ميمل ، واشترت دانتزج رغم احتجاجات بولندا ، ثم براندبورج . وقام هؤلاء الفرسان بالهجوم على لتوانيا ، وتوغلوا فيها . وكانوا يقيمون الاحتفالات ويرقصون مع الاهالى ، وفجأة يبدؤن فى مذابحهم ، وفى القتل والنهب ، ودون أن يفكروا فى كسب هذه الشعوب للكنيسة . ولقد أثارت هذه القسوة ضدهم الاهالى ، كما كانت الطبقة البرجوازية والتجار فى هذه المناطق غير راضية عن سياسة إبعادها عن الحكم ولا عن سيطرة جماعة الفرسان على كل النشاط الاقتصادى فى هذه الاقاليم . وبدأت الخلافات بين وحدات الفرسان ، ثم فقدت الجماعة تفوقهـا الحربي نتيجـة لاستخدام البـارود والمدفعية . وتمكن أحـد أمراء ليتوانيا من ضم مملكة بولندا لحكمة ، ثم تمكن من محاصرة جماعة الفرسان التيوتونيين فى تاننبرج ، وقتل سيد الجماعة فيها مع عدد كـبير من الفرسان . ثم جاءت ثورة الاهالى ، فانقسمت دولة التيوتونيين ، وانضم الجزء الاكـبر

منها الى بولندا . ولكن بقية جماعة الفرسان إتحدت من جديد فى براندبورج، وتبع سيدها الأعظم مذهب الإصلاح الدينى ، وجعل من بروسيا دوقية وراثية بعد أن حررها من حكم بولندا ، ونشأت بروسيا بهذ الطريقة ، وهى الدولة التى عملت على توحيد المانيا ، واحتفظت بشعار جماعة الفرسان التيوتونيين ، وهو النسر الأسود ، على علم الرايخ الألمانى ، بعد الوحدة .

(٥) صقلية واليونان :ـ

ولقد حاولت العناصر الألمانية السيطرة على البحر المتوسط كذلك ، وخاصة على صقلية النورماندية . وكانت هذه الدولة خاضعة لروما ، وطلبت معونة البابا لتدعيم سلطانها على الجزيرة . ولكن فردريك الثانى كان يطمع فى فرض سيطرة امبراطوريته على كل ايطاليا، فزوج ابنه من وريثة صقلية ، وإنتقلت بذلك هذه الجزيرة من حكم النورمانديين لحكم الألمان .

وحاولت البابوية أن تمنع هذه العملية ، وأصدرت قرارا بحرمان الامبراطور الألمانى ، ولكنها عادت وتراجعت، وقدم فردريك ولاءه الاقطاعى من صقلية للبابوية . ولكنه عمل فى نفس الوقت على تحطيم الإقطاعيين الذين كان فى وسع البابا أن يستند اليهم فى الجزيرة ، كما عمل على ترويض رجال الدين. وحطم قلاع النورمانديين ، وحكم الجزيرة بادارة بيروقراطية كانت تتبعه فى تنقله من مكان لآخر ، وفرض الضرائب على غلة الأرض ، والجزية على المسلمين واليهود ، واحتكر الحديد والنحاس والحرير والشعير والملح

الذى كان يباع بستة أضعاف ثمنه . وكان فردريك الثانى يوجه الاقتصاد، واصالحه الشخصى . وبنى جامعة فى نابولى حتى ينزع التعليم من أيدى رجال الكنيسة ،وعمل على كسب المسلمين فى الجزيرة، وكان شخصيا يتحدث العربية، ولكنه وطنهم فى أماكن معينة ، وربط بينهم وبين الإنتاج الزراعى فى الجزيرة ، وحولهم الى عبيد للأرض ، كما استخدم عدداً منهم فى قواته المسلحة كمرتزقة ، وأنشأ لهم قلعة ومعسكراً فى جنوب إيطاليا . وحينما توفى فردريك حاولت أسرته الألمانية أن تستولى على ميراثه ، ولكن روما عملت على التدخل ، وفكرت فى تنصيب أحد الفرنسيين أو ابن ملك انجلترا، أو شقيق ملك فرنسا على صقلية. وساعدها على ذلك قيام الثورة فى الجزيرة ورغبة الأهالى فى التحرر من تحكم الألمان .

واختار البابا شارل دانجو ، شقيق القديس لوى ، ملك فرنسا ، لحكم صقليه ، ونجح فى تنصيبه ملكا على صقلية ، بعون الله ، وعون البابا . وامتدت أملاكه على كل نابلى ، وأصبح عضواً فى مجلس شيوخ روما ، وترأس « الجلف » فى إيطاليا ، وناوى بذلك حركة الجبابين ، التى كانت تناصر الامبراطورية فى شبه الجزيرة . وظهر شارل على أنه حامى الكنيسة، وأجبر الأهالى على أن يقدموا الولاء ، دون أن يعرفوا إن كان هذا الولاء له أو للبابا . وتفاوض مع بيدمونت ولومبارديا وتوسكانيا باسمه وباسم روما . وكان من الناحية القانونية خاضعا للبابا ، ولكنه أصبح من الناحية الفعلية سيداً لايطاليا ، بما فيها من الممتلكات البابوية . وحتى الجزية الخاصة بصقلية ، لم يكن يدفعها بانتظام . وعلى العكس من ذلك نجده يستلم الغرامة الحربية ، من حكام تونس ، والتى بلغت مائتين وعشرة آلاف أوقية من الذهب ، وذلك بعد موت أخيه القديس لوى ، أمام قرطاجه .

ولقد اعتبر شارل كل من تعاون مع الألمان أو خدمهم من قبل ، من الخونة، فصادر أملاكهم وطرد أبناءهم ، ومنع التزاوج معهم . وبعد أن حاول الألمان السيطرة على موارد الجزيرة ، قام شارل بمحاولة فرنستها ، فعين الفرنجة فى الوظائف ، بشكل جعلهم يسيطرون على الجيش والإدارة والحصون والقصور . ووصل به الحد إلى أن تمكن من ترشيح أحد الفرنسيين لمنصب البابا ، ووصل بالتالى الى أن يسيطر الأساقفة الفرنسيين ، بعد نجاحه، على شبه الجزيرة الايطالية نفسها . واضطرت هذه السياسة العناصر الجرمانية الباقية فى صقلية الى أن تتقرب من العناصر العربية والاسلامية ، وكانت كثيرة ، فى الوقت الذى اعتمد فيه شارل على العناصر النورماندية ، وكانت قليلة . وكانت الضرائب ثقيلة على كاهل الأهالى ، ولم يكن فى وسعهم التهرب منها ، كما كان عليه الحال فى عهد الجرمان ، وخاصة بعد أن قام شارل بتنظيمها . وكانت هناك ضرائب على المحاصيل، وعلى البهائم ، وتضاعفت هذه الضرائب فى مدة ست سنوات ، حتى سرت روح الثورة فى كل الجزيرة . وأخذ الأهالى ينتقدون نظام الحكم الفرنسى ، وكثرة الموظفين ، واحتكار المطاحن ، وتجارة الحبوب ، كما إنتقدوا ترفع الفرنسيين ، وإقامة الملك فى نابولى ، بدلا من إقامته فى بالرمو، وتحدثوا عن تكديسه للثروات فى خزائن بناها فى أحد الحصون على جزيرة مواجهة لنابولى .

ونشبت الثورة فى إحدى الكنائس ، رغم منع الاهالى من حمل السلاح فى أماكن العبادة. ونشأت نتيجة لإعتداء أحد الفرنسيين على إحدى الآنسات، فهاجمه الأهالى وقتلوه بسيفه . ثم بدأت حركة عامة لقتل كل الفرنسيين والاستيلاء على أسلحتهم . ومن بالرمو انتشرت الثورة فى كل اتجاه ،

واستولى الأهالى على الحكم ، وكونوا « الكوموانات » وربما لعبت أيدى « الجبلين » ، أصدقاء الألمان ، وحكام أرغونه الذين كانوا يستعدون لغزو الجزيرة ، والبيزنطيين الذين شعروا بتهديد شارل دانجو المباشر لهم - ربما لعبت أيديهم جميعاً في التمهيد لهذه الثورة . ولكن الثابت على أى حال هو أنها كانت ثورة المحكومين على الموظفين ، ودافعى الضرائب على جامعيها ، والاغلبية على تحكم الاقلية ، والقومية على ظلم الاستعمار .

وبعد ترك الفرنسيين من بيت دانجو لحكم جزيرة صقلية ، إحتفظوا بنابولى ، ثم أسسوا دولة « رومانيا » وتمكن أحد أحفاد شارل دانجو من أن يصبح ملكا للمجر ، وأصبح ابنه ملكاً على بولندا ، وأضاف تاجها الى تاج المجر . ولكن فشل الفرنسيين فى صقلية ، قد أثر فى البابوية ، أكثر من تأثيره على فرنسا نفسها .

وإذا كانت صقلية هى إحدى المحطات أو المراكز المؤدية الى الأراضى المقدسة ، فان بيزنطة كانت أهم هذه المراكز ، نظرا لأنها كانت تتحكم فى الطريق البرى الموصل بين أوربا وآسيا . وكان أباطرة بيزنطة قد أساؤا معاملة الصليبيين ، كما كانت ثروات هذه الامبراطورية تغرى الأوربيين على السيطرة عليها ، بالإضافة الى أن هذه السيطرة قد تقضى على الانقسام الموجود فى الكنيسة ، وقد يستبشر بها البابا ويباركها كحملة صليبية . ولذلك فان الحملة الصليبية الرابعة قد اتجهت صوب القسطنطينية . وكانت هذه المدينة تجمع فى داخلها عدداً كبيرا من التجار ورجال الأعمال الغربيين علاوة على أهالى البندقية ، الذين كانوا قد تحرروا من حكمها ، ثم استعانت بهم ضد أخطار النورمانديين المتزايدة فى البحر المتوسط ، والذين كانت لهم أحياء خاصة بهم فى المدينة . وبعد نداء البابا إينوسنت الثالث ، اجتمعت

هذه الحملة الصليبية فى البندقية ، وكان اتجاهها بيت المقدس لكى تحاول استخلاصها من صلاح الدين. ولكن أحد أبناء الأباطرة البيزنطيين المعزولين إستنجد بها ، فسارت الحملة الى بيزنطة واحتلتها ، واستولى الصليبيون على ما فيها من أموال وثروات وبضائع . وكانت هذه الحملة تتكون فى غالبيتها من الفرنسيين والفلامنك وأهالى بيدمنت ، فانتخبوا بودوان الفلامنكى امبراطوراً ، وأنشئوا مملكة فى سالونيك ، ودوقية فى أثينا ، ومركيزية فى كورنثا ، واستولت البندقية على كريت وجزر بحر إيجه .

وأبعد الغزاة العناصر اليونانية من الوظائف الكبيرة ، ولكنهم احتفظوا بالقوانين البيزنطية ، وتركوا الأرض للفلاحين . وبدلا من أن يفرضوا الكنيسة الرومانية على اليونانيين ، وضعوا الكنيسة البيزنطية تحت حمايتهم . ولقد بقى الأباطرة اللاتينيون غرباء فى القسطنطينية ، وبدأ البلغار والاتراك فى الضغط عليهم ، وفى الوقت الذى كانت فيه البندقية تراقب حركاتهم . ففقدوا سالونيك ، ثم أدرنه ، ولم يبق لهم فى آخر الأمر إلا مدينة القسطنطينيه وضواحيها ، مما سمح لأسرة الأباطرة البيزنطيين السابقة بالتحالف مع جنوا ، عدوة البندقية ، والهجوم على المدينة والإستيلاء عليها . ولم يعمر هذا الاستعمار اللاتينى فى القسطنطينية إلا سبع وخمسين سنة .

أما قبرص فكان الصليبيون قد استولوا عليها من بيزنطة . وكان رتشارد قلب الأسد قد استولى عليها ثم باعها لجماعة فرسان المعبد ، الذين تنازلوا عنها فيما بعد لأسرة لوسينيان الفرنسية . واستمرت هذه الاسرة تحكم الجزيرة لمدة ثلاثة قرون . وسيطر اللاتينيون على المناصب الرئيسية فى هذه الدولة ، ولكنهم سمحوا لليونانيين بتولى بعض المناصب ، بالخدمة فى الجيش . وازدهرت التجارة فى هذه الجزيرة نتيجة لموقعها المتوسط بين

الشرق والغرب ، كما أن عددا كبيراً من الحجاج فضلوا عدم استمرارهم حتى بيت المقدس ، وأقاموا بها ، وأصبحت كذلك موطـونا لكثير من الصليبيين العائدين من الأراضى المقدسة . فتحولت قبرص الى مركز تجارى هام بين الشرق والغرب. وحاولت أسرة لوسينيان أن تستعين بالبندقية ضد جنوا ، التى استولت على فماجوستا ، وسمح ذلك للبندقية بزيادة نفـوذها فى الجزيرة ، ثم باستيلائها عليها .

. . .

وهكذا نرى أن الصليبيات قد عملت على نشر المسيحية فى أوربا ، وجعلتها تفكر فى بدء التبشير فى إفريقية والشرق الأوسط . وعاد الصليبيـون من الشرق بنباتات جديدة مثل الأرز والقصب والقطن والزعفران ، كما عادوا بأنواع جديدة من الأنسجة ، وبأفكار جديدة . وكان التجار قد ساروا وراء الحملات الصليبية ، وعرفوا أهمية تجارة الشرق الأدنى ، وأصبحت لهم أحياء بأكملها فى بعض المدن ، مثل انطاكية وبيت المقدس ، أو مجرد فنادق فى المدن الأقل أهمية من الناحية التجارية .

وكان التصدير فى أول الأمر يتجه صوب أوربا ، ولكن سرعان ما أخذ الصليبيون يطلبون سلع بلادهم ، وأخذ تجار أوربا يصدرون الأنسجة الصوفية التى وجدت رواجاً كبيرا فى المشرق . فتحول عجز الميزان التجارى الأوربي إلى فائض ، وأصبحت العملية فى صالح الرأسمالية الأوربية ، خاصة وأن مصاريف نقل السلع من الشرق ومن الغرب كانت تدخـل فى جيوب أصحاب السفن ، وكلهم من الأوربيين . ويمكننا أن نضيف الى ذلك تحول ما قام به الصليبيون بالاستيلاء عليه من أسلاب وغنائم الى بلاد أوربا ، مما أغنى الكنائس والقصور .

ولكن علينا ألا ننسى ذلك العدد الكبير من الرجال الذين قتلوا فى أثناء هذه الحروب ، وألا ننسى فشل روما فى توحيد العالم المسيحى ، بل حتى توحيد إيطاليا وحدها ، وشدة النزاع بينها وبين بيزنطة ، وبين الفرنجة والجرمان ، وبين البنادقة وأبناء جنوا . وبدلا من أن تقوم الكنيسة باخضاع الشعوب لها ، وتقليل سلطة ملوكهم عليهم ، نجد أن الملوك قد أفادوا من غيبة النبلاء والفرسان فى الأراضى المقدسة ، واستولوا على أراضيهم وقضوا على إمتيازاتهم . وخرج الاقطاعيون من هذه الحروب ضعفاء ، واضطر بعضهم الى بيع أملاكه أو رهنها . ونشأت الضرائب المباشرة نتيجة للحاجة إلى الانفاق على هذه الحملات ، ودعمت هذه الضرائب خزائن الملوك فى كل أنحاء أوربا . وزادت أهمية الدول الأوربية بمجىء الغنائم من الشرق الأدنى وبيزنطه ، مما سمح للملوك بصك العملة الذهبية ، وتركوا للنبلاء صك القطع الفضية أو البرونزية . فتفوقت السلطة المركزية من الناحية النقدية مثلما تفوقت فى ميدان الضرائب وأدى ذلك إلى إزدياد سيادتها وسيطرتها السياسية .

وهكذا أعطت الحملات الصليبية لملوك أوربا وسائل إنتصارهم ، بدلا من من أن تعمل على إضعافهم ، وحررت الشعوب من البابا ، بدلا من أن تزيد من خضوعهم له .

وكانت القوميات والدول هى التى تربح فى كل عملية من عمليات الصليبيين ، حتى ولو كانت هذه العمليات قد قامت باسم البابا ، وتحت لوائه . فانتهى عصر الاقطاع الذى عمل الملوك على قطع رأسه من أعلى ، فى الوقت الذى عمل فيه التحرر على نخر أرجله من أسفل . كما انتهى عصر الفرسان والفروسية ، مع معرفة البارود واستخدام والمدفعية ، وانتهى العصر الذى

اعتقدت فيه الشعوب فى وسائل روما ، من صكوك غفران أو صكوك حرمان .

وأخذ الغرب يحارب وهو يتقهقر ، فتقتتل فرنسا وإيطاليا لمدة قرن ، أما الامبراطورية الجرمانية فلا يبقى منها سوى الاسم ، وأما إيطاليا فليست أكثر من مجموعة مدن متنافسة ، وأما الممالك الأيبيرية فهى فى حرب مع المغاربة ، وذلك فى الوقت الذى أخذت فيه مجموعات بشرية أخرى فى الزحف من وسط آسيا صوب الغرب . وليس معنى هذا أن الاستعمار الأوربي قد انتهى ، بل ان وسائله ستختلف ، وكذلك العناصر القائمة به .

الفصل السابع

العصر الثانى للمراكز البحرية

إنتهى العهد الذى إستخدم فيه المستعمرون الدروع ، لكى يظهر مستعمرون جدد لهم وسائل جديدة ، تسمى الصرف ، والرصيد ، والودائع ، والتأمين وعقود الشركات إنهم تجار وليسوا محاربون ، وبحارة وليسوا من الفرسان . أما هدفهم فكان الربح أكثر منه الغزو ، والمكاسب أكثر من كونها الأراضى . وقد اهتموا بأنشاء المراكز التجارية ، كما فعل أهالى كريت والفينيقيون وأبناء قرطاجة واليونانيون . أنه العصر الثانى للمراكز البحرية ، وللشركات التجارية ، ولن تكون تجربتهم آخر تجربة فى هذا الميدان .

(١) الوسائل الجديدة : ـ

فى الوقت الذى كانت فيه الطرق البرية صعبة وغير مأمونة ، أصبح الطريق البحرى مفتوحا لحركة النشاط الجديد . ونعنى بالبحر هنا البحر المتوسط . وكان الغرب قد أبعد المسلمين عن مالطة وصقليه ، ولم يكن الأتراك قد تمكنوا بعد من السيطرة على المضايق . فظهر أن مستقبل أوربا الغربية ، فى العالم ، قد ارتبط بالماء .

ولقد تحسنت وسائل الملاحة ، ورغم أن السفن الحربية كانت لا تزال تعتمد على التجديف، إلا أن السفن التجارية قد أخذت فى إستخدام الشراع المثلث ، على سارية أو ساريتين ، مما سمح لها بالسير فى إتجاه مخالف للرياح ، أو بزوايا معينة ، وسمح لها كذلك بالالتفاف . وأصبحت السفن مزودة

بثلاث أجهزة تسمح لها بالابتعـــاد عن الساحل ، الأول هو البوصلة أو الابرة المغناطيسية التي تسمح لها بمعرفة الشمال ، والثانى هو الاسطـرلاب الذى يعين لها خطوط العرض ، والثالث هو الدفة المتحركة والمثبتة فى مؤخرة السفن ، والتى حلت محل المجداف الكبير ، الذى كـان البحـارة يحاولون ادارته أو تثبيته فى نقطة معينة ، وبمشقة . فأصبح من السهل بعد ذلك بنـاء سفن كبيرة ، يمكنها أن تسير فى أعالى البحار .

وكان معنى بناء سفن كبيرة وقوية ، إمكان شحنها بكميات أكـبر من البضائع ، وتطلب هذا بالتالى وسائل مادية أكـبر ، لتنفيذ هذه المشروعات . ولذلك فاننا نجد أن تقدم الوسائل المالية ، جاء مكملا لتقدم الوسائل الفنية البحرية فى هذا الميدان . فظهرت البنوك وانتشرت . وبدلا من نقـل الذهب والفضة ، بدأ الممولون فى إيداعها لدى أحد المختصين ، والذى اصبح بالتالى مسئولا عن خزانة زبائنه . وأصبحت « الطاولة » التى يقع عليها الإيداع أو الدفع تسمى « البنك » بالإيطالية . وكان من السهل على المـــودعين أن يدفعوا ما يرغبون فى دفعه بأمر صغير لصاحب البنك . وإذا كـانت العملية مصحوبة بتغيير نوع من النقود إلى نوع آخر ، فهناك التحويل والصرف وإذا كانت الودائع مصحوبة بتعهد باعادتها مـع الربـــح ، فهى سلفة . وبدأت بذلك العمليات المصرفيـة الرأسمالية ، ومنـذ بداية القرن الثالث عشر .

وفى نفس الوقت بدأ الأفراد يجتمعون ويضعون مـــواردهم سويا فى مشروعات أكبر من أن تتحملها قوى فرد واحد منهم . وبعد عقود التوريد وعقود الشركات ، جاء التأمين البحرى لـكى يضمن العمليات ضد أخطار البحر . وسبق الإيطاليون غيرهم فى هذا الميدان ، وأصبحت جنـوا مركزا

لبنك سان جورج ، أما حى الريالتو فى البندقية فاصبح من أكبر المراكز المالية ، وتخصصت هذه المدن ، مع غيرها من مدن شبه الجزيرة الإيطالية فى تقديم السلفيات ، وأحتفظت بسجلاتها ومراسلاتها التجارية . وأصبح فى وسع المصدرين والمستوردين أن يجدوا فيها رؤوس الأموال اللازمة ، والمعلومات الخاصة بالموردين والمستهلكين فى مختلف الاقاليم .

وجاءت النقود المصرفية لكى تزيد وسائل العمل التى كانت تقوم بها القطع المعدنية . وظهرت قطع فضية كبيرة وأصبحت متداولة فى كل أوربا . وأخذ الذهب فى الغرب نفس الاهمية التى كانت له فى الشرق مع الدينار والبيزنطى ، وبخاصة فى المدفوعات الدولية . وإزدادت أهمية نوعين من القطع الذهبية التى ظهرت فى العصور الصليبية ، الأولى قامت فلورنسا بصكها وأسمتها فلوران ، وإنتشرت بعد ذلك فى كل إيطاليا وفى فرنسا وانجلترا والامبراطورية ، والثانية قامت البندقية بصكها ، مشبهة فى ذلك بفلورنسا ، وأسمتها الدوقة ، وانتشرت بعد ذلك فى المجر ومع الفرسان التيوتونيين فى بروسيا ، وعرفها المشرق باسم الصكة . وهكذا تفتحت مناطق النفوذ المالية ، ومناطق التغلغل المصرفية والاقتصادية ، وسمح هذا النوع من الاستعمار النقدى بتمهيد الطريق لأنواع أخرى من الاستعمار .

وإنتشرت الاجور ، سواء للعامل ، أو الموظف أو صاحب الحرفة ، مع إنتشار النقود واتساع استخدامها . فأثر ذلك بالتالى على الاستعباد ، وإختفى نظام الرق من أوربا . وزاد استغلال الانسان لحيوانات الجر ، وذلك باستخدام حزام الوسط ، وطوق الرقبة ، مما جعل هذه الحيوانات

تتمكن من مضاعفة ما تجره ، وتوفر مجهود الانسان فى هذه العمليات .
وأخيرا فان سفر عدد من السادة فى الحروب الصليبية قد ساعد على تحرر أبناء القرى وأبناء المدن . فاجتمعت بذلك العوامل الأساسية للازدهار الصناعى .

ولم تكن هذه الصناعة سوى حرف المدن والبادية ، وإن كانت قد أصبحت أكثر تخصصا وأكثر تنظيما . وكان أهم هذه الحرف هى صناعة المنسوجات التى أستغلت الأصواف ، وانتشرت فى كل أوربا ، وعاشت منها جيوش من الغزالين والنساجين والصباغين. وأخذت ميلان وفلورنسا وتسكانيا فى التفنن فى صنع هذه الأنسجة ، وأخذ الأيطاليون يبيعونها ويوزعونها فى جميع انحاء العالم ، وساعدت التجارة على ازدهار هذه الصناعة . وجاءت المعارض والأسواق الدولية لكى تسهل تسويق السلع ، وتساعد على التوجيه الى انتاج السلع المطلوبة أكثر من غيرها . وكانت هناك سلسله متتالية من المعارض والأسواق تمر فى فرنسا وتصل شبه الجزيرة الإيطالية ببريطانيا والمانيا . وحينما قامت الحروب بين فرنسا وانجلترا ، تعطلت هذه الأسواق، وأصبحت هذه السلع تمر بين شمال أورباوجنوبها بحريا ، عبر المحيط الاطلسى والبحر المتوسط ، أو مع نهر الراين وعبر جبال الالب .

وكانت هذه هى الوسائل الجديدة من سفن ونقود وأنسجة ، أما الاهداف فكانت هى التعامل مع بلاد الشرق ، رغم أنها إسلامية . ولقد حاول البابا أن يعارض أو يعترض على قيام مثل هذه الحركة مع المشرق ولكن الإيطاليين لم ينصتوا اليه . وأخذ الفاتيكان فى اصدار صكوك الحرمان ، ولكنه اضطر الى ترك هذه العملية ، وأغمض عينيه عنها . وكانت أوربا تحتاج الى أن تبيع ، سواء بموافقته أو بدونها ، واحتاجت

فى ذلك الى المراكز البحرية ، والى الامتيازات ، والمخازن والقـواعد ، التى كانت ، فى حقيقة الامر الدعائم التى تقوم عليها المستعمرات . وبدأ كل من البحارة والتجار فى العمل .

(٢) اهالى جنوا : -

حاولت كل موانى الحوض الغربى للبحر المتوسط أن تجرب حظهـا وتعمل على تصدير الانسجة على سفنهـا للمشرق ، وتعـود بالسفن محملة بالتوابل . وساهمت كل من برشلونة ومونبلييه ومرسيليا وغيرها فى هـذه الحركة ، كما ساهمت فيها جنوا وبيزا والبندقية فى ايطاليا .

ورغم أن الاسبانيين كانوا قد انشغلوا بمشكلاتهم الخاصة عن الحروب الصليبية ، إلا أنهم حاولوا الاشتراك فى هذه الحركة التجارية الجديدة . وكانت أنسجة الشمال تصل الى برشلونة عن طريق نهر الرون ، ثم بالطريق الساحلى الموازى لسواحل فرنسا الجنوبية ، أو بالسفن رأسا . وكانت برشلونة توزع هذه السلع فى كل اسبانيا ، وحاولت أن تبيعها كـذلك فى صقلية وشمال افريقية وفى مصر . وكانت لها مراكز تجارية فى دمياط والاسكندرية ، وشركات فى اليونان ، واتحدت ارغونة ونافار تحت حكم اسرة ارغونة التى سيطرت على ليون وقشتالة واستعدت لتوحيد اسبانيا ، ثم انتزعت ميورقة من المسلمين ودعمت سلطة برشلونة فى منطقتها . كما انها حكمت صقلية ، التى تخلصت من الحكم الفرنسى ، واستعدت بعد ذلك لغزو كورسيكا وسردينيا . وكانت كل هذه المحاولات تدل على أن أبناء ارغونة كانوا عنيدين ، وانهم كانوا مصممين ، بعد تخلصهم من تحكم الرومان والقوط والعرب ، على أن ينتقموا ويتوسعوا فيما حولهم ، ويتحكموا فى غيرهم . إنها روح إستعمارية واضحة كانت آخذة فى النمو والتوسع .

أما أهالى جنوب فرنسا فكانوا يحاولون التجارة مع شمال إفريقية ، ومع شرق البحر المتوسط ، خاصة وأن سفنهم كانت موجودة . وكان لتجار مرسليا مراكز ومخازن تجارية فى عكا وإحتفظوا بفنادقهم فى الاسكندرية رغم أن نشاطهم كان أقل من نشاط أهالى جنوا بكثير ، ورغم أن جنوا كانت تنافسهم فى هذا الميدان .

وأما بيزا فقد قامت بنشاط كبير ، وأنشأت المراكز على السواحل السورية فى أثناء الحروب الصليبية ، لكى تمون المسيحيين ، وإن كانت قد استمرت فى تزويد القاهرة بالأسلحة التى استخدمها المماليك فى حربهم ضد المسيحيين . وحصل أهل بيزا من مصر على تعريفة جمركية مخفضة لواردتهم إلى الإسكندرية ، وظلوا يتاجرون مع شمال إفريقية بعد هزيمة القديس لوى ، بل وسيطروا على التجارة الخارجية فى موانى تونس وسفاقص ، قابس وطرابلس . ولقد تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا عدة مرت ، علاوة على سيطرتهم على كورسيكا نظير إيجار إسمى ، بلغ جنيها ذهبيا واحداً يدفونه للكرسى البابوى . ولكن جنوا تمكنت من هزيمة أسطول بيزا ، واسرت كثيراً من أهلها ، واستولت أسرة اراغونة على سردينيا ، كما إستولت جنوا على كورسيكا ، وقام نزاع بين أبناء الطبقة الارستقراطية فى بيزا ، وانتهى الأمر بخضوعهم لفلورنسا ، وأصبحت سفن بيزا بعد ذلك تعمل لحساب الفلورنسيين .

وكانت جنوا تقع فى مركز متوسط ، من البحر المتوسط ، وكانت فى نفس الوقت أقرب من غيرها إلى مراكز الإنتاج الشمالية . وكان أهالى جنوا قد ربحوا كثيراً من الحروب الصليبية ، وبخاصة فى إمارتى طرابلس وانطاكية . وبعد انتهاء هذه الحروب اتجهت انظار أبناء جنوا إلى الاراضى

القريبة من مينـائهم ، وخاصة الى كورسيكا وسردينيا ، وامتد نشاطهم الى الســـاحل الافريقي ، وتوسعوا فى سبتة ، واستمروا فى المحيط الأطلسى حتى سلا ، ويظهر أنهم وصلوا إلى جزائر الكناريا . وأقاموا لأنفسهم قواعد فى طرابلس وتونس وبجاية ووهران وتلمسان . واضطروا إلى محاربة العرب حتى يتمكنوا من فرض أنفسهم ، ولكن سرعان ما أظهروا أنفسهم على حقيقتهم ، كتجار ، وتفاوضوا مع العرب ، وعقدوا إتفاقات سمحت لهم بالسيطرة على تجـارة افريقية الداخلية ، التي كانت تمر عبر هذه الموانى . وكانت سفن جنوا تحمـل المصنوعات الزجاجية ، والاسلحة والأواني إلى العرب ، وتعود محملة بالتبر والصوف والجلود والعبيد .

ولقد حاولت جنوا أن تبعد المنافسين لهـــا من طريقها ، وتمكنت من القضاء على أهمية أبنـــاء جنوب فرنسا ، ولكنها لم تنجح فى ابعاد خطر بحارة شمال أفريقية . وازدادت قوة أبناء أرغونة ، مما اضطر جنـــوا إلى توجيه نشاطها صوب الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

وكانت لجنوا مصالحها فى الاسكندرية منذ وقت طويل . فعملت على التحالف مع الأباطرة اليونانيين لبيزنطـة حينما وجدت أن البندقية قد تحالفت مع أباطرتها اللاتنيين. فانتصرت جنوا حينما عاد اليونانيون لحكم بيزنطة، وحصلت على امتيازات وتسهيلات كثيرة ، وتمكـنت من إنشاء حى بيرا وحى جلطة ، على الجانب الايسر للقرن الذهبى ، اللذين أصبحا مستعمرة لجنوا ، ومدينة شبه مستقلة ، تمت على ضفاف البوسفور ، كمركز للاعمال البحرية والتجارية . وحصلت جنوا من البيزنطيين على مراكز أخرى ، على ساحل آسيا الصغرى وعلى جزر خيوس وليسبوس ، واستغلتها كمراكز بحرية ، كما استغلت الإمكانيات الاقتصادية الموجودة فيها . واستقر أبناء جنوا فى قبرص ، وأقاموا

مراكزهم التجارية فى فاجوستا ، ثم ارسلوا حملة احتلت هذه المدينة ، وسيطروا بذلك على التجارة الخارجية لهذه الجزيرة. كما توغلوا فى البحر الأسود ، وانشئوا المراكز فى القرم وعند مدخل بحر آزوف ، وإشتروا منها الفراء والشمع والقمح والاسماك المملحة ، وباعوا فيها منتجات بلادهم ، والمنتجات التى كانت تأتي اليهم من مناطق أخرى ولم تقتصر التجارة فى هـــذه المراكز الأخير على التعامل مع جنوب الروسيا ، بل إمتدت إلى السلع الاتية من آسيا ، والتى كانت تصل بالقوفل من قبل إلى ممالك الفرنجة فى ســوريا . كما كان لابناء جنوا مراكزهم فى اللاذقية، فاشتروا منها التوابل والاقمشة والاحجار الكريمة ، وباعوا فيها الانسجة الصوفية والانبذة والحبوب .

ولم تصادف جنوا مصاعب كبيرة فى مستعمراتها ومراكزها ، خاصة وأن أهل غالبيتها كانوا من أبناء جنوا نفسها . ولكن بعض هـــذه المستعمرات ، مثل القرم ، كانت خاضعة لحكم جنوا ، فكونت جنوا فيها مجلسا خاصا بها لإدارتها ولإرسال تعلياته إلى أحد القناصل الموجودين فى المستعمرة للتنفيذ . أما فما جوستا فان جنوا قد عينت أعضاء المجلس الخاص بها ، ولكنه كان يجتمع فى هذه المدينة . وأما بيرا وجلطة فكانت ادارتها شبه عسكرية . وأما ليسبوس فكان حكم جنوا فيها اقطاعيا ، إذ أنه كان فى أيدى أسره ارستقراطية من جنوا . وأما بقية جزر بحر إيجه فان جنوا قد عهدت بها الى شركات كان عليها أن تضمن الأمن الداخلى والدفاع الخارجى ، وتنظيم المالية حسبما ترى ، ويمثلها أحد أمراء البحر فى الجزيرة لتنفيذ القرارات. وكانت اسهم هذه الشركات تباع فى جنوا ، كما كانت تباع فيها أنصبة من المستعمرات . ونجح هذا النظام ، واجتذب عددا من أصحاب رؤوس الاموال فى جنوا ، رغم المخاطرة الموجودة فيه ،

وإمكانية عدم الربح أو حتى الخسارة والإفلاس . واستخدمت جنوا نفس الطريقة فى كورسيكا التى انتشرت فيها الثورات رغم وجود حاميات قوية فيها . فكونت جنوا شركة لإدارتها وإبعاد نفوذ اراغونة عنها . وعممت جنوا هذه الطريقة ، وأنشأت بنك سان جورج لتجميع رؤوس أموال كل ممولى الجمهورية ، ثم عهدت له بكل ممتلكاتها فيما وراء البحار . وأصبح لهذا البنك مجلس إدارة ، هو فى واقع الأمر مجلس شيوخ ، كما أصبحت له قواته ، وباشر «السيادة» على كورسيكا وعلى كل المراكز والمستعمرات الخاصة بجنوا .

وسواء أكان الشكل الخارجى لهذا الاستعمار هو عام أو شخصى ، فان أهدافه لم تكن إلا تجارية . وكان هدف القائمين عليه هو الشراء بارخص الأثمان ، ثم تيسير النقل ، والبيع مع أكبر ربح . وعمل أبناء جنوا على الموازنة بين تكاليف السفر فى الذهاب وتكاليفه فى العودة ، كما زاروا المعارض والأسواق الدولية ، وعقدوا المعاهدات التجارية مع المدن . وجاء تجار كثيرون من فرنسا والفلاندر وبلاد الراين وانجلترا إلى جنوا ومعهم سلعهم من الأنسجة الصوفية ، عارضين بيعها . وكانوا يعودون إلى مناطقهم بعد شرائهم للحراير والتوابل من جنوا . وكانوا يجدون فى هذه المدينة كل ما يحتاجون إليه من سلع وسفن ورؤوس أموال وسلفيات ، فكانوا يتعاملون ويستلفون ، ويودعون ويضاربون ، وكانت هذه المدينة تسحرهم بالطابع الشرقى الذى كان يسودها ، ويؤثر حتى فى لغة ولهجة أهلها .

ولكن قوة جنوا ورفاهيتها كانت رقيقة . فكانت تحكمهما جماعة تتكون من ثمانية أشخاص ، ثم بدأت الفوضى تدب فى المدنية بعد أن أصبح الحكم فى أيدى قائدين من « قواد الشعب » يعاونهم أحد رجال الكنيسة

باسم « راعى الشعب » ، فتنازعوا على السلطة ، وتنازعوا الاختصاصات ، ثم بدأت الحروب الأهلية لتأييد هذا العنصر أو ذاك . وساعد على هـــذه الحروب الانقسام الفكرى ، وتضارب المصـالح ، بين السادة الجبلـين ، و«الشعب» الذى كان له اتجاه الجلف ، أو بمعنى أدق ، تبلور المصالح وتضاربها بين الارستقراطية والبرجوازية ، إذ أن « الشعب » بالمفهـوم الحقيقى كان مستغلا فى هذا الصراع . وحاولت جنوا أن تنقـــذ الموقف بتسليم السلطة العليا فيها لدوق من الدوقات ، ولـكن هـذا النظام لم يوقف الصراع الداخلى والذى تراسته أسر جنوا الـكبيرة . وأخذت الأحزاب فى طلب المعونة الأجنبية ، فدخلت جنوا تحت نفوذ ميلان ثم البابا أو نابلى أو فرنسا . وكان تضارب المصالح مع البندقية سببا أساسيا فى إضعاف جنوا ، خاصة وأن هذا التضارب والتنافس قد أخذ شكل حروب شبة مستمرة ، وفى المشرق وبيزنطة وقبرص . وكانت للبندقية حكومة مدعمة ، فى الوقت الذى تهلهل فيه حكـم جنوا . ولقـد انتهز المغـاربة فرصة هـذا الصراع ، وتمكنوا فى بعض السنوات من إقفال الملاحة فى مضيق جبل طارق ، ومنعوا سفن جنوا من الوصول بالتجـارة إلى الفلاندر . وانـتزع أبنـاء اراجونه جزيرة سردينيـا من جنوا كما قام العثمانيون بطردها من المشرق . ولم يبق لجنوا فى نهاية الأمر من امـبراطوريتها سوى جزيرة كورسيكا ، التى استمرت فيها الثورات حتى اضطرت جنوا فى آخر الأمر إلى بيعها لفرنسا ، بعـد أن تقلص نفوذها فيها ، وباعتها فى نفس السنة التى ولد فيها نابليون على هذه الجزيرة . وكانت جنوا قـد أصابها سوء الحظ من قبل ، ودون أن تفكر فى ذلك وكان أحد أبنائها البحـارة قد اقـترح عليها إعـداد حملة للبحث عن طريق جديد للهند ، بالاتجاه صوب الغرب . ولـكن جنـــوا

ترددت ، خاصة وأنها كانت مشغولة بمراكزها الجديدة التى احتلتها فى القرم ، فسوفت فى تنفيذ هذا المشروع ، وقلت رغبتها وامكانياتها فى العمل ، بعد أن تخلت عن كرستوف كولومب ، وفقدت أكبر أمبراطورية كان فى وسعها أن تتصورها .

(٣) البندقية وامبراطوريتها :-

كانت البندقية تعيش على الماء وكانت تعيش من الماء . وكانت غزوات اللومبارديين قد دفعت أهلها صوب البحيرات ، وإلى الاعتصام بالجزر الموجودة فيها ، واجبرتهم على المعيشه من صيد الاسماك واستخراج الملح ، تحت حماية بيزنطه البعيدة .

ونمت البندقية حول كنيسة القديس مرقس ، وكان نظام حكمها فى أول الأمر عبارة عن « ملكية شعبية » إن جاز هذا التعبير ، فعلى رأسها دوق ، أو دوج ، ينتخبه الشعب مدى الحياة ، ولها مجلس مسئول وقوانين ، ثم أصبحت السلطة أرستقراطية ، وتحول مجلس « الشعب » إلى مجلس « السيادة » وأصبحت سلطة إنتخاب الدوق فى أيدى أربعين عضوا ، بعد أن انتزعت من أيدى الشعب . واصبحت هذه المجموعة تعد القوانين وتعرضها على مجلس « السيادة » أو « العقلاء » أو « الشيوخ » ، ونشأ مجلس أخر من عشرة أعضاء لإدارة الأمن والدبلوماسية والمالية ، ثم سيطر على كل السلطة ، وعن طريق عدد من الموظفين الذين كانوا يديرون الحياة السياسية سراً ، وبالتجسس والوشايات .

حقيقة أن الدوقية لم تكن وراثية ، مما قد يؤدى إلى الفوضى ، ولكن السلطة الحقيقية كانت مركزة فى المجلس الأعلى والذى كان من شروط الأعضاء فيه ، أن يكونوا من أبناء الاعضاء السابقين فيه ، وكان هذا

المجلس هو الذى ينتخب أعضاء مجلس العشرة ، مما جعـــل مصير البندقية محصورا فى أيدى أبناء عدد محدد من الأسر الغنية فى المـــدينة . وكانت السياسة الإقتصادية للبندقية موجهة ، وكان هناك احتكار لتجارة الملـــح ، وضرائب معينة على إستيراد الزيت والقمــح ، وإشراف تام على الواردات والأسواق . ولكن الميدان كان متسعا للنشاط الحـــر وللتجارة ولأعمال المصارف،التى ازدهرت ، واستمرت فى الإزدهار .

وأخذت البنـدقية فى انشاء « فروع » لها ولتجـــارتها ، كمراكز ومستعمرات،على الساحل البلقانى المواجه لها فى زارا . ومنذ هـذه اللحظة بدأت فى الشعور بضرورة تأمينها ، والسير بسياستها وسط المنـــافسات « الدولية » والاقتصادية ؛ فصممت على التخلص من النفوذ البيزنطى ، وعلى إنشاء أسطول قوى لها .

وحصلت البندقية على امتيازات اقتصادية وتجارية فى مملـكة الفرنجة فى بيت المقدس ، وأصبحت تمتلك حيفا وثلث عسقلان وصور . وحصلت البندقية على مكاسب من بيزنطة ، وذلك باستيلائها على كورفو ، التى تشرف على مدخل البحر الادرياتى ، وبانشائها حيا خاصا بأبنائها فى القسطنطينية، يشرف على القرن الذهبى ، وباعفائها من كل ضرائب الدخول والاستيراد . وكانت البندقية هى التى حولت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية ، لتعيين أباطرة لاتينيين على عرشها . وكان هذا انتصارا كبيرا للبنـدقية التى أصبحت نصف القسطنطينية فى أيديها ، مع ما تشتمل عليـه من كاتدرائية القديسة صوفيا فعينت فيهاحكاما وازنت سلطتهم سلطة الاباطرة الرومانيين . وكانت البندقية تختار نقطا هامة لانشاء مراكزها ومستعمراتها ، بدلا من ان

تعمـــل على الاستيلاء على اراض واقاليم واسعة ، فاستولت على دورازو وكريت وغاليبولي وهرقلية على بحر مرمرة ، متجهة بذلك صوب البحـر الأسود . ولقد أثر إنهيار الامبراطورية اللاتينية وعودة اليونانيين الى بيزنطة على إمكانيات البندقية، خاصة وأن جنوا ، منافستها،هي التي أخذت في تدعيم ركائزها هناك . واقتسمت كل من جنوا والبندقية مناطق النفوذ في الشرق،وان لم يمنع ذلك من استمرار التنـــافس . وأثر ذلك على الحركة التجارية ، خاصة وان أعمال القرصنة ، والاستيلاء كل من الطرفين على سفن الآخر ، قد أصبحت من صفات هذا التنافس ، بل هذه الحرب الاقتصـادية المستمرة . ودفع ذلك البندقية إلى تدعيم نفوذها ، وتوسيع نطاق الأراضي الخاضعة لها ، فأعادت احتـلال كورفو ، وسيطرت على اثينـا وسالونيك ، [وأخذت في مد مراكزها في البحر الأسود الى الشمال من مصب الدانوب ، وفي القرم ، وفي بحرآزوف . كما عملت على تنمية فنادقها في الأسكـندرية والقاهرة ، وعقدت اتفاقيات مـع السلاطين المماليك . واستمر البنـــادقة في اللاذقية يشترون ـالى جانب ابناء جنوا ـ المتاجر الآتية من آسيا بالقوافل . أما قبرص فان آخر ملوك اسرة لوسينيان فيها كان قد عمل على التحـالف مع البندقية ، وتزوج من إحدى البندقيات ، مما جعل جمهورية البندقية ترث هذه الجزيرة بعد موته .

وكانت قوة البندقية السياسية تستند على عوامل إقتصادية . فقـد كان هناك ستة عشر ألفا من العمال يخـــدمون في الورش البحـرية ، وكان في إستطاعتهم بناء سفينة في كل يوم . وكانت مدينة الدوق مشهـورة بصناعة المنسوجات ، إذ كانت تنسج الاقطان المستوردة من سوريا والحرير المستورد من الصين وعمل رجال الحرف فيها على صناعة المعادن والعـاج والزجاج

والبلور المشهور . وكانت التجارة، بالنسبة للبندقية ، كما كانت بالنسبة لجنوا ، هدف كل صناعة ، وهدف كل سياسة . وكان الدبلوماسيون يعملون من اجلها ، وكذلك المجالس والانظمة التى أعطت السلطة لأسر التجار الكبيرة . وكانت البندقية تسيطر على سوق الملح . كما كانت تسيطر على سوق القمح الذى تستورده من البحر الأسود والروسيا ، وتسيطر على أسواق التوابل والمنتجات الشرقية التى تستوردها من الشام . وكانت تستورد الزيت من كورفو والأنبذة من كريت واليونان . وكانت توزع المنتجات بين كل من اسيا وأوربا وافريقية .

وكانت هناك ثلاثة آلاف سفينة تحمل ستة وثلاثين ألفا من البحارة وتخرج من البندقية متجهة صوب شرق البحر المتوسط أو صوب الفلاندر فى كل عام . وكان مجلس الشيوخ هو الذى ينظم هذه القوافل ، وهو الذى يشرف على انشاء السفن ويعين لها قوادها وما يلزم لها من بحارة . وكان يترك ما بقى بعد ذلك ،من بيع وشراء وعقد صفقات ، للنشاط الفردى . وكانت البندقية هى التى توجه السياسة والادارة الخاصة بالمستعمرات ، فكان نصف أعضاء مجلس العشرة مختصا بمشكلات ما وراء البحار ، والنصف الثانى مختصا بمشكلات الممتلكات الموجودة على القارة الأوربية . وكان مجلس الشيوخ يشرف على الأسطول الحربى،ومجلس العشرة يشرف على الدبلوماسية والمالية .

وكانت البندقية تربح من ممتلكاتها الخارجية ، إذ كانت الضرائب التى تجمعها فيها تصل الى ٦٤٠ كيلو جراما من الذهب فى السنة ، فى اوائل القرن الخامس عشر ، ثم زادت إلى ١٨٠٠٠ كيلو جراما فى القرن السادس

عشر . أما الارباح العامة ، « والدخل القومى » الذى يصل الى جيوب البنادقة فكان أضعاف أضعاف ذلك وكانت البندقية تعهد بادارة مملكاتها إلى موظفين أو قناصل ، وترسل لجانا للتفتيش على إدارتهم وحساباتهم من وقت لآخر . وكانت لا تشرك الاهالى فى الحكم ، ولكنها كانت لا تستعبدهم ، وإن كانت لا ترضى عن الفوضى ، وتستخدم الشدة فى كبتها حتى لا تعوق التجارة وتعطل الأسواق ، كما حدث بالنسبة لكريت . وكانت تعهد فى بعض الأوقات الى بعض الحكومات بادارة مستعمراتها أو تعهد بها إلى اسر أرستقراطية ، وخاصة فى القارة الآوربية . وعملت فى بعض الحالات على احضار حاميات كبيرة ، وعلى توطين بعض ابنائها فى المستعمرات ، كما حدث مع كريت . أى انها استخدمت استعمار «التوطين» وأفادت من هذه العناصر الواردة الى الجزيرة لتكوين إطارات أو قيادات لها وباشراف موظفى الدولة ، حتى تقضى على الروح الثورية .

ونجحت البندقية حيث فشلت جنوا ، ولكن اتساع المسئوليات ، وخاصة بعد أن استولى العثمانيون على القسطنطينية ، وبعد أن استولى الغزاة الجدد على طرق الشرق ، وبعد أن أخذ كل من الفرنسيين والاسبانيين فى التنازع على السيطرة على ايطاليا نفسها . وتمكنت البندقية من الاحتفاظ بقبرص لمدة قرن بعد سقوط بزنطة والاحتفاظ بكريت لمدة قرنين وبكورفو حتى اخر وقت للامبراطورية . وضعفت البندقية كدولة ، ولكنها احتفظت بعظمتها وبرفاهيتها وثروتها ، وظلت مركز سياحة لأوربا وموطن لهو ومجون . وظل نظام الدوقية فيها ، حتى دخل بونابرت إلى ايطاليا ، فى نهاية القرن الثامن عشر .

(٤) الجامعة الهنسية :ـ

نجحت المدن الألمانية مجتمعة فى القيـام فى شمال أوربا بنفس العمل الذى قامت به كل من جنوا والبندقية بنفسها ولنفسها فى البحـر المتوسط . وكانت عمليتها هى نفس عملية الاستعمار لأغراض تجارية ، ونفس عملية إنشاء المراكز التجارية شبه المستقلة والتى كانت تستخدم كمخازن وأسواق لبيع أنسجـة الفلاندر ومنتجات الصناعة الغربية ، ولشراء منتجات الأهالى والمواد الخام الموجودة . ولكن مدن الشمال قد عملت على توحيد عملياتها فى الوقت الذى عملت فيه الفردية على توزيع مجهود اللاتينيين ، وساعد حب النظام أبناء الشمال على الاستمرار فى عمليتهم بهذا الشكل الخاص بهم . ورغم أنه لم يكن لأى مدينة من مدن شمال أوربا إمكانيات جنوا الماليـة ، ولا إمكانيات البندقية البحرية ، إلا أنها نجحت مجتمعة ، وبوضعهـا مواردها سوياً ، فى إنشاء إمبراطورية تجارية هامة .

ولقد نشأت هذه الاتحادات نتيجة لتطور إتحاد نقابات الحرف ، سواء أكان ذلك لأهداف البر والإحسان ، أو لإقامة الأعيـاد المهنية والدينية ، فى مدينة من المدن . ثم إتحدت هذه النقابات فى مدن مختلفة ، وكونت لها قوات متحدة، لحراسة تجارتها ،ومحاربة قطاع الطرق والقراصنة . أسمتها بالألمانية « هانس » ، وأخذت بالتالى فى الاشراف على تنظيم القوافل التجارية ،البرية والبحرية ، ثم الاشراف على الأسواق وعلى كل العمليات التجارية .

ونشأت الهانسا الخاصة بلندن بهذه الطريقة ،وأخذت فى حماية المواصلات بين انجلترا والفلاندر، وكذلك هانسا المدن السبعة عشر فى هولندا، وهانسا « الماء » فى منطقة السين فى فرنسا . ثم تجمعت هذه الاتحادات سـوياً ، وتعاونت ماليا ، ثم وضعت رؤوس أموالها فى إتحاد عام ، يساعدهـا على

مجابهة الأخطار التي قد تتعرض لها تجارتها . وتحولت أعمال الاتحادات الهنسية من أعمال أمن إلى عمليات تجارية ، ومشتركة .

وكانت الجامعة الهنسية الألمانية هي أشهر هذه الإتحادات ، وعملت على حماية أعضائها من الإستبداد الاقطاعي ، مثل حمايتها لتجارتهم من قطاع الطرق . وتجمعت في هذه الجامعة مدن كولونيا مع مونستر ودورتموند ، وأخذت في استغلال مناطق البحر البلطي ، وأنشأت لوبيك وروستوك ، وأقامت مراكز لها في نوفجورود . وعملت هذه الجامعة على حماية صيادي الرنجة في لوبيك وغيرها . واضطرتها هذه السياسة إلى فرض نفسها على البلاد الاسكندنافية ، والتوسع فيها من ناحية ، كما إضطرتها من ناحية أخرى ، إلى التعامل مع العالم المسيحي ، لكي تبيع أسماكها للكاثوليك ، وخاصة لوجبات يوم الجمعة ، ووجبات الصيام .

وانتقل مركز هذه الجامعة من كولونيا إلى لوبيك التي عقدت معاهدة صداقة وحرية تجارة مع هامبورج ، ثم إنضمت إليها ستون مدينة من موانئ البحر البلطي وبحر الشمال وحوض الراين ، وكونت جميعاً الجامعة الهنسية ، التي كانت في واقع الأمر عبارة عن حلف يهدف العمل ضد أي اعتداء خارجي ، أو تحكم داخلي ، ويهدف ضمان حرية طرق الصيد وتجارة الأسماك ، والتوسع فيها . وانضمت زيوريخ وفرانكفورت ومدن الشمال والشرق ، وبريمن ومجدبورج لهذه الجامعة ، التي نجحت في توحيد المانيا وعلى أسس اقتصادية ، بعد أن فشلت الامبراطورية الجرمانية في توحيدها على أسس عسكرية ودينية ، ونجحت فيها بوضعها لمواردها سويا وبالاشتراك ، بعد أن كانت تجربة الامبراطورية تقوم على أساس هرمي .

وسيطرت الجامعة الهنسية على مدن كثيرة في الأراضي الواطئة ، مثل بروج وأنفرس وأمستردام ، وكانت تدفع رسوم جمركية مخفضة على

بضائعها فى بعض المدن ، وتتمتع باعفاء كامل من هذه الضرائب والرسوم فى مدن أخرى ، دون أن تصل تجارتها إلى احتكار السوق احتكارا كاملا. وكانت الجامعة تستخلص الملح – لحفظ أسماكها – من غرب فرنسا ، كما حصلت فيها على إعفاء تجارتها من الضرائب ، وحصلت على حق البيع والشراء والتملك . وكانت الجامعة الهنسية تشترى الصوف من انجلترا ، وتصدر إليها المنتجات الشرقية والاستوائية والخشب والمعادن . وكان لها مركزا محصناً فى لندن ، يعيش فيه التجار الألمان معيشة تشبه إلى حد كبير معيشة الرهبان فى الأديرة . واضطرت الجامعة الهنسية الى أن تحارب فى بلاد الشمال الاسكندنافية ، حتى تركز أقدامها فى هذه المناطق ، فأغارت على كوبنهاجن ، وفرضت نفسها على الدانيمركيين والنرويجيين ، وعقدت معاهدة تجارية معهم ، حصلت بها على ثلاث موان ، ومركز ثابت للصيد . وبعد حرب ثانية حصلت الجامعة الهنسية على بعض المراكز التجارية فى الدانيمرك ، وإعفاء من رسوم الملاحة البحرية ، واحتكار دخول البحر البلطى لسفنها . واحتلت الجامعة الهنسية استكهولم لكى تقضى على العصابات وأوكار القراصنة الموجودة فيها ، والموجودة بالقرب منها . وتمكن رجال الجامعة الهنسية من انشاء المراكز التجارية ، من البحر البلطى ، فى داخل الروسيا نفسها .

وهكذا إمتدت أراضى الجامعة الهنسية من انجلترا الى الروسيا ، مستندة الى مراكز ونقط ثابتة . وكانت الجامعة الهنسية تشبه دولة منتظمة أكثر من شبهها بشركة تجارية ، فكان لها مجلس أو برلمان ، يجتمع فى لوبيك مرة كل ثلاث سنوات ، وقسمت مناطق عملها الى أربعة أقسام هى وستفاليا وعاصمتها كولونيا ، وساكس وعاصمتها برنزويك ،

والفلاند وعاصمتها لوبيك . وبروسيا وعاصمتها وانتزج . وكانت تعاقب كل مدينةعاصية وتفرض عليها الضرائب أو الغرامة أوتصادر سفنها وتجارتها ، أو تطردها من الاتحاد ، مما يؤدى إلى انهيارها الاقتصادى .

وكانت مراكزها فى الخارج محاطة بأسوار ، وتقفل أبوابها ليلا ، ويحكمها ستة من الشيوخ ، ويعاونهم مجلس من ثمانية عشر عضواً . وكان أبناء الجامعة يعيشون فى هذه المحطات حسب نظام معين ودقيق ،وحرم الاتحاد عليهم تكوين الشركات مع الأهالى ، أو استخدام أبنائهم ، أو الزواج معهم . كما حرم عليهم تمثيل هيئات غريبة عن الجامعة الهنسية ، والقيام بعمليات تجارية مستقلة أو لحسابهم الخاص . ولم يكن من حق أى سلطة ، سوى قضاه الجامعة ، أن تتدخل فى خصوماتهم ، وطبقا لقوانينها. وكانت سلطة الاستئناف مركزة فى محكمة لوبيك .

وكانت للجامعة الهنسية مواردها الثابتة من الضرائب ، كأى دولة من الدول ، وكانت تفرض رسماً معيناً على السفن والبضائع التى تدخل موانيها . كما كان لها جيشها وأسطولها الحربى . وكانت تعلن الحرب ، وتعقد الصلح.

وكانت قوتها ترجع إلى سياسة الاحتكار التى سارت عليها ، إذ أنها كانت الوسيط الوحيد فى كل العمليات التجارية فى شمال أوربا ، وكانت تبيع لهذه المناطق توابل الشرق ، وتمنع سفن غرب أوربا من دخول الموانى الاسكندنافية وموانى البحر البلطى . وكانت هى وحدها التى تبيع الرنجة المجففة والمملحة والمدخنة لكل العالم ، كما كانت تحتكر عنبر بروسيا وحديد السويد وأخشاب النرويج وفراء الروسيا. وكان تجارها يتوغلون فى القارة مع الأنهار ، فكانوا يوصلون الانسجة الفلامنكية إلى سيليزيا

وبوهيميا ، ويعودون منهـا بالمعادن . وإذا كانت قيمة تجـارة الجامعـة الهنسية أقل من قيمة تجارة المدن الايطالية ، إلا أن حجمها كان يماثل حجم تجارة هذه المدن .

وبدأ ضعف الجامعة الهنسية من داخلها . ذلك أن أهالى المدن الألمانية أخذوا فى الثورة على دكتاتورية الارستقراطية التجارية، وتمكنت الأحزاب « الشعبية » من الوصـــول فى بعض الحـالات إلى الحـكم . كما أن التنافس قد ظهر ، ثم تزايد ، بين مـدن البحر البلطى ومدن بحر الشـمال ، وفشلت لوبيك فى فـرض نفسها ، والوحـدة الهنسية ، على المتنـافسين . ثم جاءت عوامل خارجية ساعدت على إضعاف الجامعـة الهنسية ، ذلك ان هذه الجامعة قد اضطرت إلى اعلان الحرب على الدول الاسكندنافية الثلاث التى إتحدت مع بعضها ، حتى تحتفظ بمصالحها هناك . كما قامت جماعة الاخوان التيوتونيين بتأييد المدن البروسية فى حركة تحررها وخروجها من الجامعة. ثم استولت بولندا على دانتزج ، وعملت على الحصول على مركز متفوق فى البحر البلطى . وإدعى الانجليز أنهم يفضلون «حرية التجارة» ، واستندوا الى ذلك لقطع علاقاتهـم مع الجامعة الهنسية ، وللاستيلاء على تجـارتها وسفنها الموجودة فى الموانى البريطانية . وبعد حرب دامت أربع سنوات ، عادت امتيازات الجامعـة الهنسية إليها، للاتجـار مع لندن وبعض الموانى البريطانية . ولـكن بريطانيـا حصلت فى نفس الوقت على حق الإتجـار مع موانى البحر البلطى ، وكانت هذه أول ثغرة فى نظام الاحتكار الذى أقامته الجامعة الهنسية حول هذا البحر . وتمكنت بريطانيا من التحرر ، وجمعت رسوم الجمارك على البضائع الواردة اليها ، ثم ألغت امتيازات الجامعة الهنسية فيها ، وأردفت ذلك بالاستيلاء على سفنها ، واقفـال موانيها ، فى

وجه تجارتها . ثم تحولت الاراضي الواطئة إلى دولة بحرية ، وأخـذت سفنها المحملة بالانسجة والملح تدخل الى البحر البلطى، دون أن تتمكن الجامعة الهنسية من التعرض لها . وقلت الرنجة من البحر البلطى ، واضطـر الصيادون الألمان إلى متابعتها أمام سواحل الأراضي الواطئة ، فى أوائل القرن السادس عشر ، حيث اصطدموا هناك بالهولنديين والانجليز والاسكتلنديين . وجاء انتشار المذهب البروتستانتى ضربة إقتصادية قاسية لأهم موارد الجامعة الهنسية ، وهو الاسماك ، خاصة وأن مذاهب الإصلاح كانت لا تصـــر على ضرورة أكلها فى أيام الجمعة وفترات الصيام . وساعد عصر النهضة وزيادة تربية البهائم ، مـع انتشار المراعى ، على زيادة اسـتهلاك اللحوم بدلا من الاسماك . وأخـذت بريطانيا فى منع تصدير الصوف إلى الجـامعة الهنسيـة ، وأخذت فى غزل ونسيج الصوف فى بـلادها . وأخذت المدن المتحدة فى الجامعة الهنسية فى التفكـك والإنفصال ، كما حصلت مراكزها على حريتها ، وانخفض عـدد المدن الاعضاء من ٩٢ الى ٦٢ ثم الى أربعـة عشر ، فثلاثة ، هى لوبيك وبريمن وهامبورج . واجتمع مجلس الجامعة الهنسية أو برلمانها لآخر مرة سنة ١٦٦٩ ، وكان قراره الوحيد فى هـذه الجلسة هو حل الجامعة .

(٥) الاستبس والعثمانيون : —

وكان الشرق الاقصى قـد بدأ فى الحركة فى نفس الوقت الذى بـدأ فيه الغرب فى الاستيقاظ ، وظهرت الحروب الصليبية ومشروعات المراكز البحرية التجارية وكأنها لعب صغيرة الى جانب هذه الهجرات البشرية التى بدأت من الاستبس . وكان المسيحيون والايطاليون يستعمرون حـول

حوض البحر المتوسط ، كما كانت الجامعة الهنسية تعمل فى بحر الشمال والبحر البلطى ، ولكن جموع المغول قد عملت على الانتشار فى كل المناطق الأخرى ، ولم تحدد نطاق عملياتها ، وتمكنت من تكوين امبراطوريات كبيرة .

وكان المغول يتنقلون فى المنطقة الواقعة بين غابات سيبريا فى الشمال، وصحراء جوبي فى الجنوب ، وكانوا يعيشون فى الشمال على الصيد ، وفى الجنوب على الرعي، أى أنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد ، فى السلم الحضارى، إلى مرحلة الزراعة والتوطن .

وتمكن رئيسهم تيموجين ، أى الحداد ، من تنظيم جيش كبير وقوى ، معتمداً فى ذلك على النظام العشرى ، الذى يسهل التعبئة والعمليات : جماعات من عشرة رجال ، وسرايا من مائة ، وكتائب من ألف ، وآلايات من عشرة آلاف ، وفيالق من مائة ألف . وكان شديداً وصارماً ، فعاقب السرقة بالقتل ، ونظم الأسلاب التى كانت لا تبدأ إلا بأمر ، وكان يستولى على عشر هذه الأسلاب لخزانته الخاصة . وتمكن هذا الرئيس من اخضاع القبائل الأخرى ، ثم هزم التتار المجاورين للمغول ، وقتل منهم الكثير ، وأدخل الباقين تحت سيطرته ، وأصبح الخان الأكبر ، جنكيز خان .

وبدأ بالصين ، وأمر باحراق بكين ، ثم هجم على التركستان وإيران والروسيا، واكتسح كل ما اعترض طريقه . ثم عاد الى الصين حيث توفى ، بعد أن أنشأ امبراطورية تمتد على طول ثمانية آلاف كيلو مترا . وقام إبنه بمواصلة غزواته ، فأتم تطهير شمال الصين ، واستولى على كوريا ، ثم عاد صوب الروسيا وعبر بولندا والمجر ووصل إلى البحر الادرياتى . وقام

قوبلاى ، حفيد جنكيز ، بالهجوم على آسيا الصغرى وسوريا ، واحتل جنوب الصين ، ونشر سيادة المغول على أنام وكمبوديا . فأصبح فرسان الأستبس يسيطرون على موسكو وبغداد وكانتون ، ويحكمون أكبر جزء من العالم المعروف فى ذلك الوقت .

وكان المغول بعد تخريب وتدمير المناطق التى يحتلونها ، ينشئون إدارة خاصة فيها . وكانت لامبراطوريتهم عاصمة ، انتقلت من وادى النهر الأصفر إلى منغوليا ، وكانت مقرا للخان الأعظم ، أو الخاقان . وكانت الامبراطورية تنقسم إلى خانات ، إحداها فى الصين والثانية فى منغوليا والثالثة تركستانية فى الروسيا ، والرابعة فى فارس . وكانت هذه الإدارة تعتمد على الموظفين المغول أو الصينيين أو الفرس ، وتضعهم على رأس حكومات الأقاليم بدلا من الأهالى . وكانوا يبدءون عملهم بالإستيلاء على الخيول وباحصاء الأهالى ، ثم يأخذون فى جمع الضرائب ، ويعاقبون من يمتنع عن دفعها ، ومن يتلاعب فيها . وكانت دولة المغول تهتم بالأمن وتشرف على القوافل وتدير البريد وتحافظ على النظام فى انحائها . وكان للمغول قانونا مدنيا وجنائيا فى نفس الوقت . ولقد ساعدت عملية توحيد جنكيز خان لاسيا على تسهيل التوغل الاقتصادى الغربى فى كل المنطقة ، وأصبحت طرق الشرق الأقصى مفتوحة للتجار والمبشرين . وإذا كان الرهبان الفرنسسكان قد حملوا رسائل البابا ولوى التاسع إلى خاقان المغول ، وحاولوا كسبه الى المسيحية ، فان بعض تجار البندقية قد ساروا على نفس الطريق ، وزاروا خانات جنوب الروسيا والتركستان والصين . واشهر منهم ماركو بولو ، الذى كتب مذكرات رحلته فى هذه المناطق ، بعد غيبة إستمرت أربعه وعشرين سنة . ويذكر لنا كتاب « العجائب » الكثير

عن ثروة الصين وتجارتها وسفنها ، وعن التوابل والأرز والسكر والحرير والنشاط التجاري والأوراق النقدية ، مما يدل على دقة ملاحظة كاتبه ، ومما عمل على اثارة خيال تجار الغرب .

وبدأت امبراطورية المغول فى الانقسام بين أحفاد جنكيز ، كما إنقسمت امبراطورية الاسكندر بعد موته بين كبار قواده . وكانت الصين هى أهم قسم من أقسام هذه الامبراطورية ، وأسس فيها قوبلاى أسرة يوان ، واتخذ بكين عاصمة لها ، وانهى بذلك حياة التنقل ، وبدأ حياة الاستقرار . وكان قصره محاطا بأسوار لها ما لا يقل عن أربعة آلاف برج ، ويضم فى داخله عددا كبيرا من القصور . وإذا كان قبلاى قد فشل فى مشروعاته ضد اليابان وجاوا ، إلا أنه قد سيطر على كل أراضى وبلاد الصين نفسها . وكان المغول عددا بسيطا بالنسبة لمجموع أهالى الصين ، ولكنهم سيطروا على المراكز ، وكونوا طبقة عليا حاكمة ، وحرموا على الصينيين حمل الأسلحة ، وحتى تعلم اللغة المغولية ، حتى يبعدوهم عن وظائف الدولة . ولكن خلفاء قبلاى كانوا أقل منه بأسا وقوة ، وأكثر ضعفا ، فنشأت الفوضى وانتشرت الثورات بعد قرن من حكم المغول ، وتمكنت اسرة المنج من الاستيلاء على الحكم من اسرة يوان .

وكانت الروسيا فى الجانب الاخر من الامبراطورية المغولية شبه مستقلة ، تحت سيطرة الغزاة من الجنس الأصفر . وكان أحد أحفاد جنكيز قد مد حكمه على معظم الروسيا ، واتخذ عاصمة لها على نهر الفولجا ، ورفض الإشتراك فى إنتخاب الخاقان ، واحتفظ لنفسه بالمناطق الروسية التى أصبحت مغولية ، دون أن تخضع لمنغوليا . وكانت طرق حكمه تشبه حكم المناطق التاتارية الأخرى ، إذ كان يستولى على أكبر كمية

من الضرائب ، ولكن موظفيه كانوا يحترمون العادات والتقاليد والديانات المحلية ، وتركوا الأمراء السابقين لهم يحكمون مناطقهم تحت سيطرتهم . وقاموا ببناء مخازن الحبوب وشق الطرق وتنظيم البريد . وكان المغول يوجهون كل شيء في الروسيا ، ولهم نظام بوليسى أعطى للروسيين روحا سلبية متواكلة أمام وحشية الدولة ورجالها . وكان أكبر أخطائهم هو إبعاد الروسيا عن التيارات التي سادت في الغرب ، وفي الوقت الذي بدأت فيه أوربا في اليقظة . وكانت صلات جنوا والبندقية من الجنوب مع الروسيا ، وصلات الجامعة الهنسية معها من الشمال إقتصادية قبل أي شيء آخر . فنزل ستار حديدى بين العالم الأبيض والعالم الأصفر . وأخذت الروسيا في التقهقر في الوقت الذي إستمرت فيه بقية أوربا في التقدم . وتكونت موسكو ونمت ، كما يقول ماركس ، في ظل مدرسة التواكل والعبودية المغولية ، ولم تشحذ همتها وتجمع قواتها، إلا لتكرسها للتفنن في الخضوع للاستعباد .

أما المنطقة الثالثة فكانت هي التركستان التي إعتنق أهلها الاسلام ، والتي ظهر فيها تيمور الاعرج ، أو تيمور لنك ، الذي أعلن نفسه وارثا لجنكيز خان ، وخليفة له في حكم هذه المنطقة . ولقد عمل تيمور لنك على عقاب مسلمي الهند وفارس وآسيا الصغرى ، وبدعوى إبتعادهم عن روح الاسلام الحقيقية . واستخدم القسوة مع بغداد وتفليس وأصفهان ودلهى، وهزم الجيش العثماني وطالب بيزنطة بدفع الجزية ، واستولى على أزمير من فرسان رودس واستعد لغزو الصين ، لولا أن فاجأه الموت . وكان الجيش هو أهم شيء في دولة تيمور لنك ، وكان منظما حسب تقسيم جنكيز خان العشرى . وعمل تيمور لنك على نقل التحف والثروات ، من

جميع انحاء امبراطوريته ، الى عاصمته سمرقند التى ازدهرت وأصبحت مركزا لقوافل الهند والصين وآسيا الصغرى . وخشيت أوربا تيمورلنك وقامت جنوا والبندقية وبيزنطة والعثمانيين بانشاء تحالف ضده . ولكن هذا الحلف لم يعش لمدة طويلة ، وانهار بعد وفاة تيمور لنك ، وابتعاد الخطر الذى كان يوحد بين هذه القوى الاوربية . ولكن ازدياد قوة تيمور لنك كانت قد اثرت فى الروسيا ، وجعلت الاسرة الحاكمة فيها تعهد ببعض السلطة ، وبجميع المراتب الى الامراء المحليين . فزاد فيها نظام الاقطاع وتدعم . كما أن هذه الاسرة قد اعتنقت المسيحية على المذهب الارثوذكسى ، وساعدت على التبشير به ، حتى توازن خطر التتار ، وتوقف انتشار الاسلام فى مناطقها . وتحول مغول الروسيا ، وأصبحوا روسيين ، ونقلوا عاصمتهم الى موسكو ، وتركوا لقب « خان » واختاروا لقب « قيصر » لرأس دولتهم .

أما فى منطقة الشرق الادنى فان الاتراك العثمانيين كانوا يتنقلون فيها ، وأخذوا منذ عدة قرون فى تهديد بيزنطة ، التى لم ينقذها من خطرهم ، ولفترة من الزمن ، إلا هجوم تيمور لنك . ولكن تفكك امبراطورية تيمور لنك سمحت للاتراك العثمانيين بالاستعداد لشن الهجوم على بيزنطة .

وتمكن العثمانيون من فتح الصرب والسيطرة على البلقان وتطويق بيزنطة التى اضطرت الى دفع الجزية لهم . ولم يكن فى وسع الغرب ارسال حملة صليبية جديدة للدفاع عن هذه المدينة ضد الاخطار الاسلامية ، خاصة وأن عصر الصليبيات كان قد انتهى ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية غير جادة فى الدفاع عن الكنيسة اليونانية ، كما كانت الكنيسة الارثوذكسية

غير مستعدة للتجاوب مع روما . وأرسلت البندقية حفنة من الرجال ، ولكن شجاعتهم لم تكن تكفي لصد الهجوم . وسقطت القسطنطينية في أيدي الغزاة العثمانيين ، وتحول اسمها إلى استانبول ، وتحول البحر الاسود الى بحيرة تركية . وواصل محمد الثاني ، الفاتح ، غزواته ، واستولى على اثينا والمورة وجزر بحر إيجه والبانيا والبوسنه ، وطرد أبناء جنوا من القرم وبدأ في الاستعداد لغزو شبه الجزيرة الايطالية بعد أن استولت قواته على أوترانت ولكن وفاته أوقفت العمليات في هذا الاتجاه .

وواصلت الامبراطورية توسعها في عصر خلفائه ، فانتصر سليم على الفرس واستولت قواته على سوريا ومصر وبلاد العرب ، ثم هجمت على رودس واحتلتها ، وضمت الافلاق والبغدان مع جزء من المجر ، واتحدت اقاليم شمال افريقية مع امبراطوريته . وأكمل سليمان القانوني هذه الامبراطورية التي امتدت في فترة قرن من الزمان من الدانوب الى النيل ومن القوقاز الى الاطلسي ، وجددت الامبراطورية الاسلامية الاولى ، بدون الاندلس ، ولكن مع بيزنطة بدلا عنها .

وكانت السلطات كلها مركزة في أيدي السلطان العثماني ، وبصفته الرئيس الاعلى لسلطات الحكم الزمنية ، وبصفته خليفة للمسلمين . وكان يسيطر على الادارة والقضاء والمالية والجيش . وكان الاستعمار عامة يفرض نفسه ورجاله على المحكومين ، أما الاستعمار العثماني فكان يختار رجال الحكم من بين العناصر المختلفة التي تسكن الامبراطورية ، سواء أكانت من الافلاق أو المغول ، من السودانيين أو المجر . وكان يدربهم من صغرهم حتى يخلق منهم رجال دولة لا يعرفون إلا الاسلام والسلطان.

فهو نظام استعمارى يختلف كل الاختلاف عن النظم الاستعمارية الاخرى ويقف وحيدا فريدا بخصائصه ومميزاته بين غيره من النظم . وكانت الدولة تنقسم الى عدد من السناجق ، أو اللواءات ، كل منها برئاسة أحد البكوات. وفضل الاتراك تطبيق نظام الحكم غير المباشر أو الادارات شبه المستقلة ، مع نوع من الحماية ، فى مناطق كثيرة خاضعة لهم ، وعلى أساس دفع الجزية ، ومساعدة الدولة بالجنود . وتمكنت الدولة من تكوين جيش كان أقوى الجيوش الموجودة فى العالم فى ذلك الوقت .

وأخيرا فان العثمانيين قد اثروا ، بطريق غير مباشر ، على التجارة الدولية فى عصرهم . ذلك انهم قد استولوا على مراكز جنوا والبندقية فى البحرين الاسود والابيض ، مما صعب تجارة التوابل ، ورفع من اثمانها . وكان العثمانيون يسمحون لتجار ايطاليا بشراء التوابل والحرير من موانيهم ، ولكنهم أخضعوا هذه السلع لضرائب مرتفعة . وكانت هناك حركة للوصول الى الشرق الاقصى بالسفن ، من المحيط الاطلسى ، إما بالالتفاف حول افريقية ، أو بمواصلة السفر صوب الغرب حتى يصلوا الى الصين واليابان وجزر التوابل . وما دام الاسلام قد زحف على اوربا من الشرق ، واستولى على بيزنطة ، فلتعمل الدول الأوربية على تطويقه والحصول على المنتجات الإستوائية والشرقية دون وساطته ، وتنتزع هذه الثروات من بين أيديه . وكان ذلك هو روح الكشوف الجغرافية فى عصر النهضة .

(٦) اولى مراكز الاطلسى وبداية العصر الحديث :—

وقد إستمر العصر الثانى للمراكز البحرية رغم المغول والاتراك ، أو بسببهم . وساهم فى هذا الدور أبناء أقاليم غرب أوربا المطلة على المحيط

الاطلسى ، وخاصة بعد أن قلت أهمية البحر المتوسط بما فيه من جنوا والبندقيه ، وتمكنت دول غرب أوربا من الوصول الى البحر البلطي دون أن تتمكن مدن الشمال من وقفها .

ويمكننا إعتبار الإسكندنافيين الموجودين فى جرينلاند طليعة هذه الحركة ، التى عملت فى المحيط الاطلسى . وكانوا قد أقاموا فى هذه الجزيرة منذ قرون ، واستعمروا سواحلها ، وأتوا بالبهائم والاغنام من ايسلاند اليها . وقد ازدهر هذا الإستعمار وامتد حتى خط ٧٣° شمالا ، الى أن تغير المناخ فى أواسط القرن الرابع عشر ، واشتدت درجة البرودة بشكل يؤثر على الفلاحة والمحاصيل ، وبشكل تسبب فى هجرة كثير من عناصر الإسكيمو من الشمال صوب الاسكندنافيين فى الجنوب . وبدأ الصراع بين أعداد الإسكيمو المتزايدة ، واعداد الإسكندنافيين المتناقصة. ولم يكن هنالك شك فى حتمية سيطرة الإسكيمو على الجزيرة ، وانتزاعها من أيدى العناصر الإسكندنافية . ولقد حاول سكولب الدانيمركى استخدام جرينلاند قاعدة لحملة تتجه الى الصين عن طريق الغرب ، وقام مع أحد البرتغاليين بالملاحة بحذاء سواحل نيوفوندلاند، ولكنه اضطر الى الرجوع. ومع سيطرة الإسكيمو على جرينلاند ، إنتهى الإستعمار الإسكندنافى فى هذه المنطقة .

أما الانجليز فكانوا بعيدين عن التفوق فى البحار رغم أن بلادهم جزيرة تحيط بها المياه من كل جانب . وكان الانجليز يربون الأغنام ويحصلون

على الصوف ، وتعلموا من الفلمنك عمليات غزله ونسجه . وعمل ادوارد الثالث على حماية هذه الصناعة الناشئة فى بلاده ، وفرض الضرائب العالية على تصدير الصوف ، حتى يحتفظ بالمواد الأولية لانجلترا . وكانت الصناعة أساسا للتجارة ، واضطر التجار الى ركوب البحر حتى يصرفوا سلعهم ، وأدى ذلك الى منافستهم للفلمنك ، وكفاحهم ضد الجامعة الهنسية. وأخذت بريطانيا تصدر منسوجاتها الصوفية إلى اكويتانيا ، وكانت سفنها تعود من بوردو، عبر المحيط الأطلسي، محملة بالأنبذة . وقرر هنرى السابع عدم السماح لأى سفينة أجنبية بنقل أنبذة بوردو الى انجلترا ، كما قرر ضرورة سفر البضائع الانجليزية على سفن تحمل العلم الانجليزى . فساعد ذلك على نمو البحرية فى انجلترا وعلى ظهور هذه الدولة كقوة بحرية لها أهميتها.

وأما الفرنسيون فكانوا يخاطرون بالسفر فى ذلك الوقت أكثر من الانجليز . وتمكن جان دى بيتنكور Jean de Béthencourt من السفر على سفينة مع ثمانين رجل صوب الجنوب ، بعد أن خرب الانجليز أراضيه ، ووصل الى جزر كناريا واستولى على « تين الريف » التى كانت تسكنها عناصر من بربر شمال افريقية ، واتحد معهم ضد القراصنة الاسبان ، وأعلن نفسه ملكا على الجزيرة ، ثم ترك إدارتها لأحد أقربائه . ولكن القراصنة الانجليز هاجموا أسطوله ، فاضطر الى التنازل عن جزر كناريا الى قشتالة ، التى طردت الأهالى من أراضيهم ، وقضت عليهم تماما .

وأما البرتغاليون فان بلادهم كانت ذات موقع ممتاز على المحيط الأطلسى

وبشكل يوجه أنظارهم إلى السواحل الافريقية . وشعروا بضرورة استكشاف ما وراء هذا البحر ، وكانت الدوافع الأولى لهذه العملية ، دوافعا عسكرية واستراتيجية . ذلك أن البرتغاليين كانوا قد خضعوا لفترة طويلة لحكم المسلمين ، ورغبوا في القضاء على هذا الخطر قضاء تاماً. ولذلك فانهم قد بدءوا عملية توسيعهم الاستعماري باحتلال سبته وأصيلة سنة ١٤١٥ ، ثم أخضعوا طنجة سنة ١٤٧١ . وفكر البرتغاليون فى الالتفاف حول أقاليم المسلمين ومراكزهم . وكانت هناك قصة منتشرة فى أوربا تتحدث عن وجود مملكة مسيحية فى قلب إفريقية ، أو قلب آسيا ، وعن رؤية الرحالة لملكها ، يوحنا الراعى ، الذى تدعى القصة أنه كتب إلى البابا ، وأنه ملك قوى وغنى . وخلط البرتغاليون بين هذا الملك ونجاشى الحبشة ، واعتقدوا فى إمكانية الوصول إليه بالملاحة حول السواحل الإفريقية . وظهر فى نفس الوقت ميل « الدون هنرى » ابن ملك البرتغال، للبحر والملاحة ، بعد إن نصبه والده حاكما على إحدى مقاطعات البرتغال الجنوبية : فانشأ مرصداً ومدرسة بحرية ، وأخذ فى بناء السفن ، وإرسال الملاحين لاستكشاف المناطق المجهولة ، صوب الجنوب ، علهم يصلون إلى طريق التوابل ، أو بلاد يوحنا الراعى ، وينتقموا من الإسلام . وكانت أولى اكتشافاتهم هى جزر ماديرا والخالدات ، التى قاموا باحتلالها وإدخال زراعة الكروم وقصب السكر فيها . واستمرت سفنهم فى السفر بحذاء الساحل الإفريقى حتى وصلت الى أسواق التبر الاتى من إفريقية السوداء ، إنه « نهر الذهب » Rio de Oro . ثم وصلت هذه السفن إلى الرأس الأخضر ثم الى سيراليون . وانشئوا القلاع على نقط مختلفة من الساحل، واستخدموها مراكزا حربية وتجارية لهم . وعادوا من رحلاتهم ومعهم

العبيد والقردة والببغاوات ،ثم وصلوا الى مصب الكنغو واستمر بارثلميو دياز فى السفر صوب الجنوب ، إلى أن اختفى الشاطىء عن أعينه فى أثناء إحدى العواصف ، ولم يتمكن من رؤية الساحل الإفريقى إلا بالعودة صوب الشمال . ولم يكن هناك شك فى أن دياز قد إلتف حول، أقصى جنوب إفريقية ، ومر من المحيط الأطلسى ، إلى المحيط الهندى حول النقطة التى أسماها رأس العواصف ، والتى اسماها ملك البرتغال برأس الرجاء الصالح .

وكان من حق البرتغال أن تستبشر بالمستقبل ، خاصة وأن البابا قد منحها السيادة على كل الأراضى التى تكتشفها ، مع مسامحة كل من يموت فى حملاتها، وضمان الغفران له واحتكرت البرتغال الحق فى الملاحة بحذاء السواحل الافريقية وحتى غينيا ، ولم تسمح لأبناء الدول الأخرى بالملاحة فى هذه المناطق إلا بتصريح خاص من حكومة لشبونه . وكسب البرتغاليون الكثير من تجارة السواحل الافريقية ، وانفتح الطريق أمامهم ، وحتى الهند.

* * *

وهكذا نجد أن أوربا كانت قد بدأت فى تغير وجه تاريخ العالم .وذلك نتيجة للتغيرات الاقتصادية والمالية التى وقعت فيها . فظهرت الضرائب الثابتة ، وكان استخدام الأسلحة النارية والمدفعية يزيد من المصروفات العامة ، وبشكل سريع . وأخذت الفنون الحربية الحديثة فى اتمام القضاء على من يبقى على أرض المعركة من الاقطاعيين ، أو فى أثناء عملية تقهقرهم، وذلك فى صالح السلطة المركزية ، كما أنها أعطت للأوربين تفوقا واضحا فى التسليح على بقية العالم . وعمل الأوربيون على استخدام هذه الأسلحة

وبسرعة ، ولكن على أساس تمكنهم من إيجاد الموارد اللازمة للانفاق على المدفعية . وإذا كانت الضرائب الثابتة ، حتى إذا كانت قد عهد بها الى جماعة من الرأسماليين الذين قاموا بالاثراء من ورائها ، قد أصبحت غير كافيه، فان ذلك قد استدعى الإلتجاء الى القروض . وهكذا انتصر النظام المالى الذى ساد فى جنوا والبندقية وفلورنسا ، رغم ضعف إيطاليا نفسها فى ذلك الوقت ، وظهور مدن أخرى نافستها فى الميدان المالى ، مثل ليون ونورنبرج وفرانكفورت وأنفرس . وازدادت أهمية « الأسواق » المالية فى هذه المدن ، للتمويل والاقتراض ، وفى بيوت أصحاب البنوك ، مثل بيت فان دير بورص ، الذى أعطى اسمه لأول سوق مالى فى العالم . وأصبحت العمليات تتم على أساس نقدى أو مالى أكثر مما تتم على أساس سلع الصوف والنبيذ والمصنوعات .

وقلت أهمية الملوك أنفسهم ، بصفتهم مسيطرين على السياسة الدولية ، ما داموا فى حاجة الى القروض. فأصبح الرأسماليون يسيطرون على وزارة المالية فى لندن ، كما أصبح جاك كير يسيطر على مالية فرنسا ، ويستغل المناجم ويدير المئات من المصانع فيها ، وفى بلجيكا الحالية وحتى فى قبرص . وأصبح هؤلاء الرأسماليون يقرضون الملوك والاباطره والبابا . وكان هذا تطورا طبيعيا للعصر الثانى للمراكز البحرية ، الذى استمر بعد جنوا والبندقية والجامعة الهنسية ، مع هذه البيوتات المالية ، والمصارف والبورصات .

وكثيرا ما كانت وسائل الدفع تعجز عن إتمام مهمتها فى هذا الجهاز الكبير للأعمال . كما أن الغرب كان قد هضم ما استولى عليه من أسلاب شرقية فى أثناء الحروب الصليبية ، وأنهى على فائض الميزان المالى مع شرق البحر

المتوسط ، وأخذ يقاسى من نقص المعادن النفيسة ، وأعوزته المادة التى يمكن بها دفع قيمة عملياته التى نشأت مع هذه الوسائل الجديدة ، من ورق ومطابع وكعب ، ومدافع وسفن ، ولوحات فنية وقصور . ولم يكن فى وسع أوربا أن تتعامل بالأصداف بدلا من النقود ، ولا بالأوراق النقدية مثل الصين . فاخذت تبحث عن كنوز تنتهبها ، ومناجم ذهب تستغلها . ولم يكن فى وسعها أن تجدها إلا فيما وراء البحار .

الباب الثالث

عصر النهضة وغزو العالم



الفصل الثامن

كولومب والعالم الجديد

بدأت فكرة الوصول إلى الهند عن طريق الغرب فى الإختمار فى رأس كريستوف كولومب بعد أن وقعت فى أيديه « صورة العالم » . وهكذا يمكننا أن نقول أن الأتراك العثمانيين كانوا مسئولين ، بطريق غير مباشر ، عن اكتشاف العالم الجديد ، خاصة وأنهم كانوا قد ساهموا فى اقفال طريق آسيا والشرق الأقصى ، المار فى الشرق الأدنى ، كما أن استيلاءهم على بيزنطة قد تسبب فى خروج عدد كبير من العلماء والأدباء من هذه المدينة وذهابهم إلى ايطاليا ، مما سمح للغرب بمعرفة التراث اليونانى القديم . وترجمت كتب بطليموس فى بولونيا إلى اللاتينية ، وكان يصر فيها على أن العالم مستدير . وطبعت « صورة العالم » وأخذ بعض العلماء الأوربيين يعتقدون فى كروية الأرض . وكان الأوربيون يقرؤن فى ذلك الوقت كتابات ماركوبولو ، ويحلمون ببلاد شيبانجو (اليابان) وكاثاى (الصين) وبلاد الخان الأكبر أو الخاقان ، كما كانوا يقرؤن كتب الجغرافية وقصص الملك يوحنا الراعى . وكانوا يؤكدون وجود أراض وجزر غريبة وعجيبة فى المحيط الأطلسى ، مثل الأتلانتيد ، التى تحدث عنها أفلاطون ، وجزر الأنتيل ، التى التجأ إليها سبعة أساقفة فروا حسب الرواية من « وحشية » المغاربة المسلمين . وكان الأوربيون يروون هذه القصص ، ويشيرون إلى أماكنها على خرائط العالم ، وكأنها موجودة بالفعل وفى هذا الوقت وفى هذا الجو ظهر كريستوف كولومب البحار ، وظهر فى جنوا .

(١) كريستوف كولومب :-

كان كريستوف كولومب شاعراً ومسيحياً وواقعيا فى نفس الوقت . كان شاعراً لأنه تأثر بالكتابات والروايات المنتشرة فى عصره،ومسيحياً لأنه كان مستعداً للقيام بحملة صليبية جديدة ، وواقعياً لأنه إعتقد فى أن الأرض كروية ، وأنه يمكنه أن يجد فى الغرب ، ما قام أجداده بالبحث عنه فى الشرق .

ولكن خرائط ذلك الوقت كانت غير دقيقة ، وكانت تقرب المسافات . كما أن أخطاء أخرى كانت موجودة وراء دوافع كولومب ، فلم يعد هناك خان أكبر ، أو خاقان فى الصين ، ولم يكن هناك يوحنا الراعى فى الهند ، ولا فى غيرها من البلاد ، ولم تكن هناك قارة تسمى الأتلانتيد . ولذلك فان إكتشاف العالم الجديد كان وليداً للصدفة ، ولكنه كان فى نفس الوقت وليداً للرغبة فى الحصول على الذهب والفضة ، التى كان الاقتصاد الأوربى فى أشد الحاجة إليها ، وكذلك الرغبة فى الحصول على التوابل اللازمة للأوربيين . وكان المستكشفون يتميزون بحب المغامرة ، وإذا كان بعضهم كان يحلم بأن يعيش معيشة الفرسان فى أوربا ، فانه كان يحاول الوصول إلى ميادين معارك جديد ، وفى آفاق جديدة . وكانت هناك دوافع دينية ، إذ أن الغزاة قد اعتبروا أنفسهم من الصليبيين ، وكان كولومب وأنصاره يعتقدون أنهم ينشرون المسيحية ويرفعون الصليب فى بلاد « الكفار » ، ورغم تكالبهم على الذهب والفضة والتوابل والملذات الجسدية ، فانهم قد كافحوا كسيحيين وماتوا كسيحيين وفى مشروع مسيحى ، فى أعينهم وفى أعين العالم كله فى ذلك الوقت . وكان كولومب من جنوا ، تلك المدينة التى تسير فيها الاعمال الرأسمالية ، والمسيحية ، جنباً

إلى جنب . وبعد أن فشل فى الحصول على مساعدة ملك البرتغال وملوك آخرين فى أوربا ، تقدم الى ملك أسبانيا وملكتها ، فرديناند وايزابلا ، وذكر لهم أن هدفه الأخير هو تخليص الأراضى المقدسة ، واستخدام الكنوز التى سيعود بها من رحلاته فى هذه العملية . ولقد عينته اسبانيا أميراً للبحر ، ونائباً للملك ، فى كل البلاد التى يكتشفها ، ومنحته الحق فى عشر اللآلىء والأحجار الكريمة والذهب والفضة والتوابل ، وأى سلع يجدها فى هذه البلاد .

وجهز كولومب ثلاث سفن عليها تسعون بحاراً ، وثلاثون مسافراً بينهم طبيب وجراح ومترجم وموثق ، وأقلع بها من بالوس صوب جزائر كناريا ، ثم الى عرض المحيط ، دون أن يعلم أنه بدأ أكبر حركة للاستعمار فى تاريخ العالم . وكانت الرحلة هادئة ، ولكن البحارة كانوا قلقين ، وكانوا يعتقدون دائماً أن هناك أرضاً تلوح على خط الافق ، ولكن آمالهم كانت تخيب . وطلب مساعد كولومب منه أن يحول اتجاه السير قليلا الى الجنوب ، بدلا من مواصلة السير صوب الغرب . ولولا هذا التغيير لوصول كولومب الى فلوريدا ، ولاصبحت الولايات المتحدة الامريكية مستعمرة اسبانية . ولكن كولومب وافق على نصيحة مساعديه ، ووصل الى أمريكا الوسطى ، التى ستصبح مع أمريكا الجنوبية من مستعمرات الملوك الكاثوليك .

وتأكدت دلائل الاقتراب من الارض فى اليوم السبعين للرحلة ، وذلك بعد أن شاهد البحارة بعض الحشائش وأحد فروع الاشجار تعوم على وجه الماء ، كما شاهدوا بعض الطيور . ثم ظهر الساحل ، فاقتربت السفن وأنزلت القوارب ، وقفز منها كولومب على الشاطىء ، وركع وقبل الارض، وحمد الله . ثم أشهر سيفه ورفع علم قشتالة ،وأمر الموثق بتحرير وثيقة الاستيلاء

على هذه الأراضى باسم فرديناند وايزابلا فى سنة ١٤٩٢ .

ولم يكن هذا الساحل ساحل الصين ، ولا بلاد الذهب ، إذ أن كولومب كان قد وصل إلى إحدى جزر البهاما فى شمال كوبا . أما الأهالى فقد خافوا من رؤية السفن والأشرعة والرجال الإسبانيين ، ثم أخذوا فى الاقتراب منهم لمحاولة التعرف عليهم ، فمنحهم كولومب بعض الخرز والأجراس الصغيرة التى كان قد أحضرها معه . وكان لون الأهالى داكنا ، وأطلق الاسبانيون عليهم اسم الهنود ، وبقى هذا الاسم مستعملا حتى الآن .

وواصل الاميرال حملته من جزيرة الى جزيرة ، باحثا عن الذهب والتوابل ، والخان الأعظم الذى كان يحمل له خطاب توصية من ملك اسبانيا . وكان الأهالى يدلونه على أن الذهب يوجد عند القبائل المجاورة لهم ، وبدلا من التوابل لم يجد سوى القطن . إلا أنه لاحظ نباتات وشجيرات كثيرة ، يمكن إستخدامها فى الصباغة وفى الصيدلة والطب فى أوربا . ثم وصل الى كوبا ، وسماها جوانا نسبة إلى ولى عهد قشتالة ، ثم وصل إلى هاياتى وسماها هسبانيولا ، وبنى فيها قلعة ، وترك فيها تسعة وثلاثين بحارا ، كانوا أول المعمرين من أوربا فى العالم الجديد .

وعاد كولومب بعد ذلك الى اسبانيا التى استقبلته استقبال الأبطال الغزاة ، وهتفت الجماهير باسمه ، وأنعم عليه الملك والملكة . وإذا كان كولومب قد عاد بكمية قليلة من الذهب والجواهر وبعض الببغاوات والهنود الحمر من كوبا ، إلا أنه كان يحمل الأمل فى الاستيلاء على مستعمرة كبيرة ، وليس لها حدود . وسافر كولومب من جديد ، كأمير للبحر المحيط ، ونائبا للملك فى الهند . وبلغت رحلاته اربعة ، اكتشف فيها جزر الأنتيل والبحر الكاريبى ، وبحث فيها عن مصب الكنج ، ولكن بدون فائدة .

وظهرت المصاعب أمام كولومب، ثم ازدادت فى كل يوم ولقد بدأت هذه المصاعب مع الأهالى، الذى صعب على الإسبانيين التفاهم معهم ، وصعب عليهم إجبارهم على احترامهم . وكان كولومب يعتقد أنه أتى بالسعادة الأزلية لهم ، وذلك بمنحهم الحضارة الاسبانية ، وبتعريفهم على إله المسيحيين . ولم يطلب منهم فى نظير ذلك سوى الذهب ، ولم يعطه الأهالى منه الكثير .

ولقد وجد الهنود أن الاسبانيين قساة القلوب ، وشهوانيين ، فقتلوا كل المعمرين الذين أقاموا فى هسبانيولا ، وكانوا مستعدين لقتل غيرهم وبدأت مصاعب كولومب مع الاسبانيين أنفسهم ، وعملت الغيرة والوشاية عملها فى هذا الميدان ، وتمرد عليه بعض الاسبانيين ، ونظر إليه آخرون على أنه إيطالى . وخابت آمال كولومب فى البلاط نفسه ، الذى ظهر تردده تجاه كولومب بعد هذه الوشايات . ونقد الوشاة مشروعات كولومب ، وذكروا أنها تكلف اسبانيا أكثر مما تدر عليها ، وأنه فشل فى العثور على تلال الذهب وشحنات التوابل . فأرسل البلاط حاكماً جديداً للمستعمرات، وزوده بسلطات مطلقة ، وكان وصوله يعنى بالنسبة لكولومب نهاية رضاء القصر . وسرعان ما كبل الحاكم كولومب بالسلاسل وأرسله إلى اسبانيا . وإن كان الملوك الكاثوليك قد أطلقوا سراحه فيما بعد، واعترفوا بأنه كان أول غزاة العالم الجديد .

وأخذت المستعمرة فى الإزدهار رغم كل ذلك ، ووصل آلاف المغامرين إلى هسبانيولا وكوبا وانتقلوا من مركز لاخر ، وأقاموا فى الانتيل فى بورتو ريكو ، وفى جمايكا ، وفى جزر البحر الكاريبى . ولم يكن هذا هو العالم الجديد ، وإن كان عالماً جديداً .

ولقد أثار هذا الاستكشاف مشكلة سياسية ، خاصة وأن روما كانت

قد أعطت للبرتغال كل الأراضى الواقعة على طريق الهند . فارسل الملوك الكاثوليك السفارات من اسبانيا إلى الفاتيكان ، لكى يشرحوا أن ممالكهم الجديدة هى انتصار كبير للمسيحية ، ولكى يطلبوا من البابا منحهم هذه الأقاليم . ووافق البابا اسكندرالسادس ، وكان إسبانيا ، وأصدر مرسوما منح به ملك وملكة اسبانيا الامتيازات المماثلة لتلك التى أعطاها لملك البرتغال فى اكتشافاتهم الإفريقية . ثم أصدر مرسوما ثانيا لمنع أى طعن من هذا الجانب أو ذلك ، وقسم الامبراطوريتين بخط يمر من القطب الشمالى الى القطب الجنوبى ، على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الخالدات ، وجزر الرأس الأخضر . فأصبح كل ما يقع الى غرب هذا الخط من نصيب اسبانيا ، وكل ما يقع إلى شرقه من نصيب البرتغال . ولكن برشاونه طعنت فى هذا التقسيم ، ثم تفاوضت وحصلت من إسبانيا ومن البابا على مرسوم آخر ، نقل خط التقسيم إلى ثلاثمائة وستين فرسخا إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر سنة ١٤٩٤ . وحدد هذا المرسوم البابوى لتقسيم العالم ، طرق الكشوف والاستعمار الموصلة إلى الهند ، وترك الطريق الغربى للاسبانيين ، والطريق الشرقى للبرتغاليين . ولكن أحدا فى روما أو اشبيلية أو لشبونة لم يفكر فى ذلك الوقت فى أن هذا الخط سيقسم القارة الامريكية ، وأنه سيجعل من البرازيل مستعمرة وواجهة برتغالية ، لقارة ستصبح إسبانية . ولم يفكر الاسبان والبرتغال إلا فى الاسراع فى مشروعاتهم ، التى كانت تهدف الهند ، سواء من الغرب أو من الشرق .

أما كرستوف كولومب فانه قد قضى ما بقى له من أيام فى الخيالات . وأصر على أنه قد وصل إلى آسيا واكتشف سواحلها ، ونزل الى قارة « الهند » . كما أصر على حقوقه وحقوق ورثته ونصيبهم فى الأرباح ،

وعلى ضرورة العمل على تخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين . لقد كان يهذى وكان لا يعرف المجد الذى سيسجله له التاريخ . ونقلت جثته بعد وفاته إلى الجزر التى اكتشفها ، والتى كانت وطنه الثالث ، بعد جنوا وبعد اسبانيا .

(٢) الامبراطوريات السابقة لكولومب :—

ولقد اشتمل العالم الجديد على امبراطوريتين هما امبراطورية الأزاتكة فى المكسيك ، وامبراطورية الإنكا فى بيرو ، فى الوقت السابق لوصول الاسبانيين ، وكانوا قد استعمروا غيرهم قبل أن يقوم الاسبانيون باستعمارهم .

أما امبراطورية الأزاتكة فكانت تمتد من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى ، ومن هضبة المكسيك حتى نيكاراجوا . وكان الأزاتكة قد جاءوا من الشمال فى القرن الثالث عشر ، وانشئوا مدينة فى وسط المستنقعات ، وفى المكان الذى شاهدوا فيه نسراً كبيرا يأكل حية ضخمة . فاعتقدوا أنها اشارة من ربهم « مكسيتلى » لوقف سيرهم ، وبناء عاصمتهم ، التى ستحمل إسم مكسيكو . وسرعان ما إتحدت القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية . وسادت قوانين الأزاتكة ، وانتشرت آلهتهم فى كل المنطقة . وتحدث الفلاسفة وعلماء الآثار عن عادات الأزاتكة وما تركوه من قصور ومعابد واهرامات ، وعلينا ألا ننسى وحشية الأهالى فى هذا الاقليم ، وهذا العصر . ذلك أن الأزاتكة كانوا يحبون الدماء ، وكانوا يتركون للفرد حرية اختيار مستقبله ، ولكن على أساس إحتفاظ الدولة بحق التضحية به ، وكما ترى ، بمجرد أن تطلب الآلهة تقديم القرابين والضحيات لها . وقام

الأزاتكة بذبح عشرين ألف رجل ، وباحراق قلوبهم بعد إنتزاعها من اجسادهم ، كضحية لافتتاح معبد مكسيتلي . وكان الأزاتكة يسلخون بعض البنات ، وهن أحياء ، في إحتفالات عودة فصول معينة في كل عام . أما المجتمع فكان أرليجاركياً في أول الأمر ، وله مجلس شورى ، وينتخب رئيسين مدى الحياة : الأول لإدارة الأمن ولجمع الضرائب ، والثاني لقيادة الجيش وللاشراف على الكهنة . ثم تفوق الثاني ، وكان ينتخب من أفراد أسرة معينة ، وأصبح امبراطوراً وراثيا وكانت السلطة تمر بعد وفاته الى أخيه ، أو الى أقرب أقربائه ، من ناحية الأم .

وكان الأزاتكة يعرفون الذهب والرصاص والبرونز ، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد . وكانت تجارتهم بدائية وتعتمد على المبادلة والمقايضة ، أو تستخدم بعض قطع القصدير أو النحاس ، أو كمية من التبر في أنابيب من ريش الطيور ، كعملة بدائية . وكانوا لا يعرفون العجلات أو الخيول أو أى دابة من دواب الحمل ، فكان الحمالون يحملون كل ما يرغبون في نقله ، ويسيرون في ممرات صغيرة وضيقة ، شقها المساجين وسط الجبال أو الغابات وكانت نفس الممرات هي الطرق الوحيدة الموجودة في ذلك العصر ، والتي كان كل من الحجاج والحملات العسكرية تستخدمها . وكان الحج إجباريا ، كما كان يسمح بالإشراف على إستعباد القبائل المهزومة . وأما الحملات العسكرية فكانت تسهل تموين المعابد بالضحايا البشرية اللازمة لإرضاء الآلهة . وكانت الامبراطورية تنقسم الى عدد من الأقاليم ، يتمتع كل منها بالاستقلال الذاتي ، سواء في الشئون الإدارية أو السياسية . ولكنه كان يرسل كمية معينة من الضرائب العينية ، من ملابس وحبوب وفواكه ونسور حية وعقود من الذهب ، كما كان يرسل عدداً معينا من الرجال

للخدمة فى جيوش الحكومة الامبراطورية . ولقد عاشت امبراطورية الأزاتكة منطوية على نفسها ، ولم تتصل بامبراطورية الانكا ، التى نمت إلى الجنوب منها ، خاصة وأن الجبال والبحار والمستنقعات والغابات والحميات كانت تفصل بينهما .

أما امبراطورية الانكا فكانت قد نشأت فى الأقاليم الإستوائية من أمريكا اللاتينية فى بداية القرن الحادى عشر ، وأصبحت تمثل تجربة تاريخية هامة لإقامة حكومة تعتمد على التوجيه ، وعلى التخطيط ، ولخلق مجتمع منظم فى وسط الفوضى ، ولفرض نظام جماعى لشعوب متباينة تضم المزارعين والرعاة .

ولقد تمكن أحد رؤساء قبيلة الانكا ، من السيطرة على الإقطاعيين ، ومن توحيد الهنود الحمر ، ثم واصل خلفاؤه عملية مركزية الحكم من بعده وضموا أراضى السادة ، وعملوا على مد الأمبراطورية على طول سواحل المحيط الهادى ، بشكل جعل من الهنود رعايا للانكا .

وكان الانكا الأعظم هو رأس التشكيل السياسى لهذه الدولة ، ويعتقد أنه من سلالة الشمس ، ويمثلهـا على الأرض . وكان يسيطر على رؤساء القبائل ، أو الكاباك ، الذين يشرفون بدورهم على رؤساء الجماعات والموظفين المسئولين . وكانت مجموعات الأنكا ، وجماعتهم تشتمل على عشرة ، أو خمسين ، أو مائة ، أو خمسمائة ، أو ألف رجل ، ثم على وحدات أخرى أكبر من عشرة الاف ومائة ألف . وكان كل شىء يبدأ من الانكا ، وكان كل شىء ينتهى اليه . وكانت الإدارة متدرجة متسلسلة ، ومتخصصة ، وكان إختيار الضباط والمديرين وكبار الموظفين يقع من بين الكاباك ، ثم يتبع ذلك إختيار القضاة وأصحاب الحوانيت ، ويقوم رئيس العشرة بأعمال الأمن

العادية . أما الأراضى فكانت ملكا للانكا كما كانت فى مصر القديمة ملكا لفرعون ، و كان على الأهالى زراعتها ،على أن يقسموا المحصول إلى ثلاثة أقسام : الأول للشمس ، أى للكهنة ، والثانى للدولة ، أى للعجزة والأرامل والأيتام ، والثالث « للمجتمع » ويقسم بين الأسر الموجودة .

و كان العمل إجباريا ، كما كان تنظيم أوقات الفراغ إجباريا كذلك وبشكل لا يترك للفردية أى مجال . و كان الانتاج يركز فى مخازن عامة كما كان الاستهلاك محددا ومخططا . و كانت المساكن متشابهة ، و كذلك الوجبات ، من الذرة والبطاطس . و كان التماثل تاما ، والنظام دقيقا والعقوبات صارمه . و كان هناك تحديد لعدد الملابس ، ولأوقات تناول الطعام ، وتحديد لأماكن الإقامة ، ولساعات اللهو والفراغ . وأدى هذا التخطيط الى تقليل الشخصية والفردية ، والى زيادة الطاعة والسلبية .

وكان الاهالى يعرفون صهر النحاس وتشكيل البرونز ونسج الصوف وبناء القصور والمعابد والحصون ، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد والعجلات والكتابة . ونجح النظام الشيوعى عند الانكا ، وضمن للاهالى حاجياتهم الضرورية ، ومنع عنهم اخطار المجاعات . ورأى بعض المؤرخين أن هذه الادارة العامة الجماعية كانت هى كل شىء ، وقضت على كل شىء فيما عداها ، وحتى على الإنسان ، الذى اصبح يمتاز بالكسل والخمول العقلى ، ويرفض التغيير والتعديل .

والواقع أن امبراطورية الانكا قد اخضعت غيرها فى الوقت الذى زادت فيها سلطات رأس دولتها ، عن السلطات التى يتمتع بها رئيس أى دولة شيوعية . و كانت الامبراطورية تهضم كل اقليم تستولى عليه وتخضعه لها ،

ولكنها كانت تترك له آلهته ، فى نفس الوقت الذى تحاول فيه إدخال دياناتها وعبادة الشمس فيه . وكان الموظفون يعملون على تطبيق قوانين الامبراطورية فى هذه الاقاليم ، كما كانوا يعملون على نقل الاسر والقبائل غير الخاضعة من منطقة لأخرى ، حتى يصلوا الى كسر شوكتها واذابتها فى النطاق الجماعى . وقدر العلماء سكان امبراطورية الانكا بأثنى عشر مليوناً، وهو عدد يقارب عدد سكان امبراطورية الازانكة . أما بقية القارة فكان يعيش فيها بضعة ملايين آخرين ، موزعين بدون حكومات وبدون حضارات هامة . وأزدهرت الحياة المستقرة فى المنطقة المدارية حيث كانت الامطار تساعد على نمو النباتات ، وحيث كانت الذرة تنبت بالامطار وبدون زراعة. وكانت معظم القبائل الاخرى شبه مرتحلة ، أو تعمل بالرعى أو الصيد . وكانت هناك بعض مجالس الشيوخ أو الحكماء لادارة قبائل سكان البمبا وغابات الامازون ومراعى الشمال ، وكانت هذه القبائل تعبد أصناما معينة أو أنواعا من الحيوانات ، وكانت تأكل لحم الجاموس البرى ، وتدخن الطباق ، وتعبر الانهار فى قوارب تنحتها من جذوع الاشجار ، كما كانت تستخدم القوس والسهام . وكان الهنود الحمر بصفة عامة لا يتورعون عن قطع رؤوس أعدائهم بعد الانتصار عليهم ويجمعون هذه الرؤوس أو يعلقونها . وروى كولومب نفسه أنه رأى بعض بقايا جسم بشرى تطهى فى قدر على النار ، واستند فى ذلك إلى أن الهنود الحمر كانوا يأكلون لحم البشر فى نفس الوقت الذى يأكلون فيه لحوم الببغاوات .

إذا كان فى وسع الاسبانيين أن يصلوا إلى العالم الجديد ، ومهما إتصفوا به من القسوة والتحكم فانهم كانوا يحملون للاهالى فى العالم الجديد وسائل حياة ونظم تسمح لهم بتحسين حالهم . فقد كانت الحضارات السابقة

لكولومب ، وحتى المتفرعة منها ، متأخرة عن حضارة أوربا فى ذلك الوقت بألفى سنة : وإذا كان الازاتكة يسلخون القرابين البشرية ، والانكا تنخفض بمستواهم إلى الكسل والسلبية ، وتقوم قبائل البرارى بأكلهم ، فلا يمكننا إلا أن نرى تقدما واضحا مع مجىء الاسبانيين ، الذين نزلوا بمستوى كل الهنود الحمر الى مستوى العبودية . ولكن هل كانت روايات الاسبانيين عن هذه الحضارات السابقة لهم روايات حقيقية علمية ؟ وهل كان من حقهم أن يفرضوا حضاراتهم وطريقة معيشتهم على غيرهم وبالقوة ؟ وهل كان من حقهم نهب موارد الاقاليم وذهبها وارساله الى أوربا ؟

وإذا رضى الاهالى أو ثاروا ، فقد كان عليهم أن يخضعوا لحكم الغزاة ، إذ لم تكن لديهم الوسائل الكافية للصمود أمامهم ، أو للدفاع عن أنفسهم . فقد كان الاسبانيون مزودون بالخيول ، ومهروا فى ركوبها حتى اصبح الفارس وكأنه مرتبط بفرسه ، وكانوا مزودين بالبارود الذى يقتل عن بعد ويرعد مثل البراكين ويجعل الاهالى ينظرون اليهم كآلهة . لقد تفتحت امريكا للغزو الاسبانى بكل سهولة ، وكان ساحلها الشرقى مملوءا بالاف الخلجان والاف المصبات وللأنهار الصغيرة . وإذا كانت أوربا قد نظرت الى العالم الجديد كعقبة فى سبيل الوصول الى الهند ، فان هذه النظرة لا تمنع من كون أمريكا عقبة سهلة ، بل ومحطة متوسطة يمكن عبورها والوصول منها ، وبها الى الهند .

ولقد اطلق اسم امريكا على هذا العالم الجديد نسبة الى امريجو فسبوتشى الفلورنسى والذى كان قد اصطحب كولومب فى احدى رحلاته سنة ١٤٩٩ ، والذى كان من أوائل من وصل الى القارة الامريكية . وكان أول من نادى بأن هذه الاراضى الجديدة لم تكن آسيا ، فأصر لوران دى

مدسيس على اطلاق اسمه على العالم الجديد ، وقام أحد رجال الطباعة بوضع هذا الاسم على الخريطة الذى نشرها عن العالم ، رغم أن الأوربيين ظلوا لمدة طويلة يسمون العالم الجديد باسم الهند .

(٣) غزو الهند الغربية : —

ولقد انتهت عملية الغزو كلها فى مدة خمسين سنة ، قام خلالها الغزاة الأوربيون بالإستيلاء على امبراطوريتى الازاتكة والانكا ، وباخضاع القبائل ، وباحتلال ثلثى سواحل القارة . ومهما كان الوصول الى امريكا سهلا ومهيا،وكانت وسائل البيض متفرقة إلا أن نجاحهم كان عجيبا ، ذلك لأن بضعة الاف من الرجال قد تمكنوا من الإنتصار على ثلاثين مليونا من الهنود الحمر ، كما إنتصروا على البعوض والزواحف والحميات وثلوج الجبال وشمس المناطق الاستوائية ووحوش الغابات . ولا شك فى انهم كانوا قد تمرنوا على المتاعب الجسدية ،وشحذوا هممهم وعزائمهم فى حروبهم المتصلة ضد المغاربة فى الأندلس ، كما شحذوها بشعورهم بالتفوق الحضارى والجنسى على غيرهم ، ولذلك فانهم كانوا يسمحون لأنفسهم بكل شىء ،وبدون تردد .

وكان مشروعهم للاستعمار مشروعا عاما وخاصا فى نفس الوقت : ذلك انهم كانوا مزودين بمرسوم ملكى وكانوا يحاربون وينتصرون باسم ملك اسبانيا ولحسابه ،ولكنهم كانوا ينظمون حملاتهم على نفقتهم الخاصة أو لحساب أصحاب رؤوس الاموال المستعدين لتمويل مثل هذه المغامرات . وفى هذه الحالة الاخيرة كانت هناك عقود موثقة تحدد نصيب وحقوق كل من الاطراف المساهمة . وكان هدفهم هو اكتشاف أراض جديدة ، والاقامة فيها بأحقية وأولوية الوصول اليها وحكمها ، واستغلال الاراضى والمعادن النفيسة ، والمعيشة بألقاب طنانة وبمجد يثير الغيرة والحسد لاكبر سادة قشتالة فى هذا الوقت . ويمكننا أن نذكر هنا بعض الاسماء لقادة الغزو الذين سجلوا اسماءهم

فى العالم الجديد، مثل بالبو وكورتيز وبيزارو . وربما كان الحظ قد ساعدهم أكثر من غيرهم ، ولكنهم إستحقوا تسجيل أسماءهم فى التاريخ حتى ولو كان ذلك بناء على المآسى التى ارتكبوها فى أمريكا .

أما بالبو فقد بدأ حياته مزارعا فى الجزر ، ولكنه هرب بعد مطاردة الدائنين له ، واختفى فى أحد البراميل على ظهر إحدى السفن ، ولم يتركه إلا عند رسو السفينة عند برزخ بنما . وعرف هناك أنه يوجد الى الجنوب مناجم للذهب وبحر آخر . وواتته الفكرة بأن هذا البحر قد يكون بحر الهند ، فسار لمدة عشرين يوما داخل الغابات حتى رأى من أعلى أحد التلال محيطاً كبيرا ليست له من نهاية ، فنزل فى الأمواج شاهرا سيفه ، وأعلن ملكية ملك اسبانيا لبحر الجنوب ، الذى أصبح فيما بعد المحيط الهادى. ولقد عينت اسبانيا بالبو حاكما على هذا البحر فنقل أربع سفن ، بعد تفكيكها ، عبر البرزخ ، ثم جمعها ، وكان أول من يبحر على هذه المياه الجديدة .

أما فرديناند كورتيز فكان من طبقة متوسطة ، وفشل فى دراسته وذهب الى كوبا للبحث عن الثروة . واختاره فاليسكيز حاكم الجزيرة لقيادة حملة ضد القارة ، وكانت تتألف من احدى عشر سفينة ، وعليها مائة وتسعة من البحارة ، وخمسمائة وثمانين من الرجال، وستة عشر فرسا، وعشرة مدافع . ونزلت الحملة على ساحل المكسيك حيث أقاموا الصلاة وبدأوا فى الاتصال برؤساء الأزانكة وأعطوهم بعض الخرز. وعاد الأزاتكة يحملون هديتهم بدون حذر ، وكانت عبارة عن صناديق مليء بالذهب ، هدية من امبراطورهم مونتزوما . وكانت الطامة الكبرى . إذ أن كورتيز قد طلب من الرسل أن يطلبوا من سيدهم الاستمرار فى ارسال الذهب ، وكثير من الذهب، بدعوى أنهم مرضى بالقلب ، وأن علاجهم لم يكن سوى الذهب . وأسرع كورتيز

بجمع عدد من الحمالين من قبيلة كانت قد ثارت على حكم الأزانكة، وسار على رأسهم الى مكسيكو . وتمكنت خيوله ومدفعيته من القضاء على جيش من الهنود بلغ أربعين ألفا . وقبل مونتزوما استقبال الاسبانيين وهو لا يعرف أن كانوا من الرجال أو الآلهة ، بعد أن سمع قصف مدافعهم. والتقت حضارتان عند مدخل مكسيكو، وكانت كل منهما تتحدى الأخرى. وعسكر أربعمائة اسباني فى النقط الاستراتيجية من مكسيكو ، وفى قلب امبراطورية بلغ عدد سكانها إثنا عشر مليونا ولم يتردد كورتيز فى تحطيم تماثيل آلهة الأزانكة وفى نصب تمثال السيدة العذراء على المذبح . وطلب من مونتزوما أن يقسم بولائه ، ثم استولى على أطنان من الذهب من القصر الملكى وخضعت امبراطورية الأزانكة تماما فى مدة سنتين ، رغم أن الأهالى قد قاموا بمحاولات عديدة للدفاع عن أنفسهم ، وتمكنوا من إجبار الاسبانيين ، فى ظروف معينة ، على الفرار من العاصمة ، مشيعينهم بصيحاتهم وبالأحجار والسهام . ولكن الاسبانيون عادوا، وقتل مونتزوما وأصبحت امبراطوريته تسمى اسبانيا الجديدة فى سنة ١٥٢١ .

وجاء دور الانكا بعد الأزانكة وتم اخضاعهم فى سنتين ، وكان قائد العمليات ضدها هو فرانسوا بزارو ، الذى كان من رجال بالبو فى عملياته الأولى . وكان بزارو قد بدأ حياته فى أحد المزارع ثم تطوع كجندى ثم كبحار . ولم يكن يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان يمتاز بالقسوة وغلظة القلب . وعبر خط الاستواء وعرف أن أحد الملوك الأقوياء والأغنياء يحكم فى بيرو . فعاد وشرح القضية لبلاط طليطلة ، وذكر أن بيرو لم تكن إلا ذهبا يستولى عليه ، ونفوسا تطلب الهداية والدخول فى المسيحية . فمنحه البلاط مرسوما بتعينه قائداً أعلى وحاكما عاما لما سيصبح قشتالة الجديدة فيما بعد . واستند بزارو الى هذا المرسوم ، وأخذ فى جمع

رجاله وتنظيم جيشه الذى وصل الى سبعة وعشرين فرس ، ومائة وثمانين رجل زادوا فيما بعد نتيجة لوعدهم بالحصول على الأسلاب والغنائم . وعبر الصحراء القاحلة ثم القمم المغطاة بالثلوج ووصل إلى الانكا وشرح له أن مرسوم البابا قد قسم العالم ، وأن البابا يمثل السيد المسيح فى الأرض ، وانه هو ، فرانسوا بيزارو ، يمثل ملك اسبانيا . ولكن الانكا لم يكن يعرف غير الإله الشمس الذى كان فى نفس الوقت جده الأكبر ، ولم يكن قد سمع بالسيد المسيح ولا بملك اسبانيا ، فالقى بالكتاب المقدس الذى أعطاه له بيزارو على الأرض . فلم يكن من بيزارو إلا أن لوح بمنديله الأبيض ، وكانت علامة متفق عليها للهجوم والإلتحام . وتصايح الاسبانيون وأطلقوا بنادقهم ومدافعهم ثم هجم الفرسان ، وتبعثر حفل الاستقبال وقبض الاسبانيون على الامبراطور ، وأخذوا يتمرغون على الذهب ويضعون الأسرى فى السلاسل . ولقد قبل الانكا أن يفدى نفسه بملء الحجرة التى سجن فيها بالذهب ، وحتى إرتفاع تسعة أقدام ، ونفذ وعده . ولكن بيزارو لم يترك الأسير ، وحكم عليه بالتعميد ثم بالقتل ، لا الواحدة أو الأخرى . وأصبح آخر أباطرة الانكا مسيحياً ، ثم خنقه المسيحيون الاسبانيون .

ولم يتحرك شعب الانكا ، خاصة وأنه قد تمرن منذ قرون ، على الطاعة السلبية ، فقبل الموقف الجديد . واعتقد أنه غير امبراطوراً بامبراطور آخر . ومد إثنا عشر مليونا ، من العبيد ، أيديهم الى الاسبانيين ، لكى يضعوا فيها السلاسل ، كما يقول المؤرخ جان ديكولا .

ولم يكن بالبو وكورتيز وبيزارو إلا أشهر الغزاة . فلقد كان هناك الكثيرين غيرهم ممن تعرضوا للعواصف وللسهام المسمومة وساروا فى الأدغال . ولكن هؤلاء كانوا يمثلون الطبقة الأولى من الغزاة ، التى تميزت بحبها للغزو ، وبأملها فى الحصول على كل شىء .

وبعد أن انتهت خرافات الخان الأعظم ، أو الخاقان ، وخرافات يوحنا الراعى،ظهرت خرافات جديدة ، إتصلت بالعالم الجديد . فنجد أن أحـــد رجال بيزارو ، ويسمى أوربيانو ، قد سمع بعض الهنود يتحدثون عـن مملكة مملوءة بالذهب ، وعن أن ملكها كان يغطى نفسه بالتبر . أنه الملك الذهبى « الـدورادو » ، وكان قد ورث الانكا وأسس امبراطورية جديدة فى داخل القارة . وانتقلت هذه الخرافة من فم لأذن ، حتى أصبحت وكأنها حقيقة . وأضاف كل فرد إليها قليلا حتى روت وجود أسـدين مقـيدين بسلاسـل من الذهب لحراسة القصر الامبراطورى، وأن الأنابيب التى توصل الماء الى النافورات كانت من الذهب ، وأن جبلا من الذهب الخالـص كان يشرف على الاقليم. وقام المستكشفون بالبحث عن هذا « الالدورادو » العجيب لمدة قرنين ، وبحثوا عنه فى كل مكان دون أن يعثروا عليه . ولكن ذلك البحث سمح لهم بالتوغل داخل القارة ، وبالسيطرة على مناطق أوســـع ، وبنهب ما تصل اليه أيديهم .

ولقد قام المستكشفون بارتياد منطقة فلوريدا ، وساروا من المكسيك حتى كاليفورنيا ، وقام غيرهم بالنزول حتى شيلى ، ووصل آخرون الى غرناطة الجديدة ، التى أصبحت تسمى فيما بعد بكولومبيا ، وبدأ مندوزا من نهـر ريودى لابلاتا غزو الأقاليم التى ستصبح الأرجنتين فيما بعد .

الواقع أن هؤلاء الغزاة لم يكافؤا على المجهـودات التى قاموا بها إلا من الناحية المعنوية ، وذلك بتسجيل اسمهم فى تاريخ الاستعمار ، خاصة وأنهم قد تحاربوا فيما بينهم ، وشابهوا فى ذلك الأطفال الذين يتنازعون لعبة معينة ، كما شابهوا رجال العصابات الذين يقتتلون عنـد تقسيم الأسـلاب. ولقـــد غضب البلاط عليهم ، فكان يتهمهم بالخطـــورة اذا كـانت لهم صفات

رجال الدولة مثل كورتيز ، وكان البلاط يقضى عليهم ويبعدهم، اذا لم يتميزوا بصفات القيادة . وكثيرا ماقضى عليهم فى أثناء قيامهم بعملياتهم إما من الاسبانيين وأما من الهنود الحمر ، مثل بالبو ، الذى قطعت رأسه ، وبيزارو الذى طعن بالسيف وغيرهم ممن غرق أو توفى بالحمى، أو أصابه الجنون أو وقع فى أيدى الهنود الحمر . ولكنهم قاموا بعمل استعمارى واضح ، وامتدت الامبراطورية الاسبانية التى أنشأوها واشتملت على كل جزر الأنتيل، والبرزخ الذى يصل بين الامريكتين، والمكسيك مع سواحلها، وجزء هام من الشريط الساحلى للقارة الجنوبية ، واشتملت على امبراطورية الأزاتكة وامبراطورية الانكا .

إمتدت هذه الامبراطورية من كاليفورنيا حتى شيلى ، ولمسافة عشرة آلاف كيلومتراً ، ولم يحكم الاسكندر الأكبر ولا روما ولا جنكيزخان على مثل هذه الامبراطورية.

ولكن هناك نقطة ضعف أخذت فى الظهور بالنسبة لهذه الأمبراطورية ، وكان ذلك بسبب المرسوم البابوى الذى احتفظ للبرتغاليين بالأراضى الواقعة الى شرق خط التقسيم . ولقد تمكن كابرال من إستكشاف أحد السواحل فى هذه المنطقة لحساب بلاط لشبونة ، وأسماه ساحل الصليب المقدس « سانتا كروز » . وكانت هذه المنطقة هى التى تزود العالم بخشب الموجونو . وتحولت سانتا كروز فيمابعد الى البرازيل واكتشف فيها أحد الغزاة فى شهر يناير سنة ١٥٣١ خليجاً جميلا ، أنشأ عليه مدينة سميت ريو دى جانيرو . وبدأت الامبراطورية البرتغالية فى الانساع فى العالم الجديد . ولكن اليوم الذى ضمت فيه اسبانيا البرتغال سنة ١٥٨٠ عمل على توحيد هاتين الامبراطوريتين اللتين إمتدتا من الميسيسبى حتى أقصى الجنوب ، وأصبحت كلها اسبانية . وأفادت قشتالة من كل هذه العملية .

(٤) ادارة الهند الغربية :-

أعلن تاج قشتالة للملوك والدول امتلاكه للعالم الجديد فى سنة ١٥١٩ إستناداً الى منحة الكرسى البابوى والى الحقوق الاخرى ، وبشكل يجعل من هذا التاج صاحباً للهند الغربية ، وللجزر والقارات الموجودة فى البحر المحيط ، سواء التى اكتشفت أو التى ستكتشف فيما بعد . وجاء عصر الاستعمار بعد عصر الغزو ، أى عصر الاستغلال لاتمام عملية الفتح ، والوصول بالوسيلة الى الهدف . ولم يكن الاسبانيون مستعدين فى هذا الوقت لادارة امبراطورية شاسعة ، وبهذه الطريقة ، ولكنهم تمكنوا رغم ذلك من حكمها وإدارتها ، بالسيف وبالنهب وبالقتل ، وبغيرها من الوسائل التى كانت سهلة ، وأسهل بكثير من ادارة وحكم شعوب غلبت على أمرها .

ولم يتورع الاسبانيون عن اتخاذ أى وسيلة للوصول الى أهدافهم البدائية، والتى كانت تتخلص فى الحصول على الذهب وشحنه فى السفن . ولم يتردد الحكام الاسبانيون الأوائل ، قانوناً أو فعلاً، أمام وخز ضمائرهم ، بل كانوا يعملون ، ويعملون لأنفسهم ان لم يكونوا يعملون من أجل الملك . فكانوا يقسمون الكنوز بين الجنود ، ويقسمون الارض بين الضباط. واذا قاموا بأى مجهود للادارة ، فان هذا المجهود لم يزد عن كونه نقل نظم اسبانيا الى أمريكا كما هى ، فكانوا يعينون القضاة والقواد ، كما لو كانوا فى الجزيرة الخضراء أو فى قادس . وحلت السلطة الملكية مع الزمن محل أهواء الاقطاعين والغزاة ، وان كانت العملية قد تمت على مراحل . وأنشأت هذه السلطة الملكية حكومة مباشرة ، كانت تباشرها من اسبانيا ، وتنفذ تعليماتها فى العالم الجديد .

وكانت الهيئة المركزية فى اسبانيا تتمثل فى مجلس الهند ، الذى كان

يعاون الملك ، مثلما كان يعاونه مجلس قشتالة أو مجلس أرجوانه أو مجلس الحرب أو غيرهم . وحل هذا المجلس محل المراقبة العامة لشئون الهند، والتى كانت قد أنشئت بسرعة، بعد رحلة كولومب الاولى للعالم الجديد . وكان هذا المجلس يخضع لمستشار أعلى لشئون الهند ، وكان يعد القوانين، ويعتبر محكمة للاستئناف، ويتدخل فى كل قرارت الكنيسة المتعلقة بالعالم الجديد . فكانت له فى واقع الامر جميع السلطات التشريعية والقضائية وحتى الدينية .

أما السلطة التنفيذية فكانت فى العالم الجديد ، وقد نظمت على أساس حكم « الأنتيامنتو » أو حكم البلديات فى قشتالة . وكان هذا النظام يتلخص فى انشاء مجلس خاص فى كل اقليم ، يتشكل من ثلاثة أو أربعة مسئولين ، ويجتمع فى أول الأمر كمحكمة ، ثم أصبح يجتمع بعد ذلك كمجلس . وكان الحاكم هو الذى يرأسه ويستشيره . وفى أعلى القمة نصل الى نائب الملك ، أو بمعنى أدق ، نائبى الملك : الاول فى المكسيك ، والثانى فى ليما ، وكان كل منهما يسيطر على نصف العالم الجديد ، بخلاف الانتيل ، وهافانا، التى كانت لها قيادة عامة خاصة بها .

وكانت هناك شخصية واحدة ، هى نائب الملك ، يعينها الملك ، وتمثله وتهيمن على شئون الحرب والسلم والارواح . وكان نائب الملك يعين كبار الموظفين ، ويشرف على الاقتصاد والمالية، ويلاحظ الكنيسة ، أو يراقبها . ولكن سلطاته واختصاصاته كانت محددة ، خاصة وأن البلاط كان يخشاه ، فقيد تعينه بمدة ثلاث سنوات ، وأجبره بعدها على البقاء فى المستعمرة لمدة ستة أشهر ، حتى يسمح لكل من يعارضه أو يطالبه بشىء، أن يتقدم ضده بما يرغب . وفى نفس الوقت أعطى الملك لأعضاء المجالس حق مخاطبة البلاط رأساً ، كما كان يسمح لنفسه بارسال بعض كبار الموظفين ،

كزائرين أو مفتشين من وقت لآخر . ولقد سار هذا النظام بدقة عجيبة ، خاصة إذا نظرنا إلى السرعة اللازمة لتقرير الأمور ، والى اتساع الامبراطورية ، ولكنه كان يتسبب من بعض التضارب بين السلطات ، كما تسبب فى بعض الأخطاء الواضحة ، وكان أكبر خطأ فيه أنه قد وضع عن طريق الاسبانيين ، وللاسبانيين ، كما لو كانت أمريكا إحدى المقاطعات الإيبيرية ، وكما لو كانت لا تسكنها ملايين من الهنود الحمر . لقد كان وجود الهنود حقيقة واقعة ، وكان واجب الاسبانيين أن يحسبوا حساب هؤلاء الملايين،الذين كانت لهم آلهتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم . ولكن أغلب المعمرين الإسبانيين كانوا لا ينظرون الى الهنود الحمر إلا نظرتهم الى المتوحشين آكلى لحوم البشر ، نظرتهم الى شعوب تفضل العيش عرايا ، شعوب يأكلها من المخادعين الكذابين الخائنين ، من السكارى القساة الكسولين ، شعوب لا تستحق أن تدخل فى المسيحية يوما من الأيام . ولكن هناك من الإسبانيين من رآهم شعوبا خاضعة صبورة محبة للسلم ، ووجد فى نفسه الرغبة فى الدفاع عنها . فأين الحقيقة . ؟

وكان المعمرون متسلطين ومتعجرفين ولا يعرفون التسامح . ويعتقدون أنهم جاءوا الى أمريكا للاثراء ولا يترددون فى إعلان ذلك . وحينما طلبوا من بيزارو القيام بواجبه لنشر المسيحية بين الهنود الحمر ، أجاب أنه لم يأت الى العالم الجديد من أجل ذلك ، وإنما أتى للاستيلاء على ذهبهم . وكانت الأقلية هى التى تنادى بضرورة الإحتفاظ بالهنود الحمر وتهذيبهم وكسبهم الى إسبانيا المسيحية .

حقيقة أن البابا قد وضع مهمة التبشير بالمسيحية بين الهنود قبل أى عملية أخرى فى العالم الجديد ، وأصر بولس الثالث على أنهم فى وضع يسمح

لهم يفهم الديانة الكاثوليكية ، بل وأنهم شغوفين باعتناقها ، على حد ما يذهم ولذلك فانه من الواجب عدم الإضرار بهم فى حريتهم أو فى ممتلكاتهم ، والابتعاد عن إستعبادهم بأى طريقة من الطرق . ولقد تردد الملوك الكاثوليك فى قشتالة بين هذين الاتجاهين . وأوصت الملكة ايزابيلا فى وصيتها بعدم الإضرار بالهنود ، وضرورة معاملة هذه الشعوب بالطيبة والعدالة . كما أن شارل الخامس ، وربما الثانى ، قد ذكر حكامه بأن الله قد خلق الهنود أحرارا لا تابعين .

ورغم ذلك فقد استمرت الأخطاء ، من تعذيب وإنتهاك يسمح بفضح طغيان الإسبانيين . ذلك انهم قد منعوا الهنود الحمر من حمل الأسلحة ومن ركوب الخيل ، وقضوا على الأهالى قضاء تاما فى مناطق بأكملها ، إما بسوء المعاملة أو بالقتل ، كما حدث فى هاياتى . وأخذ الكتاب منذ عهد لاس كازاس فى فضح هذه الجرائم ، وطالبوا الحكومة الإسبانية بضرورة المحافظة على أرواح الهنود ، دون أن يذكروا إن كان هدفهم هو السياسة ، أو ضرورة الإحتفاظ بالأيدى العاملة اللازمة للمستعمرات ، أو زيادة عدد السكان المسيحيين فى العالم . حقيقة أن فظائع الإسبانيين تجاه الأهالى كانت أشد فظائع الإبادة الإستعمارية منذ بداية تاريخ الاستعمار ، ولكن صيحات الاعتراض على هذه الفظائع كانت كذلك أشد الصيحات حتى ذلك الوقت .

ولقد حاول بعض رجال الغزو والإستعمار الأوائل أن يدافعوا عن الهنود الحمر ، مثل كورتيز الذى ما أن نزل على سواحل المكسيك سنة ١٥١٩ حتى أمر جنوده بعدم تعذيب الاهالى ، وبمصاحبتهم إلى قراهم دون

الاعتداء عليهم أو جرحهم أو التعرض لأملاكهم . وكانت هذه هي المبادىء الأولى لمحاولة هضم الهنود الحمر ، وضمهم نهائيا الى النظام الاسبانى . ولكن عمليات أخرى قامت فى جهات متعددة ، وأوجبت صيحات الإنسانية. وثارت (المشكلة الهندية) طوال القرن الأول للاستعمار الإسبانى ، وبمناسبات ، متعددة . وكانت إسبانيا تتساءل بقلق عن مهمتها فى العالم الجديد ، وعما يجب عليها أن تقوم به كدولة مستعمرة فى أمريكا .

الفصل التاسع

الاسبانيون

لقد تزعم بعض رجال الدين والمفكرين من الإنسانيين حركة الدفاع عن الوطنيين، أو الهنود الحمر، ضد معاملة المعمرين والحكام الإسبانيين فى العالم الجديد. وكانوا مخلصين فى عملية دفاعهم، ومخلصين فى أهدافهم التى كانوا يرغبون فى الوصول إليها، سواء أكان ذلك للاحتفاظ بالهنود الحمر كشعوب وأيدى عاملة يمكنها أن تنتج، أو كان ذلك الإحتفاظ بهم كرعايا للكنيسة الكاثوليكية، وزيادة عدد المسيحيين فى العالم، أو كان ذلك لتطوير حركة الإستعمار الإسبانى بشكل يجعلها تخدم الإنسانية والمدنية، بدلا من أن تقوم باستغلالها، أو بالقضاء على كثير من أبنائها.

(١) بين الانسانية والوحشية :-

ولقد ترأس إثنان من الرهبان الدومينيكان عملية الدفاع عن الهنود، بل الهجوم على الاستعمار فى العالم الجديد، وهما أنطوان دى مونتسينوس، وبرتلوم دى لاس كازاس. ولقد هاجم مونتسينوس المعمرين ومبدأ الاستعمار نفسه فى خطبته الطنانة التى ألقاها فى إسبانيولا: «لقد صعدت على هذا المنبر لكى أشرح لكم أخطاءكم تجاه الهنود. إن خطأكم جسيم، وخاصة نتيجة لقسوتكم تجاه هذا الجنس البرىء ... فبأى حق قمتم باعلان حرب دنيئة ضد هؤلاء الناس الذين يعيشون فى بلادهم وفى سلام؟ وماهو

السبب لتركهم أيامهم فى مثل هذه الحالة من الإنهاك دون إطعامهم والإهتمام بصحتهم ؟ ... » كان معنى ذلك هو عدم شرعية الغزو الإسبانى ، وهدد مونتسينوس برفض مباركة الإسبانيين المتطرفين .

وضم لاس كازاس صوته لهذه الحركة . وكان قد بدأ حياته مزارعا قبل أن يتفرغ لخدمة الدين ، وواصل كفاحة حتى آخر أيامه للدفاع عن الهنود ، بشكل جعل منه أكبر مدافع عنهم ، وترك مادة غزيرة ، وصف فيها ما خضعوا له من وحشية . ولقد وصف الحروب ضد الهنود بأنها غير عادلة وأنها طغيانية ، ووصف الذهب والفضة والجوهرات والأراضى التى أخذت منهم بأنها منهوبة ، ومن الواجب إعادتها الى أصحابها . وفضح لاس كازاس مساوئ الإستعمار بشدة جعلت من مادته أسلحة قوية ، أفاد منها أعداء أسبانيا نفسها .

ولقد اضطرت سلطات قشتالة إلى محاولة إيجاد سياسة معقولة يمكنها أن توفق بين مطالب الإستغلال الاقتصادى ، وإتجاه رجال الكنيسة . وسمحت بالقيام بتجارب هامة فى العالم الجديد . وكانت التجربة الأولى تتعلق بتحرير الهنود ، وأسس أحد القضاة ثلاث قرى للهنود المحررين فى اسبانيولا ، ولكن الفشل كان تاماً ، إذ أن الهنود قد إمتنعوا بعد تحريرهم عن القيام بأى عمل . أما التجارب المماثلة والتى وقعت فى كوبا ، فانها لم تكن أكثر إيجابية . ثم قامت تجربة ثانية للاستعمار السلمى ذلك أن لاس كازاس قد حصل فى فنزويلا على ٢٦٠ فرسخا مربعا ، وإختار مزارعين من إسبانيا ، ووعد بمنحهم لقب « فرسان المهماز الذهبى » ولكن الفشل كان تاما ، إذ أن هؤلاء الفرسان المزارعين كانوا يرغبون فى الحصول

على الذهب ، أكثر من رغبتهم فى الحصول على الأراضى ، وتحـــولوا بمجرد وصولهم الى العالم الجديد ، إلى عصابات لصيد الهنود ولإستخدامهم كعبيد فى زراعة الأرض . أما التجربة الثالثة فكانت تهدف الى تحويل الهنود إلى المسيحية ، وبطريقة سلمية . وحاول لاس كازاس أن يحولهم بكل هدوء ، واختار منطقة عماز أهلها بحب الحرب للقيام بتجربته ، وهى منطقة جواتيمالا . والواقع أن بعض الهنود قد تمسحوا ، بعد سماعهم لصلوات الدومينيكان أو بعد إعجابهم باللعب والأدوات الصغيرة التى كان الإسبانيون يوزعونها عليهم . وقبل رئيسهم بناء كنيسة، وتحولت المنطقة إلى بلاد سلم ، وبان كان هذا التحول سطحيا ، ولم يتمكن الهنود من معرفة المسيحية . وبعد فترة من الزمن قام الهنود بقتل راهبين ، وسلخوا ثالثا أمام أحد الأصنام ، وشيعوا أنصار لاس كازاس بالسهام، وأحرقوا المستعمرة. وكانت نتيجة هذه العملية خطيرة بالنسبة للهنود ، وبالنسبة للاسبانيين ، ذلك أن الهنود قد تأكدوا لأول مرة من أن الاسبانيين ليسوا آلهة ، بل مثلهم من البشر ، معرضون للموت ، ويمكن قتلهم . فقلت درجة سلمية الهنود وتواضعهم ، وأخذوا يرفضون العمل ويفضلون معيشتهم السابقة قبل وصول الإسبانيين .

وكان كل من الملك ومجلس الهند فى إسبانيا يحاولون وضع سياسة للمستعمرات الجديدة . ولكن ،هل كان فى وسعهم إعلان الحرب على الهنود ؟ لقد قرروا عدم القيام بأى عمليات عدائية ضدهم ، إلا بعد أن يقرأ عليهم إنذار بذلك ، وهذا الانذار كان يطالبهم بالاعتراف بالكنيسة والبابا والملك كأصحاب للسيادة ، وسادة عليهم ، وإلا فان الإسبانيين سيأخذونهم ، ونساءهم وأطفالهم ، ويجعلوهم عبيداً ، يبيعونهم ويوزعونهم

كما يرغبون . وسيأخذون أملاكهم ويعاقبونهم ويؤدبونهم ، كما يفعلون مع أى تابع ثائر . ولكن هذه الطريقة لم تكن عملية ، ولم يكن من السهل على الهنود احترامها . واستخدم الإسبانيون وسائل أخرى للمحافظة على السلم فى المستعمرات، وصدرت الأوامر بعدم خروج أى حملة دون موافقة رجال الكنيسة الملحقين بالجيش كتابيا على ذلك . ومنع لاس كازاس أى عمليات حربية لم تكن مزودة بأمر صريح من الملك ومجلس الهند . ثم منع شارل الخامس قيام أى حملات إستكشافية فى العالم الجديد الى أن تتم محكمة بلد الوليد قراراتها الخاصة بشرعية الغزو . لم يشهد العالم حتى الآن غزاة منتصرين يشكون فى أنفسهم وفى عملياتهم بهذا الشكل الذى يؤثر عليهم وعليها . وكم من إسبانى أعلن فى ذلك الوقت فى العالم الجديد بأن الأراضى التى يطأونها هى ملك للهنود . ولم يتمكن المستشارون وفقهاء بلد الوليد من إتخاذ موقف حاسم واضح بين النظريات المتعارضة التى كان لاس كازاس يمثل طرفا منها ، وغلاة الغزو يمثلون الطرف الآخر . فاستمرت الحرب ، ولكن على أساس أن تكون حربا عادلة ، وأن يسمى كل غزو بعد ذلك بأنه مجرد عملية تهدئة Pacificatoin

وقامت مجادلات أخرى حول طرق التبشير والتعميد . وإذا كانت الوسائل السلمية قد فشلت ، فهل كان من سلطة الإسبانيين إستخدام القوة لتحويلهم الى المسيحة ؟ لقد ردت بلاد محاكم التفتيش بالإيجاب ، وأصبح تحويل الأهالى إلى المسيحية يعتبر جزءا من مهمة الغزاة فى العالم الجديد . وقام الاسبانيون بهدم الأصنام ومنع الأعياد الدينية ، وفرضوا التعميد والزواج على الطريقة الرومانية ، والصلاة فى يوم الأحد . واندهش معظم الهنود ، ولكنهم لم يعارضوا ، وقبلوا أن يجتمعوا مع

شروق الشمس حول الصليب ، ويقوموا بالاشارات التى يعلمها لهم المسيحيون . وكانوا فى بعض الأحيان يخلطون بين العقائد ، ويتصورون مسيحا أسود فى جوانبهالا ، وكان غيرهم كان محافظا على آلهته . وكان بعضهم يتساءل عما إذا كان هناك إسبانيين فى الجنة ، فاذا كان الأمر كذلك ، فهم يفضلون الموت على غير المسيحية ، حتى لا يلتقاون بالإسبانيين فى العالم الآخر . وكان الغزاة لا يفهمون هذه المقاومة ، وفكر بعضهم فى إستخدام القوة لإنهائها ، ولكن لاس كازاس أعلن أن القوة لا تتمشى مع الروح المسيحية ، رغم أن معارضيه أصروا على أن التبشير يحتاج الى جنود ، وعلى أن عملية تحويل الهنود إلى مسيحيين لا يمكنها أن تتم إلا فى ظل طلقات البنادق .

وأخيراً فهناك مشكلة العمل الاجبارى ، أو السخرة ، التى كانت تقسم المعمرين كذلك الى قسمين . وكان الغزاة يرغبون فى تعبئة الأيدى العاملة الهندية ، لإستغلال الأرض التى منها يعيشون ، وما تحت الأرض التى منها يثرون ويغتنون . فكانوا يرون السخرة أمراً طبيعياً ، ولكن الأهالى أجابوا بالفرار الى الأدغال والغابات . فاضطر الاسبانيون الى تقييد نظام العمل الإجبارى . وكانت القرى الموجودة فى كل قطعة أرض أعطيت لأحد الغزاة ، تتجمع تحت رئاسة شيوخها الوطنيين ، وكان الهنود يعملون تحت الرئاسة الوطنية من أجل السيد الإسبانى . وكان هذا النظام لا يختلف كثيراً ، إلا من حيث الشكل، عن نظام العبودية . ثم عمد الإسبانيون بعد ذلك إلى إبدال الرئيس الوطنى ، برئيس إسبانى ، بدعوى العمل على تحسين مصير الهنود ، والسماح بالحصول منهم على انتاج أوفر . وكان الرئيس الاسبانى يكلف باطعام وإلباس وحسن معاملة رجاله من الأهالى ،

وذلك فى نظير الحصول منهم على عمل ، يقى إجباريا . ولكن الهنود لم يفضلوا هذا النظام على النظام السابق ، وكانوا لا يتمتعون بالعبودية ، ويفضلون عدم العمل . وصدرت قوانين إسبانية ، بعد إستشارة لجنة دينية ، وأكدت تطبيق هذا النظام فى سنة ١٥١٢ مع أمرها بهدم أكواخ الأهالى القديمة ، حتى تمنعهم من الرغبة فى العودة اليها ، رغم انها أمرت بمعاملاتهم معاملة إنسانية،ووضعت شروطا للاعتناء بهم ، وحماية نسائهم وأطفالهم . فأصبح على الهنود أن يعملوا من أجل الاسبانيين لمدة تسعة أشهر فى كل سنة ، ويقضوا الثلاثة اشهر الباقية فى خدمة أرضهم . ولكن لاس كازاس وجد أن هذا النظام كان شديدا ، ووصلت صيحاته الى برشلونة وأثرت على شارل الخامس ، الذى أصدر أوامر ثورية فى سنة ١٥٤٢ تنص على عدم استعباد أى هندى ، وعدم استخدام أى هندى ضد رغبته ، ويمنع كل نواب الملك وجميع الضباط من اعطاء أى أوامر لتكوين «جماعات العمل الاجبارية » من الهنود ، وأصدر أوامر بتحرير الاهالى ، ويمنع استخدامهم فى الحمل ، وبتكفل الحكومة بهم فى حالة وفاة سيدهم .

ولكن مطالب الاستغلال وصيحات المستعمرين كانت أقوى من وعظ رجال الكنيسة ، وأقوى من المراسيم الملكية. فانهالت الآراء والتقارير على شارل الخامس بشكل جعله يعيد السماح بتكوين جماعات العمل الاجبارية، ولكن مع المحافظة على النصوص التى تمنع من سوء التنفيذ ، وسوء المعاملة . فهل تغير الوضع ، عمليا ، بالنسبة للهندى ؟

ودافع الملوك الاسبانيون عن الهنود ، وظهرت قوانين جديدة تحدد واجبات الاسبانيين وحقوق الأهالى ، فلا يمكن طرد أحد الهنود من مكان يقيم فيه منذ أكثر من ٤ سنوات ، ولا يجوز فرض أى عمل على النساء

وعلى الاطفال الذين يقل عمرهم عن ١٨ سنة ، ولا يمكن استخدام الشيوخ بعد سن السبعين ، ومن الراجب انهاء العمل اليومى مع غروب الشمس ، وأن يتمتع العامل بساعة للراحة فى وسط النهار ، ومن حقه التمتع بيوم الاحد وبيومين آخرين كل أسبوع للاعتناء بحقله ، وبعشرة أيام أخرى كل سنة. فلم يبق من أيام العمل الفعلية فى العام ، وبعد حساب الاعياد الكثيرة ، إلا ما يتراوح بين ١٣٠ ، ١٤٠ يوما . وكان ذلك كثيرا بالنسبة للهنود ، وقليلا جدا بالنسبة للاسبانيين ، الذين لم يحترموا هذه القوانين الجديدة .

وإنتهى الامر بترك الحرية للهنود فى الاختيار بين العمل فى جماعات العمل الاجبارية ، وحرية الحياة ، أى حرية البؤس فى الجبال ، بعد أن استولى الاسبانيون على أراضيهم . ولقد فضل الهنود حريتهم ، واختاروا البؤس مع الحرية، على الطعام مع العمل فى ظل العبودية . فاضطر الاسبانيون الى تغيير هذه التشريعات ، وأبقوا الهنود فى ظل الاستبعاد الفعلى ، رغم أن قوانينهم كانت تدل على غير ذلك .

ونشأت نفس المشكلات فى البرازيل . وكان للشبونة أيضـــا مجلسا للهند ، وكانت مستعمراتها مقسمة الى قيادات عامة ، ومزودة بالموظفين . ولكن الغزاة البرتغاليين كانوا أكثر تساهلا من الاسبانيين ، وأقل تمسكا منهم فى الاهالى . فكثير من تزوج منهم بنساء من الهنود ، وتمكن رجال التبشير البرتغاليون من التوغل فى الغابات ، ومن هداية بعض الأهالى .

وعلى أى حال ، فرغم توتر العلاقة بين الغزاة والأهالى حول العمل ، فان العالم الجديد كانت تنقصه كثيرا من الايدى العاملة ، وكان إنتاج الهنود منخفضا ، وكثيرا ما كانوا يقومون بعمل ردىء . وكانوا لايصلحون للعمل فى المناجم ، وتزايدت نسبة الوفيات فيما بينهم . فاتجهت الأنظار الى

افريقية لاحضار المدد من الزنوج والعبيد ، ولاستمرار عملية الاستغلال .

(٢) تجارة العبيد والتخليط :ـ

إذا ماعبرنا المحيط الاطلسى لمشاهدة ما كان يحدث فى افريقية فى الوقت الذى كانت فيه اسبانيا تستعمر قارتها الامريكية ، لوجدنا أن السلطان العثمانى قد استولى على مصر وانضم اليه ساحل شمال افريقية . أما فى المغرب الاقصى فان دولة السعديين : التى كانت قد جاءت من وادى درعا ، كانت تقاوم الاسبانيين والبرتغاليين ، الذين قاموا بالهجوم على هذا الاقليم ، واحتلوا مواقع مختلفة من سواحله . وكان البرتغاليين قد ساروا على طريق فاسكوداجاما ، وعلى طول السواحل الافريقية ، وانشأوا عددا من المراكز المحصنة التى كانوا يستخدمونها كمحطات لتزويد سفنهم بما يلزمها ، من الرأس الاخضر الى زنزبار ، فأقاموا فى سان توما ، وفى انجولا فى سان بول دى لواندا ، وفى موزبيق ، ووجدوا معادن النحاس والفضة فى حوض الكنغو ، أما بقية قلب القارة ، من النوبة والسودان حتى رأس الرجاء الصالح ، فكان بعيدا عنهم ، وكانت تسكنه قبائل بدائية يجهلونها ولم تكن هناك علاقات اقتصادية منتظمة فى هذه الفوضى الكبيرة التى ضربت اطنابها فى افريقية . إلا للتجارة فى الملح وفى الرقيق الذى كان يرسل الى العالم الاسلامى ـ الاقاليم العثمانية . ولكن ذلك لم يمنع من وجود امبراطوريات كبيرة فى افريقية عرفها التاريخ ، مثل امبراطورية غانا أو جهلها ، وظل يجهلها حتى الآن . وجاءت امبراطورية سنغاى بعد امبراطورية غانا وإمتدت على مسافة ٥٠٠ كم بين الشرق والغرب وإشتملت على تمبكتو وعلى غيرها من الاقاليم التى كان الاسلام قد دخلها من شمال افريقية مع طرق

القوافل . وكانت تمبكتو مركز إلتقاء القوافل وتجارة العبيد مع فاس والقيروان والقاهرة وحتى مع جنوة والبندقيه . وكانت تنقل الملح والذهب والنحاس والعبيد ، التى كانت امبراطورية جاو تحتكر تجارتهم مع البلاد السودانية . ولقد تفككت هذه الامبراطورية حينما شعر أحمد المنصور الذهبى سلطان المغرب بشدة ضغط الإسبانيين والبرتغاليين والأتراك عليه ، وصمم على الاستيلاء على مناجم الملح والذهب الموجودة فيهما ، وأرسل حملة الى النيجر ، اشتملت على عدد من الأسرى المسيحيين والإسبانيين والأرمن والفرنسيين واليونانيين ، ولكنها كانت منظمة على الطريقة التركية ، وكانت فى خدمة الاسلام . وأخضعت هذه الحملة تمبكتو ، رغم أن نفوذ المغرب الفعلى قد تقلص بعد ذلك من المنطقة .

وكان تجار العبيد يربحون ربحا كبيراً من عملياتهم ، وكثيراً ماكانوا يتفقون عليها مع رؤساء القبائل ، وكانوا يجمعون « العاج الأسود » ويسلمونه للتجار البرتغاليين والإسبانيين والانجليز والفرنسيين . وكان العبيد يركبون السفن ، بعد أن يتجمعوا فى الموانى ، وكانت عملية عبور المحيط فظيعة ، إذ كانت الاجساد ترص الواحد الى جوار الآخر ، ودون أن تتمكن من الحركة . وكانت نسبة الوفيات تصل فى المتوسط الى ٢٠ أو ٢٥ ٪ فى خلال هذه الرحلة .

أما السبب فى انتشار هذه الهجرة الجديدة الاجبارية من افريقية الى العالم الجديد فكان هو المعمرين الاسبانيين ، ورجال الدين المسيحى . ولقد أوصى لاس كازاس ، صديق الهنود الكبير ، باستيراد العمال السود ، دون أن يفكر فى أن يمنحهم فوائد قوانين الحماية ، التى كانت قد صدرت فى صالح الهنود . وعامل الاسبانيون القادمين الجدد على أنهم فى مرتبة الحيوان ، وذكروا أن

أرواحهم كانت سوداء مثل جلودهم . وليس معنى ذلك أنهم كانوا يعذبونهم بعد أن يستخدمونهم فى المناجم أو فى مزارع قصب السكر ، ولكنهم كانوا يحتفظون لهم بوضعية العبيد ، تلك الوضعية التى كانت تجعل منهم مجرد أدوات ومنقولات .

وكان التاج هو الذى يمنح تراخيص استيرادهم ، ويربح من هذه العملية ، نتيجة للضرائب التى يفرضها على النقل . وكان يبيع فى بعض الحالات امتيازات تجارة الرقيق الى شركات خاصة ، أو الى دول أخرى : عدداً معيناً من الرؤوس فى السنة ، نظير مبلغ معين من الدوقات أو القروش . وحصل البرتغاليون والاسبانيون والهولنديون ثم فرنسا وانجلترا على عقود بهذا المعنى . أما تجار العبيد فكانوا يربحون الكثير ، وكانت نفس السفينة التى تنقل البضائع من أوربا الى افريقية، تنقل بعد ذلك العبيد من افريقية الى أمريكا، وتعود بعد ذلك الى أوربا مشحونة بالسكر والروم . وكانت هذه الرحلة المثلثة طبيعية ومنتظمة وتستخدم فيها الحمولة الكاملة للسفينة . وكان أول تصريح بالاستيراد صالح لأربعة آلاف عبد ، ثم جاءت الآلاف بعد الآلاف الاخرى . وإستمرت هذه العملية لمدة ثلاثة قرون ، وقامت بأكبر عملية للتهجير الاجبارى فى العالم ، ونقلت ملايين الرجال من قارة الى قارة ، وجمعت شباب إفريقية ، وعمرت به أمريكا . وبلغ مجموع ما قام تجار العبيد باقتناصه من إفريقية ما يقرب من أثنتى عشر مليوناً ، وقام القناصة بصيدهم من أنجولا وغينيا والسودان والسنغال وجامبيا ، وفى كل مكان يمكنهم أن يعثروا فيه عليهم . ويفسر هذا كيف تحولت مدن مزدهرة مثل جاو وتمبكتو ، والتى بلغ سكانها ٦٠ أو ١٠٠ الف ، الى مجرد قرى صغيرة . ولم تصل من هذه الملايين الاثنا عشر سوى ثمانية أو تسعة فقط الى أمريكا،

وكان يصل منهم ثلاثون ألفا فى السنة يوزعون بين الأنتيل ، وخصوصا هايتى ، وبين الأمريكتين . ولكننا لا نجد فى كل أمريكا ، وبعد ثلاثة قرون من عملية التهجير هذه، إلا أربعة أو خمسة ملايين زنجى . ويرجع ذلك إلى أن القناصة كانوا يفضلون الرجال على النساء فى تجارتهم ، فكانت نسبة الزواج بين الزنوج فى العالم الجديد منخفضة ، وحالات المواليد نادرة . واحتاج الامر الى أجيال عديدة لموازنة أعداد الجنسين،والسماح بقيام عملية توطين طبيعية . وكان الهنود من جانبهم غير مهيئين لقبول الحضارة اللاتينية ، وبلغ عددهم ثلاثين مليونا قبل وصول كولومب ، ثم إنخفض عددهم الى ثلاثة عشر بعد قرن ، ولم يبق منهم إلا عشرة ملايين بعد ثلاثة قرون من الاستعمار ، ومعظم دمائهم أصبحت مخلطة . ونشأ عن هذا التخليط جنس جديد فى أمريكا الاسبانية البرتغالية . وكان الغزاة والمعمرون يحضرون شبانا، غير متزوجين ، ثم يتصلون بالهنديات ، ويدخلون ذلك فى نطاق عملية الغزو . وعلى أى حال ، فان الإسبانيين غير المخلطين يعتبرون قلة . وكان كولومب قد توصل الى تبديل عقوبة الإعدام بالنفى الى المستعمرات ، عملا على تعميرها ، فوصل مجرموا شبه الجزيرة الأيبيرية إلى أمريكا ، وكانوا أول معمريها . وكانت اسبانيا تفضلهم على غيرهم من أبناء الدول الأوربية الأخرى ، وتقفل أبواب أمريكا فى وجه ى شخص لم يكن من رعايا التاج ، فأقفلتها فى وجه اليهود ، ووجه المغاربة والمسلمين والكفرة . ولقد قدر بعض الجغرافيين عدد المهاجرين من شبه الجزيرة الأيبيرية بعشرة آلف شخص فى المتوسط فى السنة ، ووصل من ذلك الى مليونين من المهاجرين فى القرنين الأولين للاستعمار ، ومليونين ونصف الى ثلاثة ملايين ونصف لفترة ثلاثة قرون ، ومنهم مليون من البرتغاليين . ولكن الاهالى غير المخلطين لم يرتفع عددهم

إلا الى ١٥٠ أو ٢٠٠ ألف من الإسبانيين البرتغاليين بعد قرن ، ومليونين بعد ثلاثة قرون . ونلاحظ هنا أن نسبة الوفيات فى الحروب ، والحمى والإرهاق، قد فعلت فعلها ، وأن الخصوبة قد أعطت من المخلطين أكثر مما أعطت من أبناء قشتالة .

وهكذا تغير الوجه الإنسانى لامريكا اللاتينية الحديثة ، وعاش فيها البيض والحمر والسود . ولم يكن فى وسع البيض أن يحافظوا على حكمهم وتحكمهم إلا إذا أعتقدوا فى أنهم سادة، وأنهم متفوقين على غيرهم ، وإلا إذا ما نجحوا فى فرض أنفسهم – بهذه الصفات – على غيرهم.

(٣) استغلال امريكا اللاتينية : –

كان المعمر الإسبانى ، أو الغازى ، يعتقد أن من حقه أن يربح كل شىء ، حتى ولو أدى ذلك الى تحطم الأهالى ، ما دام قد أحضر لهم المسيح ، وهو أكثر من أن يقارن بأى شىء يأخذه منهم . ولذلك فانه كان يستغل ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان . وكان هدف المعمرين الاول هو البحث عن مناجم الذهب والفضة ، ورغم خيبة أملهم فانهم لم يفقدوا الأمل ما دام الأهالى يتزينون بالجواهر ، وما دام حكام الازاتكة ، والانكا قد تمكنوا من جمع كنوز كبيرة . وأخذ الاسبانيون يغسلون رمال الانهار ليحصلوا على التبر ، ويبحثون فى الإرض بعناد حتى يصلوا إلى نتيجة . ووجدوا بعض الذهب وكثيرا من الفضة فى المكسيك اولا ، ثم فى بيرو بعد ذلك . واكتشف أحد الهنود الذى يرعى اللاما مع أحد ضباط بزارو جبلا من الفضة ، على الهضبة : أنها مناجم بوتوسى التى سيزيد إنتاجها بشكل يسمح للأوربيين باستخدام كلمة « بيرو » للدلالة على الثروات الكبيرة.

وأضطر الاسبانيون الى الحفر فى الارض لإستخراج المعـدن النفيس ، ولم يكن هذا المعدن نقيا فى أغلب الاحوال ، بل كانوا يضطرون الى تحطيمه وغسله وتنقيته . وتمكن رجال الكيماء من تحسين طرق فصل الذهب عن الفضة بمعالجتها بالزئبق . ووجد الاسبانيون - لحسن حظهم - مناجم للزئبق فى بيرو نفسها ، فتزايدت كميات الانتاج الامريكية بشكل مذهل . وكانت المناجم ملكا للتاج الذى يمنحها للمستغلين ، والذين يتعهدون بتسليم الملك جزءا من الانتاج ، يصل الى النصف أو الثلث فى أول الامر ، ثم الى الخمس فيما بعد ذلك ... وكان هذا المعدن ينقل بحريا من بيرو الى بنما ، ثم على ظهر البغال لعبور البرزخ ، ولشحنه من جديد على سفن اسبانية متسعة وبطيئة . وحقق الانتاج الامريكى من المعـادن النفيسة آمال اسبانيا والمستعمرة فى وقت بسيط ، وكان يمثل خمسة أو ستة أطنـان من الذهب ، وثلاثمائة طن من الفضة فى كل عام .

ولكن الأنتيل لم تلعب أى دور فى هذه المغامرة للحصول على المعادن . وإتجه المعمرون فيها إلى أستغلال الزراعة ، خاصة وأن أرضهم كانت تنبت الاناناس والموز ، فصمموا على استغلالها فى زراعة قصب السكر ، الذى يعطى السكـر والروم ، والذى قد يصل قيمة انتاجه الى ما يقرب من الذهب ان لم يكن هذا الانتاج يقيم بالذهب . فأصبحوا مزارعين بدلا من اشتغالهم بالمناجم ، وكرروا السكر بدلا من تنقيتهم للمعادن . وزرعوا الذرة وربوا الخنازير . وبدأ المعمرون على القارة نفسها ، وفى المناطق التى لم يعثروا فيها على معادن يفكرون فى مثل الانتيل ، فزرعوا التوت فى المـكسيك ، والكروم والزيتون فى بيرو ، والموالح والحوامض وأشجار التين والخوخ فى كاليفورنيا ، وأصبح الاسبانيون من جديد مستعمرين بكل معنى الكلمة .

وزاد هذا الازدهار الاقتصادى التجـــارة بين اسبانيا ومستعمراتهـا الامريكية . وكانت التجارة بسيطة فى السنوات الأولى قبل العثـــور على مناجم المعادن النفيسة ، ولكن التصدير إزداد مع الزمن فى نفس الوقت الذى ازدادت فيه حاجة المعمرين إلى مواد التموين والملابس والأدوات والخيول والعجـول من أوربا . وكانت اسبانيا تنظر إلى عمليـة التصدير هـذه إلى العالم الجديد على أنها خراب لها . ولكن الميزان إنقلب مع الزمن ، وزادت عملية التصدير من أمريـكا بارسال الفضة والذهب واللآلىء والأحجـــار الكريمة ، والسكر والقطن والكاكاو والطباق ، وكانت كلها ترسل إلى اسبـانيا ، وتقوم اسبانيا وحدها بتموين مستعمراتها ، واحتفظت باحتكار التصدير والاستيراد والنقل مع المستعمرات ، إلا فيما يخص تجارة الرقيق ، وحـــرمت على السفن الأجنبية الرسو فى أمريكا . حتى ولو كان ذلك لإصلاح ما يصيبها من عطب ، وبنفس الطريقة التى منعت بهـــا قرطاجنة سفن الرومانيين من الرسو فى سردينيا أو فى ليبيا . وفتحت اسبانيا عـددا معينا من الموانى للتجارة حتى تمنع التهريب ، وكانت هى أشبيلية ، التى أخذت مكان قادس ، وبعد ذلك قرطاجنة فى داخل البـلاد ، وديوس وبورتوبللو التى كانت تهيمن على التجارة فى الداخل . ونظمت اسبانيا الملاحة فى قوافل كبيرة ، وبطريقة البندقية ، حتى تتخلص من أخطار القراصنة . وكانت السفن تسافر فى شهر ابريل عن طريق جزر كناريا إلى الأنتيل والمكسيك ، وفى شهر أغسطس لبرزخ بنما وأمريكا الجنوبية . أما فى العودة فـكانت القافلتان تجتمعان فى كوبا ، وتمر على جـزر الخـالدات قبل أن تصل إلى اشبيلية فى شهر مارس .

وكانت هيئة التجارة هى التى تشرف على هذه العملية التجـارية ولهـا فى

اشبيلية إختصاصات ادارة الهجرة ، وتشرف على مدرسة بحرية ، وعلى محكمة تجارية وغرفة للقناصل . وكانت هذه الهيئة آلة إدارية ثقيلة ، تخزن البضائع، وتشرف على عمليات الشحن والتفريغ ، وتحصل الخمس الخاص بالتاج . وكانت عبارة عن وزارة لتجارة الهند ، ويشرف رئيسها على أمن القوافل فى المحيط الأطلسى ، وتستلم خزانته الرسوم الجمركية على البضائع ، ويستلم أنصبة أصحاب الشركات وأصحاب السفن الخاصة نظير حمايته لتجارتهم . وكان هناك موظفا عاما يعينه النصر ويشرف على قوافل وأساطيل الهند ، ويرسل إلى الادارات العامة فى العالم الجديد كل ما يلزمها، من الزئبق اللازم لتنقية المعادن ، إلى الأسلحة اللازمة لأبناء الغزاة .

وكانت هيئة التجارة مؤسسة خاضعة للدولة ، وتشرف على العمليات الفردية الخاصة . فكانت تشرف على العملية دون أن تقوم بتنظيمها، بل تترك للموردين والمصدرين فى قادس واشبيلية اتخاذ القرارات اللازمة لهم ، ولكن إشرافها كان عبئا ثقيلا على التجار ، الذين كانوا يحاولون التهرب من دفع الرسوم والضرائب. فلم يقتصروا على خفض قيمة التجارة المفرغة أو المشحونة فى تصريحاتهم الرسمية، بل بدؤا فى عمليات التهريب ووجدوا فى داخل هيئة التجارة نفسها من يشاركهم فى هذه العمليات . وبدأت السفن تفرغ حمولاتها فى البحر قبل دخولها إلى اشبيلية، وتشحن بضائع أخرى بعد خروجها من الميناء . كما اتصلوا بمهربين أجانب ، كانوا يقومون بنشاط عجيب فى خلجان العالم الجديد . وخرج ثلث تجارة العالم الجديد من أيدى هيئة التجارة نتيجة لهذه العمليات .

وادعت اسبانيا كذلك الإشراف على الصناعات الناشئة فى الهند ، دون أن تتمكن من القيام بذلك بطريقة عملية . وكانت المكسيك تنسج الحرير ،

وبيرو تنسج الأصواف ، وكانت هـذه السلع منخفضة السعر ، وهددت بمنافسة الصناعة الاسبانية . فمنعت مدريد هذه الصناعة ، ولكن نواب الملك لم ينفذوا هذه القرارات .

وازدهرت امريكا الاسبانية بطرق مشروعة ، وطرق غير مشروعة ، وظهر ذلك فى نمو مدنها الصغيرة ، التى كانت تبنى على خطوط منتظمة ، حول ميدان مربع ، كما هو الحال فى مدن اسبانيا ، وتشتمل مثلها على كنيسة ومدرسة وأحد الفنادق ، مبنية على الطريقة القشتالية . وكانت الشوارع تتقاطع مع بعضها ، وتشتمل المساكن على حوش داخلى وعلى أعمدة . وبنيت الكنائس والكاندرائيات فى مكسيكو وفى ليما ، وأصبحت كل من هاتين المدينتين مركزاً لرئيس أساقفة ، ولها جامعة ، وفتحت الكليات أبوابها للهنود مع الاسبانيين ، وأصبحت لغة قشتالة هى اللغة الرئيسية ، وخاصة فى المدن . ولم تختلف فيرا كروز ولا كراكاس عن بورجوس أو غيرها من مدن اسبانيا ، وكان فيها نفس التاجر ونفس الموظف ونفس الضابط ، إلا بوجود رجال لوحت وجوههم الشمس ، وبعض الهنود والزنوج ، للدلالة على أنها ليست اسبانيا ، ولكنها مستعمرة اسبانية .

وهكذا أصبح العالم الجديد إنعكاسا للعالم القديم ، بعد أن أخذ منه لغته وأسماءه وديانته ، فى نفس الوقت الذى استخدم فيه الخيل والعجلة وصناعة الحديد . وقبل أن تغير أمريكا أوربا ، قامت أوربا بتشكيل أمريكا .

(٤) اوربا الاسبانية :ـ

كانت اسبانيا هى أهم شىء فى أوربا فى ذلك الوقت ، وكانت قشتالة هى أهم إقليم فى اسبانيا . وقد عملت سلسلة طويلة ، من الميراث والزواج ،

على تجميع الاقاليم والدول على رأس ملوك اسبانيا . ولم يكن ذلك لمجرد الحظ ، إذ أن ملوك اسبانيا قد عرفوا كيف يديرون دفة سياستهم فى هذا العصر ، وساعدتهم امبراطوريتهم الامريكية فى السيطرة على أوربا ، كما ساعدتهم قوتهم فى أوربا ، وسهلت عملهم فى استعمار امريكا .

ويرجع مهمة انشاء اسبانيا على الملوك الكاثوليكيين ، فرديناند وإيزابلا ، وكان زواجهم قد وحد بين قشتالة وأراجونة ، مع ملحقات أراجونة فى صقلية وإيطاليا . ونجحت جيوشهم فى اتمام « إعادة الغزو » والقضاء على الحكم الاسلامى فى الاندلس . وجاء اكتشاف امريكا بعد ٢٨٠ يوما من سقوط غرناطة فى ايديهم . ظهرت اسبانيا فجأة فى شكل دولة كبرى ، وإن كانت ايزابلا قد ماتت قبل أن تعلم بخطورة العالم الجديد الذى وقع فى ايديها ، ولم يعرف فرديناند عن الهند الغربية أكثر من انها تكلفه الاموال والرجال .

وتجمع مجد اتحاد هذه الاقاليم الموروثة والمفتوحة والتى انتخب عليها ، مع شارل الخامس ، حفيد الملوك الكاثوليكيين ، والذى سيطر على اسبانيا ونابلى وصقلية والمستعمرات الواقعة فيما وراء المحيط ، وأضاف اليها بقية ايطاليا والاراضى المنخفضة ، والفلاندر وبعض مقاطعات فرنسا ، والنمسا والامبراطورية المقدسة . لقد اصبح سيدا على عالم لا تغرب عنه الشمس ، ولكنه كان يرى فى امريكا وسيلة أكثر من كونها غاية ، وسيلة للحصول على الذهب ، وبالذهب كان يمكنه أن يسيطر على أوربا ويحكمها .

ووصلت اسبانيا الى اوجها فى عصر ابنه فيليب الثانى . ورغم أن شارل الخامس كان قد حاول ترك الامبراطورية لأخيه ، إلا أن فيليب ضم

البرتغال مع ممتلكاتها الخارجية ، فأصبح ملكا على لشبونة وعلى ميلانو ، وجنوا ، وبروكسل ، وبالرمو ، ومكسيكو . وجعلت مناجم بوتوس منه اغنى ملك فى أوربا ، وشهدت الإسكوريال بعظمته . ورغم انه لم يهمل امريكا ، إلا أنه انشغل بالأعداء القريبين منه فى اوربا ، أو فى اسبانيا نفسها ، بشكل منعه من التفرغ لها . والواقع أن امريكا كانت تحتاج الى اهتمام اكثر من ذلك : فلقد كانت ايزابلا تفضل عليها غزو الاندلس ، وفرديناند يفضل عليها ايطاليا ، وشارل الخامس يفضل عليها الفلاندر ، وفيليب مشغولا عنها بقشتالة . ولقد كانت مكسيكو وليما تهمهم بدرجة أقل من غرناطة ، ونابلى وأنفرس والإسكوريال . والواقع أن مستعمراتهم الحقيقية لم تكن فيما وراء المحيط ، بل كانت تقع على سواحل البحر المتوسط أو سواحل بحر الشمال . فالواقع أنه لم تكن هناك مستعمرات ، أو كانت كل أقاليم أوربا الاسبانية عبارة عن مستعمرات ، بما فى ذلك اقاليم شبه الجزيرة الايبيرية . فاننا نجد نفس النظم ، مع نائب للملك فى سردينيا ، وفى صقلية ، وفى نابلى ، وفى الفلاندر ، وفى أراجونه، وفى بلنسية ، مع حكام محليين ، وموكب بيروقراطى ، لملكية مركزية . وكان الملك هو سيد كل ذلك ، بنفس الطريقة التى يسود بها كبار الملاك اراضيهم ، وبدون أن يفرقوا بين الكروم واراضى الحراثة ، بين الاراضى المزروعة والمراعى. لقد كان الملك يحكم وكان هذا هو كل شيء . وكانت السلطة الملكية تسيطر على كل السلطات الاخرى ، فكان الاقطاعيون خداما للملك، وكون الفرسان حاشيته ، أما المجالس التشريعية « الكورتيز » فكانت تغط فى سبات عميق ، والعامة غرقى فى مشكلاتهم اليومية . وسادت سياسة التحكم الدينى فى جميع انحاء الامبراطورية : إذ أن اسبانيا كانت كاثوليكية ، ولا

تقبل اى مذهب آخر ، فاستندت إلى ذلك العـــامل كأساس من أسس الوحدة ولكى تتخلص من المغاربة واليهود فى الاندلس ، ومن غـــير المسيحيين فى الهند الغربية ، ومن رجال الاصلاح الدينى فى الاراضى المنخفضة. وكانت النيران تحرق الكتب ، ومحاكم التفتيش تأمر باحراق الرجال ، وكل ذلك باسم « النظام الوطنى ».

وتسبب مبدأ الاصلاح الدينى فى اثارة مشكلة «الوحدة » فى الاراضى المنخفضة . ذلك أن الهجنوت ، بعد أن طالبوا بحرية العقيـدة ، طالبـوا بالحرية المدنية ، والتحـرر فى نظم الضـرائب،وبضمانات عسكرية . كانوا يطالبون بمعابد بروتستانتية ،ثم أخذوا يطالبون بقلاع ، ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين النظام الاسبانى ، بما فيه من سيادة ملكية ، واتحـاد امبراطورى،وبين « الفوضى » البروتستانتية ،فكان من الافضل نفض الايدى من المانيا ، على الاحتفاظ فى عالم قشتالة بمركز انفصالى ، وكان من الافضل كبت ثورة الفلاندر أو قطع العلاقة مع الاراضى المنخفضة على الاتفاق مع الهراطقة . ولم تعترف اسبانيا بوجود إله للوثر أو لكلفن فيها أكثر من إعترافها بوجود إله للمسلمين أو لليهود ، أو للهنود الحمر داخل امبراطوريتها .

ورغم ذلك ، فقد كانت الفلاندر أجمل جوهرة فى التاج الامبراطورى، نتيجة لأهميتها الصناعية والتجارية ، ونتيجة لأنها وطن شـــارل الخامس الأصلى ، إذ أنه كان قد ولد فى جاند وأمضى شبابه فى بروكسل . وكان شارل أميراً فلمنكيا يتحدث اللغـة الفلمنكية واللغة الفرنسية ، ولا يعرف الاسبانية ولا الألمانية ، إنه أرشيدوق الفلاندر الذى ورث عرش إسبانيا .

وحينما وصل الى إسبانيا محاطا بالفلمنكيين اعتقد الأهالى أنها كانت عملية غزو . والواقع أن اسبانيا لم تستعمر الفلاندر ، بل كان الفلاندر هو الذى يستعمر اسبانيا ، باعطائه شارل الخامس امبراطورا لها . ولقد منح الامبراطور الألقاب والوظائف للفلمنكيين وللبورجنديين وللفالونيين ، مما أثار اسبانيا . وأضطر شارل إلى اعادة غزو مملكته . ولم تقبله اسبانيا وتعتز به إلا بعد انتخابه امبراطوراً . فوافق بعد ذلك على تعلم الإسبانية ، ولكنه ملأ مجلس الهند باصدقائه الفلمنكيين ، وعين فلمنكيا آخر قاضيا أعظم لقشتالة ، وثالثا حاكما على كوبا . وكان هذا يدل على أن الفلاندر لم تكن مكبوته ، بل كان شارل يجمع مجلس الطبقات ويستشيره ، وإذا كان يحد من حرية البلديات ، فانه كان يحترم حريات الأقاليم ، ومنح الحكم الداخلى للاتحاد الفلمنكى .

ولقد جمع هذا الاتحاد سبعة عشر مقاطعة ، وكان مركزه فى بروكسل ، مركز الحاكم العام ، الذى كان عبارة عن خالة الامبراطور ثم أخته ومركز مجلس الدولة والمجلس المخصوص ومجلس الميزانية ، والذى كان أعضاءهم يعينون مدى الحياة ، وكان أغلبهم من الفلمنكيين . وظلت الإدارة محلية دون أى تدخل من اسبانيا ، إلا فى السياسة العامة ، التى كانت تسير وفقا لسياسة مدريد . ولقد إزدهرت هذه الأقاليم السبعة عشر فى ظل هذا النظام التحررى ، وازدهرت صناعة الصوف والسجاجيد ، كما ازدهرت أنفرس ، وازدهرت أمستردام نتيجة لاشتغالها بصيد الرنجة .

ولقد اختلف الدبكور مع فيلب الثانى ، فبعد أن كان شارل فلمنكيا جاء فيليب أميراً اسبانيا ، ورغب فى صبغ الفلاندر بالصبغة الإسبانيولية ، وذلك للتنفيس عن تطرف القشتاليين من جهة ، وللقضاء على « المرطقة »

التى سادت هذا الاقليم من جهة أخرى . وكانت هذه العملية الاستعمارية أكثر مرارة من العمليات الاستعمارية فى الهند الغربية ، اذ أن الفلمنكيين لم يكونوا فى كسل الهنود الحمر ، كما كانت عواطفهم مشتعلة ، وصمموا على الثورة لإنقاذ حرياتهم الوطنية ، وعقيدتهم الدينية . وحاول فيليب أن يحتفظ بالوحدة السياسية ، ووحدة العقيدة ، فأرسل دوق إلب نائبا للملك من ميلان ، وعلى رأس عشرين الف رجل . وكان صارما ، ونشر الارهاب الإسبانى وأسرف فى إلقاء القبض والقتل ، وفى فرض نفسه ، وعين الاسبانيين فى المجالس الفلمنكية . ولكن المجازر والنهب لم تتمكن من القضاء على المقاومة المحلية . أما أنصار كلفن بعد انتصارهم فانهم لم يكونوا أكثر تسامحا من الكاثوليك ، وتحولت الحرب الاسبانية الى حرب أهلية . وحينما استلم فيرنيز سلطته كحاكم عام ، وكان إيطاليا ، قام بمناورات ، وصل بها الى الفصل بين السبعة أقاليم الشمالية ، التى حصلت على استقلالها لكى تصبح الأراضى المنخفضة الحرة ، والتى ازدهرت بسرعة ، وبين العشرة أقاليم الجنوبية التى حافظت على ولائها لروما ولمدريد ، والتى احتفظت بحكامها العسكريين وبحامياتها الاسبانية ، التى ظلت راسخة تحت الحكم الأجنبى .

أما إيطاليا فانها لم تكن أسعد حظا . حقيقة أن حركة الإصلاح الدينى لم تزعجها ، ولكنها كانت ميدان حرب لطموح كل من الإسبانيين والفرنسيين . وكانت اسبانيا ترغب فى أن تصل أقاليمها فى صقلية ونابلى بالنمسا والفلاندر ، أما فرنسا فكانت تحاول كسر هذه العملية التى تهدد بتطويقها وخنقها . ولقد كسبت مدريد معركة إيطاليا ، وخضعت لها كل شبه الجزيرة ما عدا البندقية ، ووضعت حامياتها فى تسكانيا وسافوا ، كما

خضعت لها جنوه وبارما . واعتمد الحاكم فى ميلانو على إدارة ثابتة وجيش احتلال . أما نائب الملك فى نابلى فكان يعاونه مجلس يتشكل من أحد الأيطاليين وإثنين من الإسبانيين ، وأما الجيش فكان اسبانيا ، خاصة وان الإدارة كانت تجند الإيطاليين للخدمة العسكرية فى مناطق أخرى، وكذلك احتفظت الإدارة بالوظائف الكبيرة للاسبانيين ، فى نفس الوقت التى كانت فيه الضرائب مرتفعة . ولم يستسلم كل الإيطاليين لهذا التحكم ، فتمرد دوق سافوا ، وثارت صقلية أكثر من مرة ، وعارضت أسر نابلى القديمة المحتلين الاسبانيين . ولكن إيطاليين آخرين قبلوا سيادة قشتالة ، وتمكن سادتهم الجدد من إدخالهم فى مجلس الهند ، وعينوا أحد أفراد أسرة فيرنيز ممثلا للملك فى الأراضى المنخفضة . وكان الإيطاليون فى مجموعهم يعزفون عن شئونهم السياسية ، ويتفرغون للفنون والآداب والعلوم ، وتمكنوا من رسم الجوكوندا وبناء كنيسة القديس بطرس فى روما ، كما تمكنوا من إثبات أن الأرض تدور ، واكتشفوا عوالم جديدة للاخرين ، وقبلوا فى نفس الوقت أن يقوم غيرهم باستعمارهم ، كما قبل موطن أغسطس وكريستوف كولومب أن يصبح مجرد أقاليم متفرقة، تخضع لحكم الامبراطورية الاسبانية .

أما عن الحوض الغربى للبحر المتوسط فقد كاد أن يصبح بحيرة اسبانية . ولكن فرنسا اضطرت إلى التحالف مع الأتراك العثمانيين حتى تحطم العملية التى هدفت تطويقها . وقامت اسبانيا ، من ناحيتها ، بارسال حملات إلى مليلة ووهران وبجاية، وطرابلس ، وتونس ، واحتفظت بالمكانين الأولين منهما تحت سيطرتها ، وإذا كانت قد فشلت أمام الجزائر فانها قد تمكنت من هزيمة الأسطول العثمانى فى ليبانتو سنة ١٥٧١ .

وانقسمت القوى بشكل أظهر البحر المتوسط خاضعا لقوتين ومنقسما بينهما : قوة الإمبراطورية العثمانية في الشرق ، وقوة امبراطورية قشتالة فى الغرب .

وكانت البرتغال هى آخر الغزوات فى أوربا ، وانتهت الأسرة الحاكمة فيها دون ترك وريثا مباشرا ، فأفاد فيليب الثانى من هذه الفرصة، واستولى على العرش الخالى ، وكلف دوق الب ، من جديد ، بترويض المعارضين . ووعد فيليب باحترام القوانين البرتغالية ، إلا أن النبلاء اشتكوا من ابعادهم عن الحكم ، كما اشتكى البرجوازيون من شدة وطأة الضرائب . ولم يقبل البرتغاليون المقيمون فيما وراء البحار هذا الإتحادمع اسبانيا بسهولة ، ودافعوا عن حقوقهم حينما وجدوا أن أسبانيا لا يمكنها معاونتهم ، كما حدث فى منطقة الأمازون . وعلى أى حال فان وحدة شبه الجزيرة الأيبيرية قد تمت ، وبقيت لمدة ستين عاما .

فكانت اسبانيا إذا موجودة فى أوربا من لشبونة إلى بروكسل ، وكانت لها أقاليم فى هذه القارة لا تقل أو تزيد ، فى نظام الحكم الإستعمارى ، عن ممتلكاتها الأمريكية ، وكان لها فى كل منها ، كما كان لها فى كل العالم ، ميليشيا كاثوليكية ناشئة . ذلك أن أحد أبناء نافار الذى ولد فى ليولا كان قد ترك الخدمة العسكرية ووهب نفسه لخدمة السيد المسيح ، وأنشأ جماعة اليسوعيين « الجزويت » . وعمل على محاولة تمسيح غير المسيحيين ، والكفاح ضد « الهراطقة » ، أى غير الكاثوليك ، وظلت اسبانيا وأقاليمها الخاضعة تعطى قيادات هذه الجماعة لمدة طويلة ، وانتشرت بعثاتهم فى جميع أنحاء العالم ، وساعدوا على صيغة بالصبغة الاسبانية . وسيصلون ، بعد ذلك مثل جماعة الإخوان الإسبتالية والإخوان

التيوتونيين ، إلى دور المستعمرين ، بعد أن كان هدفهم هو كسب الأهالي للانجيل .

هذه هي الامبراطورية الاسبانية ، ويمكنها أن تظهر كامبراطورية تمت بطريقة غير طبيعية ، ونتيجة لعمليات زواج أولعمليات ملاحة بحرية، ولعب الحظ دورا كبيرا في وصول كولومب إلى الإنتيل ، وفى دخول بورجونيا فى ميراث قشتالة . ورغم ذلك فان هذه العمليات تتكامل . وكانت أراجونة محتاجة لقمح صقلية ، والأندلس محتاجة للسيطرة على وهران لأمنها ، ومدريد محتاجة لفضة بيرو لميزانيتها ، وللجنود المبشرين ، الذين أنشأهم إيجناس دى ليولا ، فى دبلوماسيتها . ولكن « القطع » الأوروبية من هذا البناء الضخم كانت رقيقة،ولا يمكنها أن تقاوم الاطماع الخارجية ، ونمو الحركات القومية ، لفترة طويلة . أما امبراطورية ماوراء البحار ، فانها كانت بعيدة ، وبشكل يحميها ويحافظ عليها ، ولعدة قرون أخرى .

الفصل العاشر

البرتغاليون ومنافسوهم

لم تكن الهند التى وصل اليها الغزاة عبر المحيط الأطلسى صدفة هى بلاد الهند الأصلية ، بل كانت جزر الهند الغربيـة . أما الهنـد التى كانت أوربا تحلم بالوصول اليها فـكانت فى الشرق ، رفى نهـاية الطريق الذى احتفظ به البابا للبرتغاليين ، بعد أن سارت سفنهم فيه . ولكن ، ألا يؤدى إستمرار السفر غربا ، بعد الهند والأمريكتين ، إلى الوصول الى الهنـد الحقيقيه ؟ وهل هناك حدود يمكن للبابا أن أن يضعهـا بين ممتلـكات الاسبانيين والبرتغاليين فى أقصى الشرق الأقصى ؟ أو فى آخر أقصى الغرب ؟ وعلى أى حال فلنتتبع وصول البرتغاليين للهند ، لـكى نصل إلى تطور الأحـداث الاستعمارية فى العالم بعد ذلك .

(١) البرتغاليون فى الهند الشرقية :ـ

كانت الهنـــد تعيش فى ذلك الوقت منقسمـة وكان كل من السلاطين الأتراك والأفغان يتنافسون فيها ، وفى جو من الكسل ، ويحتفظون للهندوس بالوظائف الصغيرة . ولقد تمكن بابر ، الحفيـد الخامس لتيمور لنـك ، والحفيد الرابع عشر لجنكيز خان ، من مد حكمه من سمرقند إلى كابل ، ثم إلى دلهى وأجرا . وانتصرت مدفعيته على أفيـال الإقطاعيين ، وسيطر على شمال الهند ، بعد أن نشر الإرهاب على طريقة أجداده ، وأحرق النساء والأطفال .

ولقد تمكن حفيده أكبر ، الذى عاصر فيليب الثانى ، من إتمام عمل جده ، ومن تجميع كل الهند تحت حكمه ، ما عدا أقصى الجنوب . فأصبح الخان الأعظم ، وتمكن بذلك أحفاد المغول من حكم الهند ، وسمى الغربيون إمبراطوريتهم باسم إمبراطورية المغول الكبيرة . وكانت هذه الإمبراطورية تشتمل على مائة مليون نسمة، وتتسع لمليون ونصف مليون من الكيلومترات المربعة . ولقد أدهشت هذه الإمبراطورية البرتغاليين الذين وصلوا إليها . وكان البرتغاليون يحملون معهم المرسوم البابوى الذى يمنحهم شرق العالم ، وكان برنامجهم يتلخص فى الوصول إلى ثروات الهند ، والمتاجرة على حساب البنادقة والعرب . ولم يكن فى وسع البندقية أن تصل إلى سلع الشرق الاقصى فى ذلك الوقت إلا بعد صعوبات كبيرة ، وعبر العراقيل التى وضعها الأتراك ، وبعد دفع مبالغ طائلة لنقل البضاعة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط . وكان العرب يحتفظون باحتكار التجارة فى المحيط الهندى . ولم يكن هدف البرتغاليين إلا أن يحطموا هذه المنافسة المزدوجة ، ويضمنوا لأنفسهم احتكار تجارة الهند ، وينتهزوا الفرصة لنشر المسيحية هناك .

ولقد رأينا البرتغاليين ينشئون المراكز على سواحل أفريقية وعلى طول الطريق المؤدى إلى التوابل . كما قام دياز بالإلتفاف حول رأس الرجاء الصالح . وجاء بعده فاسكو دا جاما مع أربع سفن خفيفة ، وتعرف على مونو مو تابا ، وجزيرة موزمبيق ثم ممبسة قبل أن يتجه صوب الشرق ، ويصل الى كالكتا ويشم رائحة التوابل . ولكنه عاد فى رحلة ثانية مع احدى وعشرين سفينة حربية مسلحة ، وهاجم المنشآت العربية فى المحيط الهندى ، وأسس مركزا فى كوشين، على ساحل المالابار ، وبدأت بذلك الإمبراطورية البرتغالية فى آسيا .

وواصل كل من ألميدا ، والبوكيرك هذه العملية ، وحاولوا من جهة ،

أن يبعدوا العرب تماما عن تجارة الهند ؛ وأن يصلوا فى نفس الوقت الى التخلص من البنادقة . وقام البرتغاليون بتنفيذ ذلك بحماس ووحشية ، فأخذوا فى إحراق سفن العرب ، وفى هدم المدن والمراكز الإسلامية ، وفى طرد التجار ، وإدعوا أنها كانت حرباً صليبية ضد المسلمين . وتحول المحيط الهندى الى بحر برتغالى ؛ احتفظت لشبونة باحتكار التجارة فيه ، ومنعت كل سفينة من الملاحة فيه ، الا بعد تزويدها بتصريح رسمى من ملك البرتغال ، حتى وإن كانت هذه السفينة تابعة للسلطان أكبر . وعمل البرتغاليون ، من ناحية أخرى على انشاء مراكز لهم على طول الطريق، وفى بلاد التوابل ، واختاروا أحسن المراكز ، على الجزر الصغيرة أو فى الخلجان المحمية ، وفى أحسن المواقع للتجارة وللرسو ، ثم أعدوا فى كل منها مخزنا وقلعة ، وتركوا فيها بعض التجار وبعض العمال وبعض الجنود . وتمكنت الجيوش الاوربية من فرض نفسها على الشرقيين الذين لم يقدروا معنى مجىء البرتغاليين ، واقامتهم فى نقط صغيرة ، ولم يفكروا فى معنى عملياتهم ، وتأثيرها على التجارة العالمية .

وأقام البرتغاليون بهذه الطريقة فى افريقية الشرقية ، فى دالاجوا وفى سوفالا وموزمبيق وفى جنوب مدغشقر ، كما أقاموا فى سوقوطرة عند مدخل البحر الاحمر ، وفى هرمز ، عند مدخل الخليج الفارسى ، وفى مسقط . أما فى الهند ، فان البرتغاليين قد أقاموا فى ديو ، وفى دمان التى تسيطر على تجارة شمال الهند ، وفى جاو التى كانت مركزا لتجارة ساحل المالابار والهند الوسطى ، وفى كانانور وكوشين ، وهما مخارج الهند الجنوبية ، وفى سيلان المواجهة لخليج البنغال .

ولقد وجد البرتغاليون فى الهند كثيرا من التوابل والأنسجة ، ولكن

معظم التوابل كانت تأتى من أبعد من ذلك ، ومن بلاد «وجزر» موجودة قرب الشمس المشرقة . فذهب البرتغاليون للبحث عنها على طـول سواحل سيام ، وعند مصبات الميكنج ، حيث وجدوا الطبيعة تشبه طبيعة مركزهم فى كوشين ، فسموها الكوشين صين ، وهى ما أصبحت الهند الصينية فيما بعد . ووصل البرتغاليون الى سومطرة والى جاوة ، وهم يبحثون عن القرنفـل والمسك . وكانت ملقة هى مفتاح المضايق ، فقاموا باحراقهـا ونهبهـا ، وأنشأوا قاعدة لهم هناك . فأصبحوا يقيمون بين مزارع الفلفل والقرنفل والقرفة .

وكانت الصين تغريهم على المجىء اليهـا ، فوصلوا الى كانتـون ، وتفاوضوا ، ثم طردوا ، ولكنهم عادوا مرات كثيرة ، وانتهوا باقنـاع الصينيين بقبـولهم وبتركهم يقيمون فى شبه جزيرة ماكاو ، عند مصب نهر كانتون ، وعلى أساس دفع ايجار لهذه القاعدة الجديدة التى بقـوا فيهـا لمدة ثلاثة قرون متتالية ، وجعلوها مركزا لتجارتهم مع الصين .

وكانت اليابان تستحق بعد ذلك زيارة خاصة من البرتغاليين ، ووصل اليها ثلاثة منهم فى سنة ١٥٤٢ ، ثم جاء آخرون بعـد ثلاث سنوات وكانوا من التجار وبدأوا فى المفاوضة . ثم جاء أحد أتباع ليولا ، وهو فرانسوا اجزافييه ، الذى أخذ فى الوعظ فى ملقة وفى سيليبيس . واعتقد الاهالى أنه كان مجددا فى الديانة البوذية ، ولكن التجار البرتغاليين انتهزوا نجاح هذا القديس ووضعوا أرجلهم فى هيرادو ثم فى نجازاكى .

وهكذا امتدت منطقة عمليات البرتغاليين على طول ألاف من الـكيلو مترات ، وعلى طول سواحل افريقية ، الى موزمبيق وزنزبار ، ثم على طول

سواحل آسيا ، من بلاد العرب حتى اليابان .

وكانت هناك سياستان متعارضتان فى ذلك الوقت فى البرتغال ، وتردد البرتغاليون بينهما فترة من الزمن: أما الميدا فكان يعتقد فى ضرورة الاحتفاظ بالتفوق البحرى ، وبأسطول قوى دون أن يزيد النفقات بانشاء مراكز احتلال برية ، أما البوكيرك ، الذى انتصر على الميدا ، فكان من أنصار سياسة برية ، ولم يكتف باحتلال مفاتيح خطوط الملاحة البحرية ، مثل هرمز وملقة ، بل زاد من عدد المراكز ، ووسع مناطقها ، وحاول أن يأتى اليها بالمعمرين . وكانت سياسته بسيطة : ففى جاوة مثلا ، لم يكن على البرتغاليين إلا أن يقتلوا الرجال ، ويتزوجوا النساء ويعمدوا الاطفال . فنشأ شعب مخلط ، وكاثوليكى ، وخاضع للبرتغال . وأفادت هذه السياسة من التنافس الموجود بين مسلمى الهند ، أو المغول أو الاتراك أو العرب ، وبين الاهالى . وقام البرتغاليون باحراق المساجد ، وبنقل ما فيها الى الكنائس ، وحولوا جاو الى لشبونة صغيرة ، ووضعوا لها نظما نقلوها عن نظم عاصمة نهر التاج ، بمجلس أعلى ، وأسقفية ودير وحامية وتجار . أما فى غيرها من المراكز التى كان الهندوس يمثلون فيها أغلبية ، فان البرتغاليين قد اكتفوا باخضاع الراجا ، دون أن يمسوا النظم المحلية ، ولكنهم عقدوا فى نفس الوقت اتفاقات تجارية تضمن لهم بيع تجارة البرتغال باسعار محددة ، وتمنع أى منافسة ممكنة ، وخاصة من الاقاليم الاسلامية .

ولكن العجيب هو أن مليونا ونصف مليون من البرتغاليين قد تمكنوا من القيام بكل ذلك . ولكن هذه السياسة كانت تكلفهم الكثير ، وفى كل

ميدان : الأموال الباهظة للاستمرار فى حرب مستمرة ، والكثير ، من الرجال لتوطينهم فى المستعمرات . وكان البرتغاليون يمنعون هجرة النساء ، ولذلك فان البرتغاليين كانوا ينتقلون بمفردهم إلى آسيا ، وينقلون معهم قوانينهم ودياناتهم . وعاشوا فى ماكاو ولم يزد عددهم على الآلف ، وراء ذلك الحائط الذى بنته الصين لتحديد مستعمراتهم ، ولاستلام رسوم الجمارك منهم ، ولكن تحت حكامهم ، وبادارة مجلس شيوخ خاص بهم .

وكانت هناك سبع حكومات تقسم فيما بينها حكم المراكز البرتغالية من رأس الرجاء الصالح الى ما كاو . وكان حاكم جاو يتمتع بلقب نائب الملك ، ويعين لمدة ثلاث سنوات ، على الطريقة الإسبانية . ولكن الإغراء والفساد انتشرا فى الإدارة الاستعمارية ، رغم إرسال المفتشين من لشبونة ، وكان هدف الجميع ، بطبيعة الحال ، هو الإثراء وجمع الثروة بكل طريقة ممكنة .

وكانت هناك حكومة لدول الهند ، وللهيئات المكلفة بالادارة الاقتصادية فى لشبونة وتسمى بيت الدنيا ، وتتحكم فى ذهب غينيا ، مع بيت الهند ، الذى كان يشرف على الأساطيل وعلى المراكز ، ويحدد أسعار السلع المصدرة ، وأسعار التوابل المستوردة . واحتكرت البرتغال العمليات التجارية فى المحيط الهندى ، واحتكرت الدولة البرتغالية تجارة الفلفل ، وأصبح ملك البرتغال هو ملك الفلفل ، وكان يدفع نفقات بلاطه وقصره ، وحتى مهر إبنته دفعه عينا من الفلفل . وكانت كل التوابل الأخرى تستورد الى لشبونة فى صناديق مقفلة ، ويقوم مفتشوا البيت ببيعها بعد أن يحصلوا على نسبة ثلاثين أو ستين فى المائة من أثمانها ضريبة للخزانة وكانت تجارة البرتغاليين

مع الشرق ، مثلها فى ذلك مثل تجارة الإسبانيين مع العالم الجديد ، تخضع للفصول السنوية ، فكانت السفن تقلع من لشبونة فى أوائل الربيع ، وتفيد من الرياح الموسمية الصيفية لكى تصل إلى الهند فى شهر سبتمبر ، ثم تعود فى شهر يناير وتدفعها الرياح الموسمية الشتوية ، لكى تصل إلى لشبونة على مصب التاج فى شهر يونيو أو يوليو ، وبعد رحلة تدوم خمسة عشر شهرا . وكانت هناك أخطار البحر ، وتقلبات السوق ، ولكن إمكانيات الربح كانت تغطى كل ذلك . وحقق البرتغاليون أحلام الغرب القديمة ، وأصبحوا سادة التوابل ، ولم يكن الصليبيون أو أبناء جنوة أو البندقية قد وصلوا من قبل إلى مناطق إنتاجها ، ولم يصلوا إلا إلى رأس القوافل ، أما غزاة لشبونة فقد نجحوا ، لأول مرة فى التاريخ ، فى الوصل بين مزارع القرفة وبين العطارين فى أوربا الغربية .

(٢) حدود الشرق الاقصى مع اقصى الغرب : —

لم يكن البرتغاليون بمفردهم فى هذا الميدان كما يرغبون . وكانوا يحتفظون بحقهم على الشرق ، تجاه الدول الأوروبية الأخرى إستنادا إلى مرسوم البابا اسكندر السادس ، الذى كان قد قسم العالم بنصف دائرة . ولكن أحدا لم يفكر ، مع هذا التقسيم ، فى أن المنافسين يمكنهم أن يصطدموا مع بعضهم من الناحية الأخرى من الأرض ، ودون أن يكون هناك خط حدود بين مناطق نشاطهم .

وكان الإسبانيون غير قنوعين بالعالم الجديد ، الذى لا توجد فيه أى توابل ، وصمموا على الوصول إلى الهند ، بنفس الطرق التى أعطاها البابا لهم ، أى بمواصلة السفر صوب الغرب ، حتى ولو كان ذلك بعد الإلتفاف

حول أمريكا ، ولكن الجو كان غير مساعد من الشمال ، ولكن ماجلان قد نجح ، وبأول محاولة ، فى السفر من الجنوب .

وكان ماجلان برتغاليا ، ولكنه عمل لحساب شارل الخامس . وأقلع بخمس سفن ومائتين وثلاثون رجلا للالتفاف حول العالم . ورسا فى ريو ، ثم هجرته إحدى سفنه ، وفقد سفينة ثانية فى البحر . واستمر مع السفن الثلاث الباقية وعبر المضيق الذى حمل اسمه ، وخرج إلى المحيط الهادى . وسارت السفن لمدة مائة يوم وعشرة . ونزل الإسبانيون على إحدى الجزر التى سموها سان لازار ، والتى أنشأ ماجلان فيها أحد المراكز قبل أن يقتل فى معركة مع الأهالى . واحترقت إحدى سفنه ، وأسر البرتغاليون السفينة الثانية ، ولكن السفينة الثالثة وصلت إلى بورنيو ، ثم سارت وسط الأرخبيل وخرجت إلى المحيط الهندى ، والتفت حول رأس الرجاء الصالح ، ووصلت إلى اسبانيا وعليها ثمانية عشر رجل ، بعد رحلة دامت ثلاث سنوات . ولقد ثبتت هذه المرة أن الأرض كروية تماما ، وتأكد الرجال من ذلك . ولكن التنافس الإسبانى البرتغالى بدأ بعد ذلك ، وفى المنطقة المضادة المحيط الأطلسى على الكرة الأرضية .

ولقد اشتبكت قوات هاتين الدولتين فى ملقة ، كما اشتبكت جنوه مع البندقية فى قبرص وفى بيزنطة من قبل . إنها حروب استعمارية ، وبين المستعمرين . وكان البرتغاليون هم أول من وصل الى هناك ، وكانوا أقوى من الاسبانيين . وكان شارل الخامس فى حاجة الى النقود ، فاضطر الى ترك مطالبه نظير ٣٥٠ ألف دوقى من الذهب ، ولكنه لم يتخلى عن جزر سان لازار ، التى سميت الفيلبين ، نسبة إلى ولى العهد الذى سيصبح فيليب

الثانى فيما بعد . وأقام فيها بعض مئات من الإسبانيين ، ونشأت مانيـــلا العاصمة سنة ١٥٧١ . وتحاشى الاسبانيون إساءة معاملة الأهالى، ولم يدخلوا نظام الرق أو جماعات العمل الاجبارى فى الجزيرة .

واكتشف الاسبانيون جزر هاواى وسالمون عن طريق المحيط الهادى، ووصلت تجارة الفيلبين الى إسبـانيا عن نفس الطــــريق . وقامت السفن الإسبانية برحلات منتظمة بين مانيـلا والموانى الغربية للمكسيك ، ونقلت منتجات الصين ، من الصينى والحرير ، إلى أشبيلية ، عن طريق المحيـــط الأطلسى . وحاول الإسبانيون أن يتاجروا مع الصين نفسها ، ووصـلوا الى كانتون وحاولوا عقـــد معاهدة تجارية ، ولكـن البرتغاليين تدخلوا للاحتفاظ باحتكارهم . فظلت التجارة بين الصين والفيلبين فى أيدى الصينيين أنفسهم ، وهم الذين كانوا قد وصلوا إلى هذه الجزيرة قبـــل الاسبانيين . وحاول الاسبانيون أن يتخلصو منهم ، فقتلوا عشرين ألفا ، ولكنهم عادوا وبأعداد أكبر . ورغم أن الاسبانيين استخدموا نفس الطريقة من جديد ، إلا أنهم فشلوا فى وقف هذه الهجرة ، وفى انتزاع التجارة بين الصين والفيلبين من أيدى الصينيين . وحاول الإسبانيون أن يصلوا إلى اليابان ووصـلت سفنهم الى هيرادو ، ولم يكن فى وسع البرتغاليين أن يمنعـوهم ، ولكـن علاقات الإسبانيين مع اليابان لم تتقدم أكـثر من ذلك .

وظلت لشبونه متفوقة فى هذه المياه وحتى الوقت الذى قامت فيه اسبانيا بضم البرتغال نفسها . وكان على اشبانية أن تنمى حظها فى المحيط الهادى، ولكنها كانت تسيطر على الذهب والفضة الأمريكية . أما لشبونة فكانت تستلم ثروات افريقية وآسيا من تبر الذهب ، والعاج ، وكاكاو غينيا ،

وسكر ماديرا ، وعبيد لواندا ، وقرنفل زنجبار وقهوة موخا ، والصمغ العربي ، والماس ، واللآلىء ، وأحجـــار الهند ، والقطن ، والشاى من سيلان ، وفلفل ملقة والمسك والقرفة والصيني والحرير من الصين ، مع كل الأعشاب والعطارة ومواد الصباغة والعطور والمخدرات التي تنتجهـا جزر التوابل وكانت هذه السلع النفيسة تصل بآلاف الأطنـان ، وتخزن على ارصفة نهر التاج ، وبكميات لم تشهدها البندقية من قبـل . وقامت لشبونة ببناء السفن وصناعة الاسلحة ، وتكرير السكر ، ولـكن دولة البرتغال الصغيرة لم يكن فى وسعها أن تعمـل كل شيء . فلقـــد قام غزاتها بانشاء امبراطورية ، وانتشر بحارتها فى المحيطات ، وجاء تجارها الى لشبونة بثروات قارتين ، ومئات من الجزر . فكانت مضطرة بعد ذلك الى أن تترك لغيرها مهمة توزيع هذه السلع . وقامت انفرس . وهى على بعد خمسة عشر يوما من السفر بحرا من لشبونة ، بهذه العملية .

وكانت انفـرس هى عاصمة رؤوس الأمـــوال ، وأكبر مركز للتجارة الأوربية ، وكانت لها سفنها ورصيدها ، وكان فى وسعهـــا أن تشترى وتنقل وتبيـع لقد كانت لشبونة هى المخـازن ، وكانت انفرس هى السوق . كانت لشبونة تخزن كميات كبيرة ، وتترك لأنفـرس إعادة بيعها بالتجزئة . وقام البحارة الفلمنكيون بشحن التوابل من مصب نهر التاج لكي يوزعونها بعد ذلك على كل موانى الغرب ، وطبقا للعقود التي عقدها رجال المال فى انفرس نفسها . ولكن انفرس كانت مستعمرة اسبانية ، وبذلك تكون اسبانيا هى المنتصرة ، مادامت التوابل تنتهى فى مطافها الى مراكز خاضعة لها ، وبين أيدى رجال هم من رعاياها .

ولقد حاول دوق الب ، نائب الملك فى الاراضى المنخفضة أن يكسب من هذه العملية ، وذلك بفرض ضريبة تبلغ ١٠ ./ على كل عملية تجارية ولصالح الخزانة الإسبانية . ولكنه ساعد بطمعه ، ودون أن يدرى على انتشار مذهب كلفن . وأنتهزت أمستردام ، عاصمة الزنجة ، هذه الفرصة لكى ترث أنفرس . وحينما انفصلت الاراضى المنخفضة الشمالية عن الأراضى المنخفضة الجنوبية سنة ١٥٨٣ ، قضوا على تجارة أنفرس ولكن لشبونة كانت قد أصبحت اسبانية منذ سنة ١٥٨٠ ، ومنع فيليب الثانى دخول تجارة الاراضى المنخفضة الثائرة الى موانيها . فكانت النتيجة هى أن الهولنديين قد صمموا على ترك التعامل مع البرتغاليين ، خاصة وأن مرسوم البابا اسكندر السادس لم يكن ذات قيمة فى نظر الهجنوت ، وقرروا الذهاب بأنفسهم الى بلاد التوابل . وكان البابا قد نسى أن أنصار الإصلاح الدينى لن يعترفوا بتقسيمه العالم ، ولثروات العالم .

(٢) المنافسة الانجليزية :ـ

كانت هناك شعوبا أخرى فى العالم تطالب بنصيبها من هذه الثروات ، ومنهم الانجليز والفرنسيين الذين شعروا بأنهم مظلومين ويتساءلون عن السبب فى إحتكارا الإسبانيين والبرتغاليين لثروات العالم . وأعلن فرنسوا الأول أن الشمس تشرق للجميع وطالب بعرض وصية آدم التى تحرمه من تقسيم العالم . وكانت الطريقة العملية لإعادة التوازن تتلخص فى إنتزاع الثروات إنتزاعا من المستعمرين ومن مستعمراتهم . فهل هذه هى القرصنة ؟ لقد حاول بعض الفقهاء والمشرعين التميز بين القرصنة والقناصة البحرية وذكروا أن القراصنة هم مجرد قطاع للطرق البحرية ، وأما القناصة فنعترف

دولهم رسميا بهم ، وتعطيهم الحق الرسمي : فى وقت الحرب ، لأسر سفن الأمة المعادية ، والإستيلاء عليها .

ولقد قام القناصة البحريون بسفنهم السريعة بعمليات السلب بالقرب من الأنتيل ، وتعاونوا مع المهربين الذين كانوا يحاولون الوصول الى العالم الجديد . وكثيرا ما قاموا بالنزول الى الاماكن والمراكز التى تخزن فيها البضائع وهاجموها ، كما هاجموا ونهبوا السفن الإسبانية التى كانت تخاطر من وقت الى وقت بالسفر بمفردها على المحيط الاطلسي او المحيط الهادي .

ولقد قام القناصة الفرنسيون بمهاجمة مخازن هافانا وحولوا الاماكن القريبة من جزر كناريا والخالدات الى مناطق عمليات وصيد بحرى . وكانت أهم مغامراتهم فى سنة ١٥٢٣ حين تمكنوا من اسر سفينتين من ثلاث سفن اسبانية كانت تحمل الى شارل الخامس ، من كورتيز ، كنوز مونتزوما وعثروا فيها على أوان ذهبية وفضية وأحجار كريمة كبيرة . ظهر قناصة آخرون أمام ديو وهاجموا سومطرة . وكان البرتغاليون يعذبون القراصنة الذين يقعون فى ايديهم حتى يحتفظوا باحتكارهم .

أما الإنجليز فكانوا يراقبون السفن الإسبانية أمام خليج قادس . وقام هوكنز بالاستيلاء على حمولات كاملة من العبيد ، وكان يبيعها بعد ذلك فى امريكا . وقام ابن عمه فرنسيس دريك بالنزول فى أمريكا الوسطى وبمهاجمة قوافل البغال التى تحمل الذهب والفضة من بيرو وأستولى عليها وعاد الى بليموث بالسبائك وشجعت الملكة اليزابيث مشروع السفر حول العالم حتى

تتمكن بتطويق امريكا لإسبانيـــا ، وساهمت فى مشروع الحملة . وقام دريك بعبور مضيق ماجلان ، ودمر منشآت الإسبانيين من شيلى الى كاليفورنيا ، وأستولى على سفينة اسبانية محملة بالذهب وعبر المحيط الهادى وفرض غرامة كبيرة على مانيلا ، وتزود من جاوة ثم عاد الى انجلترا عن طريق رأس الرجاء الصالح يحمل غنـائم كبيرة . ولقـد قام دريك برحلته حول العالم هذه فى وقت السلم . ومـع ثمانين هجمة وغزوة . وإذا كانت اليزابيث قد تبرأت منـه ، الا أنهـا كافأته فى نفس الوقت . وحينما تنشب الحرب يبدأ دريك من جديد فى هايتى وفلوريدا ويهاجم ويغرق مائة سفينة اسبانية فيها ، وقام دريك بدوره فى هزيمة الارمادة أمام بليموث سنة ١٥٨٨ وعرف الانجليز انهم بحارة مهرة .

ولكن القرصنة وأعمال القناصة البحريين ليست من الاستعـمار رغم أن دريك كان قد أستولى على موقع فى شمال كاليفورنيا ووضـــع أحد سلاطين جزر التوابل الثائرين ضد البرتغال تحت حماية الملكة اليزابيث . ولكن فكرة الإستعمار بدأت رويدا رويدا فى النضـــوج فى رأس البريطانيين . وكانت انجلترا تفضل بعض المراكز فى أوربا أو جويانا أو كنا.ـيه على أقاليم استعمارية واسعة فيما وراء البحـــار . وكانت حروبها الطويلة مع فرنسا والخلافات الداخلية قد أبعدتها عن الإستعمار فيما وراء المحيط ، كما كانت فى صعاب جمة مع اقليم ويلز التى حاولت أن تدخل فيه ادارتها ، ومع ايرلندا التى حاولت أن توطن فيها بعض المزارعين الإنجليز.

وعهدت بريطانيا لأولى حمـ لاتها البعيدة الى جان وسباستيان كابوت الإيطاليين الذين ابحرا من بريستول لكى يبحثا عن طريق شمالى يوصل الى

الهند . فوصل الى نيوفوندلاند وعثروا على مناطق غنية بالاسماك ، وإن كانت الاسماك لا يمكنها أن تحل محل الذهب والتوابل . وقام بحارة آخرون مثل فروبشير وجلبيرت ودافيس بمحاولات أخرى واستكشفوا سواحل برادور وجرينلاند واتصلوا بالإسكيمو ، وتعلموا صيد الحوت ، ولكنهم لم يجدوا الطريق المؤدى الى الهند .

وفكر الانجليز فى الألتفاف من الناحية الأخرى صوب الشمال الشرقى للالتفاف حول آسيا بدلا من الالتفاف حول امريكا وقام شانسليور باعداد حملة مولها تجار لندن وسار على طول سواحل لابونيا ، ووصل الى بحر لايرى الليل ، إنه البحر الابيض . ووصل بعد ذلك الى نقطة ستصبح أركانجل وسمع هناك الاهالى يتحدثون عن مدينة كبيرة يمكن الوصول اليها عن طريق الزحافات . فهل هى بكين ؟ انها لم تكن الا موسكو . وتأسست الشركة الموسكوفية فى لندن للتجارة مع روسيا . وكانت هذه الشركة تحلم باستخدام الطريق الجديد عبر روسيا والشرق للوصول الى الهند . وحاول جنكنسون سنة ١٥٦١ أن يسافر عن طريق الفولجا وبحر قزوين حتى فارس . ووصل ثلاث تجار انجليز فى نهاية الرحلة سنة ١٥٨٣ ولكن الاخطار كانت جسيمة والمصاريف باهظة بشكل يجعل العملية غير مربحة .

ولم تكن هذه الحملات ، مهما ساعدت على فتح ميادين تجارية ، تشتمل على انشاء مستعمرات ثابتة . واذا كانت الهند بعيدة عن ايدى الإنجليز ، فلم لا يقوم البريطانيون بالبحث عن الثروة على القارة الامريكية ؟ وكان الانجليز من البروتستانت فلم يهتموا بمرسوم البابا . كما أن الإسبانيون

كانوا قد تركوا السواحل بدون استكشاف وخاوية ، وبخاصة فى الشمال الذى لا يعجبهم مناخه ، والذى يتلاءم مناخه مع الإنجليز فقام جلبيرت بضم مربع يبلغ طول جانبه مائتى ميل فى نيوفوندلاند . وقام أخوه ، السير وولتر رالى ، الذى كان من اصدقاء الزابيث بمحاولة انشاء مستعمرة على السواحل الامريكية تعطيها الملكة اسمها ، وهى مستعمرة فرجينيا . وبعد رحلته ترك مائة من الرجال وبعض النساء على احدى الجزر . ولكنهم اختفوا دون أن يتركوا أى اثر ورائهم . ورغم كل ذلك فان رالى لم يفقد آماله . وشجعت انجلترا على التوسع فى تربيه الاغنام وقامت بتحويل اراضيها الزراعية الى مراعى لتشجيع صناعة الاصواف فيها . وكانت تشتمل على كثير من المزارعين ، الذين لا يملكون ارضا زراعية ، وكان فيها كثيرا من المشردين والفقراء يمكن تهجيرهم الى ما وراء المحيط . وفكر جلبرت فى انشاء مستعمرات للتوطين للتخلص من زيادة السكان فى إبريطانيا حتى وإن كانت هذه المستعمرات لا يوجد فيها الذهب ولا التوابل . أما رالى فانه قد أحضر الطباق من فرجينيا وأخذت عادة تدخين الطباق فى الانتشار وظهر معها ما يمكن لأراضى العالم الجديد أن تنتجه . وكان رالى هو أول من وضع نظرية التسلطية البريطانية المقبلة والتى تتلخص فى فى أن من يتحكم فى البحر يتحكم فى التجارة . وأن من يتحكم فى تجارة العالم يتحكم فى ثروة العالم ، وبالتالى فى العالم نفسه . وبدأ بذلك تاريخ انجلترا الاستعمارى .

٤ ـ المنافسة الفرنسية : ـ

لم يفكر الفرنسيون كثيرا فى البحر نتيجة لإنشغالهم مع إنجلترا ثم مع

اسبانيا والنمسا . وكانت الحروب الدينية قد قسمت فرنسا فى عصر الغزو الإسبانى ، وكان كل من الإسبانيين والبرتغاليين يمكنهم العمل لأنهم كانوا قد قرروا نهائيا أن يكونوا من الكاثوليك . وكذلك كان فى وسع الانجليز أن يعملوا ما داموا قد استقروا فى البروتستانتينية ، أما الفرنسيين فكان عليهم أن ينتظروا قليلا حتى يقرروا إتجاهاتهم فى بلدهم .

وكانت أطماعهم الاستعمارية متجهة صوب إيطاليا وصوب البحر المتوسط الذى أعطاهم نظام الإمتيازات فيه بعض المزايا فى الحوض الشرقى منه . وكان ينقص الفرنسيين بعض الخصال والصفات اللازمة للمستكشفين وللتجار ، فكان تنقصهم تلك العزيمة التى دفعت غزاة إيبريا على طرق التجارة العالمية وكان ينقصهم حب المكاسب الذى كان يحرك الإنجليز. كانوا يفضلون بلادهم على أى بلد آخر ، وإقليمهم على الأقاليم الأخرى ، وقريتهم على القرى المجاورة . وإذا كانت لديهم الأموال فانهم يشترون بها أحد المناصب أو أحد الألقاب الفخرية أو قطعة أرض قريبة من قريتهم. ولكن بعض العناصر المغامرة ظهرت على سواحل نورماندى وبريتانيا ، وبدأت فى الصيد إلى جوار نيوفوندلاند ، وقام جان أنجو باعداد حرب القناصة البحريين ضد البرتغاليين وجعلهم يخسرون ثلثمائة سفينة ، وأرسل الإخوان بارمنتييه الى سومطره وإلى الصين ، وكلف بيير أوبير بانشاء مركز لصيد الاسماك وتجارة الفراء فى نيوفوندلاند ، ونصح فرنسوا الأول بارسال فيرازانو إلى أمريكا وتمويله برؤوس أموال من ليون وفلورنسا .

ولقد أعلن فرانسوا الأول سنة ١٥١٥ بحق رعاياه فى الملاحة على كل البحار المعروفة . وأمر بانشاء ميناء فى الغرب وعلى مصب السين ، يكون

مرسا وموقعا حصينا ، فكان ذلك بداية لنشأة الهافر. وعين فرانسوا الأول فيرازانو فى خدمته ، وقام هذا الأخير بالإستيلاء لفرنسا على نيوفوندلاند ، واكتشف إلى الجنوب منها أرضا سماها أنجوليم ، نسبة لمسقط رأس الملك، وهى التى ستصبح نيويورك فيما بعد .

ولقد منح فرانسوا الأول معونة تبلغ ٦ آلاف جنيه الى أحد المترجمين البرتغاليين من ميناء سان مالو وذلك للقيام بعمليات استكشاف فى الغرب ، وذلك للعثور على بعض الجزر والبلاد التى يقال بأنه يوجد فيها كميات كبيرة من الذهب . وقام جاك كارتييه باعداد سفينتين والإبحار صوب لبرادور ودخل فى مصب أحد الأنهار الكبيرة الذى سماه سان لورا ثم نزل الى الساحل ورفع العلم الأبيض الملكى ونصب صليبا نقش عليه اسم ملك فرنسا . وجاء الأهالى يكررون أمام الفرنسيين كلمة كندا وهم يشيرون الى قرام وأكواخهم ، فأصبحت هذه الكلمة هى اسم الإقليم . ولقد رحب هؤلاء الوطنيون بالفرنسيين وقدموا لهم الأسماك الكبيرة . وعاد كارتييه إلى فرنسا مصطحبا معه بعض الوطنين . فمنحه الملك ثلاث سفن لرحلة ثانية، قام فى خلالها بصعود نهر سان لوران الى مكان معسكر للصيادين وتجار الفراء ، الذى أطلق عليه اسم مونتريال . ولقد أكد الهنود أن نهر سان لوران ينتهى الى بحر كبير ، فهل كان هو بحر الصين ؟ وعلى أى حال فقد كان الشتاء قاسيا ولم يجد الفرنسيون ذهبا فى مستعمرتهم الجديدة . ورفع كارتييه صليبا جديداً فى المكان الذى نشأت كويبك فيما بعد ثم عاد الى سان مالو . أما رحلته الثالثة سنة ١٥٤١ فقد كان يحمل فيها لقب القائد العام وكان مكلفا بمهمة محددة لإنشاء مركز دائم وبمعونة المعمرين ورجال المهن والصناعة . وبدلا من أن يجد الذهب ، وجد النحاس ،ولكن

بكميات كبيرة . وكانت السفن تعود محملة بالصيد وبالفراء . ولكن الجو كان قارس البرودة وخاصة فى الشتاء فأدى ذلك إلى إخلاء المستعمـرة ، وإن كانت فرنسا قد احتفظت بها ، ودون أن تحصل على تصريـح بذلك من روما . وكان فى فرنسا كثير من انصار كلفن الذين حاولوا الهروب من الاضطهاد الدينى والإقامة فى اقاليم جديدة ، وكان بعضهم يذهب من فرنسا للاقامة فى فلوريدا أو فى البرازيل . وقام كولينيه بتشجيع هذه الهجرة وأرسل جان ريبو لاستكشاف سواحل فلوريدا . ولقد انشأ ريبو قلعة على أحدى الجزر عند مصب أحد الانهار الصغيرة وسماها قلعة شارل وترك فيها بعض الرجال كمعمرين ، ثم عاد اليها فى رحلة ثانية مع اربعمائة آخرين واصبح الاقليم يسمى كاليفورنيا . ولكن الاسبانيين حاولوا التخلص من الفرنسيين نظرا لكونهم من الفرنسيين ، ومن الهجنـوت ، ولأنهم لم يحترموا قرارات البابا بتقسيم العالم . فقاموا بقتلهم بما فيهم من نساء ومرضى وسمروا البحارة من أعينهم على ساريات السفن وشنقوا الجنود بعـد أن كتبوا على صدرهم « لا كفرنسيين ، ولكن كهراطقة » . وقاموا بسلخ ريبو حيا ، وأرسلوا لحيته الى إشبيليه . وبعد ثلاث سنوات قام أحد أبناء بوردو باعداد ثلاث سفن سريعة وأقلع من روان ومعه ثمانين بحارا ومائة جندى وأعاد احتلال قلعة شارل التى أصبحت سان ماتينو ، وشنق بدوره كل الاسبانيين الذين وجدهم وكتب على صدورهم : « لا كاسبانيين ولكن كخونة ، وقتلة . » . وكانت عملية الاستعمار تحتــاج لمجهودات متواصلة ، لا لمجرد مجهودات متفرقة ، ولذلك فان كاروليتا لن ترى بعد ذلك الفرنسيين .

ولقد حاول الهجنوت أن يجدوا ملجأ لهم فى البرازيل حسب توجيهات

كولينى ، وقام أحـد البحارة بتوصيل ٦٠٠ فـلاح وعامل الى خليج ريو وأنشأ قلعة كولينى على جزيرة صغيرة ، وهنـرى فيل على الساحل المجاور . ولكن هذه المستعمرة أنتهت بمنازعات دينية رغم الامدادات التى وصلتها من الهافر ، ثم قضى البرتغاليون عليها وذلك سنة ١٥٦٠ بعد أن هاجموا بألفى رجل رغم أن الفرنسيين الذين كـانوا يدافعون عنها لم يزد إعـددهم عن ٧٤ . وتفرق المعمورن ، ويبق من هذه المغـامرة الا اسم جزيرة الفرنسيين الواقعة فى الخليج أمام ريو دى جانيرو .

ولا يمكننا أن نتجاهل الالمان ، خاصة وأن شارل الخامس كـان فى حاجة الى الرأسماليين من بينهم ، فاستثنى الالمان من القـاعدة التى كـانت تحتفظ بتجارة العالم الجديد حكرا على الاسبانيين . فأفاد من ذلك بعض الالمانيين الذين أنشأوا مركزا تجاريا لهم فى هايتى ، وأشتروا أحدى المقاطعـات الى جنوب برزخ بنما ، وحاولوا استعمار فنزويـلا وبدأوا فى غزو منطقة ماركايبو . ولكن الاهالى قاوموهم . ولما كانت العملية بالنسبة الى الالمان هى مجرد عملية مالية ، وأكثر من كونها عملية استعمارية ، فانهم انسحبوا منها نظير دفع الدولة لهم مبلغ ١٠ آلاف بيزيتا ذهبية .

وهكذا فشل الفرنسيون والالمان، اما الانجليز فكانوا قد بدأوا مغامرتهم وكان كل من هؤلاء المنافسون لا يعنى الكـثير أمام العمالقة الاسبانيين والبرتغاليين والذين اصبحوا سادة الهند الغـربية والهنـد الشرقية . وكان خطأهم الاكبر هو قلة رغبتهم فى المغامرة ، ومجيئهم متأخرين . كما انهم لم يجدوا الذهب والتوابل التى كـان الملوك والشعوب فى انتظارها . وان كان الوقت سيعدل فى صالحهم ويسمح لهم بالتفوق .

***

ويتضح مما سبق أن هذا القرن الذى مر منذ أن وضع كريستوف أرجله على جزيرة سان سلفادور ، قد غير تاريخ العالم . ولم يكن الإستعمار قد أحدث مثل هذا التغير من قبل ، والذى عمل بدوره على تغيير كل شىء فى التوازن السياسى ، وفى الظروف الاجتماعية ، وفى التقاليد ، وفى المعتقدات ، ويمكننا أن نقول بدون كبير خطأ أن الغزاة قد أنشأوا عالما جديداً .

ويمكننا أن نتصور بعض الرجال الذين عاشوا فى هذا العصر . فانه قد ولد مع امريكا ولاحظ التغييرات العالمية . فاذا كان من الهنود الحمر ، فانه قد رأى إنهيار الامبراطوريات القديمة ، وانهيار الآلهة القديمة . ورأى حضور الرجال الذين ينهبون وينقلون الكنوز المادية ، ويوردون غيرهم ، ويدخلون على الأرض الأمريكية عاداتهم ولغتهم ، ويوطنوا فيها زنوج افريقيا . ولقد أحضر الغزاة معهم مرض الحصبة ولكنهم كانوا أول من بذر حبوب القمح ، والذى أصبحت أمريكا أكبر منتج له فى العالم فيما بعد ، وقاموا بزرعها أشجار الزيتون والكروم والموالح ، وأدخلوا الخيول ، والخنازير التى زاد سرعة تناسلها بمجرد مجيئها إلى جوها الطبيعى وملأت الجزر والسهول . ولقد قام الرجل الأبيض بادخال الأدوات الحديدية فى تلك القارة التى ستصبح فيما بعد أكبر منتج للحديد فى العالم . وقام البيض باستخدام العجلات بدلا من استخدام الحمل . وإذا كان الأهالى قد اندهشوا لرؤية المسيحيين يأكلون من لحم السيد المسيح فى الكنائس ، فانهم قد تمرنوا بعد ذلك عن أن يكفوا عن أكل لحوم البشر وتقديم

التضحيات البشرية . اما اذا كان من الأوربيين فانه قد شاهد دخول مأكولات وأدوات وأمراض فى منزله ، لم يكن قد تعودها من قبل . فكانت هناك التوابل التى تأتيه عن طريق لشبونة وانفرس وكان هناك الطماطم والأناناس والكاكاو والديكة الرومية ، وحضر بعد ذلك البطاطس والقهوة وسكر القصب ، التى كانت تنتج فى آسيا ، ثم زاد إنتاجها فى أمريكا . وكانت الهند تورد له مواد الصباغة ، أما أمريكا فكانت تورد له الزهور والأخشاب والطباق الذى بدأوا فى استخدامه فى الطب ثم أخذوا فى تدخينه . ولقد أثر ذلك على تاريخ العالم تأثيرا كبيرا ، وأفاد السكر فى التقوية ، كما عمل البطاطس على انقاذ أوروبا من أخطار المجاعات ، وساعدت الضرائب على الطباق على إنهاء مشكلات مالية كثيرة .

وكانت من نتائج اكتشاف امريكا زيادة ورود المعادن النفيسة ، ولم تكن هذه المعادن تلقى فى خزائن ملك اسبانيا بل كانت تنتشر فى كل أوربا فى شكل قطع ذهبية أسبانية أو فلورنسية أو فرنسية أو انجليزية . وساهم القناصة البحريون فى زيادة توزيع ذهبها وفضتها بشرائها المنتجات التى تحتاجها من الخارج ، مادامت بلادها كانت غير قادرة على صنعها ، وبدفع ديونها الى رجال البنوك الفلمنكيين والألمان ، وبدفع رواتب جنودها المرتزقة من السويسريين والبلجيكيين ، وبادخالها الأيدى العاملة الأجنبية وخصوصا الفرنسية ، فى شبه جزيرة ايبريا ، وفى الوقت الذى كانت ترسل فيه الاسبانيين للعمل فى امريكا . وارتفعت الرواتب وزادت القوة الشرائية وزادت وسائل الدفع ، فارتفعت الأسعار ، وبدأت هذه الحركة لارتفاع الأسعار من البرتغال وأسبانيا ثم وصلت الى فرنسا وايطاليا ثم الى

أوربا حتى بولندا والروسيا . وزاد استخدام الفضـــة وانتشرت عادة الاقراض بالفوائد وأخذ رجال الاقتصاد فى ذلك العصـر فى البحث عن سبب غلاء كل شىء فتوصلوا إلى انخفاض سعر العملة ، وحاولوا أن يتغلبوا عليه . ولكن الرجل العادى لم يكن يهتم بالنظريات ، بل يهتم بدورة الأعمال ونمو الرأسمالية . وكان آباؤه وأجداده يعيشون عيشة متواضعة ويلبسون ملابس متواضعة ويأكلون الجذور الدرنية والرنجة . ولكنه أصبـــح الآن يهدم المساكن القديمة ويرتدى ملابس من أنسجة متقنة ، ويعتبر ما كان كماليا بالأمس ضروريا فى يومه . وليس من حقنا بعد أن نسأل إن كان هـــذا الرجل قد أصبح أكثر سعادة من أجداده لقد ارتفعت الأثمان وتضاعفت ثلاث مرات وأربع مرات، ولكن الإيرادات تضاعفت بنفس النسبة أو بنسبة أكبر، وإن كان توزيعها قد اختلف . وكان هناك من كسب من هـذه التغيرات ومن خسر، مثلهم فى ذلك مثل كل فترة تتغير فيها الأسعار . وكسب الفلاح وأصحاب الدخول المتغيرة مثل التجار وأصحاب البنوك ، وخسر أصحاب الدخول المحددة ، ومن أول صغار الموظفين حتى النبـلاء ، وفى إسبـانيا وانجلترا وفرنسا . وتغير السلم الاجتماعى ، وازدادت درجـــة الصراع الطبقى ، وإن كان قد أخذ شكل صراع دينى .

ولقد ساعدت الثروة على تقـدم الطباعة والنشر ، وأخذ الناس يقرءون أكثر من قبل . أما العناصر غير الراضية وكل من خسر من عملية انخفاض قيمة العملة ، فقد أخذوا فى التفكير فى آراء الإصلاح ، أما العناصر الراضية والتى ربحت من العمليات الاستعمارية فقـد أخذت فى الدفاع عن العادات والتقاليد الكاثوليكية الرومانية . وأخذ الملوك يميلون إلى معارضة البابوية ما داموا قد شعروا بانه أبعدهم عن تقسيم الأسلاب، فى تقسيمه للعـالم . وإذا

تركنا الإسبانيين والبرتغاليين جانباً، لرأينا أن الايطاليين يكونون شعباً كاثوليكا تحت السيادة الاسبانية ، أما الانجليز والهولنديون ، فانهم يعلنون الثورة . قد نسى البابا اسكندر السادس حين تقسيمة لممتلكات ما وراء البحار أنه يعمل فى نفس الوقت على تقسيم المذاهب داخل العالم المسيحى نفسه . وأثرت الكشوف الجغرافية على الفنون والاداب ، فظهر أسلوب جديد فى البرتغال إختلطت فيه النباتات البرية والبحرية مع الحيوانات ، كما اختلط فيه الهند مع الكنغو . أما النهضة الاسبانية والإيطالية فقد امتاز أسلوبها بتذهيب السقوف والأدوات الخشبية . وانتشرت عادة القلائد الذهبية ، وجمع ريش الطيور النادرة . وانعكس كل ذلك على الأدب ، زيادة على القصص والروايات التى بدأت فى استخدام أسماء أقاليم ومناطق جديدة من العالم .

أما التغيرات السياسية التى تمت فى هذا القرن فكانت كبيرة وبعيدة المدى . ذلك أن الامبراطورية العثمانية كانت قد تمكنت فى خلاله من توحيد شمال افريقية ، فى الوقت الذى سيطرت فيه أوربا على كل العالم ، والذى تحول فيه مركز الثقل العالمى لأول مرة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى . وكان الجيل السابق قد رأى المسلمين فى غرناطة ، ولكن نفس الجيل رأى قشتالة تخضع جزءا كبيراً من العالم . أما الجيل التالى فقد رأى بداية إنهيار اسبانيا مع تركها لأراضيها كمراع للأغنام ، ومع هجرة فلاحيها وقلة عدد سكانها . وإذا كان الاستعمار قد رفع الأسعار فان هذه العملية كانت تبعد رعاياها ، بشكل يحرم شبه الجزيرة الإيبيرية ، كوطن أم من القوة العاملة فيه .

لقد كانت أوربا كلها وكل الغرب ، آخذة فى الصعود . أما آسيا فكانت لم تستيقظ بعد ، سواء امبراطورية الصين الخاضعة لأسرة المنج ، أو الهند التى

خضعت لبابر وأكبر . أما افريقية فلم يكن هناك من يقيم لها أى وزن ، وكان على أوربا وحدها أن تأخذ القرارات ، بعد أن أخذت الأراضى ، وأصبحت تمتلك أمريكا وتوابل آسيا ، وعبيد افريقية . وكانت أوربا تضع الكل فى مرحلة العبيد ولإرضاء حاجاتها ، سواء أكان ذلك هو ثروات العالم الجديد أو توابل الهند أو عبيد السودان .

وأصبح العالم فى هذا القرن بمفرده تاريخا أكثر مما كان له منذ ٤ آلاف سنة ، ولكن ذلك لا يمكننا من أن نتحدث عن ثورة إستعمارية . فلقد رأينا غزاة من قبل يسمون الاسكندر الأكبر وجنكيز خان ، ولقد كانت فارس امريكة جديدة بالنسبة لأبناء مقدونيا ، وكذلك المشرق بالنسبة للصليبيين . أما عن الذهب فقد كان النتيجة الطبيعية للغزوات ، وكانت قرطاجة قد عرفت طريقه ، وقام تراجان بالاستيلاء عليه ، كما قام كورتيز بالعثور عليه فى المكسيك . ولقد وجد ماركو بولو باكتشافه أوراق العملة فى الصين شيئا جديدا لم يصل اليه الغرب إلا بعد عصر الذهب، ولتسهيل العمليات فيه .

وكان الغزاة هم طلائع حركات استعمارية سيطرت مع الزمن على كل العالم ، ولكنهم كانوا قد نجحوا فى الوقت الذى فشلوا فيه تمام الفشل: لقد اعتقدوا أنهم وصلوا إلى الهند ، رغم أنهم وصلوا إلى أمريكا ، واعتقدوا فى إمكانية الوصول إلى يوحنا الراعى وإلى الخان الأعظم ، وإلى الالدو رادو ، ولكنهم لم يجدوا إلا شعوبا بدائية كان عليهم أن يقوموا بتعليمها. وكانوا يبحثون عن الفلفل والقرنفل فعادوا بالبطاطس والأمراض . واعتقدوا فى عملهم على نشر المذهب الكاثوليكى فاسرعوا بتدعيم حركة الاصلاح الدينى والمذهب البروتستانتى . واعتقدوا أنهم يزيدون ثروة اسبانيا فلم يعملوا

إلا على إفقارها وتدهور أحوالها . واعتقد الرجال أنهم يتحكمــون فى مصير العالم ولكنهم استعمروا دون أن يعرفوا ودون أن يرغبوا فى إتمام عمليتهم بهذا الشكل . والمهم هو أن اوربا كانت تحاول الوصول الى موارد اقتصادية جديدة ، والى السيطرة على التجارة العالميــة ، فتمكنت فى هــذا الميدان من الوصول الى أهدافها ، كما تمكنت بحصولها على المعادن الثمينة فى العالم الجديد ـ وهى أساس كل العمليات التجارية والاقتصادية ـ من السيطرة على إقتصاد العالم .

الباب الرابع

عصر الشركات الاستعمارية



الفصل الحادى عشر

الشركات الهولندية والبريطانية

كان المهد الذى تنشأ فيه الامبراطوريات ، والذى يخرج منه المستعمرون فى أغلب الأحيان ، مجرد إقليم صغير وفقير . فكانت صور بجزائرها الصغيرة ، وقرطاجة فى داخل خليجها ، والبندقية وسط بحيراتها ، مراكزا نجحت فى إنشاء امبراطوريات كبيرة . وكانت مقدونيا هى أساسا لامبراطورية الاسكندر والحجاز مهدا للامبراطورية الاسلامية ، ونجحت قشتالة والبرتغال فى اخضاع العالم وينطبق هذا المثل على هولندا الصغيرة وعلى انجلترا . أما هولندا فانها ما أن نجحت فى التحرر من سيطرة الإسبانيين حتى اعطت للاستعمار شكلا جديدا وبنت امبراطورية هامة .

(١) انتصار الاقاليم المتحدة :-

كانت هولندا هى اغنى الاقاليم السبعة التى اختارت مذهب كلفن وتمكنت من الحصول على استقلالها . وكان مجلس الدول المتحدة يجمع بينها ، وبصفته مجلس دائم ، ويعمل على توزيع التوابل الشرقية . وفى هذا الوقت قامت الاقاليم المتحدة باستضافة اليهود الذين طردوا من البرتغال ، واستضافة اليهود والبروتستانت الذين طردوا من الاقاليم البلجيكية ، والتى كانت قد بقت اسبانية . كما استضافت فيما بعد البروتستنتيين الذين قامت فرنسا بطردهم . وكانوا كلهم من أصحاب رؤوس الاموال ، ويدينون بمبدأ تدعيم الصداقة رغم وجود تنافس بين الدول . والمهم هو انهم جاءوا بأموالهم الى الاراضى المنخفضة بعد تحررها .

وكان الهولنديون بحارة قبل أن يكونوا من أصحاب رؤوس الاموال . وكانت امستردام هى عبارة عن بندقية جديدة ، قبل أن تحولها هجرة اليهود اليها الى ما يشبه القدس الجديدة ، وهو الاسم الذى عرفت به فى بعض فترات التاريخ . وكانت أمستردام مثل البندقية مبنية على الماء، ونشأت مثلها بعد أن كانت قاعدة للصيد، وعاشت مثلها على البحرية ، التى ستستخدمها فى حكم أقاليمها فيما وراء البحار .

وكان أسطول الهولنديين اسطولا كبيرا ورخيصا ويتألف من عشرة آلاف سفينة و١٦٠ الف بحار . وحتى إذا كانت الاقاليم المتحدة تستورد أكثر مما تصدر ، وذلك نظرا لارتفاع مستوى معيشتها وزيادة استهلاكها، فان ميزانها التجارى كان ايجابيا نتيجة لتأجيرها سفنها ، ونتيجة اسيطرتها على عمليات التأمين المربحة ، ولاستغلالها رؤوس أموالها فيما وراء البحار . وكان هذا الوضع يدل على نظام اقتصادى مزدهر مادام النقص فى الميزان التجارى تعوضه الزيادة المالية .

وليس من السهل تجاهل القطاعات الأخرى فى الإقتصاد الهولندى ، خاصة وأن الفلاحين كانوا يعطون مثلا للاستعمار السلمى باستمرارهم فى اقتطاع الاراضى الواطئة من البحر، وحمايتها بانشاء السدود، وبضخ الماء منها بمساعدة طواحين الهواء . أما أبناء الحرف فكانوا ينسجون ويشذبون الماس ويبنون السفن .

وكان الهولنديون قد تعلموا الاستعمار على البحر فى بلادهم، وكانوا لا يخشون مجابهته بعيدا عنها. وحمل البحارة الهولنديين علم الاقاليم المتحدة على جميع المحيطات وذهبوا الى المحيط المتجمد الشمالى باحثين عن زيت كبد

الحوت ، وحاولوا الوصـول الى الصين عن طريق اسيتز برجن ، وو صـل كورنيوس هوتمان الى جاوة عن طريق مدغشقر ١٥٩٥ سنة .

ولقد فكر الهولنديون فى الحصـــول على أكـبر نصيب ممكن من ميراث البرتغاليين الاستعـمارى . فاذا كانت هرمز قـد عادت الى فارس ، والبنغال الى السادة المغولين ، ومسقط الى إمامها العربى ، فان الأراضى المنخفضة قد حاولت الاحتفاظ بأهم أجزاء هذه الامبراطورية مـع مراكز الملابار فى صورات وكوشين وسيلان وملقة وجـزر التـوابل الشهيرة . ووصل الهولنديون أمام مكاو سنة ١٦٢٤ ، ولكنهم فشلوا فى الاقامة فيها ، فعوضوا ذلك باحتلالهم فرموزا ، أهم وكر للقـراصنة فى المحيط الهـادى فى ذلك الوقت . أما فى اليـــابان ، التى كان البرتغاليون قد طردوا منها ، فان الهولنديون قد نجحوا فى الإقامة فى جزيرة دشيما ، أمـام نجازاكى .

وكان استغلال هـذه الامبراطـورية الشرقية يتطلب انشاء محطـات على طول الطريق الى الهند ، محطات بحرية ، ومراكز لانشاء السفن ، ومخازن للتموين . وأقام الهولنديون على جزيرة فى المحيط الهندى ، كـان البرتغاليون قد اكتشفوها وتركوها ، وهى التى أصبحت جزيرة موريس ، نسبة الى ابن أميرهم . كما أنشأوا مركزا أماميا فى احدى الأراضى الجنـوبية التى كان ابيل تسمان قد أكتشفها ، وأصبـح هذا الاقليم يسمى تسمانيا فيما بعد . وكذلك انتزع الهولنديون رأس الرجاء الصـالح من البرتغـاليين وأنشأوا فيها نقطة لتموين سفنهم بالماء .

ولقد فكر الهولنديون كـذلك فى الاتجاه صـــوب الغرب والعمل فى القرصنه ، ثم بدأوا فى احتلال الخلجان أو الجـزر على سواحل امريكا

الجنوبية فى سانتوس وسورينـام وغيرها . أما فى الشمـال الى ذلك ، وفى الخليج الذى كان هدسن قد وجد الاراضى التى سماها الفرنسيون انجوليم من قبل ، فان الهولنديين قد أخـذوا فى الوصـول وأنشأوا قرية صغيرة سموها نيو امستردام ،ونشأت حولها مستعمرة سميت هولندا الجديدة .

ولم يكن هذا النجاح الفائق من عمل الدولة الهولندية ، الذى لم يكن شكلها العام قد تحدد تماما بعد ، ولكنه كان عمل مجموعة خاصة من الرجال تمكنت من الحصول على امتيازات عامة . وبدأ المجهود الجماعى فى الظهـور مع الإستعمار الهولنـدى ، وكـان يشبه فى ذلك بعض الشبه طرق المـدن اليونانية ، وجماعة الإستبالية والجماعة النيوتونية، ولكن بدون الدافع الدينى . وكانت هذه الطريقة تشبه أكثر من ذلك طرق أبناء الجامعة الهنسية ،وابناء جنوة ، وكـانت تختلف تماما عن طرق روما واسبانيا التى استعمرت باسم تسلطية الدوله ، فى وقت اوائل الغزاة .

ولقد كان هذا العصر عصر انتصار الشركات ، التى كانت دوافعـها ووسائلها مالية أكثر منها سياسية . ذلك أن الاقاليم المتحدة كانت ترغب فى المتاجرة وكسب الثروة ، أما وسائلها فكانت رؤوس الاموال والبنوك والشركـات .

ولم تكن رؤوس الاموال تعوز الأراضى المنخفضة ، بل كـانت رؤوس الأموال تصل اليها وتتزايد فيها مادامت هذه الأقاليم تمتاز بامن واضح . وقامت امستردام سنة ١٦٠٩ بانشاء مصرف واحد يحل محل ذلك العدد الكبير من الصيارفة ، وكـان له وحده حق استلام الودائع من السبائك أو من قطع العملة ، والقيام بعمليات التمويل والصرف . وكـان فى وسع بنك امستردام أن يواجه كل عمليات وأوامر الدفع، فأصبح خزانة عامة للتجار الهولنديين ، بل أصبح أكبر مركز للعمليات المالية فى أوربا .

أما النقود المودعة فى خزائن البنك فكانت تستخدم فى إعانة الشركات التى تمول المجهودات الجديدة والتى أصبحت أنصبتها تسمى بعد ذلك أسهم، سواء أكانت تتعلق بمصانع السكر أو بالتأمين البحرى أو ببناء السفن أو بشركات التجارة والاستعمار ، وهى أهمها .

واجتمع تسعة من تجار امستردام سنة ١٥٩٤ وأنشأوا شركة فان فير ، أى الأراضى البعيدة ، وهى الشركة التى أرسلت هوتمان إلى بلاد التوابل . وانتشرت الشركات المشابهة لها فى مدن الأراضى المنخفضة ، ولكن دون أن تتمكن من المعيشة أطول من الرحلة التى كانت تتشكل من اجلها . وكان المشتركون فى هذه الشركات أو الجماعات يضعون مواردهم وإمكانياتهم سويا ، ومن أجل ربح مشترك ، وإلى أن تقسم الأرباح بينهم حسب أنصبتهم. وحاول الهولنديون أن ينشأوا شركات أقوى، وتدخل مجلس الدول المتحدة وقضى على المعارضة المحلية، واندمجت ٦ مشروعات فى مؤسسة واحدة هى شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٢ . ونشأت مؤسسة مماثلة لها قبل مضى عشرين سنة للعالم الأمريكى وسميت شركة الهند الغربية. وأصبح فى وسع الهولنديين، بأساطيلهم ومصرفهم، أن يقوموا بعمليتهم ويضمنوا النجاح .

(٢) الشركات الهولندية للهند الشرقية والهند الغربية : —

لقد كان من تقاليد هذا العصر التى طبقت على معظم الشركات الاستعمارية وفى كل البلاد، هى أن تمنح الدولة لهذه الشركات احتكار التجارة فى منطقة معينة مع معاملة خاصة فى الرسوم الجمركية ، وتعطيها حقوق سيادة على الأقاليم التى تحتلها . وكانت هذه الشركات تحتفظ بجيوش ، وتشرف على العدالة ، وتضرب قطع العملة . ولم يكن هذا التنازل عن السلطة غريبا

فى عصر كانت فيه الجيوش والعدالة والنقود أدوات خاصة ، فى بعض اقاليم من أوربا نفسها . والواقع أن الشركات الاستعمارية صاحبة الإمتياز قد حلت محل سادة الاقطاع ، على أن تطبق نشاطها فيما وراء البحار . وكانت هناك إلتزامات خاصة على هذه الشركات نظير امتيازاتها ، فكان عليها أن تضمن المواصلات مع أقاليمها ، وتقوم باستغلالها ، وبتوطين الأهالى فيها ، وبابعاد الأجانب عنها ، وبادخال المسيحية فيها فى بعض الأحيان . وكان حملة الأسهم يطالبون دائما بزيادة أرباحهم .

وكانت الشركة الهولندية للهند الشرقية بعد نجاحها تعد مثلا لهذه الشركات . فقد كان رأسمالها الأصلى قد جمعته بورجوازية التجار فى الأقاليم المتحدة ، وزاد عن ستة ملايين فلوران . أما ميدان عملها فقد غطى المحيط الهندى والمحيط الهادى من رأس الرجاء الصالح إلى مضيق مجلان . وكانت الشركة تحتكر كل التجارة الهولندية فى كل هذه المنطقة . وتحولت الشركات الستة التى إتحدت مع بعضها لتكوين هذه الشركة إلى غرف تجارية ، وكانت أولاها هى غرفة أمستردام التجارية التى كان لها ما يزيد على نصف رأس المال ، ويجيء بعدها غرفة زيلاند التجارية التى كانت غيورة على حقوقها ، وغرفة الميز ، وغرفة الشمال . وكانت كل منها ، داخل نطاق الشركة ، تجهز السفن ، وتقرر مشترواتها ، وتعين ممثليها ، وتستخدم الجنود المرتزقة ، وتحتفظ بأسرارها .

وكانت وحدة الشركة ترجع إلى إدارتها المشتركة . وكان لها فى أول الأمر مجلسا من ثلاث وسبعين مديرا يعينون مدى الحياة ، ويمثلون الشركات السابقة ، ثم تطور الأمر بعد ذلك ونزل العدد إلى ٦٠ ، عشرين لغرفة

أمستردام التجـــارية ، واثنى عشر لغرفة زيلاند ، وسبعة لكل غرفة من الغرف الأخرى .

أما السلطة التنفيذية، فكانت فى يد مجلس يتكون من سبعة عشر عضواً، ثمانية لامستردام ، وأربعة لزيلاند ، وأربعة لكل من الغرف الأربـــع الصغرى ، أما العضو السابع عشر فكانت تعينه إحدى هذه الغرف الصغـيرة بالتوالى ، حتى تقلل من سيطرة أمستردام على مجلس الإدارة. ولكن غرف الشمال كانت متحالفة مع غرفة أمستردام ، فسمح ذلك لهذه الغرفة الأخيرة بالسيطرة والرئاسة ، وأصبحت القـوة المحركة فى الشركة ، كما كانت هولندا هى القوة المحركة للأقاليم المتحدة .

والواقع أن هؤلاء السادة السبعة عشر كانوا يكـونون ما يشبه ادارة الشركة ، فكانوا يأمرون ببناء السفن ويشرفون على السفريات ، ويقررون أسعار بيع السلع ، ويحددون أنصبة الربح . ونشأ الى جوارهم ، فى لاهاى، عدد كبيرمن الموظفين الذين يعملون فى المكاتبات مع المستعمرات ، ويواجهون الأمور العادية.

أما إدارة حسابات الشركة فكان يلزمها بعض التعديل والإصلاح ، فلم تكن هناك ميزانية ،ولم تكن هناك حسابات للأرباح والخسائر . ولكن الشركة كانت تبيع السكر فى أوربا بخمسة أضعاف ثمن شرائها له ،والفلفل بستة أضعاف،ولذلك فانها لم تكن تخسر. أما الأنصبة فى الأرباح فقدوصلت بعد بضع سنوات الى نسبة تتراوح من ١٢ الى ٧٥ ٪ ، وبمتوسط ٢٠ ٪ ، وكانت تمثل فى مائة وثمانين سنة مضاعفة رأس المال ستة وثلاثين مرة .

وكانت هناك إدارة خاصة لهذه الشركة فى الهند . وبدأ الحاكم العام

اختصاصاته كمدير تجارى . أما مجلس الهند الذى كان يعاونه فكان يشرف على حسن سير الأعمال ، وكان معاونوه يلقبون بالرؤساء التجاريين أو بالتجار ، أو مساعدى التجار أو المحاسبين أو مساعدى الباعة . ولكن عددهم وصل إلى عشرين ألف فى الحكومات التسعة التى كانت تشرف على المراكز التجارية ، وكانت التعليمات تمنعهم من العمل لحسابهم الشخصى ، وكانوا من جهتهم لا يقدمون سلعا تزيد قيمتها على قيمة رواتبهم فى مدة ٤ سنوات. ولكن إذا كان الإشراف غير دقيق والتسامح كبير ، فان عمليات التهريب قد أخذت فى الإنتشار .

وكانت الشركة تشرف على ما يتراوح بين ١٢ ، ٢٠ ألف جندى ، علاوة على ١٥ ألف بحار . وكانت تسيطر على كل المراكز المنتشرة من رأس الرجاء الصالح حتى اليابان ، تلك المراكز التى لم تزد إختصاصاتها عن العمليات التجارية، والتى أخذت لنفسها طابعا عسكريا منذ اللحظة التى تقرر فيها إنشاء الحصون للدفاع عن هذه المراكز، واتخذت طابعا تجاريا زراعيا أحيانا بدأ المعمرون فى فلاحة الأراضى المحيطة بها . فتحول المركز التجارى وأصبح مركزاً للزراعة، وتحولت بهذه الطريقة القاعدة البحرية عند رأس الرجاء الصالح إلى مستعمرة للتوطين . وأقام فيها الفلاحون الهولنديون، وأسمهم البوير، ثم لحقهم فيها الهجنوت الفرنسيون، واستمر كل منهم يعيش معيشة خاصة به، ويزرع الحبوب وأشجار البلوط، ثم أدخلوا الخيول فى المنطقة وأبعدوا عنها عناصر الوطنيين والهوتنتوت بكل قوة .

أما فى جاوة فان الشركة قد فرضت سيادتها على أمراء الجزيرة ، وأنشأت عاصمتها بتافيا على خرائب مدينة جاكارتا الوطنية . وامتد نفوذها من إقليم الى اقليم حتى أصبحت سيدة على كل الجزيرة ، ثم على جزر

التوابل . ولم تكتف الشركة بالشراء والبيع ، بل بدأت فى الزراعة لنفسها ولحسابها . وإذا كان الفلفل سلعة جيدة ، فان أسواق قصب السكر كانت تتسع . فحاولت الشركة أن تحل قصب السكر مكان نبات الفلفل . وقامت كذلك باجبار الأهالى على زراعة ما تحتاج إليه من نباتات مثل القهوة ، فتحول التاجر إلى مشرف على الإنتاج ، واستخدم الجيوش من المرتزقة لتنفيذ مخططاته .

وأشرف الهولنديون فى ملقة على زراعة المسك والقرنفل، وسيطروا فى الهند على إنتاج الفلفل والتوابل ثم القهوة . واستخدموا المهاجرين الصينيين فى زراعة قصب السكر والأرز فى فورموزا .

وأضافت منتجات الأراضى الخاضعة للهولنديين الكثير الى الإنتاج التقليدى للشرق . وقامت الشركة المركزية فى بتافيا بتخزين هذه المنتجات، وبتموين أوربا منها وكانت مخازنها تشتمل على الكافور والورق الواردة من اليابان ، وشاى الصين ، وقرفة سيلان ، وقهوة موخا ، وغيرها الكثير . وقل نصيب التوابل فى هذه الحركة التجارية مع الزمن ، وزاد نصيب السكر والحرير والصينى . وكانت هناك ثلاث قوافل تقلع فى كل سنة فى الربيع وسبتمبر ونهاية ديسمبر من الأراضى المنخفضة ، وتصل إلى الهند بعد ستة أشهر من الملاحة، وتعود فى أكتوبر وديسمبر محمله بمنتجات ما وراء البحار .

وأضافت الشركة الى التبادل التجارى بين أوربا والشرق ، التجارة بين بلاد الشرق وبعضها ، وأفادت من ذلك الكثير . فكانت تبيع توابل جاوة وسومطره إلى الهند، وتشترى بثمنها ذهب وأحجار وحرير وأفيون وأنسجة

الهند . وأصبحت الشركة الهولندية للهند الشرقية بتجارتها وامبراطوريتها قوة يحسب لها كل حساب . وأصبح الحاكم فى بتافيا لا يفترق عن الملك . وأصبح مجلس الولايات المتحدة لا يتدخل فى تعيينه .أما المديرون فقد اعترفوا بحقوقهم ، وأصروا على أن مستعمرات الهند الشرقية لم تكن من إنشاء الدولة ، بل إن التجار هم الذين قاموا بانشائها ، ويمكنهم أن يبيعوها إلى من يرغبون ، حتى الى ملك إسبانيا ، أو إلى عدو آخر من أعداء الأقاليم المتحدة.

أما الأراضى المنخفضة فقد وجدت أن هذا النظام قد بلغ مرحلة من الكمال يسمح لها بتطبيقه على الهند الأخرى التى اكتشفها كولومب والتى كانت لا تزال بعض الأماكن الخاوية موجودة فيها . فتألفت الشركة الهولندية للهند الغربية سنة ١٦٢١ بنفس طريقة أختها الكبرى ، وكانت مقسمة إلى خمس غرف تجارية ، ويديرها سبعة وخمسون مديراً . وبدأت برأس مال أكبر هو سبعة ملايين ونصف مليون فلوران وحصلت على احتكار كل السواحل الأمريكية ،وجزء من المحيط الهادى والسواحل الغربية لإفريقية،والتى كانت تمتلك عليها بعض القلاع المبعثرة حتى رأس الرجاء الصالح .

وبدأت هذه الشركة كمشروع لنهب أمريكا اللاتينية . فقام قناصان بحريان هولنديان بانشاء قاعدة لهما فى سانتوس،ثم قامت الشركة بانشاء مراكز لها فى البرازيل وفى فنزويلا وفكرت فى استغلال قصب السكر الذى كان لا يتطلب أى رى أو أية أسمدة . وقام بعض اليهود البرتغاليين،الذين تحولوا الى هولندا بانشاء مصانع للتكرير . وتحولت هذه الشركه من القرصنة الى

الزراعة. ووصل الهولنديون الى نفس النتائج فى الشمال ، وفى هولنــــدا الجديدة فقد قامت الشركة بشراء جزيرة منهاتن من الهنود الحمر بمبلغ ٦٠ فلوران وبدأت توزيع أراضيها عـلى من يمكنـه إحضـار ٥٠ عامـلا وأنشأت إحدى القلاع بعيدا عنها للمتاجرة فى الفراء مع الهنـود الحمـر . ولـــكن امبراطورية الأراضى المنخفضة فى أمريكا كانت رقيقة . فلقـد قامت ثورة فى البرازيل ، أخذت [illegible] كما قامت بريطانيا بتقديم إنذار للهولنديين واستندت الى أسطول وخمسمائة جندى لطرد الشركة من هولندا الجديدة وخسر أصحاب الأسهم حتى اضطرت الشركة الهولندية للهند الغربية الى أن تعلن حلها وأثبتت هذه العملية أنه يمكن لشركتين متماثلتين ، ولدولة واحدة ، أن يصلا الى نتائج مختلفة كل الأختلاف .

وقد نشأت شركات هولندية أخرى للعمل فى بحار مختلفة ، مثل شركة الشمال التى كانت تعمل فى صيد الحوت على سواحل النرويـج وجرينـلاند وتتاجر مع اركانجل ، وشركة شرق البحر المتوسط التى كانت تتـاجر فى هذا البحر .

ولقد سمحت أساطيل هولندا بوضع هذه البلاد الصغيرة فى اتصـال مع جميـع انحاء العالم . وحصلوا منهـا على افـــكار جديدة ، أخـذوا فى تطبيقها فى بلادهم ، علاوة على المتـاجر والسلع التى كانت تزودهم بهـا . فأعطتهم اليابان الأفكار الـلازمة لفيشانى ديلف ، واعطـاهم الشرق الزنبق لهارلم . وكون الاتجار وأصحاب السفن والعمد والمندوبين التجاريين ونقباء المهن ارستقراطية هامة بنت لها مساكن مزودة بأثاث فاخر ومريح وبأنسجة غالية ، ولوحات هامة . وكانت أوربا كلها تحقـــد على الأراضى الواطئة ازدهارها . واذا لم يكن فى وسع كل الدول أن تقوم بانشاء مصـــارف

تشبه بنك امستردام فانها ستحاول انشاء شركات اخرى للهند . وتناسوا اخطاء هذه الشركات ، والعمليات التى فشلت فيها ، ماداموا يأملون فى الوصول الى نفس النتائج . وكانت انجلترا وفرنسا أول من حاول تقليد هذه الطريقة الهولندية

(٣) الشركة البريطانية للهند :-

علينا أن نشرح ما كان سائدا فى كل من بريطانيا والهند قبل أن نتحدث عن الشركة البريطانية للهند .

كانت بريطانيا قد شعرت بأن مستقبلها سيكون بحريا واستعماريا . ورغم أنها لم تكن تقاسى من زيادة السكان ، فان تسلطيتها كانت قد بدأت فى العمل على حساب جيرانها الاقربين ، ووقع الاسكتلنديين والايرلنديين ضحايا لاولى عمليات الاستعمار البريطانى .

أما اسكتلندا فقد حصلت بريطانيا عليها كهدية حينما أصبح ملكها جاك السادس ، ملكا فى لندن باسم جاك الاول ، ووحد التاجين ، ولكنها احتفظت بوزرائها ، وببرلمانها ، الذى كانت قوانينه تخضع لفيتو مجلس يتكون من أربعة وعشرين لوردا يعينهم الملك . و كانت ترغب فى الاحتفاظ بولائها لاسرة ستيوارت فى الوقت الذى طردتهم منه انجلترا . وقام كرومل بانذار الثوار ، واخضاعهم بالقوة . ونشأ البرلمان الاسكتلندى بعد ذلك وفى داخل نطاق برلمان لندن فى عصر اسرة اورانج ، وأصبحت اسكتلندا وانجلترا وويلز أساسا لتكوين بريطانيا العظمى فى الوقت الذى اختلط فيه صليب سان جورج مع صليب سان أندرو على العلم المشترك . ولقد ثار الاسكتلنديون أكثر من مرة وبشكل هز لندن . وقام الانجليز

بنزع أسلحتهم ، ومنعهم حتى من ارتداء أزيائهم الوطنية . ولكن الاسكتلنديين شعروا فى نهاية الأمر بأنهم يستفيدون من هذا الإتحاد ، إذ أصبح من حقهم ، كبريطانيين ، أن يتاجروا مع المستعمرات ، ويهاجروا اليها ، ويفيدوا من استغلال مناطق الامبراطورية .

ولكن حالة ايرلندا كانت أكثر صعوبة ، ويتلخص تاريخها فى سلسلة طويلة من الثورات وعمليات القمع . وكانت هذه الجزيرة قد حصلت من جاك الثاني ، بعد خضوعها على نوع من الإستقلال المحلى ، وأصبح هناك فى دبلن أحد اللوردات كممثل للملك ، وبرلمان إيرلندى ، من مجلسين ، يصوت على القوانين الذى يقترحها هذا اللورد ، والتى تعرض بعد ذلك على موافقة الملك . ولكن التجار الانجليز عاملوا هذه الجزيرة على أنها مستعمرة لهم ، فمنعوا كل علاقة مباشرة بينها وبين إسبانيا وفرنسا ، الا بعد تصريح بذلك ، وحرموا على الإيرلنديين شراء الاصواف من خارج انجلترا ، وبيع لحومهم وحبوبهم وأصواف اغنامهم الا للانجليز .

وقام كرومويل بأكثر من ذلك ، فقتل بأمره ثلاثين ألف أيرلندى ، وباع الإنجليز سبعة آلاف آخرين كعبيد فى الهند الغربية وأمريكا ، وطردوا أربعين الفا الى القارة ، وحاصروا خمسة وأربعين الفا آخرين فى منطقة مستنقعات كونوت . وإذا بقى الايرلنديون كاثوليك ، فانهم كانوا يبعدون عن الوظائف العامة ، ويحرمون من قسسهم . أما المقاطعات الأخرى فكانت حكرا للمعمرين الإنجليز ، والاسكتلنديين ، أنصار كرومويل والمحاربين القدماء فى جيوشه ، وعلى أساس عدم تحدثهم اللغة الأيرلندية ، وعدم زواجهم بالنساء الإيرلنديات ، وعدم استخدامهم لأى ايرلندى . انها

سياسة تمييز عنصرى تعمل على عزل المهزوم عن المنتصر ، والكاثوليكى عن البروتستانتى ، والإيرلنـدى عن الانجليزى ، والتى تبـذر بذور الحقـد المستمر .

وكانت الأرض فى هذه الجزيرة الخاضعـة محجـوزة فى غالبيتـها لملاك انجليز يعيشون فى انجلترا . أما الايرلنديون فقد أصبحوا يعيشون فى مستوى أقل من مستوى الانجليز ، الذين حرموا عليهم شراء أى فرس يزيد ثمنها عن خمسة جنيهات ، وحرموا على رجال الصناعة أن يكونن لديهم أكثر من صبيين ، فى الوقت الذى فرضوا فيه على التجار الكاثوليك ضرائب لا يدفعها البروتستنتيون ، وكان نظام الضرائب والرسوم الجمركية قد وضـع بشكل يهدف الى تحطيم اقتصاد ايرلندا . ولكـــن ماهى الوسيلة التى يمكن بها للايرلنديين أن يردوا على مثل هذه السياسة ؟ لقد تحـــول بعضهم الى المذهب الانجليكانى ، وهاجر كثير منهم بمجرد أن حصلوا على حق الهجرة ، أما الباقون فكانوا يعلنون الثورة من وقت لآخر .

ولم تكن بريطانيا تشعر بأى أسف أو وخز عندما بدأت فى توسعهـــا وعظمتها . كانت بريطانيا تتمرن على العمليات الاستعمارية فى ايرلنـــدا ، وكانت تحاول منع أى تهديد لأى « خيانة » كاثوليكية ، وتحـــاول الإحتفاظ بوحدتها . وهل كان فى وسع انجلترا أن تقوم ببناء امبراطورية فيما وراء البحار ، وايرلندا المعادية فى مواجهة ليفربول؟ لقد أصبح إخضاع ايرلندا شرطا أساسيا لتمكن بريطانيا من غزو الهند .

وكـانت الهند الحقيقية فى الشرق قد أفلتت مـن الفوضى بحكم الصدفة . وبعد امبراطورية المغول الكبرى فى عصر السلطان أكبر سـادت الحروب

الداخلية معظم مناطقها . واعتمد بعض السلاطين على الأقليـــة الاسلامية للاحتفاظ بالإمبراطورية ، التى اشتهرت فيها دلهى بعظمتها وثروتها . ولكنهم اضطهدوا الهندوس ، وحاربوهم وأقفلوا بعض معابدهم ، كما فعل كرومويل مع ايرلندا . وسادت المؤامرات بين الرؤساء الإقطاعيين وبين الأسر المحلية وأصبح السلطان المغولى ، مع الزمن ، بدون سلطة ، اللهم الا بيع الممالك الى التابعين أو الصحاب ، والذين كانوا يبيعونها بدورهم ، فى شكل مقاطعات إلى النواب ، والذين كانوا يوزعونها بدورهم بعد ذلك على الراجات .

وكان هذا التفكك فى صالح الأوربيين، خاصة وأنهم كانوا قد وصلوا الى الهند وعلموا أنها مليئة بالثروات . وزادت الفرص أمام الانجليز والفرنسيين ، مع هذه الفوضى والمنازعات ، للتدخل والإفادة ، وبشكل جعل الهند تحت رحمتهم .

حقيقة أن البرتغاليين كانوا قد سبقوهم إلى جوا ، وأن الهولنديين كانوا قد حصلوا على مراكز متعددة على ساحل مالابار وفى سيلان وفى البنغال ولكن الهند كانت واسعة ، وكانت أوربا قد حلمت بها لمدة قرون ، وبشكل يساعدها على تحقيق أحلامها ، وخاصة بعد أن تقوت أساطيلها ومدفعيتها . وكان الانجليز يحسدون الهولنديين على الثروات التى كانوا يجمعونها . فاقتفوا آثارهم واتخذوا وسائلهم . وما دام إزدهار هولندا قد نشأ من الشركات الاستعمارية ، فان الإنجليز سينشأون شركات أخرى لحسابهم .

لقد رأينا تجارا مغامرين يعملون من قبل فى المناطق المسكوفية . وقام

جيمس لانكستر ، الذى قاد حملة صوب الهند وسومطرة ، بجلب التـوابل والحرير والأقطان ، رغم الإحتكار الأجنبى ، وأشار بضـــرورة إنشاء شركة الهند الشرقية . ووافقت المالكة اليزابيث على هذه التوصية ، وساعدت الظروف على سرعة إنشاء هذه الشركة ، خاصة وان الهولـنديين ، وكانوا سادة هذه الأسواق ، قد ضاعفوا اثمان الفلفل . فنشأت « شركة تجار لندن المتعاملين مع الهند » فى الايام الاخيرة من القرن السادس عشر ، وهى التى ستصبح فيما بعد شركة الهند الشرقية الشهيرة . ولقد اعطى التاج لهذه الشركة احتكار التجـارة بين انجلترا وكل البـلاد الواقعة الى شرق رأس الرجاء الصالح ، مع سلطات سيادة على المناطق التى تغزوها ، واعفاءات جمركية على سلعها ، والحق فى تصدير ما قيمته ثلاثين الف جنيها سنويا من المعادن النفيسة . وكان رأس مالها ثمانين الف جنيها استرلينيا ولكنه زاد بسرعة الى ٤١٨ الف ، كما زادت امتيازاتها فى سنة ١٦٠٣ واصبـح لها الحق فى الاحتفاظ بحاميات واعلان الحرب وعقد الصلح وتولى السلطة القضائية . واقلع اول اساطيلها أمام موجة من الحماس العام . وذهب جيمس لانكستر الذى قاد هذا الاسطول حتى جزر التوابل ، وتفاوض مع السلاطين المحليين وانشأ مراكز تجارية فى جاوة وسومطرة ، ثم عاد منتصرا واصبحت هذه الشركة منذ ذلك الوقت احدى المنشآت الوطنية .

ولقد حصلت هذه الشركه على امتيازات اخرى فى رحلاتها التاليـة الى ملقة والى سواحل الهند نفسها ووافق عليها السلطان المغولى ، وأصبحت احمد آباد وكمباجا وسورات ثم مازولى باتام ، اوريسا قواعد بريطانية . وانشأت الشركه قلعة سان جـورج قرب مـدراس وحصلت على جزيرة

بمباى سنة ١٨٦٢ . وقد خشى السلاطين المغول هذا النشاط البريطانى بعد ذلك ، وحاولوا محاربتها لمدة ثلاث سنوات انتهت بقبول حل وسط . وأنشأ الانجليز قلعة فورت وبليام عند مصب الكنج قريبا من قرية صغيرة ستنمو فيما بعد وتصبح كلكتا . ووسع الانجليز مناطق عملياتهم وحصلوا على ادارة مناطق على مصب الكنج وفى البنغال . ولقد تدخل بعض مندوبى هذه الشركة فى عملية المنازعات بين الرؤساء الوطنيين ، وحاولوا الدفاع عن بعضهم ، وحصلوا على حقوق جديدة ، وبدأت بذلك الامبراطورية الإنجليزية فى الهند .

واصطدمت شركة الهند فى الأرخبيل بمنافستها الهولندية ، ونشأت عن ذلك معارك حربية ، ولم يتورع هؤلاء التجار عن القتل والهدم واحراق القرى لزيادة مكاسبهم . وإذا كان بعض السلاطين قد طردوا الإنجليز ، فان الإنجليز كانوا يسرعون صوب سلطان آخر ، وبقوا فى تيمور وتيرناد وفى سومطرة .

أما فى الصين فان الإنجليز قد واجهوا كل من الصينيين والبرتغاليين . وقام أحد القواد الإنجليز ، بعد حصوله من حاكم جوا البرتغالى على تصريح بالذهاب الى ماكاو ، بمهاجمة مصب نهر كانتون وضربه بالمدافع . ولكن هذا النجاح لم يعطى نتيجة أبعد من ذلك ، إذ أن الصين أخذت فى الاحتراس من القادمين الجدد .

وعلى العموم فقد حصلت بريطانيا على مراكز ممتازة فى التجارة الشرقية وأصبحت تستورد اللآلىء والألماس والقطن والمنسوجات القطنية من البنغال

والدكن ، كما استوردت التوابل من الأرخبيل . ولقد بقيت شركة الهند الشرقية فترة طويلة أقل إزدهاراً من زميلتها الهولندية رغم انها كانت قد نشأت قبلها بعامين ، وظل الأسطول البريطاني لمدة طويلة لا يقوم بعمل أكثر من اقتفائه آثار الاسطول الهولندى . ولكن هذا الكفاح انتهى بتسوية بين الدولتين الأوربيتين ، وفى صالح انجلترا ، فاذا كانت انجلترا قد ابعدت من مكاسب الهند فانها قد كسبت فى اوربا ، وخاصة بعد أن قامت أسرة اورانج بتوحيد البلدين ، ولم تعد هولندا بعد ذلك أكثر من كونها تابعة للندن ، وفى مواجهة فرنسا واسبانيا . ووافقت الاراضى المنخفضة على الإنهزام فى المجال الإستعمارى حتى تحافظ على كيانها على القارة الأوربية ، وتفوقت شركة الهند الشرقية على الشركة الهولندية ، وأرتفعت أرباحها السنوية الى ١٠٠ ./٠ والى ٢٠٠ ./٠ من رأس مالها .

ولقد أضافت هذه الشركة القوة المالية والسياسية الى القوة التجارية ، وأخذت تقرض حكومة لندن نفسها فى الازمات ، وانتزعت من الامراء المحليين امتيازات جمركية فى الهند ، وكثيرا ما قامت بشراء اراضيهم بأكملها ، وما عليها من رعايا ، نظير دفع معاش سنوى لهم . فأصبحت هذه الشركة مالكة وذات سيادة . وأصبح الحاكم العام المقيم فى كلكتا ، والذى يساعده مجلس أعلى من أربعة أعضاء ، يضع القوانين ويعدلها ، ويعين الاشخاص فى كل الوظائف . وكان هناك حاكمان عامان فى مدراس وبمباى ، ينفذون رغبات كلكتا .

ولقد ترك حملة الاسهم الشركة تقوم بكل شىء ، مادامت أرباحها كانت أكثر مما يتوقعون ، ولم يكن من حق أى منهم أن يشارك فى الجمعية العمومية الا إذا كانت قيمة اسهمه تزيد على الف جنيه . وكانت هذه

الجمعية هى التى تعين مجلس المديرين وتعطيه السلطة التنفيذية ، وتوافق على قرارات الحاكم العام ، بعد إشراف حكومة لندن .

ولقد رضيت إنجلترا بهذا النظام الذى يوحد بين مجهود المواطنين ومجهود الدولة ، وفى إطار مشروع تجارى . وكانت شركة الهند تحقق آمال الانجليز فيها وبشكل سمح لها بأن تعيش لمدة أطول من قرنين ونصف قرن ، وسمح لها بأن توصل إحدى نظم عصر اليزابيث حتى عصر الملكة فيكتوريا .

(٤) انجلترا فى المحيط الاطلسى —

كانت انجلترا قد اتخذت هدفا لها فى الهند الشرقية إبعاد الأقاليم المتحدة عنها وعارضت الشركة الهولندية بشركة انجليزية واحدة . أما فى الهند الغربية فان انجلترا قد وجدت اسبانيا فى طريقها . ولم يكن لاسبانيا شركة استعمارية ، فتركت لندن هذا الميدان مفتوحا للمجهودات الشخصية وبشكل يسمح لأى فرد بالوصول إلى العالم الجديد ، وإنشاء أى عدد ممكن من الشركات .

وكان أول ميدان للعمليات البريطانية فى هذا السبيل هو أفريقية ، خاصة وأن المراكز التى كانت تنشأ على سواحل هذه القارة كانت تورد العبيد الذين يمكن بواسطتهم تحطيم عملية الحصار الإسبانى على أمريكا ، خاصة وأن اسبانيا لم يكن لها الأدوات والسلع التى كانت لازمة لشراء العبيد ، ولم تكن لها السفن اللازمة لنقلهم ، فاضطرت إلى ترك عملية التجارة فى الرقيق إلى الدول الأخرى التى يمكنها أن تقوم بها .

كان من اللازم إذا أن تثبت بريطانيا أقدامها فى أفريقية حتى يمكنها

أن تتدخل فى أمريكا . فأقامت شركة غرب أفريقية للعمل على طول الساحل الغربى لهذه القارة ، وأعطتها جامبيا وسيراليون وساحل الذهب وساحل العبيد نقطا لتجميع وشحن الزنوج . وكثيرا ما قام الانجليز بنقل ما يقرب من خمسة آلاف رجل فى السنة ، وتمكنوا بذلك من السيطرة على نصف هذه التجارة وسبقوا الفرنسيين والبرتغاليين والهولنديين فيها بكثير .

واستولى الإنجليز على سانت هيلين فى وسط المحيط الأطلسى واستخدموها محطة بحرية وأقاموا عليها المستشفيات ومخازن التموين . وحصلوا على طنجة ، عند مدخل البحر المتوسط كبائنة أميرة البرتغال عند زواجها بشارل الثانى ، فحصنوها ، ولكن المغاربة حاولوا إبعادهم عنها واضطروهم إلى إخلائها بعد أن منعوا عنها الماء ، ولكن انجلترا عوضت هذه الخسارة ، وأفادت من صدام مع اسبانيا واستولت على جبل طارق واعتبرته مركزا تجاريا أكثر من كونه موقعا استراتيجيا . وكذلك الحال مع مينورقة التى أخذتها من الاسبانيين والتى احتفظت بها بنفس الطريقة ، وأكثر من كونها قلعة حربية ، فنشأت التسلطية التجارية البريطانية قبل أن تنشأ تسلطيتها الحربية .

ولكن طنجه وجبل طارق ومينورقه لم تكن هى أمريكا ، ولكنها كانت قواعد لحصار اسبانيا . وفى الجانب الآخر من المحيط كان هناك الاسبانيون ، نفس الأعداء فى الأنتيل ، ولم يتردد الانجليز فى العمل على إخراجهم منها . وكانت هذه الجزر جميلة وخضراء ، وإذا كانت لا تورد الذهب فانها كانت غنية بالسكر والطباق والقهوة والنيلة . وكانت المدن الاسبانية

تخزن فيها حمولات كبيرة من سلع مغرية فنشأ قراصنة السواحل وقاموا بنهب نيكاراجوا وهندوراس وبنما وفيراكروز ووقعت مراكز القرصنة الساحلية والمستعمرات فى أيدى الإنجليز . واستولى رالى على ترينداد سنة ١٠٩٥ ، وأفادت السفن الانجليزية من القار الموجود فى بحيرتها . ثم استولى الإنجليز على درباد وعلى جزر برمودة وجزيرة سان كريستوف وجزيرة موسيرات وأنتيجوا وسانتا لوتشيا المتناثرة حول البحر الكاريبى والتى تقرب الممتلكات الانجليزية صوب فلوريدا . وكان الإسبانيون قد زاروا معظم هذه الجزر دون أن يقيموا بها . أو أقاموا فى بعضها بأعداد صغيرة لا يمكنها أن تعارض مجىء الانجليز ، وكان الانجليز أنفسهم فى حالات كثيرة لا يقيمون فى بعض هذه الجزر لمدة طويلة ، كما كانت لندن تجهل كثيرا من هذه العمليات ، خاصة وأنها كانت متروكة للقراصنة ، ولم يكن فى وسع حكومة لندن أن تطلب منهم تقديم كشف حساب عن مغامراتهم الإستعمارية .

ولقد قام بحارة كرومويل بغزو جامايكا فى جنوب كوبا سنة ١٦٥٥ ، وقضوا على الإسبانيين ، بعد أن كان هؤلاء قد قضوا على الوطنيين . وعمر الإنجليز جزيرة جامايكا بالاستكلنديين والايرلنديين والزنوج وجعلوا منها مركزا لتجارة العبيد وللتهريب .

وأصبحت جزر الأنتيل البريطانية إحدى النقط الهامة فى تلك الرحلة المثلثة التى كانت السفن الإنجليزية تترك فيها لندن وبريستول مشحونة بالأنسجة وبالأدوات الحديدية ، وتصل إلى الساحل الإفريقى حيث تبدل سلعها وتعيد شحنها بالعبيد ، ثم تصل إلى إحدى نقط أمريكا وتبيع العبيد وتشترى السكر والروم والطباق ثم القطن فيما بعد . وكانت الأراضى

فى هذه الجزر ملكا لمزارعين يقيم أغلبهم فى انجلترا نفسها،هذا خلاف مراكز القرصنة داخل الخلجان . وكان الحكام يمثلون الملك فى هذه المستعمرات ، ونقلوا إلى هذه المناطق الإستوائية التقاليد البرلمانية وأخـذ المعمرون فى انتخاب مجالسهم التى تشرف على مصروفاتهم .

وكان فى وسع الانجليز أن يتخذوا جامايكا قاعدة للوصول إلى القارة الاميريكية ، وكان الاسبانيون قد سمحوا لهم بقطع الأخشاب فى هندوراس سنة ١٧٤٣ ، كانت فرصة للانجليز استغلوها واستمروا فى البقاء فى هـذا الإقليم بدعوى استمرارهم فى قطع الأشجار : وتحالفوا مـع الهنود الحمر وأعطوهم حمايتهم ، فنشأت مستعمرة هندوراس البريطانية واستعـدت للقيام بدورها كقاعدة لعملية توسع البريطانيين فى نيكاراجوا وجواتيمالا ، ولإعطاء بريطانيا منفذا على المحيط الهادى ، كما كانوا يرغبون .

ونشأت مراكز لمستعمرات انجليزية أخرى على السواحل الأمريكية إلى الشمال من ذلك . فنشأت شركة امتيـاز للعمل فى الأقاليم المحيطة بخليج هدسن وللتجارة فى الفـراء ، كما أن انجلترا حاولت الإفادة من نيوفوندلاند وجعلها مدرسة بحرية تحول الفلاحين الإنجليز إلى بحارة ، كما أن انجلترا لم تخفى أطماعها على سواحل كندا ، وفى هذه المنطقة الأخيرة سيصطدم الإنجليز مع الفرنسيين كما حـدث فى الهنـد نفسها . فنشأت مستعمرات انجليزية حقيقية فى المنطقة الواقعة بين أمريكا الإسبانية وامريكا الفرنسية وكانت أولاها هى مستعمرة فرجينيا التى اكتشفها رالى وأرسلت اليها إحدى شركات تجار لندن ثلاث سفن تحمل ما يقرب مـن المائة من المعمرين فنزلوا اليها وبنوا عليها بعض الاكواخ ، وزرعوا فيها الطباق الذى

جاءوا به من الانتيل ، والذى عمل على ازدهارها . ووصل عدد سكان فرجينيا الى ثمان مائة بعد خمس عشر سنة والى ثمانية آلاف بعد ثلاثين سنة. وكان جون سميث من بين المعمرين فيها . وقام بحملة الى الشمال وعاد بالفراء والاسماك ، وبوصف لأرض جديدة وصل اليها وسماها انجلترا الجديدة .

وبعد رحلة سميث بست سنوات قامت مجموعة صغيرة من المهاجرين بترك بليموث صوب فرجينيا سنة ١٦٢٠ ، هاربين من الإضطهاد الدينى . وكان بعضهم قد حاول من قبل الإلتجاء إلى هولندا ، ولكن فرجينيا كانت ملجأ أحسن بالنسبة اليهم من الأراضى الواطئة . وكانت الرحلة صعبة على ظهر السفينة ماى فلاور الشهيرة ، التى أبعدتها الرياح عن فرجينيا وأوصلتها الى انجلترا الجديدة التى كان جون سميث قد رآها . فاصبح هؤلاء الحجاج سادة لإقليم جديد . ورغم أن الاسقربوط . وبرودة فصل الشتاء قد خفضت عددهم إلى النصف إلا أن من بقى حيا منهم أقتسم الأراضى مع الآخرين وزرع الذرة وأنشأ بليموث صغيرة .

ولقد نشأت مستعمرة ثانية قريبا منها بعد أن ارسلت شركة خليج مساشوست الفاً من البيوريتانيين الذين سينضمون بعد ذلك حول بوسطون إلى عدد من المهاجرين الآخرين الفارين من سياسة آل ستيوارت الكاثوليكية . وهكذا عملت بريطانيا على تصدير « الهراطقة » وعمرت بهم أمريكا ، بنفس الطريقة التى كانت المدن اليونانية تعمر بها قديما مستعمراتها بمن تحكم عليهم بالنفى . وسيطر المعمرين فى مساشوست على معمرى بليموث ، وأخذوا كلهم فى العمل فى الصيد وفى استغلال الغابات ، ودخلوا فى مجادلات دينية فيما بينهم ولقد إزدادت هذه المجادلات وأصبحت مريرة ، حتى

أنهم أخذوا فى اضطهاد بعضهم. وقام أحد المعمرين المطرودين من مساشوست بالإلتجاء إلى جزيرة رودايلند فى سنة ١٦٣٥ ، واشترى الأراضى من الهنود ، وأنشأ مدينة على الخليج المجاور . وجاء لاجئون آخرون فارين من الإضطهاد فى مساشوست وعمروا مستعمرات كنكتيكت ونيوهامشير ، ونشأت أمريكا الإنجليزية بهذه الطريقة نتيجة للتعصب .

وفى الوقت التى كانت فيه مستعمرة مساشوست تتفرق ، تكتلت مستعمرات أخرى حول فرجينيا . وكان الملك شارل الأول قد أعطى ملكية الأراضى الواقعة إلى شمال بوتوماك إلى لورد بلتيمور الكاثوليكى الذى أبعده مذهبه الدينى عن انجلترا سنة ١٦٣٢ . وسمى بلتيمور أراضيه باسم ميرى لاند نسبة إلى الملكة ، ومنح ألف فدان لكل سيد يتمكن من إحضار خمس من المتوطنين .

ولقد منح شارل الثانى أراض مماثلة إلى جنوب فرجينيا للكثير من رعاياه . وهى الأراضى التى سماها الفرنسيون باسم كارولينا نسبة إلى ملكهم شارل التاسع ، والتى احتفظت بهذا الإسم نسبة إلى شارل ملك إنجلترا. وأعطى نفس الملك الى ويليام بن أراض جديدة واسعة فى شمال ميرى لاند سنة ١٦٨١ ، فجعل منها بن ملجأ للكويكرز، هؤلاء البيوريتانيين الذين قام الرجال التقليديين بطردهم . ولقد سميت هذه المنطقة باسم بنسلفانيا ، إذ أن الغابات كانت فيها رائعة الجمال ، وسميت عاصمتها فيلادلفيا ، أملا فى أن يعيش الرجال فيها أخوة . وساعد تسامح بنسلفانيا على إجتذاب أعداد كبيرة من المهاجرين .

وهكذا نشأت مستعمرات انجليزية نتيجة للصدفة أو لإحدى الهبات أو

لعقد إمتياز. وكانت كل من فرجينيا ومساشوست ، وهما أولى المستعمرات، خصبتين ، وأ نشأوا مستعمرات أخرى ، بنفس الطريقـة التى أعطت بها فوسيه مرسيليا ، التى أعطت بها مرسيليا أنتيب ونيس. ولكن المستعمرات هنا فى العالم الجديد كانت تجهل المستعمرة الأم ، ولم تكن هناك علاقات قائمة ثابتة فيما بينها ، كما كـانت المسافات البعيدة تفصل الواحـدة عن الأخرى ، وكان الحماس الدينى يفصل بينهم بعد ذلك .

وكانت لبعض هذه المستعمرات ، ولفترات معينة، علاقات مع الوطن الأم فى انجلترا، حتى جاء كرومويل وأصدر مرسوماً ينص على أن المستعمرات تخضع لإنجلترا . وما دامت سفنهم بهذه الطريقة قد أصبحت انجليزية ، وما دامت هذه المستعمرات قد دخلت فى النطـاق الاقتصـادى لانجلترا فان الإمتيازات قد أصبحت محددة والروابط حقيقية . ولقد حاولت لندن أن تجمع كل هذه المستعمرات فى مستعمرة واحدة ، ولكنها لم تتمكن من ذلك . وكانت هذه المستعمرات تختلف الواحدة عن الأخرى ، كما كانت مقسمة الى مجموعتين تفصل بينها هولندا الجديدة ، والتى كانت ملكا للشركة الهولندية للهند الغربية . ولقد حاول الهـولنديون أن يدافعـوا عن نيو امستردام فأقفلوا نقطة مانهاتن بحائط (وال) الذى سيعطى اسمه فيما بعد الى وال ستريت . ولكن ملك انجلترا طالب بهذه الأراضى وأرسل أسطولا إلى مصب نهر هـدسن . وسلمت هولندا الجديـدة وأصبحت نيو امستردام هى نيويورك نسبة الى أخى الملك . وعمرت الأراضى الواقعة بين الهدسن وديلاوار وأصبحت تحمل اسم نيوجيرسى . وتوحدت بذلك كل الأراضى الانجليزية فى أمريكا .

وكانت جورجيا هي آخر من ولد من هذه المستعمرات سنة ١٧٣٢ ، فى أقصى الجنوب وإلى جوار فلوريدا الاسبانية ، وذلك فى عهد جورج الثانى . وأرسلت اليها لندن كل مساجينها الذين أبدلوا زنزاناتهم بطبيعة جميلة مملوءة بالنخيل وسرعان ماجاءهم مهاجرون جدد وحصلوا على الأراضى وقطعان الماشية.

ويصل بنا عدد المستعمرات الآن إلى اثنتى عشر، إتحدت رغم إنفصالها، فى عملية الكفاح ضد الهنود وضد الأجانب وكان الانجليز لا يعرفون الوطنيين إلا لكى يشتروا منهم الفراء . وكان هدفهم الأساسى هو ابعادهم أو القضاء عليهم ، وعلى عكس سياسة الإسبانيين ، التى كانت قد قبلت التخليط،وحاولت أن تحافظ على الجنس ، كانت السياسة الانجلوسكسونية تقوم على أساس إخلاء أمريكا من سكانها الأصليين .

وكان هناك كثير من المعمرين للعالم الجديد سواء أكان ذلك نتيجة لإرتفاع الأسعار واشتداد البؤس ، أو نتيجة للخصومات الدينية ، وكانوا يعبرون المحيط آملين الوصول الى أرض يعيشون فيها فى سلام . فجاءت أعداد كبيرة من الانجليز والايرلنديين والاسكتلنديين وسكان وادى الراين والفرنسيين ، ومعظمهم من الهجنوت ، وبدأوا فى تفليح الأرض وكانوا لا يحضرون معهم من أوربا سوى سواعدهم وعزيمتهم على العمل ، ولكنهم جاءوا بالكروم وأشجار التوت . ولم يزد عددهم عن أربعين الفا فى منتصف القرن الثامن عشر . وأكمل العبيد الزنوج المستوردون من افريقية الأيدى العاملة اللازمة ، خاصة وأنه لم يكن هناك أحد فى ذلك الوقت ، سواء فى بوسطن أو فى هاياتى ، يفكر فى الإستغناء عن العبيد ، أو فى معاملتهم كرجال أحرار .

أما النظام السياسي للمستعمرات الانجليزية فكان يختلف من مكان إلى آخر ، كما كان أصل الأهالي يختلف من اقليم لاقليم . فكانت بعضها ملكا شبه إقطاعية ، وكانت بعضها ملكا لشركة أو لمجموع أعضاء من المؤسسين، جصلت أو حصلوا على عقد إمتياز . وحتى إذا كان مجلس حملة الأسهم يجتمع فى انجلترا ، فان ذلك لا يمنع المستعمرات من إنشاء مجالسها من المتوطنين فيها . وكان حق الانتخاب يختلف من مستعمرة إلى أخرى، طبقا لارستقراطيتها، فكان هذا الحق محصورا على بعض كبار المزارعين ، أو مفتوحا لكل المعمرين البيض . ولكن النظم حاولت مع الزمن أن تسوى بين كل المعمرين الموجودين ، وأصبح كل إقليم يكون جمهورية صغيرة تحترم ملكية الأرض ، والقوانين الإلهية .

ولقد إنتهى المطاف بمعظم المستعمرات ، بعد إفلاس الشركات التى قامت بانشائها ،أو بعد انتهاء عقد إمتيازهم ،إلى التاج، وأصبحت مستعمرات ملكية . واحتفظت مستعمرتان باستقلالهما الداخلى وهما رودايلاند وكنكتيكات ، وظلت ثلاث مستعمرات ملكية خاصة وهى ميرى لاند وديلاوير وبنسلفانيا . ولكن نظمهم سارت صوب التوحيد ، فقد كان هناك حاكما يمثل الملك أو يمثل الملاك . وأصبح المجلس الذى ينتخبه المعمرون يصوت على القوانين وعلى الميزانية . أما فى لندن فان المجلس الخاص والأميرالية ووزارة التجارة والمزروعات كانت تشرف على أمريكا الانجليزية .

أما وزارة التجارة والمزروعات ، أو المجلس الأعلى للتجارة Board of Trade فهو المؤسسة الجديدة المكلفة بالإشراف على كل الممتلكات الإنجليزية فيما وراء البحار . وكان يجمع هاتين الطريقتين للاستعمار :

الإستعمار التجارى ، والإستعمار الزراعى . واضطر المعمرين الى أن يزرعوا فى أمريكا حتى يتمكنوا من التجارة ، فزرعوا الطباق والأرز والنيلة فى المستعمرات الاستوائية ، والذرة والقمح فى المستعمرات المعتدله . وسواء أكانت الممتلكات كبيرة فى الجنوب ، أو تتكون من مساحات صغيرة فى الشمال فان المعمرين كانوا يعملون ويعيشون معيشة صحية .

وهكذا زادت ثروات بريطانيا من المحيط الهندى ، وبشركة واحدة ، فى الوقت الذى أعطته فيها مشروعاتها المتعددة أراضى جديدة فى أمريكا ، زودتها بمنتجات تختلف عن منتجات الشرق ، وتفتح المجال أمامها للتوسع فى المستقبل .

الفصل الثاني عشر

فرنسا وشركاتها الاستعمارية

كان الفرنسيون يرغبون فى عدم البقاء بعيدا عن هـذا السباق الدولى للاستعمار وكانت فرنسا أكثر بلاد أوربا كثافة فى هذا الوقت ، وكان شعبها أكبر شعب فى أوربا ، فكيف يمكنهم أن يتركوا هذا الميدان خلاءاً لدول أخرى أصغر منهم . وكانت فرنسا تعتبر إسبانيا بلداً فقيرا ، وكل من انجلترا وهولندا بلداً صغيرا ،ولم يدرى الفرنسيون أن الفقـــر وضيق المجال كانا عاملان مهمان لدفع الشعوب للاستعمار . وكان من سوء حظ فرنسا أنها كانت دوله غنية ومتسعة . وكان بعض الفرنسيين ينظـرون الى كندا مثلا على أنها بلد فقير ،وكانوا ينظرون نفس النظرة إلى كل المناطق الواقعة الى شمال خط عرض ٤٠° شمالا . فكانت هذه المناطق بالنسبة اليهم غير صالحـة للحرث ولا للرعى ، ولا تصلح للفرنسيين . ولكن بعض الفرنسيين إمتازوا بالجرأة ونزلوا الى ميدان الاستعمار .

(١) الشركات الفرنسيه :ـ

عمل هنرى الرابع على تشجيع الإستعمـار ، وإذا لم يكن ملكا فلربما أصبح أحد الغزاة المشهورين . ولكنه كان لا يرغب فى ترك الشعب يشك فى إخلاص تحوله إلى الكاثوليكية إذا ما عارض فى المرسوم البابوى الخاص بتقسيم العالم . ولذلك فانه وضع فى معاهدة فرنان سنة ١٥٩٨ مادة سـرية إعترفت فيها فرنسا بترك امتيازاتها التى حصلت عليها من البابا لفرنسا وذلك

فى المناطق والأراضى التى يمكن أن تكتشف الى غرب جزائر كناريا .
وكان هذا تصريحا واضحا للفرنسيين بالبدء فى عملية الاستعمار .

وأحاط كثير من المستشارين بهنرى الرابع وأشاروا عليه بضرورة إنشاء المزارع وإنشاء أقاليم فرنسية جديدة فيما وراء البحار . وكان المهم هو عدم الإختصار على اكتشاف أراضي جديدة ، بل استثمارها واستغلالها ، وذلك بارسال معمرين فرنسيين إليها . وأصر غيرهم على ضرورة إدخال المدنية والحضارة بين الشعوب الواقعة فيما وراء البحار وتحويلهم الى المسيحية . وقام بعض الدعاة بتوجيه أنظار الفرنسيين ، بالعمل على خدمة الرب وخدمة الملك ، وذلك بزيادة أراض جديدة تضم لفرنسا ، والعثور على أشياء جديدة ، سواء أكانت من الأحجار الكريمة أو غيرها . كما قام ريشيليو بتفتيح أذهان الفرنسيين الى المشروعات على أنها مشروعات صليبية ، وأعاد بذلك الى الأذهان ذكرى سان لوى . وجعل لوى الثالث عشر يوقع على وثيقة تتحدث عن مجد الله وعن رفاهية الدولة الفرنسية كأسباب لإقتفاء آثار القديسين الأوائل ، وذلك لنشر عظمة الفرنسيين فى الأراضى البعيدة ولعملهم على تحرير الشعوب المستعبدة وانتزاعهم من البربرية . واستند ريشيليو على هذا الإستناد الى الصليبيات حتى يحصل على موافقة روما على مشروعاته فى حالة قيام صعوبات مع اسبانيا . ونلاحظ أن كل الامتيازات التى أعطتها فرنسا للاستعمار كانت تشتمل ، كما كان عليه الحال فى عصر الحروب الصليبية وعصر الغزاة الاسبانيين ، على إعطاء لون مسيحى لهذه المشروعات . وكانت أعلام الشركات الإستعمارية الفرنسية هى نفس أعلام الصليبيين وأعلام الغزاة الاسبانيين . ولكن الفرنسيين فكروا فى التجارة كما فكر فيها الصليبيون من قبل .

ولم يكن من السهل على الفرنسيين أن يبدأوا فى مشروعاتهم الإستعمارية إلا باتخاذهم نفس الوسائل التى نجح بها الهولنديون الانجليز ، أى بانشائهم للشركات الإستعمارية . وكانت العملية صعبة بالنسبة لفرد واحد ، كما كان من الصعب على الدولة أن تقوم بها بمفردها ما دامت مشغولة بمشكلات أخرى . أما الإستعمار عن طريق الشركات فكان لا يكلف الدوله شيئا وكان يترك للنشاط الفردى ، وتحت إشراف الدولة ومساعدتها ، مهمة مواجهة أى أخطار .

وكان لوى الحادى عشر قد حاول تنفيذ هذه الفكرة من قبل واقترح سنة ١٤٨٢ على كبار التجار المجتمعين فى تور إنشاء شركة فى مرسيليا تحتكر التجارة فى شرق البحر المتوسط . ولكن فرنسا لم تكن قد استعادت قوتها فى ذلك العصر بعد فترات طويلة من الحروب ، كما أن الفكرة لم تكن قد نضجت بعد فى اذهان الفرنسيين وجاء ريشليو من بعد واقتبس نفس الفكرة وساعد على إنشاء شركات كثيرة لها حقوق إقليمية مثل شركات ، موربيهان ، والمدينة شريك ، وسان كريستوف ، والجزر ، ورأس الشمال ، والشرق . وكان الطموح كبيراً رغم أن رؤوس الأموال كانت بسيطة والرغبة فى الإقدام على هذه المشروعات نادرة .

فاذا كانوا من المبشرين فان وسائلهم كانت بسيطة ، وإذا كانوا من التجار فانهم يخشون المخاطرة . فانحلت هذه الشركات الواحدة بعد الأخرى دون أن تصل الى نتيجة إيجابية . وجاء كولبير بعد ذلك وكان يعتقد بنفس الطريقة أنه يمكن للشركات الخاصة وحدها أن تتاجر وتستعمر وتربح ، وشرح أن شركة تتكون من مصالح هامة وتعمل من أجل الرفاهية العامة

يمكنها أن تتاجر بنجاح أكثر من الأفراد . ولم يتردد فى الإحتفاظ لمثل هذة المؤسسات بالمزايا والضمانات اللازمة لإزدهارها . وكانت هذه الشركات أقل عدداً فى عصره مما كانت عليه فى عصر ريشيليو ، ولكنها كانت مجهزة ومساعدة وتخضع لإشراف أكثر مما كانت عليه سابقاتها .

وقد أفادت كل من شركات الهند الشرقية وشركات الهند الغربية وشركة الشمال وشركة الشرق وشركة السنغال ، وهى الشركات التى أنشأها كولبير من المزايا القانونية والمالية التى أعطاها لوى الرابع عشر لبعث البحرية والتجارة . فلقد منحها هذا الملك إعفاءات من ضرائب الشحن ووضع لها نظما بحرية مريحة وسياسة جمركية فى صالحها فساعدها ذلك كثيرا ، وساعد ذلك كل الشركات على الازدهار والتكاثر . ووصل عدد هذه الشركات فى الفترة الواقعة منذ موت هنرى الرابع حتى الثورة الفرنسية خمسا وسبعين شركة فرنسية كانت تحاول الإثراء فيما وراء البحار . وكانت لوائحهم متشابهة . إذ كان لهم حق الملاحة والتجارة والإستيراد والتصدير فى منطقة معينة محددة . وكان من الممكن تشجيع هذه الشركات على مجهوداتها التى تقوم بها لزيادة التجارة وذلك بإعطائها هذه المناطق وإخضاعها لسيادتها ولحقوقها الإدارية والقضائية . فأصبحت المستعمرات بهذا الشكل ممتلكات للشركات ، تقوم بنقل المعمرين اليها والإحتفاظ ببعثات تبشير فيها وبنشر التقاليد الفرنسية والعمل على هضم الهنود المعمدين ومعاملتهم معاملة الفرنسيين .

ولقد اعتقد بعض المفكرين أن سياسة إبعاد الهيجنوت من المستعمرات

الفرنسية كانت خطأ وأنها حرمت هذه المستعمرات من عناصر للتوطن ، ولكن موقف الهجنوت الفرنسيين كان خاصا ، وكثيراً مالعبوا دور أعداء الدولة ، ومما منع هـذه الدولة من أن تثق بهم ، كما أن تحويل المستعمرات إلى مناطق صراع دينى وحروب داخلية لم يكن فى صالح هذه المستعمرات ولا فى صالح فرنسا نفسها . ولكن فرنسا كانت متحررة تجاه الهنود وأصبح من حق كل وطنى يعتنق الدين المسيحى أن يصبح فرنسيا ويحصل على حقوقه الناتجة عن ذلك فيمكنه أن يشترى ويبيع ويرث كما كان عليه الحال فى مرسوم إمتياز مستعمرة فرنسا الجديدة ولكن فرنسا كانت تصر على شرط التعميد قبل ذلك حتى تمنع الانقسام بين سكان مستعمراتها .

وكانت فرنسا تشجع المعمرين بامتيازات خاصة وتعطى القاب النبل الى كثير مما لا يحملونها من بينهم وخاصة التجار والسماسرة وأصحاب السفن وقوادها ، كما كانت تحول أصحاب الحرف إلى معلمين فيها بعد بضعة سنوات . أما هؤلاء الذين كانوا يساعدون برؤوس أموالهم على إزدهار المستعمرات فان فرنسا كانت تعدهم بامتيازات وذلك باعطائهم ألقاب النبلاء ، والسماح بدخول الأجانب منهم فى الجنسية الفرنسية دون ضرائب . وكان الملك يأخذ أول نصيب فى الشركة ، فكان ذلك يجبر البلاط على التشبه به وشراء الأنصبة فيها . وكانت الدولة تقدم جزءاً من رأس المال وبدون ربح . ورغم كل ذلك فقد كان من الصعب تغيير هذه المجموعات الكبيرة من البورجوازيين والفلاحين الذين بقوا الى حد كبير عازفين عن المساهمة فى هذه المشروعات . وإذا كان تعدد الشركات هو السبب الأساسى فى حيرة الأهالى أمام الاختيار للمساهمة فى شركة معينة ،

فان شركة واحدة قد حظيت بانتباه أكبر، وهى شركة الهند التى كانت هناك أسباب إجتماعية وسياسية وفكرية تدفع الفرنسيين الى المساهمة فيها للحصول على توابل ولآلىء الشرق ، ولتحدى الشركات الهولندية والإنجليزية المماثلة ، وللوصول الى النجاح عن طريقها .

(٢) الشركه الفرنسية للهند :—

أنشأت فرنسا عددا من الشركات للهند الشرقية الواحدة بعد الأخرى أنشأت الأولى فى عهد هنرى الرابع ولم تتمكن هذه الشركة من القيام بأى شىء ، أما الثانية فقد أنشأتها فى عهد لوى الثالث عشر ، سنة ١٦١٥ وأعطتها احتكار تجارة الشرق فى المناطق الواقعة فيماوراء رأس الرجاء الصالح . وكان الهولنديون والإنجليز يراقبون الطرق ويمنعون وصول أى مستكشفين اليها . وعجزت هذه الشركة عن الوصول الى ما وراء مدغشقر أما الشركة الثالثة للهند الشرقية فقد أنشأها كولبير سنة ١٦٦٤ برأس مال قدره ١٥ مليون جنيه وأعطاها حق إحتكار التجارة بين رأس الرجاء الصالح ومضيق مجلان لمدة ٥٠ سنة علاوة على ملكية جزيرة دوفين ، التى أصبحت تعرف باسم مدغشقر فيما بعد ، ونسبة معينة عن حمولة التجارة المستوردة والمصدرة ، وإعفاء من نصف رسوم دخول الموانى ورسوم الجمارك فى جميع أنحاء المملكة وأخذت هذه الشركة فى إعداد سفنها الأولى فاستخدمت أنسجة بريطانيا لعمل الأشرعة واستوردت الساريات من النرويج واشترت الحبال من الهافر . ولقد قامت هذه الشركة بانزال الجنود والمعمرين على جزيرة دوفين ، وقامت بمظاهرة بحرية أمام الهند وحاولت أن تضع مواطىء أقدامها فى مدراس ولكنها لم تنجح فى ذلك . وفشلت كذلك فى سيلان

وفى سان توما . ولكنها نجحت فى الحصول على مركز قرب سورات وفى تللى شيرى . وأنشأ وكيلها فرنسوا مارتان مدينة جديدة سماهـا الهنود بونديشيرى واتصل بالبنغال وسيام والأرخبيل . ولـكن النتائج المالية كانت مخيبة للآمال ، واضطر كولبير الى دفع الأرباح من خزانة الدولة حتى لا يثبط عزائم حملة الأسهم واضطر الملك فى النهـاية إلى أن يسحب الحقوق التجارية من هذه الشركة ولم يترك لها إلا إمتيازات النقـل . ولقد كافح فرانسوا مارتان وحصل على حقوق للمتاجرة مع مراكز متعددة فى الهند ، ودافع عن بونديشيرى ضد الهولنديين واضطر الى تركها ، ثم عادواستولى عليها وقام بتجارة هامة بين الهند والهند وأحبه الأهالى ووصلت مدينته إلى أربعين الف نسمة . وقوى ذلك شركة الهنـــد التى حصلت على مراكز فى ماهى وقامت بعقد محالفات وتدخلت فى الصـراع القـائم بين أمراء الهند واستعدت لتوسيع أقاليمها . وواصل هذه العمليـــات دوبلكس الذى قام بعمليات للشراء والبيع والحرب وفرض الحماية وبشكل جعل منه سيداعلى جزء كبير من الهند ورغم أن الهولنـديين والانجليز ، وحتى أنف حمـلة الأسهم الباريسيين الذين خشوا من ازدياد أعماله وتوسعه إلى هذه الدرجة . ولم يصبح من السهل معرفة من الذى يحكم هذه الامبراطورية التى فتحهـا والتى كانت تشتمل على ثلث الهند الشرقية ، وهل هو السلطان المغولى أوملك فرنسا أو الشركة أو دوبلكس بنفسه . وكثيرا ما كان الهنـود يعاملونه على أنه ملك ، ويعاملون زوجته على أنها ملكة،ولم يكن لأكبر سادةأوربا ما كان له من سلطة وعظمة وفخامة كما يقـول فولتير . وكـان من الـلازم أن تكون السيادة مجمعة فى أيدى شركة الهند ولكنها كانت قـد أصبحت جسدا بدون رأس ، خاصة وأن المديرين المحليين كانوا لا يخضعون لها،أما

حملة الأسهم فكانوا لا يجتمعون فى الجمعية العمومية خاصة وأن الحكومة كانت تصرف لهم أرباحا وكأنهم من ذوى المعاشات .

لم تكن هناك فكرة محددة ولا إدارة محكمة ولا رؤوس أموال تدور ، ورغم ذلك فقد تمكنت هذه الشركة من الحصول على نتائج باهرة ورجع ذلك إلى عدد من الرجال الممتازين الذين كانوا شجعانا ومستقلين فى آرائهم وقراراتهم وتصرفاتهم . وكان هذا يدل سلفا على رقة هذه الشركة ما دامت تعتمد على شخصيات قد تختفى فى أى وقت .

ولقد نجحت فرنسا كذلك فى افريقيا وفى أفريقيا السوداء وفى مدغشقر وفى المحيط الهندى وحتى فى المحيط الهادى . نجحت شركة الهند ، والشركات الأخرى المماثلة فى القيام بعملية استعمار ، وبلغت درجة معينة من النجاح ، ووضعت الأسس لعملية استعمار مقبلة .

أما فى شمال إفريقيا المواجه لفرنسا فان فرنسا قد نجحت فى إنشاء قواعد سهلت عليها عمليات الأمن فى البحر المتوسط وسمحت لها بالمتاجرة مع إفريقيا فى الصوف والجلود . ونشأت شركات متعددة فى هذا المجال ، وأنشأت لنفسها رؤوس جسور على القارة الافريقية سواء بالقرب من كاللو أو الرأس الأسود فى تونس أو فى عنابة حيث كانت تستورد القمح والحبوب والشمع والجلود . كما نجح كولبير فى الحصول على حرية التجارة مع المغرب سنة ١٦٨٢ .

أما فى إفريقية السوداء فاننا نجد شركات متعددة تعمل فى هذا الميدان ومن بين أهمها شركة سينيجامبيا النورماندية وشركة السنغال

وشركة غينيا وشركة الغرب وقامت هذه الشركات بانشاء مراكز لرسو السفن على طول الطريق المؤدى الى رأس الرجاء الصالح وإلى الهند . وأصبحت هذه المراكز البحرية مراكز تجارية لشراء الزيت وسن الفيل والصمغ وخصوصا العبيد ، فأصبحت سان لوى والبريدا فى جامبيا وجزيرة جوريه قرب الرأس الأخضر وبعض المراكز الواقعة على ساحل الذهب وغينيا محطات هامة للتجارة فى العبيد أما جزيرة دوفين فقد قامت محاولات متعددة لاستعمارها ، خاصة وأنها كانت محطة طبيعية فى طريق الهند . ولكن هذه المحاولات قد فشلت ، فلم يبق فى فور دوفين التى أنشأت فى جنوب الجزيرة إلا ثلاثين أوربيا . واستولت عليها شركة الهند لكى تجعلها مركزا لعملياتها فى المحيط الهندى سنة ١٦٦٥ ، وأنزلت فيها الجنود والفلاحين والتجار ، ولكن الأهالى هجموا عليهم وأعملوا القتل فى هؤلاء المعمرين . ورغم أن شركة الهند قد أخلت مدغشقر إلا أن حكومة باريس قامت بضمها سنة ١٦٨٦ حتى تحتفظ بحقوقها عليها . ولقد بقيت هذه الجزيرة خالية من الفرنسيين لمدة ٦٠ سنة حتى قام بعض القراصنة الفرنسيين الذين طردوا من الأنتيل بالمجىء اليها سنة ١٧٥٠ واتخاذها ملجأ لنشاطهم فى المحيط الهندى . وتمكن بعضهم من الزواج بأميرات من الجزيرة وأنشأوا لأنفسهم ممتلكات إقطاعية ، ولكن ثورة جديدة قضت عليهم .

ولقد وجد الفرنسيون جزيرتين صغيرتين فى مواجهة مدغشقر خاليتين من السكان وتزدهر فيهما النباتات والحيوانات وكانت الأولى هى جزيرة بوربون ، والثانية هى جزيرة فرنسا . أما الأولى فقد أرسلت اليها شركة الهند أربعة وعشرون من الصناع الشبان الأقوياء النبهاء مع أربعة وعشرين من الفتيات اليتيمات . ثم جاء اليها بعض اللاجئين من مدغشقر وبعض الهولنديين

والبرتغاليين وبعض رجال التبشير وعاش الجميع فيها على الصيد والزراعة وجمع الفواكه وصيد السلحفاة والخنازير البرية . ووصل عددهم الى خمسمائة فى نهاية القرن السابع عشر . ولكن هذه الجزيرة إزدهرت بعـــد أدخلت الشركة فيهــا زراعــة القهوة وأحضرت اليها العبيد من مدغشقر وموزمبيق للعمل فيها .

أما جزيرة فرنسا فكانت لا تبعد عنها إلا بأربعين فرسخــا وأصبحت هاتان الجزيرتان مستعمرتين ناجحتين تنتج الأرز والذرة والقطن والقصب والنيلة . وجاء المعمرون اليها ببهاء من مدغشقر ، وأنشأوا فيها صنـاعات صغيرة وخاصة السكر والنسيج ، وأخذت بودلوى، فى جزيرة فرنسا تدعى أنها منافسة لباتافيا .

أما فى ما وراء الهند فان الشركة الفرنسية قد ذهبت حتى سيام ، وبعد أن تبادلت السفارات وقعت على إحدى الإتفاقيات التى فتحت الطـريق أمام المبشرين سنة ١٦٨٠ . وأقام بعض الفرنسيين فى بانجوك ، ولكن الهولنديين تسببوا فى قيام الأهالى ضدهم بثورة ،وفى اخراجهم منها واتصل الفرنسيون بالكوشين شين وبأنام وتونكين وذهبوا حتى جاوه ووصل اليسوعيون الى بلاط بكين ، وأثروا فيه .

ولقد أثمرت سياسة ريشيليو وكولبير رغم أن الشركات الصغيرة قـد خيبت آمال المساهمين فيها ورغم أن شركـة الهنـــد لم تتمكن من دفع أرباح حقيقية لحملة اسهمها . ولكن النتائج كـانت ايجابية فى الميادين الأخرى ، ونجحت فرنسا فى الخروج من قوقعتها وبدأت فى الاختيار بين مراكـز متعددة فى إفريقيا ومدغشقر وجزر المحيط الهندى التى حصلت فيها

على مراكز وحولتها الى مستعمرات زراعية ، وتفتحت الهند الى درجة بعيدة وأصبح السبيل ممهدا أمام فرنسا فى الشرق الاقصى . وأخذت فرنسا تسير فى العمليات الاستعمارية ، وهى لا تدرى أنها ستصبح دولة مستعمرة وكما نجحت فى آسيا والشرق الأقصى ، فانها نجحت كذلك فى أمريكا .

(٣) فرنسا فى أمريكا :ـ

كانت جزر الأنتيل تدخل فى نطاق الامبراطورية الاسبانية ، ولكن عدد المعمرين بها كان بسيطا إذا ما استثنينا حياتى ربورتوريكو . وكان الانجليز والبولنديين قد تسللو الى هذه الجزر ، فما الداعى لبقاء الفرنسيين بعيداً خاصة وأنهم كانوا قد تمرنوا مثلهم على أعمال القرصنة ؟ فذهب بعض أهالى المافر الى سان كريستوف . وشجع ريشيليو إنشاء شركة سان كريستوف وكلفها بتعمير هذه الجزر واسكانها ، ثم شركة الجزر الأمريكية التى تعهدت بالاقامة فى جزر الأنتيل التى لايمثلها المسيحيون. وكان ريشيليو يشجع كل ما يمكنه أن يضايق اسبانيا . وشهدت جزر المرتينيك وجواديلوب وسان دومنيك وغرناطة وتباجو ، شيئا فشيئاً وصول أهالى نورمانديا والبريتانيين وبدأت بذلك حركة الاستعمار منذ سنة ١٦٣٥ .

ولكنها لم تكن حركة جديدة ، فما أن شعرت شركة الجزر بانها لا تربح حتى بدأت فى بيع جزر الأنتيل الفرنسية . فوقعت هذه الجزر فى أيدى بعض النبلاء المستقلين الذين كانوا يشبهون رجال الإقطاع والقراصنة فى نفس الوقت ، وكانوا رجالا صارمين ، ومستعدين دائما للحرب من أجل

المجد أو لمجرد التسلية . وكان نشاطهم الرسمي يتلخص في صيد الثيران المتوحشة وأكل لحومها مشويا ، وكانوا يبيعون جلود هذه الحيوانات للهولنديين ويعملون في التهريب . واذا كانوا قد بدأوا عملياتهم في إحدى الجزر الصغيرة فانهم قد انتقلوا بعد ذلك إلى هايتي التي أصبحت تسمى سان دومينكو . وبلغ عددهم فيها أربعة أو خمسة آلاف واستمروا في المتاجرة في الجلود وفي الزراعة وخاصة الطباق . ولقد سوى كولبير مركزهم وأبعد عنهم الهولنديين وشجع زراعة القطن وقصب السكر ، كما شجع صناعة السكر ، وكلف شركة السنغال بتوريد الأيدي العاملة من الزنوج اللازمين لاستغلال الجزيرة . وأنشأ في سنة ١٦٦٤ شركة الهند الغربية ، وكان لها خمسون سفينة واحتكار تام لمدة ٤٠ سنة ، وأفادت من معونة حكومية بلغت ثلاثين جنيها عن كل طن من السلع التي تصدر من فرنسا ، وأربعين جنيها عن كل طن من البضائع يستورد الى فرنسا . حقيقة أن الأهالي قد قضى عليهم، لكن تعمير الجزيرة بالبيض والزنوج قد سار بسرعة ، وبنفس سرعة التجارة . وأصبحت سان دومنيجو لؤلؤة الأنتيل ومستعمرة نموذجية يحلم بها ويمثلها كل الأوربيين.

وإذا كانت جزيرة سان كريستوف قد أعطيت للانجليز بمعاهدة أترخت، وجزيرة الصليب المقدس قد بيعت للدانمارك بمبلغ ١٣٨ ألف جنيه ،فانهذه الخسارة كانت بسيطة . وظلت جزر أمريكا موطنا لإعتزاز فرنسا ببداية عملياتها الإستعمارية وكانت تمثل في بداية القرن ١٨ ما يقرب من نصف تجارة كل الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار ، وأمتلأت بعدد كبير من المزارعين ورجال السكر وتجار العبيد سواء أكانوا من نانت أو لاروشيل أو بوردو . وكانت هناك خمسمائة سفينة تربط هذه الجزر بفرنسا وتحمل

اليها فى كل سنة المواد الغذائية من فرنسا وتعود محملة بالقهوة والكاكاو والنيلة والأخشاب النادرة . وكان السكر مصدرا من مصادر ثروة الأنتيل، وكان يكرر فى روان ونيم ومدن اللوار . وقد أهملت المارتنيك كل زراعة المحاصيل الأخرى بسبب زراعة قصب السكر . وأشرفت شركة الهند الغربية لمدة عشر سنوات على هذه التجارة واحتكرتها . ولكن إزدهار الجزر قد سار بسرعة وبشكل لا يمكن شركة واحدة من احتكارها لنفسها . فأعطى الملك حق المتاجرة مع هذه الجزر لكل رعاياه . وأصبح السكر يباع فى أنحاء هذه الجزر لمن يرغب ، فيقوم بنقله الى الموانى الفرنسية أو يوزعه فى الأقاليم المحيطة بالبحر المتوسط وبحر الشمال والبحر البلطى . ولم تكن جزر الأنتيل الفرنسية لا تتاجر فى الواقع إلا مع فرنسا ، بل كانت تبيع العسل الاسود والروم والقهوة إلى انجلترا الجديدة وتبادلها بالاسماك المملحة والدقيق ، وكانت تتاجر مع الانجليز فى جامايكا ، ومع الهولنديين فى مراكزهم وتصدر كذلك الى أمريكا الإسبانية .

ولقد تمكن بضعة عشرات من أبناء نورماندیا من إنشاء قلعة كايين على القارة نفسها ، فى المنطقة الواقعة قريبة من الأمازون والتى اعتقد كثير من المستكشفين فى امكانية عثورهم على الذهب فيها . وبدأت شركتان فى عملية تعمير هذه المنطقة . وانخفضت أعدادهم نتيجة للحمى وإغارة الوطنيين عليهم . ولكن كولبير شجع إحدى الشركات الفرنسية على مواصلة التجربة ، ومرة أخرى عملت الفوضى والمجاعات والكمائن المنصوبة على انهاء هذه التجربة ورغم ذلك فلم يفقد الفرنسيون الأمل فى الإقامة فى غيانه، وازدهرت كايين مع شركة الهند الغربية ، وواصلت ازدهارها رغم هجمات الانجليز والهولنديين .

أما كندا فلقد تغيب عنها الفرنسيون منذ عهد جاك كارتييه ، رغم أنهم لم ينسوا طريقها ، فلقد عاد اليها طروبلوس وانزل على ساحل الابرادور ٦٠ شحاذاً وسجينا قضوا نحبهم جميعا ، ثم جاء صامويل دى شمبلان وعامل الأهالى معاملة طيبة وأنشأ بور رويال وكويبيك على نهر سان لوران . وكان ممثلا وياورا للملك فرنسا على كل المساحات المحيطة بهذا النهر ، واستند الى شركة موربيهان التى أرسلت له بعض المزارعين ، كما استند إلى شركة المائة شريك التى كان ريشيليو قد أنشأها لتعمير كندا والتى أصبحت شركة فرنسا الجديدة . وتعهد بتوطين أربعة آلاف كاثوليكى فى مدة خمسة عشر سنة فى امريكا الفرنسية التى لم يبلغ عدد سكانها إلا مائتين ، منهم عشرين فى كويبيك .

وكان هذا المشروع صعبا ، خاصة وأن المناخ كان قاسيا وكان الهنود يغيرون على المستعمرات ، كما كان الانجليز يبذلون جهدهم لتحطيم المستعمرة وانتزاع أهم جزء منها . ورغم ذلك فقد نشأت قرية عند سفح جبل مونت رويال الذى أعطى اسمه لها فيما بعد وحينما أصبحت مدينة . وكانت هذه الأراضى الشاسعة خاوية وانتشر فيها بعض المعمرين للصيد داخل الغابات ولشراء الفراء ودفع أثمانها بالمشروبات الروحية والبارود . ولكن بعض المزارعين بدأوا فى تلقيح الأرض وزراعة القمح والشعير والبقول وتربية الخيل والخنازير . وكان المعمرين يجتمعون فى قرى محصنة بأسوار من جذوع الأخشاب ، دون أن يفكروا فى أنها ستتحول فيما بعد الى مدن كبيرة مزدهرة .

أما سكان فرنسا الجديدة فكانوا قد جمعوا بكل الطرق الممكنة ، وخاصة

فى مقاطعات غرب فرنسا ، وشجعوهم ووعدوهم برحلة مجانية كما وعدوهم باعطائهم المساكن وحجج تمليك لأرضهم وشوادات لمن يعمـــل فى المهن وبمساعدتهم فى حالات المرض . وكانوا يمنحون خمسين جنيها لـكل فتاة تتزوج فى كندا ، وثلثمائة جنيه لكل أسرة يزيد عدد أطفالها على عشرة ، وبدأت مشروعات التأمين الاجبارى والضمان الأسروى فى الظهور مع بداية عملية الاستعمار الفرنسى لأمريكا .

وازداد العمار فى كندا ، مثلها فى ذلك مثل بقية المستعمرات ، بمجىء عدد من البنات الساقطات ، ومن المجرمين والمغامرين والمنفيين . ولـكنها شاهدت كذلك مجىء عدد من المبشرين اليسوعيين الذين أخذوا فى الوعظ ، وقاموا كلهم باستكشاف السهول المجهولة ، وبمواجهة القبائل المعادية . ولكن كولبير كان يحتج بأن عدد رجال الدين فى كندا كان يفوق عدد المعمرين ولذلك فانه أرسل آلايا من الجيش الفرنسى ، بلغ ١٢٠٠ جنـــدى للاقامة والتوطن فى هذه المستعمرة سنة ١٦٦٧ . ولقد ساعدت زيادة نسبة المواليد ، أكثر من الهجرة ، على زيادة عدد المعمرين الفرنسيين فى كندا ، وبعد أن كان عددهم ٥٠٠ عند موت ريشيليو ، وصل هذا العدد الى ٣٥٠٠ عندما بدأ كولبير يهتم بشئون المستعمرات ، و ٦٠٠ ألف فى وسط القرن الثامن عشر . ورغم ذلك فقد كان عددهم بسيطا لاحتلال كل هذه المساحات الشاسعة ولمواجهة الأهالى ، خاصة وأن الانجليز قد بدأوا فى تعضيد الأهالى ومساعدتهم لكى يحاربوا الفرنسيين . ولم يكن فى وسع كندا أن تواصل نموها إلا بتعضيد فرنسا الكامل لها . ولذلك فان كولبير قد حولها من سلطة الشركة الى سلطة الملك ، وأصبحت فرنسا الجديدة بعـــد ذلك جزءا من الممتلكات الملكية . وبنفس وضعية أى مقاطعة فى فرنسا نفسها . وأنشأت

فرنسا فيها نفس النظم الموجودة لديها من حاكم له اختصاصات عسكرية ، الى مراقب يشرف على الشئون المدنية . الى مجلس له سلطات قضائية ويمكنه أن يتحول فيما بعد الى برلمان . وكان كل ذلك فى كويبك . ولقد نشأت فى بعض الأوقات اضطرابات بين الحكام والمراقبين ، ولكنها انتهت بتركيز السلطة فى أيدى حكام أقوياء . وبعد القلقلة التى سادت فى أول الأمر تركزت الأوضاع ، ولم تشهد كندا فى مدة ثلاث وأربعين سنة إلا حاكمين إثنين وثلاث مراقبين . وبلغ عدد الموظفين الفرنسيين فيها ثلثمائة موظف فى أواسط القرن ١٨ ، ولم تكلف هذه المستعمرة ميزانية فرنسا أكثر من نصف مليون جنيه منها ١٥٠ ألف لقوات الجيش الموجودة فيها .

ورغم أن كندا لم تكن تكلف فرنسا كثيرا إلا أنها كانت بعيدة ولم يعثر الفرنسيون فيها على ذهب أو على سكر ، فلم يتحمس الفرنسيون للذهاب اليها . ورغم ذلك فقد عثر الفرنسيون فيها على الحديد وأخذوا يصدرون منها الأخشاب ، وبشكل جعل ميزانها التجارى متوازناً . ولكن الفرنسيين كانوا يفضلون عليها جزر الأنتيل .

حقيقة أنه كانت هناك بحار من المياه العذبة فيما وراء نهر سان لوران ، وكانت هناك سهولا شاسعة الى الجنوب منها ، مع نهر كبير يسير صوب الجنوب وصوب خليج المكسيك . ولقد قامت إحدى الفرق العسكرية باحتلال النقط الاستراتيجية الواقعة عند مضايق البحيرات العظمى والتى نشأت فيها دترووات فيما بعد . وتوغل اليسوعيون والمبشرون صوب الغرب ووصلوا الى نهاية البحيرة العليا والى الجبال الصخرية ، كما وصلوا الى النهر العظيم وهو الميسيسبى الذى سار معه كافاليه دى لاسال وأسس مدينة سان لوى ، وبنى نصبا عند مصب هذا النهر كتب عليها اسم لوى الرابع عشر ملك

فرنسا ونافار . فما الذى يمنع من انشاء مستعمرة أخرى فى هذه المنقطة ؟ إنها ليست كندا مع ثلوجها وأشجارالصنوبر المشهورة بها. إنها بلاد أخرى تمتلأ بالنخيل وفى جو حار . إنها ستصبح لويزيانا فيما بعد .

٤) المضاربة على المستعمرات :-

لقد حصل كافاليبه دى لاسال على أربع سفن لفرنسا وشحنها بمائتين وثمانين معمراً لكى يذهب الى مصب النهر العظيم فى لويزيانا ويؤسس مستعمرة هناك . ولكن الأسطول الصغير وصل الى منطقة أبعد من التى كان يهدف اليها سنة ١٦٨٧ ونزل المعمرون على ساحل آخر ، ومات لاسال مقتولا ، وكان هذا أول فشل لتعمير لويزيانا .

ووصل ليموان ديبر فيل الى الميسيسبى الأسفل بعد ٢٠ سنة ، وأسس مركزاً على خليج المكسيك سنة ١٦٩٩ . ولكن فرنسا كانت مشغولة فى ذلك الوقت بمشكلات تمنعها من الألتفات إلى مستعمراتها البعيدة ، فتدهورت أحوال لويزيانا ولم يصل عدد المعمرين فيها إلا ثلثمائة ، وكان هذا الفشل الثانى للمستعمرة .

ولكن سرعان ما تنبه الرأى العام الى لويزيانا وانتشرت الأخبار بأنها تشتمل على أكبر مناجم للذهب يمكن تصورها ، ولكن دون أن يتأكد أحد من ذلك ، وكان ناشر الفكرة هو جون لو .

وكان لو اسكتلنديا نابغا ، ووجد فى فرنسا فى ذلك الوقت حقلا لتجاربه . وكان متقدما على عصره ونادى بأن التجارة وعدد الأهالى الذين يعتبرون ثروة وقوة الدولة ، يعتمدون على كمية النقود وطرق تداولها . فباصدار العملة يمكن خلق حركة وأعمال تثرى الأمة . وأخذ لو فى تطبيق

هذه النظرية وأسس مصرفا فى سنة ١٧١٦ . كان له الحق فى اصدار أوراق البنكنوت ، التى قبلت كنقود لدفع الضرائب ، ثم عممت فيما بعد وشملت كل المدفوعات التى تزيد قيمتها على ٦٠٠ جنيه فنشأت بذلك الآلة الضرورية للعملية . ثم أخذ لو فى الدخول فى عمليات جديدة ، الواحدة بعد الأخرى ، ومرتبطة بها ، ونشر الأسهم والصكوك بين الجمهور وبشكل جعل الأهالى يقبلون عليها يثرون من المضاربة فيها ، بل وبشكل جعل النقود المتداولة لا تكفيه لتغطية المدفوعات ، وبشكل يتطلب زيادة أوراق العملة ، وبالتالى انخفاض قيمتها ، حتى تتمكن من مواجهة المطالب النقدية .

وكانت هذه المشروعات اللازمة لو مشروعات استعمارية ، خاصة وأن هذه الأقاليم البعيدة كانت محتاجة لكل شىء ، كما كانت الشركات هى آخر بدع العصر ، وكان ذلك يسمح بمشاركة الجمهور فى هذه العملية أو هذه اللعبة . وكانت هناك لويزيانا التى فشل فيها غيره من قبل ، فعرضوها على لو وبشرط استخدامه مليونين من الجنيهات لاستعمارها . فقبل الفكرة وقرر استخدام مائة مليون جنيه مقسمة على ٢٠٠ ألف سهم قيمة كل منها خمسمائة جنيه . وكان هذا هو رأس مال شركة الغرب التى حاولت أن تنافس الشركات الهولندية والانجليزية الكبيرة . وكان من الممكن دفع هذه الأسهم من مرتبات الحكومة ما جعل أصحاب الرواتب والمعاشات يؤيدونها كما كانت هذه الأسهم ملكا لحاملها ، وكانت هذه البدعة تغرى على التوفير وتجعل الاسهم سهلة التداول .

ولم يتوقف لو عند هذا الحد ، خاصة وأنه كان يعلم أنه من الممكن الحجز على خزانة لويزيانا ، وأن الإستعمار لا يعطى غلة إلا بعد فترة طويلة . فاحتاج

الى السيطرة على المشروعات الأخرى وعلى التوسع فى نطاق عملياته . فسيطر على إدارة الطباق بشكل يسمح له بتصريف الدخان الوارد له من أمريكا وبفرض الضرائب على الدخان الاسبانى ، كما عمل على فرض ضرائب عامة على الملح وعلى تجارة الرقيق وضمن بذلك لنفسه موارد ثابتة كان فى أشد الحاجة اليها فى أول العملية . وتمكن من تحويل مصرفه إلى بنك ملكى ، وذلك بتحويله كل مرتبات الدولة ومعاشاتها الى أسهم فى الشركة . فأصبح يمثل منقذ الخزانة العامة ، وسيد المالية العامة فى نفس الوقت الذى يسيطر فيه على قطاع هام من التمويل الخاص .

ولقد سيطرت شركة الغرب على الشركات الأخرى وضمتها اليها وخاصة شركة السنغال ، وشركة افريقية ، وشركة الصين ، وشركة غينيا ، وشركة سان دومنجو ، وحتى شركة الهند الشرقية . فأصبحت هى نفسها تسمى شركة الهند . وأصبحت تتاجر فى السكر وفى التوابل فى نفس الوقت ، وأصبحت لها السيادة على الأنتيل وعلى بون دى شيرى وسيطرت على الضرائب وعلى العملة والدخان والمستعمرات .

وكانت هذه الشركة الجديدة للهند بالنسبة للأهالى ، هى نفس شركة الغرب ، أو بمعنى آخر هى الميسيسبى . واصبح الاسم الهندى للنهر العظيم يمثل السراب ، وبذل لو كل مجهود للاحتفاظ بهذه الدعاية وانتشرت الفكرة بوجود كميات كبيرة من الذهب ومن الفضة فى لويزيانا وأخذت الدعاية تفرض هذه الفكرة وتنشرها بين الأهالى مستخدمة فى ذلك الصور والإعلانات وغيرها . وانتشرت اللوحات التى تمثل نزول المعمرين إلى بلاد الهنود الحمر وتحيط بهم البنات الهنديات الجميلات الناضجات وكتبت

تحتها عبارات تدل على وجود جبال فى الميسيسبى مملوءة بالذهب والفضه والنحاس وأن الأهالى يبيعون قطع الذهب والفضه ويبدلونها بالسكاكين والقدور وبقطع المرايا الصغيرة أو بالمشروبات الروحيـــة . وانتشرت الإشاعة بأن كمية المعادن الموجودة فى لويزيانا تفوق كمية بوتـوسى وقامت الشركـة بعرض عشرة من الهنود الحمر فى شوارع باريس ، كما قامت بتزويج إحدى البنات الهنديات الصغيرات ، والجميلات ، مع أحد الجنود فى كاتدرائية نوتردام . وأعطت هذه الدعاية نتيجتها . وكان فى وسع لو أن يكتفى بمثل هذه الدعاية مادام يؤمن بالخيالات وما دامت الأوراق النقدية يمكنها أن تحل محل الذهب . ولكنه كان مضطراً على أى حال أن يقوم بعمليـــة لاستعمار لويزيانا ، أو كأنها تهدف إستعمارها . فأنشأ مركزا صغـــيراً هناك وأرسل بعض المعمرين . ولكن سرعان ما تدهور هذا المركـز ونسى الناس هؤلاء المعمرين . ثم قرر لو فى سنة ١٧١٩ إرســـال عشر سفن الى لويزيانا تحمل ٧٠٠ جندى و ٥٠٠ متوطن . وجمعوا البنات شبه الساقطات ووعدوهن بالعثور على أزواج أغنى مما يتصورون ، وملأوا بهن سفينتين . وأخذوا فى تزويج السجناء والسجينات فى باريس نفسها واصطحبوهم فى حراســـة مشددة وأرسلوهم الى الميسيسبى . وأكمل العاطلون والساقطون والمتشردون هذه المجموعة التى أرسلت إلى لويزيانا . وكانوا يمنحون لمن يتطوع بالذهاب إلى لويزيانا قطعة كبيرة من الأرض وأحد الأسرة وبعض أدوات المطبخ ، ويمنحـون السماسرة عشرة جنيهات عن كل فرد يرسلونه هناك . أما المرتزقة الذين يعملون فى الشركـة فكانوا يحصلون على كسوة زرقاء ، وغطاء للرأس موشى بالفضة ويتقاضون جنيها كل يوم .

ولقد إختلط كل ذلك ببعضه فى أمريكا ووصلت أعدادهم الى بضعة

آلاف وجاءت اليهم أعداد أخرى من الألمان والسويسريين والكنديين الذين اعجبوا بهذا النظام . وأسس حاكم المستعمرة نيو أورليانز على النهر العظيم نسبة للوصى على العرش ، ونسبة الى أن الجنود الذين يعملون هناك قد جاءوا بعدد من البنات من أورليان الى منطقـة الميسيسبى . وأصبحت هذه المدينة هى عاصمة لويزيانا .

وقد اختارت الشركة خط عرض ٤٠° شمالا حداً يفصل لويزيانا عن كندا . وسار المستكشفون شمالا مع روافد الميسيسبى وأنشأ غيرهم القلاع التى حاصرت المستعمرات الإنجليزية من الغرب ، وبين لويزيانا وكندا .

وارتفعت الحمى فى باريس مع ارتفاع قيمة الاسهم من ٥٠٠ جنيه الى ١٠٠٠ الى ٥٠٠٠ إلى ١٠٫٠٠٠ إلى ١٨٫٠٠٠ ، فعشرين ألف جنيه . وأضطر لو الى إصدار أوراق عملة حتى يدعم هذا الارتفاع فى الأسعار ويسمح ببيع ٤٠٠ ألف سهم جديد سنة ١٧١٩ . فأصبحت المستعمرات هى دعامة هذه الاسهم، التى كانت بدورها دعامة أوراق النقد ، والتى كانت عصب الحياة الاقتصادية. وسارت العملية وتضخم الإدخار . ازدهرت الأشغال العامة ونشأت المصانع، فتغير مظهـر فرنسا كله . ولكن الأسعار إرتفعت وأخذ أصحاب الملايين يعيشون معيشة بذخ ، وكـل ذلك لأن أحد الأسكتلنديين قد تحدث عن لويزيانا وحاول استغلالها .

ولم تكن هذه البدعة قد سيطـرت على فرنسا كما لم تكن فـرنسا هى الدولة الوحيدة التى تركت نفسها تسكر بنشوتها . ففى الوقت الذى كانت فيه باريس تضارب على شركـة الميسيسبى كانت لندن تضـارب على شركـة بحر الجنوب .

وكانت المالية هي التي تسيطر على لندن ، كما كانت تسيطر على باريس وإذا كان لو هو محافظ البنك في باريس فان إسلابى كان وزير المالية فى لندن ، ورجل شركة بحر الجنوب وكانت شركة بحر الجنوب قد حصلت بعد معاهدة أوترخت على احتكار التجارة مع أمريكا الجنوبية واحتكار تجارة الرقيق ، وكان عليها أن تورد للمستعمرات الاسبانية ٤٨٠٠ عبد كل سنة ولمدة ثلاثين سنة واضطرت الى إنشاء عدد من القلاع فى بضعة نقط على الساحل الأمريكى . ولكن الاستعمار لم يكن بالنسبة اليها ، كما كان بالنسبة للو ، إلا ذريعة من الذرائع . فتحملت كل ديون الدولة وأصبح الملك هو مدير هذه الشركة ، كما كان الوصى على العرش فى باريس هو حامى بنك لو ولقد تضاعفت أسهم شركة بحر الجنوب عشر مرات فى سبعة أشهر ، ووصلت قيمة السهم الى ١٠٠٠ جنيه وظل الاقبال عليها كبير . وكانت أوراق العملة التى يصدرها بنك انجلترا هى التى تمول هذه العملية .

وهكذا إزدهرت عملية المضاربة على الهواء والفراغ ، ونضجت الفضائح وعمليات النصب . وشعرت كل أوربا بهذه المضاربات وتأثرت بها فتشبهت فينيا بعمليات لو وأنشأت الشركة الامبراطورية للشرق ، كما أخذت امستردام فى اللعب على أثمان الزئبق . وبعد أن مرت العاصفة أخذ الناس فى احصاء الخساير .

وكما ارتفعت درجة الحمى بسرعة ، كان الانخفاض سريعا . وحينما اقترح لو على حملة الاسهم فى باريس ربحا يصل الى ٤٠٪ من المبلغ الأصلى وهو خمسمائة جنيه ، كان فى واقع الأمر لا يدفع إلا ١٪ من أسهم وصل ثمنها الى ٢٠ ألف جنيه . فاكتشفت الناس الحقيقة .

وكان التأثير على الميسيسبى سريعا كذلك وانتشرت الاشاعات السيئة أسرع من انتشار الدعاية المغرية ، وذكرت قتل ١٥٠٠ من المعمرين وانتشرت فى الاسواق صور أخرى ، مطبوعة فى هولندا تمثل احدى الصحارى ومكتوب تحتها منظر الميسيسبى وأخذ الناس يستهزءون بلو وبالنظام الذى أنشأه وأخذوا يبيعون الأسهم لكى يحصلوا على أوراق نقدية ، ويبدلون الأوراق النقدية بقطع العملة الذهبية .

ولم يزد عدد المعمرين فى لويزيانا أثناء هذا القهقر أكثر مما كان عليه أثناء الازدهار ، وحتى اذا كانت هذه الأراضى تبشر بمستقبل ، فلم يكن فى وسعها تحقيق وعود لو فى ذلك الوقت . ولقد قام منافسوا فرنسا فى الميدان الاستعمارى بدورهم فى تحطيم هذه العملية ، وخاصة الانجليز الذين كانوا يخشون على ممتلكاتهم الامريكية فطلبوا من الوصى على العرش عزل لو ، كما ضغطوا على قيمة أسهم الميسيسبى فى البورصة . ولقد حاول لو أن ينقذ الموقف ولكن دون جدوى ، فضم البنك الى الشركة ثم منع أى مدفوعات بقطع العملة المعدنية ، وفرض أوراق العملة الكبيرة على السوق ولكن كل ذلك لم يؤدى الى نتيجة ايجابية ، واستمر انهيار قيمة الاسهم ، وعزف الناس عن أوراق العملة ، واضطر لو الى الهرب . ولكن الانجليز قد عملوا على هز شركة البحر الجنوبى من أساسها بنفس العملية التى حاولو بها افلاس شركة الميسيسبى ، وكانت هذه الشركة الانجليزية قد قامت ببعض العمليات التى مهدت للوصول إلى نفس النتيجة ، فشاهدت انهيار قيمة أسهمها بعد بضعة أسابيع من انهيار شركة الميسيسبى سنة ١٧٢٠ ونزلت قيمة أسهمها من ١٠٠٠ جنيه للسهم الى ٣٠٠ ثم الى ١٣٥ جنيه . فأفلس آلاف من الانجليز واتهم فى ذلك عدد من وزراء بريطانيا .

ورغم كل ذلك فان هذه التغييرات قد أعطت بعض النتائج الايجابية : ذلك أن لو قد حرر تجارة السكر فى الانتيل ، وبدأ عملية تعمير فى لويزيانا. ورغم انهيار هذا النظام فأن فرنسا قد احتفظت بشركة الهند وأعادت تنظيمها وأخضعتها لاشراف مجلس حتى تتمكن من مواصلة أعمالها .

وهكذا انتصرت الدولة على المشروعات الخاصة وعلى الشركات التى كانت قد سيطرت عليها من قبل .

أما فى انجلترا فان والبول قد أنقذ شركة بحر الجنوب . وكان قد عمل فى المضاربة فى أسهمها ، وباع ما يمتلكه منها بأغلى ثمن . فكان رجلا حازما . كما أنه قد فضح أخطار هذه العملية ، وأثبت بذلك ذكاءه . وسارت لندن وراءه فلم يؤثر الانهيار على العمليات المصرفية ولا على العمليات الاستعمارية . وذلك على عكس فرنسا التى اهتز الرأى العام فيها بعد عملية تدهور القيمة النقدية ، فأخذ يحذر من أوراق العملة وبشكل حرم الإقتصاد الفرنسى من وسائل عمله ، كما حذر العمليات الاستعمارية ، فيما عدا جزر الأنتيل . وانتشر فى فرنسا فى ذلك الوقت اتجاه ينادى بعدم الإلتفات الى المشروعات البعيدة سواء فى لويزيانا أو كندا أو حتى الهند ، والالتفات الى فرنسا نفسها . وأثر هذا الاتجاه المختلف فى كل من فرنسا وانجلترا على المستقبل الاستعمارى لكل من هاتين الدولتين .

الفصل الثالث عشر

الروح التجارية

كانت المضاربة وانتشارها عملية عارضة فى تاريخ الشركات الاستعمارية أما الاستعمار فقد ظل خاضعاً ، لمدة قرنين لنظرية تربطـــه ربطا وثيقا بالمصالح الوطنية . أما من الناحية السياسية فقد هدفت الروح التجارية إلى تنافس هولندا على البحار من ناحية ، وتنافس اسبانيا بريا من ناحية أخرى ، مادامت الأراضى المنخفضة كانت تسيطر على التجارة ، واسبانيا تسيطر على المستعمـرات . فاذا ماتركت الدول نفسهـا لتمكنت امستردام من احتكار الملاحة ، وتمكنت مدريد من احتكار الملكيـة . ولذلك فان الروح التجارية كانت تهدف تحطيم هذين الاحتكارين . أما من الناحيـــة المالية فنلاحظ أن الثروة كانت تقاس بكمية المعادن التى تمتلكها كل دولة ، ولذلك فقد كان من اللازم زيادة هذه الكمية ، وذلك بتقليـــل الاستيراد وزيادة التصدير ، بل يمكننا أن نقول أنه كان من اللازم تقليل المشتروات من الأدوات المصنوعة وزيادة المبيعات من هذه المصنوعات لأكبر درجـــة ممكنة . ولذلك فقد كان من اللازم فرض ضرائب جمركية ومنع دخول المصنوعات الأجنبية وتسهيل تصدير المصنوعات الوطنية عن طريق معونات مالية . وكان يعنى ذلك حماية الصناعات الوطنية وحتى منتجات المستعمرات ، وإبعاد المنافسة ، والحصول على أسواق أجنبية . فكانت العملية إذا تسير حسب المبدأ القائل بأن ما لدى لا يخص جيرانى ، أى أن الدولة تقـــوم بتجارتها بمفردها ، وعلى سفنها وتحتفظ بالسيطرة على النقل . وكان عليها

أن تمول وحدها أملاكها أى أن تصبح المسيطر الوحيـــد على التوريد . وتصبح كـذلك العميل الوحيد .

وكانت إسبانيا قد سارت على هذه المبادىء وصوب هذه الأهـداف منذ أول نشأة امبراطوريتها ، وجاءت الدول الأخرى لكى تطبـق نفس العملية وشعرت بأنها عملية طبيعية . ولكن رجال الاقتصاد الذين جاؤا بعد فترة من الزمن ورغبوا فى تصنيف السياسات الاقتصادية ، سموا هذه الرغبة فى تكديس المعادن الثمينة ، وسيطرت الدولة على الميزان التجـــارى بالروح التجارية أو المذهب التجارى . وحاولوا بذلك أن يخلقوا نظـرية نابعة من هذا النظام النسبى ، وسيهاجمونه بشدة خاصـة وأنهـم هم الذين قاموا بتنفيذه .

والحقيقة هى أن رجال الإقتصاد لم يتأثروا بالدعاية حـــول كميات الاحتياطى الموجودة من المعادن فى هذا الوقت ، كما أنهم لم يحاولوا إقفال أسواقهم الوطنية وفصلها تماما عن الأسواق الأخرى، فنجد أن مون كرتيان يذكر أن إزدياد الذهب أو الفضة ليس هو العامل الذى ينشأ دولا غنية وأن منابع الثروة الطبيعية والحقيقية والتى لا تنتهى هى القمح والنبيذ والملح والصوف والكتان . أما كولبير فانه قد أصر على أن العمل هو مصدر كل تقدم روحى وعلمانى .

والواقع أن عصر الروح التجارية قد دفع السيطرة التامة إلى أقصى مدى. وقام الهولنديون فيه بعمل خرائط خاطئة لابعاد منافسيهم عن طريق الهند ، كما قام أحد القباطين الهولنديين باغراق سفينة حتى لا تقع فى أيدى مطارديها فيعرفون طريق ملاحتها ، كما قامت الشركة الهولندية للهند بمنع رجالها من

الاحتفاظ بأقل مذكرة يمكنها أن تساعد البحارة الأجانب فى الذهاب الى اندونيسيا . والواقع أن هـــذه الرغبة فى الاحتفاظ بالسر وبالاحتكار قد تظهر وكأنها متطرفة ، ولكنها كانت فى الواقع تتمشى مع تقاليد قرطاجة القديمة .

وكان من الطبيعى أن نجد عذرا لانجلترا حين تطبق سياسة الامتيازات والاحتكار ، وأنهـا كانت دولة صغيرة بدأت فى شق طريقها فى البحـار وصوب الإستعمار ، وواجهت دولا قوية ثابتة فى هـذا الميدان مثل هولندا وإسبانيا . ولقد نصح توماس مان بزيادة فائض الميزان المالى ، وقام تشايلد باعتبار نهضة البحرية التجـارية كضمن وسيلة للوصول الى هذا الهدف . فقامت الملكة اليزابيث بمنـع وصول واردات كثيرة وأجبرت الأهـالى على ارتداء القبعات الانجليزية . وقام كروميل بعــــدها بعرض قانون الملاحة على البرلمان ونجح فى موافقته عليه فى سنة ١٦٥١ ، وكان هذا القانون يحتفظ للسفن الانجليزية ولسفن البلاد المنتجة بالدخول الى المـوانى الانجليزية ، أى أنه كان فى نفس الوقت يحــــرم السفن الهولندية من الوصول الى هذه الموانى ، أما منتجات المستعمرات فان هذا القانون قد احتفظ بحق استيرادها للسفن الانجليزية وحدها . وكذلك المستعمرات الانجليزية لم يكن من حقها إستلام بضائع الا إذا كانت منقولة على سفن انجليزية وتأتى من انجلترا . ولقد أصبح قانون الملاحة دستورا للتجارة البريطانية ومثلا لسياسة المذهب التجارى . ولقد دعمته لندن بعملية معونات للتصدير وبمنعها الدخول بعض المنتجات الاجنبية ، مثـل المنسوجات الفرنسية . كما منعت تصدير الصوف لكى تحتفظ بهذه المـادة الخام للصنـاعة المحلية . وذهبت انجلترا فى ذلك إلى حد منعها قص أصواف الغنم فى مسافة ٥ أميال من الساحل حتى تتأكد

من عدم تهريب الصوف الخام إلى الخارج .

وكان هذا النظام يعطي المستعمرات حماية خاصة ، ومجالا واحدا للبيع . وأحتفظت انجترا لنفسها بالطباق والسكر والقطن والنيلة المنتجة فى مستعمراتها الامريكية ، ومنعت على نفسها زراعة الطباق حتى لا تنافس مستعمراتها فى ذلك . ولكنها حرمت على هذه المستعمرات تحويل هذه المنتجات صناعيا كما حرمت عليها كل تجارة مباشرة مع الخارج . وكان فى ذلك أكبر اغراء للعمل فى التهريب .

ولقد سارت فرنسا على نفس هذه السياسة . وقام كولبير بانشاء هذا النوع من الاحتكار الاستعمارى لكى يحصل على مواد المستعمرات دون أن يفقر فرنسا ولكى يوسع سوق المنتجات الوطنية . ولكنه وضع المستعمرات بهذا النظام فى مرتبة المقاطعات الفرنسية الداخلية ، ومنع عليها كل صلة مع الخارج . ووجههم صوب التخلص من الأجانب وطردهم ، وحرية العمل لكل الفرنسيين . وهكذا أصبحت المستعمرة أرض صيد خاصة وأصبحت ملكا للدولة المستعمرة حتى يمكنها أن تصبح عملية مربحة .

ولقد طبقت الدول نفس التطرف فى المبدأ على عمليات النقل التى كانت حكرا للدول المستعمرة . وقام الفرنسيون بمصادرة كل سفينة اجنبية ترسو أمام الجزر أو تقلع أمام السواحل ، وكانت عقوبة بحارتها تصل الى السجن لمدة ستة أشهر وعقوبة قبطانها تصل الى ثلاث سنوات من التجديف الاجبارى فى السفن الفرنسية وعقوبة المعمرين الذين يتعاملون مع هذه السفن هى غرامة تبلغ خمسمائة جنيه .

وكانت قسوة هذا المذهب التجارى تتفق مع روح العصر وروح

القوميات الناشئة . ونتج عن هذه السياسة نمو قوة بريطانيا البحرية وتفوقها على قوة الاراضى المنخفضة ، وحصولها على أول أسطول فى العالم ، وبنائها لامبراطورية إستعمارية كبيرة . أما فرنسا فانها قد أعادت بناء أسطولها فى عصر كولبير ، وبلغت مرحلة من الازدهار التجارى الواضحة فى عصر لوى الخامس عشر ، نتيجة لسيطرتها على الجزر . وإذا كانت الروح التجارية قد أعطت بعض الضحايا فانها كانت تتمثل فى إسبانيا الذى تحول نظام الاحتكار فيها الى نظام تهريب ، وفى الاراضى المنخفضة التى لم تتمكن من الاحتفاظ باحتكارها للمناطق الواقعة فيما وراء البحار .

وكانت هناك كثير من الاختلافات بين المبدأ والتطبيق الذى لم يكن صارما مثل صرامة المبدأ ، فكانت هناك كثيرا من الاستثناءات وكثيرا من التحايل لتقليل صرامة الاحتكار . بل لقد تطور هذا المبدأ نفسه وادخل عليه كثير من التعديل الذى قلل من صرامته . ولم يكن كل الرجال الذين قاموا بتطبيقه يمثلون نفس الاتجاه . فكان التورى فى انجلترا أقل اصرارا على الحماية من الوجز ونادوا بأن تشريعات الدولة لا يمكنها أن تغنى البلاد وأنه كلما كان تدخل الحكومة فى التجارة أقل ، كان ذلك أحسن بالنسبة للجميع . أما فى فرنسا فان مجلس التجارة الذى كان يجمع نواب الموانى وبعض كبار الموظفين فقد عمل ضد اتجاه كولبير . ولم تكن السياسة التجارية فى ذلك العصر بناءا صارما جامدا . لقد كان هذا المذهب يعنى سيطرة الدولة ، ولكن اعطاء عملية الاستعمار لشركات خاصة كان يعنى عدم ترك كل شيء للدولة . وكانت الامتيازات الممنوحة للشركات تمنع كل منافسة ، ولكن ذلك لم يكن بشكل نهائى خاصة وأن الحرية قد عادت الى التجارة الفرنسية فى كندا ثم الانتيل . ولم تكن الرغبة فى

الحصول على الذهب تمنع التجارة مع البلاد التى تبيع أكثر مما تشترى ، خاصة وأن الغرب كان يتاجر مع الهند التى كانت تتجمع فيها كميات كبيرة من المعادن الثمينة وبشكل جعل أوربا تنزف ذهب أمريكا ، لكى تغنى به الهند . ولكن أحدا لم يكن يجبر أوربا على ذلك ، كما كانت الدول الاوربية تربح من جديد بتجارتها بين آسيا وآسيا بتجارتها فى أمريكا .

والواقع أن العصر التجارى كان يشتمل على بعض التسامح ، فقامت المستعمرات باستقبال سفن الأجانب ومنتجاتهم بمجرد أن يصل أحد أفراد أسرة البوربون الى عرش مدريد وحصلت فرنسا على حق التجارة فى كل الامبراطورية الاسبانية . كما حصلت انجلترا بمعاهدة أوترخت على حق ارسال سفينة فى كل عام إلى الممتلكات الاسبانية فى أمريكا الجنوبية . وكانت ترسلها محملة بالسلع . ولكنها كانت مصحوبة باسطول يعيد ملأها بالبضائع بعد كل عملية تفريغ فى أحد الموانى . كما قامت البرتغال باعطاء انجلترا حق المتاجرة مع البرازيل ، وقبلت فرنسا اللحوم الأجنبية فى الأنتيل . فلم يكن الاحتكار صارما وتاما .

ولم يكن من حق المستعمرات أن تبيع من حيث المبدأ الا للدولة المستعمرة . ولكنا نلاحظ أن كارولينا الجنوبية ، ومن بعدها جزر الأنتيل الانجليزية تصرف أرزها مباشرة فى بلاد اوربا الجنوبية . وتمكنت نفس هذه الجزر الانجليزية من المتاجرة رأسا مع أمريكا الشمالية ومع جزر الانتيل الفرنسية . وقامت جزر الأنتيل الفرنسية بدورها ببيع القهوة والعسل الأسود والروم إلى انجلترا الجديدة . كما قامت المارتنيك بالتجارة مع أمريكا الاسبانية ، وخرجت تجارة الفلبين فى معظمها من أيدى الاسبان.

وهكذا تظهر الروح التجارية والمذهب التجارى كمرحلة طبيعية فى تاريخ الشعوب وتاريخ الاستعمار ، مرحلة تحاول الإنسانية أن تعود اليها كلما بحثت عن توازن جديد . وإذا كانت هذه النظرية تحاول الحصول على كل شيء ، فانها لم تكن إلا شكلا سهلا ، وأكثر سلما من غيرها من أشكال التنافس الدولى . وكانت تمثل فى الميدان التجارى حرباً وقائية ، وكانت فى ذلك أقل وحشية من الحروب المسلحة الدموية .

ورغم ذلك فان الإصطدامات كانت كثيرة ، وأثرت فى المستعمرات . وتمثل هذه الحروب قائمة طويلة معقدة وتشبه حرب مستمرة .

وهناك الحروب الهولندية البرتغالية ، والهولندية الاسبانية التى تمكنت بها الأراضى المنخفضة من إنشاء امبراطوريتها ، وعلى حساب البرتغال .

وهناك الحروب الإنجليزية الهولندية التى وقفت فيها لندن ضد امستردام والشركات ضد الشركات الأخرى . وتمكن الهولنديون من طرد الإنجليز من منطقة التوابل ، وقام الإنجليز بطرد الهولنديين من أمريكا الشمالية . ولم ينتهى هذا الصراع إلا بعد وصول أسرة أورانج وتربعها على عرش إنجلترا .

وهناك الحروب الفرنسية الهولندية . فلقد قام الهولنديون باحراق السفن والبحارة الفرنسيين فى أندونيسيا حتى يمنعونهم من العودة اليها ، فقام لوى الرابع عشر بتغيير المعركة بطريقته .

وهناك الحروب الإنجليزية الإسبانية التى واجه فيها بحارة كل دولة بحارة الدولة الأخرى منذ عهد الارمادا . ووقعت عمليات الهجوم والسلب فى

جامايكا ومدوراس وجبل طارق ، كما اشتبك المعمرون من الدولتين فى معارك على حدود فلوريدا وجورجيا .

وهناك حروب فرنسية انجليزية مع حرب الوراثة الإسبانية وحرب الوراثة النمساوية ، وكانت كل الفرص تسمح باصطدام هاتين الدولتين وهما يسعيان الى التفوق وإلى السيطرة وكم من جزر الأنتيل من غير ملكيته من دولة إلى أخرى . واستولى الإنجليز على كويبيك ثم سلموها واحتفظوا بنيوفوندلاند . واستولى الفرنسيون على مدراس ثم سلموها ، واستمر التنافس .

ورغم كل ذلك فان هذا الاصطدام لم يعبىء إلا قوة بسيطة من كل هذه الدول ، ولم يؤثر على مجموع الشعب . ولقد تمكنت الشركات نفسها فى بعض الحالات من البقاء على الحياد فى وقت الإصطدام بين الدول . وربما كان هذا الموقف غريبا اذا كان الإستعمار سياسى ، ولكن الإستعمار التجارى كان لايهتم بالأراضى والأقاليم مثل اهتمامه بالتجارة ، وكان يهتم بالإستراتيجية أقل من اهتمامه بالأرباح ، ولم يكن أى نصر حربي يعنيه إلا بذلك القدر الذى يزيد فيه من ميزانيته الإجتماعية أو المالية .

(٢) اليسيوعيون فى باراجواى :—

لقد ظهر فى العصر الذى تختلط فيه السياسة الإستعمارية مع السياسة التجارية نوع جديد من الاستعمار لم يكن له أى مصلحة تجارية ، أو الذى كان يخضع هذه المصلحة لطموح أكثر سموا . ولقد قامت به جماعة اليسوعيين التى عملت فى باراجواى لإعلاء مجد الله

وكانت باراجواى تمثل نهرا كبيراً ينتهى عند ريو دى لابلاتا . وكان الإسبانيون قد تعرفوا على ضفتيه وأخضعوها لسلطتهم . وكان البرتغاليون جيرانه المشاغبين . وشهد إقليم باراجواى وهو فى قلب قارة أمريكا اللاتينية مشروعا استعماريا غريبا .

وعلينا قبل أن نروى القصة أن نرسم صورة لأمريكا التى كانت تتقاسمها الدولتان الأيبيريتان . فكانت البرتغال بعد أن تخلصت من السيطرة الإسبانية قد حصلت على استقلالها دون أن تحصل على ممتلكاتها الخارجية، وكان عليها أن تعيد غزو البرازيل وتستخلصها من أيدى الهولنديين ، وقبلت لذلك أن تدخل اليها التجارة الانجليزية . فأصبحت البرازيل قاعدة للعمليات البريطانية فى أمريكا الإسبانية ومركزاً للتجـارة فى المنطقة . وساعدت عمليات التهريب على تقدم عمليات الكشوف الجغرافية ، ووصل المستكشفون فى الأمازون حتى ريو نجرو ، وتأسست المدن حول الهضبة الداخلية بعيدا عن الساحل . وقام البرتغاليون بانشاء مستعمرة سكرامنتو فى جنوب البرازيل بين نهر أورجواى ولابلاتا والبحر وقاموا بزراعتها بمساعدة الزنوج المستوردين من افريقية . واكتشف البرتغاليون مناجم للذهب والماس فى إحدى المناطق الجبلية الأخرى للبرازيل والتى جعلت من البرازيل أكبر اقليم منتج للذهب فى العالم ، فعاد الى لشبونه بعضا من هيبتها السابقة وأخذت تهتم باقليم باراجواى .

أما أمريكا الإسبانية فانها لم تتغير كثيرا ، بل ظلت تمثل تلك الإمبراطورية الشاسعة التى تحكمها مدريد دون أى منافس ولم يصل اليها أحد غير الهولنديين والفرنسيين عند أطرافها فى غيانا ، وجيرانها البرتغاليون من الشرق. وحينما أخذت أحوال قشتاله فى التدهور زادت الأطماع الأجنبية حول

ميراثها . ولكن هؤلاء المنافسين كانوا يعادلون الواحد الآخر . فلقد قامت فرنسا والنمسا بالاتفاق على التقسيم وعين لوى الرابع عشر أحد أفراد أسرة البوربون فى مدريد وتقاتلت أوربا من أجل الاحتفاظ بالأراضى الاسبانية . ولكن انجلترا كانت تراقب ثم حاربت وساومت وانتهى الأمر سنة ١٧١٣ باحتفاظ مدريد بامريكها .

ولقد انخفض انتاج المعادن فى المناجم ، ولكن اصلاح الأراضى وزراعتها كان يعوض فقر المناجم . وازدهرت الكروم وأشجار الزيتون وانتشرت زراعة الحبوب والطباق . ولكن هذه التجارة كانت مربحة للأجانب أكثر من ربحها لاسبانيا التى اضطرت الى نقل مركز ادارتها التجارية من أشبيلية الى قادس وتخلصت من نظام الأساطيل التجارية ، وسمحت للافراد بارسال سفنهم الى أمريكا بعد أن يقوموا بتسجيلها لديها . ولقد اقتبست اسبانيا نظام الشركات التجارية فقامت إحدى هذه الشركات باستغلال فنزويلا ونقل الكاكاو من كراكاس الى سان سباستيان ، كما قامت شركة هافانا الملكية بنقل العبيد الى كوبا ، فى الوقت الذى حاولت فيه شركة الفلبين منافسة الهولنديين فى المحيط الهادى .

ولقد أدت عملية الاستكشافات إلى القضاء على كثير من الغموض الذى كان يحيط بالعالم الجديد فى الوقت الذى مدت فيه الاحتلال الاسبانى فى كل اتجاه ومع كل العناصر ومنهم اليسوعيون والفرنسسكانيون . وثبت الاسبانيون الهنود فى أماكنهم فى الوقت الذى حصلوا فيه على مقاطعات جديدة لمزروعاتهم ومزارعهم .

وكان عدد سكان أمريكا الاسبانية يتراوح بين عشرة واثنى عشرة

مليونا من الأهالى وكانت الوظائف العامة العالية محجوزة للاسبانيين المولودين فى اسبانيا ، والوظائف الصغيرة محفوظة للاسبانيين المولودين فى أمريكا . ويجىء بعد هذه الطبقات الحاكمة عناصر المخلطين من البيض والهنود وعناصر المخلطين من البيض والزنوج ثم الهنود ثم الزنوج الذين يعيشون معيشة خاصة . ولقد ظلت أمريكا محكومة على أنها مقاطعات اسبانية ، وكان هناك نائب للملك فى مكسيكو وآخر فى ليما ، ثم أنشأت اسبانيا منصبا ثالثا فى غرناطة الجديدة ، ورابعا فى لابلاتا « بونس ايرس » ، وعمل شارل الثالث على زيادة السلطة الملكية بتقسيمه هذه النيابات الأربعة إلى اقاليم ، وعين مشرفا على رأس كل اقليم علاوة على الحاكم والى جواره محكمة . وكان وزير الهند ، ومجلس الهند يراقب أمريكا من مدريد ، وبشكل مركزى ، وكثيرا ما ثار الأهالى ولكنهم كانوا مسالمين غالبيتهم . وأخضعت اسبانيا بهذه الطريقة امبراطورية شاسعة وبعدد بسيط من الحاميات ، إذ لم يزد عدد قواتها فى أمريكا الجنوبية على عشرة آلاف رجل .

وفى هذا الجو قامت تجربة اليسوعيين فى باراجواى وكانت بعثاتهم منتشرة فى كل العالم من الصين الى فنزويلا . أما تجربتهم فى باراجواى فكانت استعمارية مادامت قد انتهت بانشاء دولة وحققت إنشاء جمهورية ثيوقراطية . ولقد استند اليسوعيون الى المرسومات الملكية التى منحتهم منطقة شاسعة بين البرازيل وشيلى ووصلوا الى باراجواى وهم مصممين على انتزاع الهنود من قبضة جماعات العمل الاجبارى . وكان هنود هذه المنطقة مسالمين مما يسهل عمل المستعمرين من الناحية الحربية ، ويصعبه من الناحية الاقتصادية . ولقد وجد اليسوعيون أمامهم ١٢٠ الف من الهنود « الكفار »

الذين كان عليهم أن يكسبوهم الى المسيحية ويعلمونهم العمل ويقومون بحمايتهم والدفاع عنهم ولذلك فان اليسوعيين قد حرموا دخول باراجواى على الاسبانيين وعلى البرتغاليين .

وبدأ اليسوعيون بجمع الهنود فى قرى حتى يتمكنوا من تحويلهم الى المسيحية والعمل على كسبهم للمدنية ، فأنشأوا ثلاثين قرية تخضع كلها لكبير الجماعة . وكانت كل قرية تتمركز حول كنيسة وحول ميدان مستطيل تحده من أحد الجوانب المدافن ، ومن الجانب الاخر المدرسة وتحيط به اكواخ الهنود . وكانت القرية مركزا يعيش فيه الآباء اليسوعيون . وكان الهنود يحكمون انفسهم بأنفسهم وينتخبون الموظفين العموميين للقرية ، ولكن الاباء اليسوعيين كانوا يراجعون أسماء المرشحين ويوافقون عليها قبل الإنتخابات ويبعدون العناصر غير المرغوب فيها .

أما الإنتخابات فكانت علنية ، أى أنها كانت ديموقراطية فى ظل دكتاتورية مقنعة . ولم يكن اليسوعيون الا عبارة عن مستشارين من حيث المبدأ ، ولكنهم كانوا فى الواقع سادة مطلقين . وكان هناك فى كل قرية أحد الاخوان لتعليم فنون الزراعة والآلات والى جواره أحد القسس للقيام بالصلوات . وكانوا يسيطرون على كل الهنود الحمر .

أما الاراضي المحيطة فكانت تنقسم الى قسمين : الأول عبارة عن مراعى ومزارع للجماعة ، والثانى مقسم الى قطع تعطى لكل أسرة . أما المنازل والبهائم والادوات فكانت ملكا للجماعة ، ولا يملك الفرد إلا الدواجن .

وكان العمل اليومى منظما على طريقة الأديرة ومقسما بدقات الناقوس

وبالصلوات . فهناك النواقيس فى الصباح للنهوض ، وهناك النواقيس مع الشروق للصلاة ، ثم يذهب كل الى عمله سواء الى الحقل أو الى المصنع أو الى المدرسة فى التاسعة صباحا ، وعند الظهر الغذاء والراحة لمدة ساعتين . وبعد العمل فى المساء يعود الهنود للكنيسة ، وتدق النواقيس فى منتصف الليل « لليقظة الزوجية » إذ أنه يظهر بأن هؤلاء الهنود الحمر لم يكونوا غيورين على العمل من أجل زيادة نسلهم ، أو أعتقد اليسوعيون ذلك على الأقل .

وإذا كان الوقت مقسما بهذه الطريقة ، فان الاعمال كانت موزعة حسب الرغبات . وكان لكل فرد نصيب يساوى نصيب أخيه فى الإنتاج ، الذى يقوم القسيس بتوزيعه . وكان الهندى يعمل ثلاثة أيام فى كل أسبوع من أجل الجماعة والثلاثة أيام الأخرى من أجل أسرته . أما يوم الأحد فكان هناك الرقص واللعب والموسيقى ومسابقة الثيران أو التمرن على الاستعراض ، وباشراف أحد الآباء الجزويت . وكان على الهنود بعد المناورات أن يعيدوا أسلحتهم الى مخازن السلاح .

فهل كان هذا النظام موجها أو بدائيا ؟ إنه كان نظاما يخضع للتوجيه الأبوى ، وتوجيه على أطفال سذج وكان العمل إجباريا ، ولمدة ثلاثين ساعة كل أسبوع أما من لا يرغب فى العمل فكان الآباء يوبخونه أو يعاقبونه بالصيام أو بخمسة وعشرين جلدة أو بالسجن . ولقد عمل هذا النظام على تغيير حياة الهنود البدائية المتوحشة ، فتركوا تعدد الزوجات ، وتعلموا بعض العلوم . ولكنهم كانوا يتعلمون بلغتهم الوطنية ، وبشكل جعلهم يجهلون الإسبانية . أما الأطفال المتقدمين فكانوا يتعلمون اللاتينية ، رغم أن

اليسوعيين عملوا على عدم تكوين كثير من المثقفين من بين الهنود ، وعلموهم الحراثة وبذر البذور والحصاد والبناء .

وازدهرت باراجواى وزاد عدد سكانها ، وأصبح ٤٠٠ ألف هنـــدى ينتجون الحبوب والقطن والشعير . وكانوا يبيعون الفائض عنهم فى بونس ايرس التى كانوا يشترون منها ما يلزمهم من مواد تموين وأسلحة وملابس وأوانى ، وهى الأدوات التى لم يكـونوا يصنعـونها بأنفسهم . وكانوا يبيعون أكثر مما يشترون، وتمكنوا بذلك من أن يدفعـــوا الضريبة المتفق عليها إلى ملك اسبانيا بسهولة ، وكانت قرشا واحـداً ، أو بيسيتا واحدة عن كل رأس فى كـل عام .

ولم تكن باراجواى جنة من الجنات ، بل كانت تشبه الى حـــد كبير المعسكرات والأديرة ، فقد كـانت هنـاك المساواة المطلقـة فى المساكن والملابس والطعام، ولم تكن هناك نقود . وكـان العلاج مجانيا . ولكنها لم تعرف معنى الحرية ، ومن أول حرية العقيدة ، وحرية عدم القيام بأى عمل. وكـان الجزويت قد أدخلوا الهنود فى كـتائبهم وأخضعـــوهم لرئاستهم البطريركية بدعوى تخليصهم من عبودية جماعات العمل الإجبارية . وربما ندم الهنود على غاباتهم وحياتهم البدائية فيهـا دون دق النواقيس ، ودون حرث للأرض ، خاصة وأن المنتجات كانت تباع فى الخارج .

ولم تكن حياة هؤلاء اليسوعيين هادئة طـول الوقت ، خاصة وأن سكان سان باولو كـانوا يغيرون من وقت الى آخر، وكانوا يهدمون قرى اليسوعيين ويجبرون الأهالى على الهرب فى زوارقهم صوب الداخل وصوب الغابات الاستوائية . وكـان هناك الاسبانيون ، الذين أقاموا جماعات العمل

الإجبارى والذين كانوا يرغبون فى الحصول على ممتلكات الهنود الحمر وثرواتهم . وحتى كنيسة « الصعود » الاسبانية كانت تنافس الآباء اليسوعيين ، واتهمت بونس إيرس هؤلاء الآباء باستغلال الهنود وبتكديس الأرباح ، كما قامت حركة بين الفلاسفة ورجال الفكر فى مدريد، وعملت على فضح طغيان اليسوعيين أما الانجليز فكانوا يأسفون لهذه الدولة التى كان وجودها يمنع التهريب ، وقاموا بالنزول فى مستعمرة سكرامنتو البرتغالية، حتى يمنعوا امتدادها إلى شيلى وإلى بيرو .

ولقد شعر اليسوعيون بهذه الأخطار ، فبدأوا فى تدعيم مراكزهم ، وقاموا فى أيام الأحد بتدريب رجالهم على حمل السلاح . ووصل عدد جيشهم إلى مائة ألف رجل ، وكان لهذا الجيش مدفعية صنعت بأيدى الهنود، وقام البرتغاليون تحت ضغط الانجليز باقتراح مبادلة سكرامنتو مع اسبانيا نظير إعطائهم سبع قرى أو مستعمرات يسوعية فى باراجواى . وقام اليسوعيون بتوسيط تجار قادس والموظفين الاسبانيين فى أمريكا ، واصدقائهم فى مدريد، حتى يدافعوا عن أنفسهم . ولكن روما أصدرت أمرها سنة ١٥٧٠ وكان على اليسوعيين احترام هذا الأمر ، رغم أن معظم الهنود الحمر فى هذه القرى قد أخلوها وتركوها إلى قرى اليسوعيين الأخرى ، وكان عددها ثلاثة وعشرين . وأمتد أجل مشروع اليسوعيين ، ولكن لفترة قصيرة .

(٣) أوربا الشمالية :—

لم تكن الهند الغربية ، والهند الشرقية هى كل شىء فى العالم ، كما لم يكن عالم أوربا هو الوحيد الذى يمكنه أن يقوم بالاستعمار . وإذا كان نشاط غرب أوربا قد تفوق فى هذا العصر فى مناطق معينة من العالم فانه لم

يطرق مناطق أخرى لكى تقوم شعوب أخرى باستعمارها.

ويمكننا أن نبدأ بذكر بعض المشروعات الصغيرة التى قامت بها البلاد الاسكندنيافية مثلا ، ففى الوقت الذى قام فيه تجار كوبنهاجن باحتكار التجارة مع ايسلندا ، والتى قامت فيه شركة دانمركية باستعمار جرينلاند ، وبمنع وصول الأجانب اليها ، قامت الدانمارك بشراء مركز ترنكبار من أحد راجات الهند ، وسلمته الى بضع شركات للقيام باستغلاله ، دون أن تربح من ذلك الكثير . واحتفظت الشركة الدانمركية للهند الغربية بجزر سان توما وسان جان فى الأنتيل وقامت بزراعتهما . واشترت الدانمارك بعد ذلك من فرنسا جزيرة الصليب المقدس المعروفة بخصبها . وأصبحت كل هذه الجزر مراكزا للتهريب .

أما السويد فكانت قد بدأت عملياتها فى أمريكا . وقام المعمرون الذين أرسلتهم الشركة السويدية للهند الغربية بشراء الأراضى على ضفاف ديلاور وبنوا إحدى القلاع وحاولوا تعليم الهنود الحمر . ولكن «السويد الجديدة» وقعت فى أيدى الهولنديين فى امستردام الجديدة ، ثم وقعت بعد ذلك فى أيدى الإنجليز .

وحتى النمسا التى ورثت الأراضى الواطئة الإسبانية حاولت أن تتقرب من رعاياها البلجيكيين بانشائها شركة أوستند للتجارة مع أقاليم ما وراء البحار . وحصلت على بعض المراكز فى البنغال وفى المحيط الهادى . ولكن الإنجليز والهولنديين خشوا هذا النشاط واحتجوا عليه ثم هاجموا سفن الشركة وأغرقوا الكثير منها واضطرت فيينا الى التراجع عن هذا المشروع .

ولقد فضلت النمسا المستعمرات التي ورثتها في أوربا على المستعمرات البعيدة ، وخاصة حينما أعطاها تقسيم العالم الإسباني سنة ١٧١٣ المقاطعات البلجيكية ومقاطعات شمال إيطاليا . فأرسلت حاكما عاما الى الأراضي المنخفضة التي كانت إسبانية وقام المجلس الأعلى للأراضي المنخفضة باتخاذ قراراته من فيينا ، في الوقت الذي كانت فيه المجالس الخاصة في هولندا نفسها لا تحتفظ إلا بسلطة اسمية . أما في منطقة شمال إيطاليا فان الحاكم العام كان أقل سلطة من الوزراء المفوضين . وكان هذا النظام عبارة عن انتصار للادارة المركزية التي لم تأبه بتململ الأهالي .

وكذلك دوق براندبورج، وريث الفرسان التيوتونيين ، فقد حاول أن يشارك في عملية الاستعمار وأخذ في التعامل مع رؤساء الزنوج على ساحل الذهب وحصل منهم على منطقة قرب آكسيم . وأعطى فردريك جيوم شركة براندبورج الإفريقية احتكارا تجاريا سمح لها بانشاء بعض المراكز المحصنة في هذه المنطقة، والاستيلاء على إحدى الجزر الواقعة في إحدى خلجان موريتانيا .

أما فردريك الثاني فقد كان عمليا أكثر من ذلك ، واحتفظ بمجهوداته لعملية استعمارية برية وقامت وكالات همبورج وفرانكفورت بجمع المهاجرين من الهولنديين ومنطقة الراين والسويسريين وأرسلتهم صوب بروسيا وبوميرانيا وسيليزيا للعمل في تجفيف المستنقعات وفلاحة الأرض. وانضم الفارين من الإضطهاد الديني الى هؤلاء المعمرين المتطوعين . وكم من فتاة بولندية اختطفت لكي تتزوج بجنود فردريك . ورغم أن هذه العملية الاستعمارية كانت أقل شهرة من عمليات ما وراء البحار ، إلا أنها كانت اطول عمرا في آثارها .

وقامت الروسيا بنفس العملية ، خاصة وأن الأراضى لم تكن تنقصها ، وكان القيصر بطرس الأول يعرف أن بلاده تمتاز على كل البلاد الأخرى بمواردها من المعادن والمناجم ، الذى لم يحاول أى فرد ، حتى ذلك الوقت ، إستغلالها . وكان شعبه يبلغ أربعة عشر مليونا من السكان موزعين بين الأورال والبحر البلطى وكان القياصرة مصممين على عدم إنتظام تكاثر السكان حتى يجدوا لهم متنفسا ، فمهدوا للمستقبل وفى كل إتجاه ، ونظموا عملية التوسع الروسية .

أما فى الغرب فان نقل العاصمة من موسكو الى بطرسبرج كانت تمثل سياسة الروس الجديدة التى اتجهت صوب الغرب وصوب البحر منذ سنة ١٧٠٣ كانت الروسيا ترغب فى أن تصبح دولة أوربية ودولة بحرية . وقام الروسيون بقطع أشجار الغابات وتجفيف المستنقعات حول بطرسبرج . وقاموا بنفس الشىء فى كل الحكومات الإثنى عشر والأقاليم الثلاثة وأربعين التى تشتمل عليها الامبراطورية . فقام الروس باخضاع القوزاق ، وأقاليم ، البحر البلطى ، وأوكرانيا ، وبولندا الشرقية ، والقرم . وأعطت القيصرة كاترين للمعمرين ، وكانوا فى غالبيتهم من الألمان ، سلفا مالية بدون أرباح لمدة عشر سنوات ، ووعداً باعفائهم من الضرائب لمدة ثلاثين سنة واستقدم الروس الخبراء والمهندسين من الخارج وبنوا المدن التى حملت إسم الامبراطورة مثل آيا كاترينبرج وآيا كاترينو سلاف .

وأما فى الشرق ، وفيما وراء الأورال ، فان الروس قد تقدموا ببطء فى منطقة الاستبس ، وكان المجال متسعا أمام الفلاحين الذين كانوا يهربون من نظام عبيد الأرض والفقر للسير واستعمار المناطق الشرقية . وبدأ المستكشفون الزحف ، وضغط قوزاق منطقة الدون على التتار واستولوا على

سيبير التى أعطت اسمها لسيبيريا ؛ وجاء بعد ذلك المعمرون واستوطنوا هذه المناطق. وكان كل مركز جديد يشتمل على قلعة ومخزن لمواد التموين ومخزن للفراء ، ويعتبر قاعدة لوثبة جديدة الى الأمام . واستمر الاستعمار فى هذه المناطق شبه الخالية بزحف الأهالى وباستمرار بين الروسيا والأقاليم المجاورة لها حتى وصلوا للمحيط الهادى وإلى كمتشكة سنة ١٦٩٦ . وكانت سرعة الزحف عبارة عن مائة الف كيلو متر مربع فى السنة . حقيقة أن جنكيز خان كان قد سار فى الإتجاه المضاد بسرعة أكثر من ذلك ، ولكن الإستيلاء الروسى على هذه المناطق تحت سلطة الحكام كان أكثر رسوخا . وإذا كان المناخ صعباً فان القبائل كانت مبعثرة ومسالمة وكانت تقسم بسهولة بالولاء للقيصر . ولم يقابل الروس مقاومة جدية إلا فى منطقة منشوريا التى دافعت عن نفسها وأبعدتهم عن حدودها .

وأما فى الجنوب، وصوب بلاد تيمورلنك والهند، فان الروسيا توسعت وبمنهج منظم . أما فى الشمال فان بيرنج ، الذى كان ضابطا دانيمركيا فى خدمة القيصر ، قد تمكن من استكشاف أبعد نقطة فى القارة الآسيوية ، وتأكد من أن آسيا منفصلة عن أمريكا ، ووصل الى سواحل العالم الجديد سنة ١٧٤١ . وأقام الروس على بعض الجزر وأخذوا فى صيد الحيوانات ذات الفراء ، وعبروا المضيق واستعدوا للمطالبة بنصيبهم من الأراضى الأمريكية .

أما الصين فانها قد شهدت مجىء سادة جدهم المانشو الذين احتلوا بكين وأنهوا حكم أسرة المنج، ثم توغلوا من الصين الشمالية الى نانكين ثم وصلوا

إلى كانتون ، واخضعوا منغوليا وفرضوا عليها الجزية ، ثم عادوا صوب التبت ودخلوا الى الحسا ووضعوا مندوبين إلى جوار الدلايلاما وكلفوهما بتصريف السياسة الخارجية والشئون الدينية فى هذا الاقليم . وقامت أسرة تسينج المنشورية بالإلتفات الى الفلاحين الذين كان المنج قد أثقلوا الضرائب على كواهلهم . ولقد احترم التسينج الثقافة الصينية ، وقبلوا الصينيين فى الحكومة ، وسووا بينهم وبين المنشوريين فى الوظائف وأدخلوهم فى المجالس العليا . والواقع أن الصينيين هم الذين بدأوا بهذه الطريقة باستعمار منشوريا ، رغم أن الأسرة الحاكمة والمستعمرة كانت قد جاءت منها .

ولقد تمكنت فرموزا من صد الهولنديين ، وحاولت تخليص مانيلا من الإسبانيين ، ولكنها إنتهت بانضمامها الى امبراطورية المانشو .

ومع ازدياد نمو الصين خرجت عن حدودها فاخضعت جيرانها فى كوريا وسيطرت على أنام وسيام وقدم لها أمراء كابل وبخارى ولاءهم ، وانتشر بحارتها وتجارها فى جاوه والفلبين وجزر التوابل .

أما اليابان فانها قد بقيت منعزلة عن العالم . وذلك رغما عن أنها كانت قد بدأت فى عملية توسع ، وقام جيش يابانى بالنزول فى كوريا التى لم يتمكن الصينيون من الدفاع عنها إلا بصعوبة كبيرة . وكان قراصنة اليابان قد ملأوا بحر الجنوب وأنشأوا قاعدة على ساحل سيام ، ووصل التجار اليابانيون الى أنام وكمبودج وجاوة والفلبين وماليزيا . وكان اليابانيون قد التقوا هناك بالأوربيين ، ومنهم رجال التبشير والتجار الذين نجح بعضهم فى الوصول الى اليابان ولكن أباطرة اليابان خشوا من طموح العناصر البيضاء ، فأقفلوا حدودهم ، وحكموا على بلادهم بالعزلة . وبعد

رجال التبشير الذين صدر الأمر بطردهم في فترة ٢٠ يوما وحرمت الأراضي اليابانية على كل الأجانب ، فيما عدا الصينيين الذين سمح لهم بالبقاء في أحد أحياء ناجازاكي ، المواجهة لهذا الميناء . ولقد بقى اليابانيون أنفسهم داخل حدود بلادهم وحرم عليهم الخروج للخارج ، وكانت جريمة من يرتكب ذلك هي الإعدام ، ومنعتهم الحكومة من بناء السفن الكبيرة والتي لها أكثر من سارية واحدة حتى تحرمهم من وسائل السفر وظل اليابان عالما خارج هذا العالم ، وتحت حكومة اوتوقراطية ووطنية ، ولا يرغب في الاستعمار ، ولا يقبل أن يستعمره الغير .

(٤) نتائج العصر التجاري :ـ

لقد اختلف اتجاه السير في العالم ، وبعد آلاف من السنين أخذت أوربا في الزحف على آسيا ، بعد أن كانت آسيا هي التي تزحف على أوربا . وانتهى بذلك عصر الجماعات المتنقلة والتي تشتغل بالرعي ، وجاء دور الرجل الأبيض ، الذي تمكن في خلال قرن ونصف ، ومنذ أوائل القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر ، من غزو الهند وسيبيريا ، وانتهى من التوغل في كل العالم الجديد .

ولقد اعتمد انتصار البيض على تفوق واضح مادي في فن الملاحة وفن الحرب وفنون الصناعة والفنون المالية ، في الوقت الذي ظل فيه الشرق مقيدا بتقاليده .

وكان هناك التفوق المعنوي الذي يرجع الى روح المخاطرة والتحرر ، حتى تحت إدارة ملكيات من الطراز الاسلامي أو الفرنسي ، والتي كانت أكثر تحررا من

روح الطغيان الشرقى . وكان من نتيجة ذلك أن أعطى الغرب طلائع تتوغل فى كل أنحاء العالم . وفى الوقت الذى أخذ فيه الغرب يخترع ويتقدم ظل فيه الشرق ثابتاً فى مكانه .

وعلينا أن نلاحظ أن مركز التفوق عند الغربيين قد إنتقل من البحر المتوسط لكى يثبت على بحر المانش وبحر الشمال . وأخذت اسبانيا فى التقهقر وانخفض عدد سكانها فى منتصف القرن السابع عشر من ثمانية ملايين إلى أقل من خمسة . وتقهقرت صناعتها وتفتت امبراطوريتها الأوربية. حقيقة أن اسبانيا احتفظت بمراكزها الأساسية فيما وراء البحار ولم تخرج من أيديها إلا بعض جزر الانتيل ، ولكنها احتفظت بكوبا وبورتوريكو ونصف سان دومنيجو الشرقى . أما فى المحيط الهادى فقد استولت على جزر كارولينا وماريان التى سميت باسم شارل الثانى ووالدته مارى آن .

أما البرتغال فانها قد نزلت عن قمة مجدها ، وكان ضم اسبانيا لها مميتا لممتلكاتها . وبقى لها فى الغرب جوا وسيلان وماكاو وجزء من تيمور ، كما بقى لها على المحيط الاطلسى مزاغان وماديرا وجزر الخالدات وسان توما وفرناندوبو ، وبقى لها فى أفريقيه السوداء سواحل أنجولا وموزمبيق ، وبقى لها فى العالم الجديد البرازيل وسكرامنتو . ولكن بعض مستعمراتها أخذت فى التحرر وقبلت لشبونة فى بعض الحالات حماية انجلترا التى أخذت تحصل على بعض الإمتيازات فى تجارة البرازيل .

أما البندقية فقد انتهت ، ورغم أنها بقيت مستقلة إلا أنها عاشت على ذكرياتها وعلى ماضيها المجيد .

أما الامبراطورية العثمانية فانها قد احتفظت بمظهر قوى ، وتمكنت من إرهاب أوربا حينما قام سلطانها بحصار فيينا . ولكنها كانت تحمل عوامل

نهايتها وفنائها . ذلك أن الفوضى قد أخذت تدب بين الجنود والفساد بين الباشوات الذين أصبحوا مجرد حكام إسميين ، بينما أصبحت السلطة الفعلية فى أيدى دايات الجزائر وبايات تونس والمماليك فى مصر ، وكانوا مستقلين إستقلالا فعليا ، إن لم يكن إستقلالا واقعيا وغير تام . وقامت العصابات بتحدى سلطة الدولة فى العرب وفى كردستان . واضطرت القسطنطينية إلى ترك المجر ثم ترانسلفانيا وأوكرانيا .

وقامت ممالك متعددة فى افريقية حاولت أن تجمع القبائل المتفرقة فى مناطق الاشانتي ودارفور وداهومى . ولكن عملية تصدير العبيد استمرت ، واستمر ذلك النزيف من أبناء القارة وصوب العالم الجديد . وظلت تجارة العبيد ضرورية ما دامت مزارع القطن كانت فى خدمة المصانع ، وكانت هذه المزارع محتاجة الى سواعد الافريقيين .

أما الدول التى ظهرت فهى الأراضى المنخفضة التى حصلت على استقلالها واحتفظت بغيانا وبمستعمرة رأس الرجاء الصالح التى وصل المعمرون فيها حتى نهر أورانج ، وبعض المراكز التجارية فى الهند ، وبكنوز أندونيسيا . ولكن هولندا كانت محتاجة لإنجلترا للاحتفاظ بأراضيها ، ثم أصبحت هولندا أحد التابعين لانجلترا . ورغم أن قوتها المالية كانت متفوقة ، الا أن قوتها البحرية كانت قد بدأت فى التقهقر أمام قوة انجلترا البحرية .

وكانت هناك امبراطوريتان قد أخذتا فى النمو والإزدهار وهما فرنسا وانجلترا . وإذا كانت الامبراطورية الفرنسية لا تهم الرأى العام فى بلادها فى كثير أو قليل ، وإذا كانت قد نشأت بدون تأييد من الرأى العام ،

فان الإمبراطورية البريطانية كانت على العكس من ذلك من عمل البريطانيين أنفسهم .

وكانت لفرنسا بعض المراكز فى افريقية الشمالية وفى القارة الأفريقية من السنغال إلى ساحل الذهب ، وكانت لها بعض الأطماع فى مدغشقر ، ووصلت الى بعض النتائج فى جزيرة فرنسا وجزيرة البوربون ، وكانت لها امبراطورية لا تحلم بها فى الهند ، ومستعمرات فى الانتيل ومنها سان دومينجو ، ولها قوس كبير من مصب الميسيسبى إلى مصب سان لوران .

أما إنجلترا فكان لها ، علاوة على إيرلاندا ، ثلاثين مستعمرة موزعة فى افريقية والهند والأنتيل وأمريكا ، خمسة منها ملك للتاج وهى جبل طارق ومينورقة ونيوفوندلاند واسكتلندا الجديدة وجزر الأنتيل الصغرى ، وثلاثة منها ملك للشركات وهى خليج هدسن ومستعمرات أفريقية الغربية والهند الشرقية . أما المستعمرات الامريكية فقد كانت لها مجالس تنفيذية ، دون أن يمنع ذلك من أن تكون بعضها ملكا خاصاً . وكان كل هذا المجموع يعيش على الطريقة الانجليزية ، فكان الناس يشربون الشاى فى نيويورك ويلعبون الجولف فى فرجينيا ، ويجتمع السادة فى النادى فى جمايكا كما يجتمعون فى بمباى . لقد كانت انجلترا تنتشر فى العالم لكى تجد نفسها فى كل مكان وكأنها فى بلادها .

وكان كل من الانجليز والفرنسيين يعتقدون فى نظرية سيادة الرجل الأبيض وتفوقه . وكانت التفرقة العنصرية طبيعية بالنسبة اليهم كما كانت بالنسبة للاسبانيين والهولنديين ، فكانوا يعتقدون أنهم يأتون بالاله الحقيقى ، والأخلاق الحقيقية ، ونظرتهم إلى النظام والسلام . وليس معنى ذلك أنهم

كانوا يحتقرون الاهالى أو العبيد . وكان المبشرون اليسوعيون فى باراجواى يعاملون الاهالى بطريقة أبوية ، كما كان قانون كولبير ينظم علاقات الرجل الملون ويحد من حقوق السيد ويفرض عليه ضرورة اطعام وحسن معاملة عبيده . ورغم ذلك فانه لم يعطى للزنجى إلا وضعية الأدوات والمنقولات . وكانت الضرورات الاقتصادية أهم بكثير من النظرة الإنسانية .

ورغم ذلك فان المستعمرات قد تطورت رغم تغير العلاقة بين المستعمر والمستعمر . ولم تعد التوابل والذهب هى أساس هذه المستعمرات وأخذت مستعمرات كثيرة فى التحول إلى مستعمرات فلاحية ، أى مستعمرات توطين دون أن تترك دورها كمستعمرات تجارية . وأصبحت أهم الثروات هى ثروات السكر والطباق والكاكاو . ومع زيادة ضغط ونمو الحاجات انسع النظام التجارى ، وتحولت الرحلات المثلثة والسفن ذات الامتياز للتجارة وعملية التهريب، وجاءت الاتفاقيات التجارية التى قللت الامتيازات وحدت منها . واستمرت الشركات الاستعمارية فى طريقها ولكن احتكارها أصبح غير كاملا ، وحلت بعضها لكى تترك المجال للدولة فى الادارة ، والمجال للافراد فى التجارة . وأصبح البحر حراً ، فاصبح من الواجب أن تصبح التجارة حرة . وأخذ الاهالى يهتفون بحياة الملك فى سان دومينجو ، ولكن على أساس إبعاد الشركات . وهتف آخرون فى عصر كولبير منادين بترك حرية التجارة والباب المفتوح التى أعطاها رجال الاقتصاد هيكلا واضحاً فيما بعد Laissez faire laissez passer .

ولقد غرق الغرب فى ذلك الوقت حتى الثمالة فى نظرية تفوقه ، وأصبحت الظاهرة الإستعمارية مهمة حتى أنها أخذت مكانها فى اللغة . وكانت الكلمة المشتقة من اللاتينية Colonia حتى ذلك الوقت لا تحمل الا معنى

زراعى فى البادية ، ولكن هذه الكلمة أخذت معنى ديموجرافيا ، وبعد أن كانت المستعمرة فى عصر تفوق البندقية تعنى مجموعة من الرجال المهاجرين ، احتفظت بهذا المعنى وأضافت اليه معنى آخر فى عصر الشركات ، فأصبحت تعنى منطقة يسكنها المهاجرون . ثم نشأ فعل يستعمر بعد ذلك ثم مذهب الاستعمار نفسه فى أواسط القرن الثامن عشر . والواقع أن اللغة كانت تسير وراء الأفعال ، أفعال الرجال ، وتنطق بما يفعلون . وكان الرجال يستعمرون منذ قرون طويلة ، ولم يخترعوا الكثير حتى فى عصر الشركات الإستعمارية ، إذ أن العالم القديم كان قـد شهد مستعمرات للفلاحة ومستعمرات للتجارة ومراكز بحرية ومستعمرات توطين . لقد كانت نظما قديمة ولكنها ظهرت من جديد وبشكل جديد ، وفى آفاق جديدة وبوسائل جديدة ، وبقوة تأثير جديدة وهامة على الاقتصاد وعلى البشرية .

الباب الخامس

الثورات والاستعمار

الفصل الرابع عشر

التفكير الجديد

ما ان ظهرت كلمة الإستعمار فى العصور الحديثة وبدأ الناس فى استخدامها حتى حدثت تطورات خطيرة فى تاريخ الاستعمار وانهارت أكبر الامبراطوريات الإستعمارية سواء أكانت فى غالبيتها مستعمرات فرنسية، أو كانت هى أغنى المستعمرات الإنجليزية ، ومعظم المستعمرات الهولندية والإسبانية والبرتغالية . وكان من حق العالم أن يتساءل عما إذا كان هذا العصر هو عصر الاستعمار أو عصر نهاية المستعمرات .

(١) فرنسا تفقد الهند وكندا :-

لم يكن فقد فرنسا للهند وكندا الا تغيير من يستعمر هذه المستعمرات خاصة وأن إنجلترا قد أخذت مكان فرنسا . وكانت هاتان الدولتان تتحاربان منذ مايزيد على أربعة قرون وبصفة شبه مستديمة سواء بشأن أكويتانيا أو كاليه أو مدراس أو كندا . وزاد الصراع فى أثناء القرن الثامن عشر مع نمو المصالح وتضخمها وأخذت الشركات المختلفة فى التنازع على أمراء الهند وتوابلها ، أما فى كندا فإن التجار والصيادين قد أخذوا يتنازعون الغابات والفراء . وكان الكنديون الفرنسيون يخشون من أن يهاجمهم الإنجليز من واجهتين ، الأولى فى الشمال مع شركة خليج هدسن ، والثانية فى الجنوب مع معمرى انجلترا الجديدة . وأعتقدت مستعمرات انجلترا الثلاثة عشر فى أمريكا أن الممتلكات الفرنسية قد أخذت فى تطويقها من كويبك حتى نيو أورليانز . وخشت نيويورك من أن تهاجمها

العناصر التي تسكن أقليم المدسن . وتسببت هذه المناقشات والمخاوف المتبادله في سوء تفاهم تطور إلى تنافس إستعماري .

وكانت العلاقة بين القوى تسمح بتوقع فوز فرنسا في حالة مواجهتها لانجلترا ، ولكن انجلترا نجحت وبسهولة فيما وراء البحار ، ونجحت بأساطيلها التي كانت أكثر عدداً ، وبوسائلها المالية التي لم يكن مجلس العموم يناقشها ويتحكم فيها في الوقت الذي كانت فيه البرلمانات الفرنسية تدافع عمن لا يدفعون الضرائب ونجحت انجلترا باستنادها إلى ذلك العدد الكبير من المعمرين الإنجليز ، وعلى الأقل في أمريكا التي كان عددهم قد بلغ فيها ما يزيد على مليونين ، أما الفرنسيين في كندا فلم يكن عددهم قد زاد على ٦٥ ألفا . فكيف يمكننا أن نشك في نتيجة صراع نسبة المتحاربين فيه ثلاثين أمام كل فرنسي . ؟

وهل كان في وسع باريس ارسال نجدات لامريكا أوكانت ترغب في ذلك ؟ لقد كان على فرنسا أن تدافع عن نفسها في أوربا حيث عملت بريطانيا على تكوين المحالفات القارية ضدها ، وكان مصير الحروب يتقرر في أوربا ، حتى ولو كانت حروبا استعمارية ، ولم يكن في وسع أحد أن يهتم بالاصطبلات إذا كانت النار مشتعلة في داره .

حقيقة أن الملك كان يهتم بالمستعمرات وكان البلاط مصمما على الإستمرار ، وطالب الفرنسيين بالمقاومة وبأى ثمن كان . وقام مونكالم بكل ما كان في وسعه أن يقوم به ، ولكنه كان يحارب ضد الإنجليز وضد جزء هام من الرأى العام الفرنسي الذى كان لا يؤمن بالمستعمرات والذى كان يرى أن الدفاع عنها يكلف ملايين الجنيهات كل سنة . وأخذ

الناس يطالبون بترك المستعمرات ونفض أيدى فرنسا من هذه المشكلات، وحتى شركة الهند قامت بسحب دوبلكس بعد أن زاد نشاطه بدرجة ملحوظة .

وعلى العكس من هذا الإتجاه فى فرنسا نجد أن بت كان مصمما على الوصول إلى إنتصار لبـــلاده، ولم يتراجع عن تضخيم الميزانية وزيادة الضرائب ودين الحكومة . وحصل الفرنسيون منه على مينورقة وعلى كلكتا ، وإنضم الهنود الحمر إلى الفرنسيين فى كندا فزاد عزم بت وتصميمه على الإستمرار فى الحرب، واستند إلى تفوق إنجلترا البحرى ونادى بأن من حق إنجلترا وحدها أن تحصل على المستعمرات .

وبدأت الحرب فى وادى أوهيو وجاء واشنجطن الشاب على رأس المعمرين الإنجليز فى فرجينيا لكى يقف أمام الفرنسيين الذين بلغوا قلعة ديكون . أما فى ألبانى فان بنجامين فرانكلن قد حاول توحيد المستعمرات أمام الخطر الفرنسى ، ولكن بدون جدوى، واستولى الإنجليز على قلعة ديكن وسموها بتربرج ، وقام الإنجليز بطرد الآلاف من المعمرين الفرنسيين من أكاديا بعد استيلائهم عليها وتحويلها إلى إسكتلندا الجديدة ، وبنفس طريقة الاشوريين القديمة . وهاجم ولف مونكالم وسيطر الإنجليز على كل كندا الفرنسية .

أما فى الهند فان كلايف قد غزا لا ليتولندال وأصبحت هضبة الدكن فى غالبيتها تحت سيطرة الانجليز . وكان مصير بوندشيرى هو نفس مصير كويبك . وكان من الممكن أن تقل نتائج هذه الانهزامات فى حالة ما إذا تطورت الحرب التى كانت مستعرة فى أوربا منذ سبع سنوات فى صـــالح فرنسا ، خاصة وأن فرنسا كانت تحتـل هانوفر موطن الأسرة المالـكة

البريطانية نفسها ، وكاد فردريك ملك بروسيا أن يخرج عن تحـــالفه مع انجلترا . ولكن الحظ لعب دوره، و بدل أن يخرج عن تحالفه مع انجلترا ، خرجت الروسيا عن محالفتها مع فرنسا التى اضطرت إلى التفاوض من أجل الصلح .

وكان شوازيل يعتقد أن معاهدة باريس سـنة ١٧٦٣ لم تكن إلا هـدنة تسمح له بالاستعداد وبالانتقام ، ولذلك فانه قبل أقسى الشروط المفروضة. وتخلت فرنسا عن كل كندا وعن كل المعمرين الموجودين فيها ، ولم تحتفظ إلا ببعض الجزر الصغيرة وبحقها فى الصيد الى جـــوار نيوفوندلاند . كما تركت فرنسا لويزيانا لاســبانيا التى كانت قد دخلت فى حرب خاسرة ، ولكى تعوضها عن فقد فلوريدا التى كانت مدريد قد ســلمتها لانجلترا . وتخلت فرنسا عن الانتيل وعن جزر توباجو وسان فانسان ودومينيك كما تخلت فى افريقية عن السنغال التى كانت مركزا لتجارة العبيـد . وتخلت فرنسا عن كل الهند فيما عدا خمس مراكز تعهدت بعدم وضع حاميات فيها . وودعت بذلك كنوز مالابار وكوروماندل وامال البنغال وهضبة الدكن.

وكانت هذه المعاهدة القاسية التى اثبتت انتصـار انجـلترا ، تعنى تخلى فرنسا عن حركة الاستعمار . ولم ترحب بها انجلترا ، رغم أن فرنسـا قـد رحبت بها . وثار بت فى لندن مستنداً إلى أن انجلترا قد اعادت جواديلوب والمارتنيك وسانتا لوتشيا وكوبا والفلبين ، بعد أن كانت القوات الانجليزية قد استولت عليها . وكان فى واقع الأمر يرغب فى الاحتفـــاظ بكل المستعمرات الفرنسية والمستعمرات الاسبانية . وكان الانجـليز يرون أن صحارى كندا الثلجية ليست لها قيمة غابات ونباتات جواديلوب .

ونفس هذا التفكير والموازنة جعل الفرنسيين يفرحون بهذه المعاهدة وجعلهم يعتقدون بأنهم قد ضحكوا على الانجليز وأعطوهم بعض الصحارى الثلجية ، مع الهند التى كانت مركزا للحروب التجارية ، واعتقدوا أنهم قد احتفظوا بالأهم ما داموا قد احتفظوا بسان دومنجو وبالجزر . ولم تكن للفرنسيين صلات وثيقة بكندا والهند خاصة وأن المعمرين الكنديين كانوا يتزوجون فيما بينهم ، أما معمرى الانتيل فكانوا على العكس من ذلك يتزوجون من بنات فرنسيات ، ويزوجون البنات هناك من أزواج فرنسيين . وكان لمعظم الأسر الفرنسية بنتا أو أختا أو إبن عم فى برزخ السكر ، وكان معنى التخلى عنها للانجليز تقطيع روابط الأسر . أما بالنسبة للهنود الحمر فى كندا أو فى لويزيانا فان صلات الفرنسيين كانت أقل ، وتسمح لهم بالتخلى عن هذه المناطق .

ولقد وافق الملك نفسه على هذه المعاهدة وقبل هذه الحلول رغم ظهوره بمظهر مخالف . ولقد حاول كل من لوى الخامس عشر ولوى السادس عشر أن يصلحوا ما أفسدته هذه المعاهدة فجمعوا بين أيديهم ، وتحت سلطتهم المباشرة، ما بقى لهم من مستعمرات ، واشتروا من شركة الهند جزر فرنسا والبوربون ، ثم كل ممتلكاتها السابقة وتعهدوا بدفع معاش يبلغ ٥ ٪ الى حملة الأسهم من قيمة أسهمهم سنة ١٧٧٠ . وإذا كانت هذه الشركة قد أعيد تكوينها سنة ١٧٨٥ فانه لم يصبح لها من إمتيازاتها السابقة إلا الامتيازات التجارية ، دون أى امتيازات اقليمية .

وحاولت فرنسا أن تعوض ما فقدته واتجهت صوب غيانا وارسلت إحدى الحملات بسرعة وبدون كبير اعداد وانزلت ١٣ ألف مهاجر من كل الجنسيات ومن كل الديانات ، ولكن المناخ كان معاديا ومات كثير من

المعمرين . وفشلت فرنسا كذلك فى جزر مالوين التى حاول شوازيل احتلالها ، وجاءت اسبانيا لكى تعارض عمليته . وكان الفشل كذلك من نصيب الفرنسيين في مدغشقر . ولكن بيجو نفيل استكشف تاهايتى ، واستكشف غيره جزراً أخرى جنوبية، وانتشرت بعثات الاستكشاف الفرنسية فى المحيط الهادى الجنوبى وحاولت فرنسا أن تبنى إمبراطورية إستعمارية فى هذه المناطق .

وزاد أزدهار جزر فرنسا والبوربون وخاصة بعد أن دخلتها زراعة القرنفل والمسك الذى نافس الاحتكار الهولندى، وأصبحت هذه الجزر ديكورا جميلا يمكن تمثيل مسرحية بول وفرجينى فيه

أما الأنتيل فقد أثبتت، أنها أصلح من سهول كندا الثلجية . وقام ١٨ الف رجل أبيض و٧ آلاف ملون حر بتشغيل ٢٠٠ ألف عبد فى سان دومنجو وفى مزارع قصب السكر والنيلة ،وكانت كل المستعمرات الأوربية مجتمعة لا تنتج من السكر نصف ما تنتجه هذه الجزيرة . وكانت فرنسا لا تستهلك إلا $\frac{1}{8}$ السكر الذى تنتجه هناك . وكان مجموع التجارة الخارجية الفرنسية ، بما فى ذلك تجارة هذه الجزر، تصل الى نفس مجموع تجارة بريطانيا الخارجية . وكان هذا عاملا أساسيا يساعد الفرنسيين على نسيان كندا والهند .

وعلاوة على ذلك فان عزاءاً آخر كان يطمئن الفرنسيين ، ذلك أن شوازيل الذى كان قد ضحى بالأمبراطورية الفرنسية فيما وراء البحار قد حصل لفرنسا على جزيرة فى البحر المتوسط ، جزيرة فقيرة ولكنها جميلة ويمكنها أن تصبح قاعدة أمام الإنجليز فى هذا البحر وكانت

جنوا تمتلكها دون أن تتمكن من اخضاعها فأعطتها لفرنسا سنة ١٧٦٨ نظير إعفائها من ديونها القديمة .

أنها هذه الجزيرة العذراء المتعصبة التى رأت منذ عهد أبناء قرطاجنة عدداً كبيراً من الغزاة دون أن تخضع لهم . وحتى مع الفرنسيين ظهرت وكأنها لم تخضع . ذلك أن باولى قد قاوم الفرنسيين ، وكان أحد قواده هوشارل بونابرت . ولكن كورسيكا كانت أقل بعداً عن سان لوران ووضعت فرنسا حامياتها فيها . كما أن فرنسا حاولت كسب الشوار وأنشأت مجلسا فى الجزيرة وأصبح شارل بونابرت نائبا عنها . وأعطت فرنسا المنح لشبان كورسيكا الذين يرغبون فى الدراسة فى فرنسا ، وحصل نابليون بونابرت على إحدى هذه المنح للدراسة فى بريين . فهل تنجح سياسة التهدئة وتسير مع سياسة الإستعمار ؟ بدون شك ، وبسرعة ، ولكن كورسيكا هى التى ستستعمر فرنسا مع نابليون بونابرت .

(٢) الفلاسفة والاستعمار :-

علم الفلاسفة الرأى العام طريقة التفكير ، وعلموه فى نفس الوقت إحتقار كندا بنوع خاص والمستعمرات كلها بنوع عام . ولقد تمنى فولتير أن يرى كندا تغرق كلها فى المحيط المتجمد الشمالى بما عليها من آباء يسوعيين فى كويبك ، وفضحها كأكره بلاد الشمال إلى قلبه وكاقليم لا يمكن الاحتفاظ به إلا بحروب مخربه . وكان فولتير يفضل إستعمار كورسيكا وذكر أنه إذا كانت فرنسا قد إستخدمت عشر الأموال التى أنفقتها فى كندا فى تفليح الأراضى البور فى فرنسا نفسها ، لكسبت كثيراً ، ولكن فرنسا فقدت سنوات مليئة بالشقاء وفقدت الأموال إلى

غير رجعة . وجاء بعده ميرابو وأكد فى كتابه « صـــديق الرجال » ضرورة عدم التأسف ، وأشار إلى أن التجارة هى التى يمكنها أن تحدد قيمة المستعمرات ، وكانت كندا تظهر كآخر مستعمرة تجارية فى العالم فى هذا الميدان .

ولم يكن هناك داع للتأسف على الهند كذلك ، ولم يسامح فولتير الشركة التى أهملت حملة الأسهم والتى لم تقدم لهم أى ربح ناتج عن تجارتها ، وبشكل جعل منها الشركة الوحيدة الموجودة فى أوربا ، ومن هذا النوع . أما رجال الصناعة الفرنسيين فكانوا يشتكون من موضوع آخر، ذلك أن منافسة الأقطان الهندية كانت شديدة . وبفقد الهند تخلصوا من هذه المنافسة .

ولم يمل الفلاسفة إلى المستعمرات الا فيما يخص الجزر وربما لويزيانا . وقام مونتسكيو بقبول فكرة المستعمرات التجارية،ولكنه فضح مستعمرات التوطين،إذ أنها تضعف البلاد الاصلية . أما فولتير فقد رأى أن طبيعة الإنسان كانت تخالف الهجرة،وعند شعوب تتضارب عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد المهاجرين ، وتعرض صحة الأهالى لأمراض جديدة ولمناخ لم يتعودوا عليه منذ ميلادهم . ولقد هاجم الفلاسفة بعض المستعمرات على أنها تستورد الأوانى من الصين والأنسجة والملابس من الهند والعبيد والبهائم من مدغشقر،وبعض النبيذ من رأس الرجاء الصالح ، وادارتها من فرنسا . واعتقدوا أنهم يقومون بواجب وطنى حينما يفضحون هذه الأخطاء ويمنعون الرجال من الخروج عن بلادهم ويبقونهم لتفليح الأراضى الفرنسية نفسها . وظهرت هذه الفكرة فى الانسيكلوبيديا التى تساءلت عن

امكانية انشاء مستعمرات داخل فرنسا نفسها ، وامكانية توجيه الرجال عن المغامرات البعيدة . ولقد تنبأت الانسيكلوبيديا بمصير المستعمرات وقالت بأنه لا يمكن لأمة أن تخضع باستمرار لأمة أخرى ، ولمدة أطول مما تتطلبه مصالحها . أما مصالح المستعمرات فهى مرتبطة بالاستقلال وهذا هو ما سيدفع المستعمرات الى التحرر بمجرد شعورها بعدم حاجتها الى الحماية الاجنبية . واستشهدت فى ذلك بالأب الذى يفرض على ابنه بعد البلوغ نفس الطاعة التى كان يقدمها فى أيام طفولته وذكرت أن العلاقات ستنفصل بين الاثنين ، وأن هذا هو ما يحدث بين المستعمرات والوطن الأم .

وقام رينال فى كتابه عن التاريخ الفلسفى والسياسى للمنشآت الأوربية فى الهند الشرقية والغربية سنة ١٧٧٠ ، بمهاجمة المستعمرين الذين يبقون وراء التحصينات إذا ما شعروا بالتهديد والذين يصلون الى درجة العنف حينما يشعرون بالقوة ، والذين كانوا شغوفين بالحصول على الأشياء والاستيلاء على الأراضى ، ومنمرغين فى الملذات ، وقادرين على إرتكاب كل الجرائم . ولقد وصف كل صفحات تاريخ الاستعمار بأنها مخضبة بالدماء ووصف الشعوب المستعمرة بالجبن وطالب بقرب قيام قيامتهم وهدم بلادهم . ولقد أعيد طبع هذا الكتاب عشرين مرة .

وجاء الفلاسفة الانجليز بعد الفلاسفة الفرنسيين ولكنهم كانوا استعماريين حتى ولو كانوا من رجال الاصلاح . فنجد أن لوك رغم إصراره على أن الشرعية تستند إلى الرغبة الوطنية ، والى أن الشعب من حقه دائما أن يتحرر ، لم يمد هذه النظرية إلى المستعمرات التى قال بأنه لا يمكنها أن تتخلص

من السلطة الملكية ، وبالتالى من وصاية الوطن الأم . أما جيبون فانه قد أخذ لوك كمثل له عند كتابته تاريخ الامبراطورية الرومانية ، ولكن دون أن يفكر فى أن مثل هذا الانهيار يمكن أن يحدث يوما للامبراطوريات الحديثة ، وفى نفس الوقت الذى فكر فيه مونتيسكيو فى هذه النقطة . وربما كان بنتام هو المفكر الوحيد فى انجلترا الذى تمكن من اثارة بعض الشك على مبادىء الاستعمار .

ولكن هناك بعض الكتاب مثل سويفت الذى كان قد نقد الاستعمار وبشدة فى كتابه عن جوليفر الذى روى فيه ذلك العالم الغريب الذى شاهده اثناء زياراته للمحيطين الهندى والهادى ، والذى ذكر فيه أن بعض القراصنة قد دفعتهم احدى العواصف الى احدى المناطق المجهولة ، وأن احدهم قد اكتشف الأرض من اعلى احد الساريات ، فنزل اليهـا لكى يسرق وينهب . وأنه شاهد هناك شعبا مسالما استقبله بترحيب ، ولكن القرصان اعطى اسما جديدا لهذا الاقليم واستولى عليه باسم الملك ونصب لوحا قديما من الخشب وقطعة من الحجر كشاهد على ذلك . ثم قام القراصنة بقتل بضع عشـرات من الأهالى وعادوا باثنين منهما وبالقوة كعينة يعرضونها فى بلادهم . وهنا بدأ حكم يستند الى الحق المقدس وحضرت السفن فى أول فرصة وقتل كثير من الأهالى أو ابعدوا عن أراضيهم وعـذب أمراءهم حتى يعترفوا بأماكن الذهب الذى يمتلكونه . ولقد سمح القراصنة لأنفسهم بارتكاب كل شىء ممكن من القسوة والفساد والانحلال ، وسـالت الدماء على الارض ، دماء الوطنيين ، وتمكن هؤلاء القتلة الذين يعملون فى حملة دينية من إنشـاء مستعمرة مثالية وأخذوا فى تحويل الاهالى عن عبادة الاصنام وعن البربرية .

إن الإنجليزى الذى يقرأ سويفت يضحك ، ولكنه يستمر فى عمليات الاستعمار . أما القارىء الفرنسى الذى يقرأ جوليفر فانه ينظر الى العملية نظرة أكثر جدية، خاصة وأن المستعمر كان محتقراً فى أعين الفلاسفة وأن الوطنيين كانوا يوصفون بأنهم شعوب مسالمة تقابل الغزاة بكل ترحيب . وهذا ما جعل فرنسا تعطف على المستعمرات فى الوقت الذى فقدت فيها مستعمراتها .

(٢) أبناء المستعمرات :ـ

أصبح العطف على أبناء المستعمرات دعامة أساسية لحركة الكفاح ضد الاستعمار . فاذا كانت طبيعة الوطنيين وأخلاقهم أحسن من طبائع المستعمرين وطرقهم ، فعلى أى أساس يسمحون لأنفسهم باستعباد هذه الشعوب ؟ وجاء مونتنى بعد لاس كازاس وكتب عن آكلى لحوم البشر وذكر أنهم ليسوا متبربرين ولا متوحشين، رغم أن العالم كله ينعتهم بهذه الصفة. وذكر أنهم ليسوا متوحشين ولكنهم طبيعيين مثل الثمار التى تعطيها الأشجار فى الغابات البكر ، وحتى قوانينهم الطبيعية كانت أول تعقيداً من القوانين الأوربية وأن الأوربيين يصرون على اتهامهم بالبربرية والوحشية . وتغنى أوربيون آخرون بفضائل الوطنيين فى جزر الأنتيل، وذكروا كيف أنهم كانوا راضين بأحوالهم ، سعداء محبين للعشرة ولم تأكل الأمراض بعد أجسامهم، كما أكلت أجساد وعقول الأوربيين . إنهم يعيشون فى توافق مع الطبيعة التى خلقتهم فى بساطة تامة وسماحة بدائية ، والكل متساوون فليس هنالك فرد أغنى من فرد آخر ، وتقتصر رغباتهم فيما يحتاجون اليه ويستغنون عن الزائد منها . وكما أن أجسادهم صحيحة فكذلك عقولهم . بل ذهب البعض إلى أنهم هم الرجال الأحرار وأن الأوربيين هم العبيد، رغم رغبة

الأوربيين فى استعبادهم . وذكر روسو أن هؤلاء الوطنيين وكل ما يعيش فى الطبيعة من حيوانات ، أصحاء ، وأن الاوربيين يرغبون فى تحويلهم إلى مرحلة مرضية . عمل الفلاسفة إذا على وضع الوطنيين فى مستوى أعلى من مستوى الأوربيين ووصفوهم بالحرية وبالسيادة وبمعرفة الشرف ، وذكروا أنهم أحسن من الآباء اليسوعيين وأن آكلى لحوم البشر أحسن من أفراد الحاشية والبلاط .

ولقد ساعد الكتاب بيجونفيل وديدرو فى رسم لوحات فنية تظهر الوطنيين بشكل معين ممتلئين بالصحة ، مرحبين بالضيوف، كرماء وسمحاء ويرغبون فى العيش فى سلام مع كل العالم وكم من فقرة من كتاباتهم فضحت نيات الاستعمار وكتبت على لسان الوطنيين متهمة الأوربيين بأنهم رؤساء عصابات وعليهم أن يبعدوا سفنهم عن سواحل الوطنيين ويتركوهم سعداء مع حياتهم البدائية خاصة وأن هذه السواحل ليست للأوربيين حتى ولو وطأتها أقدامهم . لقد جعل الكتاب الوطنيين يسألون الأوربيين ، فى كتاباتهم عما إذا كان من حقهم أن يستولوا على البلاد الأوربية فى حالة ذهابهم اليها ، كما فعل الأوربيون فى بلاد الوطنيين ، ويسألونهم عن السبب فى هذا التصرف ، أهو الاعتماد على القوة ؟ ، ومع من ؟ إنهم إخوان فى الإنسانية ، وكل منهم ابن للطبيعة . ومن الذى يجعل الأوربى يفرض عاداته وتقاليده على أخيه فى الإنسانية ؟ خاصة وإذا كان الوطنى يرفض هذا التغيير الإجبارى . وكانت كل هذه الحجج دعامات قوية ضد حركة الاستعمار .

لم يكن هناك كثير يمكنه أمام هذه الحركة الفكرية والأدبية والإنسانية أن يصر على أن بعض الوطنيين كانوا يسلخون جلود أسراهم ، ويقدمون

الضحايا البشرية للآلهة ، ويقتلون الأبناء الذكور لأعدائهم ، ويقتلون رجال التبشير ، وربما يأكلون لحومهم . ولكن بعض رجال الإستعمار واصلوا شرح هذه الأمور واتهموا الفلاسفة بأنهم يكتبون كتبهم فى أبراجهم العاجية ، وأن الرجال الذين يعيشون معيشة طبيعية لا يختلفون عن البهائم فى شيء .

وكان الرأى العام بعيدا عن الحقائق وأصبح عليه أن ينقسم على نفسه بين الإعجاب بمزايا أبناء المستعمرات والوطنيين وبين الإعجاب بالحضارة والمدنية وضرورة إدخالها لديهم . وظهرت كثير من المسرحيات التى امتلأت إعجابا بأبناء المستعمرات وباخلاصهم . وقرأ الناس روبنسون التى جعلت من « جمعه » ثمرة جميلة من أبناء الطبيعة . وتبلورت الفكرة شيئا فشيئا عن براءة الوطنيين وأبناء المستعمرات ، فى الوقت الذى تثبت فيه صورة وحشية وبربرية المستعمرين الغربيين .

كان هذا فى أوربا نفسها . أما فى أمريكا فقد كان المستعمرون متصلين بالهنود الحمر . وكان الانجلوسكسون يفضلون الهندى المقتول على الهندى الحى . وكم من كاتب شرح أن خطأ الهنود الوحيد هو أنهم قد ولدوا ولجلودهم لون آخر ، ولكن ذلك لم يمنع أو يقلل من قتلهم . والواقع أن الفلاسفة قد ظهروا فى أوربا لا فى العالم الجديد ، وربما رجع ذلك الى أن الفلاسفة لم يحتكوا بالوطنيين، ولم تكن حياتهم مهددة فى الأراضى الجديدة التى ذهبوا اليها . ولكن أحدا لم يجبر المستعمرين على الذهاب اليها .

ومع مشكلة الإستعمار ظهرت مشكلة الرق . ذلك أن آلاف من الرجال قد أصبحوا ملكا لرجال آخرين ، وذلك طبقا لرغبة تجار العبيد الذين أثروا

من هذه التجارة ، ولرغبة كبار المزارعين الذين كانوا فى حاجة الى أيدى عاملة رخيصة . لقد فضح روسو نظام العبودية وذكر أن قانون الاستعباد غير موجود ، وليس من حق الرجل الأبيض أن يستعمر غيره ما دام يعتقد فى الحرية . وشرح غيره ضرورة احجام الرجل الأبيض عن حقه فى استعباد غيره اذا كان يعتقد فى نفسه كانسان وكرجل مسيحى .

وانشغل الرأى العام فى أوربا ، وصدر مرسوم ملكى سنة ١٧٨٥ يعطى للمحررين من العبيد فى المستعمرات نفس حقوق الرجل الأبيض . وتكونت جمعية لإلغاء الرق ، وجمعية أصدقاء الزنوج التى نشأت فى انجلترا الجديدة وفى بريطانيا سنة ١٧٨٨ ، وأصبح لها فرع فى فرنسا . ورغم ذلك فقد واصل تجار العبيد عملياتهم المربحة ؛ كما واصل الفلاسفة كتاباتهم ، وواصل الأوربيون قراءة هذه الكتب ، وواصل الجميع المضاربة على أسهم شركات الهند ، وفى انتظار استمرار نضوج الفكرة ونضوج التيار السياسى .

(٤) نهاية باراجواى اليسوعية : —

إذا كان الهجوم على نظام الرق قد اصطدم بتقاليد جامدة فان الهجوم على النظام الاستعمارى قد بدأ فى إعطاء ثماره . ذلك أن العلاقات بين الدول الاوربية وممتلكاتها البعيدة قد أصبحت أقل جموداً ، وحتى الامبراطورية الاسبانية التى كانت تمثل كتلة متوازنة ، فان الحرية التجارية فيها قد ازدادت مع انتشار الاراء الجديدة ، ففقدت قادس احتكارها سنة ١٧٧٨ وفتحت ثلاثة عشر ميناءاً فى اسبانيا و ٢٤ فى أمريكا للتجارة وحرر شارل الثالث الهنود وذلك بإبداله استعبادهم بنظام جديد قام باستغلالهم فيه كدافعى ضرائب مباشرة .

ولقد قام شارل الثالث ببعض الإصلاحات وكان له بعض الوزراء الايطاليين وبعض الوزراء والمفكرين الذين نظروا إلى غزاة العالم الجديد على أنهم رجال العصابات . ولقد كان الهجوم عنيفا على الاستعمار الاسبانى خاصة وأنه كان استعماراً كاثوليكيا . فماذا كان فى وسع هذا الملك الذى صمم على أن يكون متحرراً أن يفعله ، وأى مستعمرة يمكنه أن يضحى بها على مذبح الفلاسفة والمتحررين ؟ . لقد كانت مستعمرة بعينها أصلح من غيرها لذلك،وهى مستعمرة باراجواى اليسوعية .

وكان كل الفلاسفة قد اتفقوا فيما بينهم ضد اليسوعيين على أنهم يكونون مجتمعاخاضعاً لطغيانهم وعلى أنهم من الرهبان الذين يضطهدون أبناء غير مذهبهم . ولقد ذكر روسو أن اليسوعيين قد دعموا نفوذهم بتطبيقهم سياسة الحق المقدس وبتنصيبهم أنفسهم قضاة يميزون بين الحسنة والسيئة وباسم الرب ولذلك فقد كان من المتوقع أن يطرد اليسوعيون وخاصة من بعثاتهم الأمريكية . وكانت البرتغال قد بدأت بالهجوم عليهم وذلك بحصولها على سبع من مستعمراتهم فى باراجواى نظير قلعة على لابلاتا سنة ١٧٥٠ ، ثم قامت لشبونة بالهجوم على كل الجماعة وطردت اليسوعيين من كل البرتغال . ثم جاء دور اسبانيا للعمل فاتهمت اليسوعيين بنشر آراء تتضارب مع الحقوق الملكية وقوانين الكنيسة وبتعطيل التجارة . واتفق نائب الملك فى بيرو مع أسقف بونس إيرس على فضح تطرف اليسوعيين وسلطتهم ومؤامراتهم وتعصبهم وانفصاليتهم . وكان شارل الثالث يعرف ما يقولون ، ويعرف ما يقوله الفلاسفة وكيف أنهم كانوا يفرضون العمل المنهك على الهنود الحمر ويربحون من عرق جبين الاخرين ، دون أن يتركوا لهم أى حق من حقوق الملكية ، وأنهم كانوا يسيرون بينهم يحملون الكرابيج التى

تنزل على ظهـــر أى فرد من الهنود دون تفريق بالنسبه للسن أو للجنس. كما أن فولتـــير كان قد شرح أنهم كانوا يضربون بالسياط الآباء والأمهات وأن هذا السبب وحده يكفى لطردهم من كل مكان . ولقـــد ذهب فولتير إلى أبعد من ذلك وحاول أن يجعل شارل الثـالث يخشى من استيلاء اليسوعيين على السلطة فى المنطقة،وذكر أنهم قد انتخبوا أحـــد آبائهم ملكا على باراجواى ، وأنه حتى إذا لم يكن هناك أى ملك من بينهم فقد كانوا يملكون باراجواى بالفعل .

فلم يتردد شارل الثالث بعد ذلك،ووقع على أمر طردهم سنة ١٧٦٦ وكان عددهم يبلغ ثلاثة آلاف فى أمريكا، مقسمين إلى مائة وعشرين بعثـــة . ولقد احتج الأهالى فى سنتياجو وفى المكسيك وحاولوا مقاومة هـــذه الأوامر . ولكن اليسوعيين اضطروا الى إخلاء باراجواى التى إزدهـرت نتيجة لمجهوداتهم وودعوا الهنود الحمر وخرجوا من البلاد . وأصبح من السهل بعد ذلك على الهنود الحمر أن ينسوا اليسوعيين ما دامت مدريد قـد وعدتهم بملكية أراضيهم أو بغلة هذه الأرض ، وعلى أســـاس دفعهم للضرائب . ولكنهم اضطروا الى الهرب داخل الغابات فرارا من النـظام الحكومى الجديد .

وحينما احتج البابا على هذا القرار أجابه شـــارل الثالث بأنه مسئول وحده مع الله عن معرفة الأسباب التى دفعته لإتخاذ هذا القرار . والغريب أن فولتير قد خالف شارل الثالث فى هذا الموقف تجاه البابا ونادى بضرورة نشر شارل الثالث لأسباب هذا القرار . ثم تحول فولتير بعـــد ذلك من

مهاجمة نظام الاستغلال اليسوعى الى مهاجمة شارل الثالث، وأخذ يندم على الاستعمار اليسوعى وعلى حكومتهم فى باراجواى التى لم يشهد العالم مثلها من قبل . وجاء شاتو بريان فيما بعد لكى يملأ الدنيا إعجابا بتجربة باراجواى، كأجمل عمل خلقته أيدى الرجال فى الأقاليم المتوحشة حتى الان . ولكن هذا الندم كان قد جاء متأخرا وماتت هذه المستعمرة. أما اليسوعيين الذين طردوا من اسبانيا ومن الهند ومن جزر الفلبين فقد أصبحوا أعداء مدريد . والتجأ كثير منهم إلى بولونيا والى فرارى ثم انتشروا فى بقية العالم وأخذوا فى مهاجمة الملكية الإسبانية . وتحالفوا مع الفلاسفة وسيصلوا معهم الى القضاء على كل الامبراطورية الاسبانية .

وهكذا نجد أن الدور الذى لعبه الكتاب والمفكرين فى فرنسا فى ذلك العصر قد أثر تأثيرا كبيرا فى تاريخ الاستعمار وجعل فرنسا ترضى دون أسف بفقد الهند وبفقد كندا وتتجه صوب بلادها نفسها وصوب أوربا . وكانت آراء الفلاسفة متحررة إلا أنهم نظروا الى أبناء المستعمرات على أنهم اجناس سامية فى البشرية ، بل وأجناس أكثر سموا من الأوربيين . ولقد وصل هذا التفكير الجديد إلى نتائج هامة وأيد سلطة الدولة الاسبانية فى القضاء على سلطة الجماعات الدينية التى تقوم بالاستعمار ، وتشرف على الاستغلال . ولقد استمر هذا التفكير الجديد واثر على مستعمرات انجليزية ، بل كان سببا أساسيا فى نشوب الثورة الفرنسية . ولكن هل كان استعمار الدولة أكثر مثالية من استعمار اليسوعيين ؟ وهل يمكن لدولة ما أن تتحرر ما دام لها مستعمرات ؟

وما دامت المستعمرات تشتمل على عبيد ؟ أو حتى لو أصرت على ضرورة التفرقة العنصرية ؟

لقد بدأ العالم يفكر ، وبدأ في محاربة الاستعمار ، ولكنه كان لا يزال في أول الطريق ، وكانت هناك عوامل سياسية وإقتصادية تدفعه الى هذا التفكير ، وتوصله لى هذه المرحلة منه .

الفصل الخامس عشر

الثورة الأمريكية

في الوقت الذي كان فيه الفلاسفة يفكرون كان معمرى أمريكا الشمالية يعملون . وكان عددهم قد بلغ المليونين ، وكانوا مقسمين على ثلاث عشرة ولاية . كانوا في أغلبهم من الانجليز ، ولكن عددا كبيرا من الاسكندنافيين والألمان والايرلنديين كان مختلطا بهم ، وكان الجميع قد جاءوا للحصول على أراض بأرخص الأثمان . وكان الفرنسيين يسمونهم الإنجليز ، أما الهنود الحمر فقد حرفوا هذه الكلمة حتى أصبحت تنطق « يانكى » فيما بعد .

وكان الامريكيون قد بدأوا في الوصول الى مرحلة الاكتفاء الذاتى في شئون كثيرة ، وأصبحت لهم جامعتهم ومكتباتهم وصحفهم وعلمائهم . وبلغ عدد سكان فيلادلفيا ٤٠ ألف نسمة ، وسكان بوسطن ٢٠ الف ونفس العدد تقريبا في نيويورك . وكانت مستعمرات الشمال تصدر الأخشاب والقمح ، بينما كانت مستعمرات الجنوب تصدر الطباق والارز والسكر والقطن . وساعد نموهم المعنوى والمادى على وصولهم الى مرحلة النضج ، فهل فكروا في التحرر ؟

١ ـ الثورة : ـ

واصل الانجليز معاملة مستعمراتهم الأمريكية كما كانوا يعاملونها في أول الأمر ، وأصبحوا بذلك يشبهون الآباء الذين لا يقتنعون بأن أبنائهم قد بلغوا سن الشباب . وكان الإنجليز علاوة على ذلك ينظرون الى سكان

أمريكا على أنهم من العناصر غير الراضية ، وينظرون الى الايرلنديين منهم على أنهم أتباع البابا ، وعلى أن طلباتهم وتصرفاتهم لا يمكن الموافقة عليها .

ولكن المعمرين كانت لهم مطالب مختلفة : فأما مطالبهم التجارية فكانت تتلخص فى الاحتجاج ضد قانون الملاحة ، وكانوا يرغبون فى الحصول على حرية الشراء والبيع ، لمن يرغبون فى البيع اليه . وكانت لهم مطالب صناعية ، خاصة وأن انجلترا كانت قد منعت تحويل المواد فى أمريكا ، بما فى ذلك صناعة الحديد ، وذلك حتى تبعد كل إمكانية لنشأة منافس جديد لها . ومن المعروف أن ويليام بت كان قد صرح بأنه سيملأ المستعمرات بالجنود إذا قامت هذه المستعمرات بصنع خيط واحد من الصوف ، أو صنع حدوة حصان واحده . وكان المعمرين فى الشمال لا يرضون بهذه السياسة وطالبوا بالاعتراف بحقهم فى إنشاء الصناعة .

وكانت هناك مطالب إقليمية ، خاصة وأن انجلترا كانت قد منعت دخول الأمريكيين الى الأقاليم الغربية التى كانت قد استولت عليها من الفرنسيين ، وذلك بدعوى منع وقوع صدام مع الهنود . فأخذت شركات أمريكية فى المطالبة بهذا الحق ، خاصة وأن هذه الأقاليم كانت بكراً وكانت لها إمكانيات كبيرة .

وكانت هناك مطالب سياسية ، خاصة وأن المعمرين كانوا خاضعين للقوانين الانجليزية ، والتى يصدرها برلمان لندن ، ودون أن يكون الامريكيين ممثلين فيه . واعتقد الامريكيون أنهم قادرون على وضع تشريعاتهم بأنفسهم . وكان النظام المتبع هو أن الملك فى مجلسه الخاص

يقوم بدور المشرع للمستعمرات ، وحينما تصل تعليمات جلالته الى أمريكا، كانت هذه التعليمات تتحول الى قوانين للأمريكيين، وكان على الامريكيين إطاعتها وتنفيذها . ولكن الأمريكيين اعتقدوا على العكس من ذلك بأن من حق مجالسهم فى المستعمرات أن تصوت على القوانين اللازمة لهم ثم ترفع هذه المشروعات بقوانين الى لندن لكى تحصل على موافقة الملك .

وكانت هناك مطالب مالية ، ولم تكن أقل من غيرها أهمية . وكان تنظيم الأقاليم التى انتزعت من فرنسا ، واحتلال كندا بجيش بلغ عشرة آلاف جندى إنجليزى، وغيرها، يتطلب كثيرا من النفقات . وعملت إنجلترا على تغطية هذه النفقات بفرضها ضرائب على المستعمرات الأمريكية . واحتج الأمريكيون على ذلك بأنهم كانوا لايزالون فى عهد الصبا ، وأن من واجب بريطانيا عدم اثقال كواهلهم بالضرائب فى ذلك الوقت . ولكنهم كانوا يتضاربون مع أنفسهم . خاصة وأنهم كانوا يعتقدون بأنهم بلغوا مرحلة من النضج تسمح لهم بدفع الضرائب . ولقد أصرت لندن على أن من حق البرلمان البريطانى أن يفرض الضرائب على المعمرين الامريكيين وبصفتهم رعايا بريطانيين، ورد المعمرون على ذلك بأنهم لن يدفعوا إلا الضرائب التى وافقت عليها مجالسهم، وأن فرض ضرائب لم يصوتوا عليها يعتبر مماثلا لجمع الجزية أو الغرامة الحربية فى بلاد معادية .

ورغم ذلك فان وضع الأمريكيين كان صعبا خاصة وأن كل مستعمرة كانت تجهل المستعمرة المجاوره لها ، ولم يكن من السهل على المعمرين أن يتحدوا ضد الأمة التى جاءوا منها والتى كانوا لا يزالون يرتبطون بها بروابط الدم والمصلحة والعاطفة ، والتى كانوا يحبونها أكثر مما يحبون أنفسهم . ولم يكن المعمرين متحدين فيما بينهم حتى فى داخل المستعمرة الواحدة ، ذلك أن البعض كانوا يفكرون فى استمرار ولائهم لانجلترا ،

فى الوقت الذى كان فيه غيرهم يفكرون فى استقلال ذاتى بدرجة معينة من المرونة ، ولكن انصار الحرية كانوا كلهم يعارضون فى الخضوع .

وكان ابتعاد الخطر الفرنسى يخدم أهداف الأمريكيين ، خاصة وأن إنجلترا كانت تستند اليه كحجة هامة للاحتفاظ بخضوع مستعمراتها لها واقد فكر الفرنسيون أنفسهم فى هذه الوضعية الجديدة التى ستنشأ بين الأمريكيين والإنجليز بعد خروجهم من كندا سنة ١٧٦٣ ، وعرفوا أن لندن ستفقد حجتها فى فرض حمايتها على أمريكا . حقيقة أنه كان فى وسع بريطانيا أن تلوح بخطر الهنود الحمر ، ولكن المستعمرات كانت قادرة وبمفردها على مواجهته وبدون حاجة الى معونة إنجليزية . . ولقد نجح هذا التقدير ، ومنذ اليوم التالى لمعاهدة باريس سنة ١٧٦٤ اصطدم الشعبان حول موضوع الضرائب . وكان مجلس العموم يبحث موارد جديدة ، فصوت على قوانين تفرض الضرائب على استيراد السكر وعسل الأسود الى أمريكا . كما حاول الانجليز أن يتدخلوا لمنع عمليات التهريب ، وحاولت لندن أن تنفذ ما قررته فأضطرت المستعمرات الى التسليم أمام قانون السكر . ولكن الاحتياجات المالية دفعت البرلمان فى السنة التالية الى فرض استخدام طوابع الدمغة على كل وثيقة أو شهادة أو صحيفة أو اعلان أو كتاب يتداول فى أمريكا ، فبدأت الإحتجاجات فى الظهور ، وكانت العاصفة . ونادى المعمرون فى مساشوست بضرورة منع استخدام البضائع الإنجليزية مما أثار تجار إنجلترا واضطرت الأوساط المالية الى الضغط على البرلمان لكى يلغى قانون الدمغة . ولكن تراجع الانجليز لم يكن كافيا لتصفية الجو بين الامريكيين والإنجليز ، بل عمل على العكس من ذلك على تغير الموقف وبرد فعل قوى . خاصة وأن الأمريكيين قد شعروا بامكانية إنتصارهم ، وما دامت إنجلترا قد تراجعت مرة ، ففى وسعهم أن يجبروها على التراجع مرات جديدة .

وسرعان ما جاءت مناسبة جديدة . ذلك أن لندن قد وجـــدت أن الأمريكيين يعارضون الضرائب الداخلية ، فحاولت أن تفـرض عليهم ضرائب خارجية . وصـوت مجلس العمـــوم على فرض ضرائب بسيطة على استيراد الزجاج والرصـاص والألوان والورق والشاى . فقـــام المعمرون نتيجة لذلك برفض التعامل فى السلع البريطانية ، وبشكل أجبر الرأى العـام البريطـانى على الضغط ثانية على حكـومته ، التى تراجعت من جديد فى هذه القرارات . وألغيت كل هذه الضرائب ما عـدا الضريبـة الخاصة بالشاى سنة ١٧٧٠ . ولم تعرف انجلترا أنها قد ارتكبت بذلك خطأ مضاعفا : ذلك أن التنازل لم يكن يؤدى إلا إلى تدعيم المطالب الأمريكية، كما كان الإحتفاظ بضريبة إسمية يعنى تحدى المعمرين . ولم يبق هنـاك إلا المبدأ الذى يطلب قراراً ، وكانت هـذه المبادىء هى أسباب إعـلان الحروب ونشوب الثورات .

لقد كان من الممكن تسوية المسألة إذا كـان الأمريكيون لم يحاولوا زيادة إشعال النيران ، وإذا كان الإنجليز لم يعملوا على تكرير الأخطاء . وعملت لندن على إلغاء هذه الضرائب بالنسبة لشركـة الهنـد وحدها ، والتى كـانت لديها كميات كبيرة من الشاى ترغب فى بيعها ، وللأمريكيين . ولكن التجار الذين كـانت لديهم كميات من الشاى الهولنـدى عارضوا فى ذلك ، وفضحوا نيات الحكومة . فكانت النتيجة ، وفى هذا الجو ، هو القاء أول شحنة من الشاى الإنجليزى إلى البحـر فى بوسطن سنة ١٧٧٣ . ورد البرلمان على ذلك باغلاق الميناء وبمنع الإجتماعات . وفى هـذه المرة أصبح لدى الأمريكيين سببا قويا وهو الاعتداء على حرياتهم ، فأعلنت المستعمرات تضامنها مع بوسطن سنة ١٧٧٥ . واجتمع أول مؤتمـر ، أو كونجـرس فى

فيلادلفيا لدراسة وسائل المقاومة · وبدأ الإتحاد بين مستعمرات متفـــرقة وأمام دولة كـانت هى الدولة الأم بالنسبة اليهم .

وسرعان ما بدأت الحوادث والإشتباكـات خاصـة وأن الإنجليز قد عملوا على تعزيز حامياتهم فى أمريكا ، وبدأ الإنجليز يحتكون بالحرس المسلح الذى كونه أبناء الحزبة فى أمريكا . ولقد أطلقت أولى طلقات الرصاص قرب بوسطن بين الطرفين ، وسالت الدماء ، سنة ١٧٧٥ . لقد اعتبرت إنجلترا أن المستعمرات قد أعلنت تمردها، وكـان أبناء المستعمرات يعرفون أنهم قد أعلنوا الثورة .

٢ – انجلترا تفقد امريكا :

ظهر أن إنجلترا كانت تستخدم سياسة الضعف فى الوقت الذى كان فى وسعها أن تستخدم فيه الشدة . وقامت إنجلترا بمنع كل تجـارة مع المستعمرات الثائرة وأعلنت أنها ستأخذ غنيمة كل السفن الامريكية التى تأسرهـا فى البحر . ورد المعمرون على ذلك بمؤتمر جديد عقدوه فى فيلادلفيـا سنة ١٧٧٦ وانتخبوا فيه المزارع جورج واشنطون لقيادة قوات الحرس الوطنى. وتمكن واشنطون من الاستيلاء على بوسطن .

ولقد عمل هذا المؤتمر على إبعاد أى قلقلة فى الوضعيـــة ، فأعلن استقلال أمريكا . وقام جيفرسون بكتابة إعلان الإستقـلال الذى وافق عليه ممثلوا المستعمرات الثلاثة عشر : « نحن ، ممثلوا الولايات المتحـدة الأمريكية ، المجتمعون فى مؤتمر عـام ، ننشر ونعلن رسميا أن المستعمرات المتحدة قد حصلت على حقها لكى تصبح دولا حرة ومستقلة ، وانهـا قـد تخلصت من كل خضوع تجـاه تاج بريطانيـا العظمى ، وأن كل صـلة سياسية بينها وبين دولة بريطانيا العظمى هى مقطوعة تماما ، ويجب أن تكون كذلك » .

ولقد بقى الثوار منقسمون رغم إجماعهم الذى وصلوا اليه فى المؤتمر . ولم يتمكن واشنطون من تجميع ٢٠ الف رجل ، وكانت الأقـــوات والذخائر تنقصه فماذا كان فى وسعه أن يعمل أمام إنجلترا سيدة البحار ، والتى كانت تقيم فى كندا ، وفى وسعها استخدام قوات مرتزقة ؟ لقد اخلى الامريكيون نيويورك ثم فيلادلفيـا وقاوموا فى مساشوست . أما الإنجليز فقد خسروا الوقت وقاموا بمنـاورات خاسرة ، وكانوا واثقين من نتيجـة عملياتهم .

ولم يكن من السهل على المستعمرات المتحدة أن تكسب الحرب بدون معونة فرنسا . وكانت فرنسا ترحب بمساعدتهم ولكن على أساس عدم اشتراكها فى الحرب . فقام فرجين بتسليم المدافع والبنـادق والذخائر الى الثوار ، وعمل بومارشية وسيطا فى هذه العمليـــات . وذهب فرنكلين الى باريس بصفته سفيرا وداعياً لتأييد أمريكا ، وقابله الفرنسيون بحماسة كبيرة وقبله فولتير ، وحيا الفرنسيون فكرة تحرير العالم الجديد وسط هذا الحماس الشعبى ، وفى الوقت الذى لم يكن الإتحاد قد تم فيه بعد بين صفوف الثوار الامريكيين أنفسهم .

وإذا كان البلاط الفرنسى قد بقى حذرا ، فان المتطوعين قد قيـــدوا اسماءهم ، وكانوا يرغبون فى الانتقام من انجلترا ، كما كانت الغـــابات العذراء وبنات الهنود الحمر تجذبهم أكثر من حبهم للحرية ، التى لم يكونوا قد حصلوا عليها بعد فى بلادهم . أما لافاييت فانه قد أخـذ يحلم باعادة غزو كندا بعد أن أصبح قائدا للمتطوعين، ولم يكن قد بلـغ العشرين بعد . ويمكننا أن نذكر بعد ذلك من الالمان كالب واستوبن الذى عمل على تنظيم الحرس الأمريكى على الطريقة البروسية . ورغم ذلك فان الثوار لم يكونوا

فى حاجة الى قادة بنفس درجة احتياجهم الى تدخل جماعى مع إمـداد فى المعدات والأموال .

ولقد قررت فرنسا وإسبانيا ، وكانتا مرتبطتين بحلف اسرة واحدة، الاعتراف باستقلال أمريكا ، وبمساعدة الثوار . وكان الفرنسيون يعلمون أن النصـر سيكلفهم الكثير ، وأن الهزيمة ستكون مميتة للملكية . فهل فكروا فى اعادة غزو كندا ؟ لم يكن هناك من يرحب بهذه الفكرة ، وتعهدوا من أول الامر للامريكيين بعدم المطالبة بها . أما الإسبانيين فقـد رأوا أن الثورة ستعطى مثلا سيئا لمستعمراتهم الامريكية . ورغم ذلك فان كل من باريس ومدريد قد دخلت الحرب : أما باريس فقد فعلت ذلك لضرب قوة بريطانيا ضربة شديدة ، وأما اسبانيا فانها كانت تأمل فى الحصول على جبل طارق .

وكان الوقت قد أزف ، ولم يكن لدى واشنطون الاحفنة من الاتباع . فأنضم روشامبو مع رجاله الفرنسيين الى الامريكيين . وأضطر كورنواليس الانجليزى الى التسليم فى يوركتون سنة ١٨٧١ . وإذا كان الإسبانيون قد فشلوا أمام جبل طارق فانهم قد نجحوا فى الاستيلاء على مينورقة وفى ابعاد البريطانيين عن لويزيانا . أما الفرنسيون فقـد ظلوا محتفظين بتفوقهم فى الانتيل حتى قام رودنى بانقاذ جامايكا سنة ١٧٨٢ ، ونجح سوفران فى الهنـد . وعاد حزب الويجز الى السلطة ، بعد أن تعب الرأى العام البريطانى ، وقام الإنجليز بالمفاوضة من أجل الصلح . وأعترفت معاهدة باريس سنة ١٧٨٢ ، بين الإنجليز والامريكيين باستقلال الولايات المتحدة وسيادتها ، وحتى خط الميسيسبى ، والتى كانت لويزيانا الإسبانية تقع فيما وراءه . أما معاهدة فرساى بين الإنجليز والاسبانيين والفرنسيين ،

والمعقودة فى العام التالى ، فانها سمحت لاسبانيا باستعادة فلوريدا ومينورقة . واعترفت لفرنسا بالإستيلاء على بعض الجزر الصغيرة فى الأنتيل ، وأعطت لها السنغال . وكانت نتائج هذه المعاهدات مهمة . أما بالنسبة لفرنسا فانها قد تذكرت هزائمها الماضية ، ولكنها جعلت منها دولة استعمارية لهـا امبراطورية تتسع على ١٤٠ ألف كيلو متر مربع ، يسكنها مليون من السكان وتمتد إلى أنام . أما بالنسبة لأمريكا فانها قد أصبحت مستقلة . ونجحت ثلاث عشره مستعمرة فى التحرر دفعة واحدة . وكانت سابقة خطيرة . ولكن علينا هنا أن نعترف بأن المعمرين هم الذين حصلوا على استقلالهم، لا العناصر الوطنية . أى أن الانجلوسكسون هم الذين انفصلوا عن الوطن الأم الانجلوسكسونى ، دون أن يدخل الهنود فى هذه العملية . بل على العكس من ذلك نجد أن الانجليز والهنود قد تعاونوا أكثر من مرة ضد المعمرين الثائرين . ولذلك فان استقلال امريكا وحريتها لن يكون استقلالا أو حرية للهنود .

واجتمع خمس وخمسين ممثلا للدول الحديثة فى مؤتمر فى فيلادلفيا على طريقة مونتسكيو ، وفى جلسة سرية سنة ١٧٨٧ أخذوا فى وضع دستور أمريكى ينص على رئيس ، وهو الذى سيصبح واشنطن ، ومجلسين ، وانتخاب يقوم به الملاك . وكان تقسيم الدوائر الانتخابية على الأهالى فى التمثيل يعنى أن العبد الأسود يعادل ثلاثة أخماس مواطن ، وأن الهندى يعادل الصفر . ولقد أعطى الدستور لكل المواطنين فى كل دولة أو ولاية الحق فى كل الإمتيازات التى تعطى للمواطنين ، ولكنه لم يدخل الهنود ولا الزنوج داخل نطاق المواطنين .

ولكن ، هل كانت الولايات الثلاثة عشر متحدة حقـــا ؟ إن صلتها الحقيقية ، والرباط بينها لم يكن يتمثل فى الدستور بقدر ما كان يتمثل فى هذه الاقاليم الواسعة الواقعة إلى الغرب والتى سيستمر فيها التوسع الامريكى لطرد الهنود ونزع ممتلكاتهم . وستقوم الدولة الفدرالية بتقسيم الاراضى التى يستولى عليها الى مربعات تبيعها ولصالحها وبسعر دولار واحد للفـدان . وعمل ذلك على نشأة ولايات جديدة كلما يصل عدد سكان أى اقليم الى ٦٠ ألف نسمة . وحينما تأخذ أوربا فى مناقشة مشكلاتها الديمـــوقراطية والاجتماعية ، ستظل أمريكا تجهل هذه المشكلات عملياً كل الجهل ، مادام اقصى الغرب مفتوح امامها ، وسيعمل هذا الغرب على تدعيم الصلة والاتحاد بين الامريكيين انفسهم .

أما بالنسبة لانجلترا فان الخسارة كانت شديدة بعـد أن فقـدت أحسن مستعمراتها . ولقد حاولت بريطانيا أن تقصر خسارتها على الناحية السياسية وتحتفظ بامتيازاتها الاقتصادية ، خاصة وأن صلات لغوية وتقاليد معينة كانت تدفع بأمريكا الى أن تظل على تعامل مع الوطن الأم القـديم . والواقـع أن أمريكا قد ظلت تشترى من انجلترا أغلب ما كانت تحتاج اليه فى السنوات التالية للصلح . ورضى الانجليز بذلك معتقدين بأنه ليس من الضـرورى أن يستعمروا لـكى يبيعوا لولا أن يحـكموا لكى يتـاجروا . ولكن الامريكيين سيتملصون من هذه العلاقات وسرعان ما سيأتى الاستقـــلال الاقتصادى بعد الاستقلال السياسى . ولقد حاولت الحكومة الانجـليزية بعد هذه الهزيمة أن تعمل على تعويضها ، وبنفس الطريقة التى قامت بها فرنسا منذ ٢٠ سنة ســـابقة . فعملت انجلترا على محـــاولة تأسيس منشآت جديدة وعلى تدعيم المراكز البريطانية فى المستعمرات القديمة ، وعلى الاستعداد لكى تنتقم هى الاخرى من فرنسا .

وكانت انجلترا فى حاجة ملحة إلى مستعمرة جديدة وخاصـــة لنفى المجرمين . ففكرت انجلترا فى جبل طارق ثم فى سواحل افريقية الغربيـة ، ولكن كوك الذى كان يبحث عـن قارة جنوبية كان قد عثر على استراليـا سنة ١٧٧٠ ، وقبل أن يصل إلى أراض جديدة فى جنوب المحيط الهادى وإلى نيوزيـــلاند. وفى سنة ١٧٨٧ أنزلت ست سفن سبعمـائة وخمسين من المجرمين فى أحد الخلجان قريبا من المـــكان الذى ستنشأ عليه سدنى فيما بعـد .

وعملت انجلترا على ألا تفقد كندا التى كانت آخر ممتلكاتها فى أمريكا الشمالية . ووضعت لذلك سياسة حكيمة وذلك باعطاء الحـرية الدينيـة إلى الكاثوليك الفرنسيين ، وذلك بقانون كويبيك سنة ١٧٧٤ ، وأبعدت بذلك كندا عن المستعمرات الثائرة ووصلت بينها وبين التاج . وإذا كانت انجلترا قد أدخلت فى كندا قانون العقوبات والقانون التجـــارى الإنجليزيين ، فانها احتفظت لها وفى شئونها المدنية بقوانين وتقاليـــد باريس . وحينما تحصل كندا على دستورها ستحصل المقاطعة الفرنسية فيها على حاكم خاص بها وعلى مجلس منتخب . وكان من نتيجة ذلك خروج بضعة عشرات من الالاف من الأمريكيين الموالين لبريطانيا من الولايات المتحـــدة ومجيئهم لتدعيم السكان الإنجليز فى اسكتلندا الجديدة وبرانزويك الجديدة وبقيـة المقاطعات الكندية .

أما فى الهند فان انجلترا قد استخـدمت الشدة لتوسيـع امبراطوريتهـا وللحصول على ميراث المغول ، وفرضت سلطتهـا على الأقاليم واشتـدت على نوابها ثم عينت حاكما عاما فى سنة ١٧٧٣ امتـدت سلطته وأشـرفت

على كل عمليات شركة الهند . وأصبح الملك يعين المديرين الذين يشرفون على الادارات وبشكل لم يجعل من الشركة أكثر من واجهة تخفى وراءها سلطة الحكومة .

وعملت بريطانيا على اتهام مديرى شركة الهند حتى تدعم سلطة الدولة على هذه الأقاليم وتساوى فى ذلك كل من كلايف الذى كان قد غزا البنغال وهاستنجز الذى كان قد دافع عن الهند أثناء الحرب الامريكية . ولقد برأت كل منهم رغم أنهم كانوا قد استغلوا الراجات والبيجومات ، ما داموا قد عملوا ذلك من أجل عظمة بريطانيا . ولكن هذه المحاكمات أظهرت حزم حكومة لندن وأظهرت عزمها على تأييد الرجال الذين يعملون من أجل انجلترا . وكانت انجلترا قد تركت بضعفها مستعمراتها الامريكية تفلت من بين أيديها ، ولذلك فانها قررت هذه المرة ألا تترك رعاياها الهنود يفلتون من بين أيديها . وكان عددهم ثلاثين مليونا ، ووصل سريعا إلى مائة مليون .

أما ايرلندا فان مشكلاتها كانت تشبه مشكلات أمريكا ، فقد كان فيها معمرين من الإنجليز ، وكان لهم برلمان فى دبلن يرفض أن يقوم برلمان لندن بسن القوانين لهم . وبدلا من الهنود الحمر فقد كان هنالك الايرلنديون الكاثوليك الذين حرموا من حقوقهم السياسية وكانوا يرسفون فى أغلال البؤس . وكانوا مستعدين دائما للثورة . وفى الوقت الذى طالب فيه المعمرون الانجليز بالحرية التجارية طالب فيه الوطنيون الايرلنديون بحرية العبادة . ولقد قام كل من الانجليز والوطنين فى ايرلندا بنفس وسائل الامريكيين من الاضراب عن التعامل فى المنتجات الانجليزية سنة ١٧٧٩ . وحاول مجلس العموم البريطانى منح بعض التسهيلات

للتصدير إلى إيرلندا ، ولكن المنتجين البريطانيين كانوا يخشون المنافسة وعرضوا كل توسع فى صالحها

ولم تتساهل انجلترا أمام ثورة ايرلندا سنة ١٧٩٨ بعد أن تساهلت فى ثورة أمريكا . خاصة وأن ايرلندا كانت قريبة منها . فحلت انجلترا برلمان دبلن وأجبرت نواب ايرلندا إلى الحضور على مجلس العموم كنواب لبريطانيا العظمى التى ستصبح المملكة المتحدة سنة ١٨٠١ .

وهكذا نرى أن دروس أمريكا قد أفادت حكومة لندن وجعلتها تصبح أكثر تشددا عما سبق . وإن كان رد الفعل الحقيقى لانجلترا استيعجه صوب فرنسا خاصة وأنها كانت تلك الدولة التى حاولت أن تنتقم لفقد مستعمراتها بتأييد الثورة الامريكية . ولذلك فان انجلترا ستنتقم بدورها لما حدث لها وذلك بتأييدها للثورة الفرنسية.

(٣) لتسلط المستعمرات : —

لقد جاء اعلان حقوق الإنسان الذى صوت عليه المجلس الوطنى بعد شهر ونصف من سقوط الباستيل بشكل يتعارض مع النظام الاستعمارى . وأعلنت المادة الأولى منه أن الرجال يولدون ويبقوا أحراراً ومتساويين فى الحقوق ، كما أعلنت المادة السادسة منه أن القانون هو التعبير عن الإرادة العامة وأن كل المواطنين لهم الحق فى المشاركة فيه شخصيا أو عن طريق ممثليهم، وفى تكوينه ، ومن الواجب أن يكون القانون واحدا بالنسبة للجميع.

ولقد رفضت حقوق الإنسان إخضاع وطنى واحد مهما كان لونه . وأصبحت مبادىء سنة ١٧٨٩ مصدرا دائما لا ينضب لأعداء الإستعمار .

ولكن الغريب فى الأمر هو أن هذه القوانين قد صوت عليها مجموعة من المستعمرين خاصة وأن غالبية المجلس التشريعى كانت تدين بالاراء الإستعمارية رغم أنها كانت لا تدرى أن إعلان حقوق الإنسان الذى أصدرته كان ضد مبادئها . ولقد وضعوا الإعلان لكل الرجال ، ولكل وقت ولكل إقليم وحتى يكون مثلا للعالم . ولكنهم نسوا أن فرنسا نفسها كانت لها مستعمرات لا يزيد عدد الرجال البيض فيها على مائة الف رجل ، فى الوقت الذى يصل فيه عدد العبيد فيها الى ٧٥٠ الف ، ويصل فيه عدد الرجال الاحرار من الملونين إلى ٥٠ الف ، وكان لها مائة الف من الهنود فى جزر المحيط الهندى ولن يترددوا كثيرا فى المطالبة بحقوقهم الجديدة حسب مبادىء المساواة والحرية .

ولم تتمكن الثورة الفرنسية من الخروج من هذا المأزق الذى أدخلت نفسها فيه بكل بساطة . واعترفت فى السنة الأخيرة للجمعية التشريعية بأن عليها أن تختار بين اعلان حقوق الانسان وبين المستعمرات ، ولم تقدر على اتخاذ قرار فى هذا الشأن .

وظهر اتجاهان وحزبان فى الميدان كان أولهما يفضل المصالح على المبادىء ، ويفضل المستعمرات مع الاحتفاظ بعدم المساواة والتحكم . وظهر فى هذا الإتجاه ممثلين للجزر ونواب بعض الموانىء التى تهتم بتجارة ما وراء البحار ، وأقارب المزارعين . أما الحزب الثانى فقد فضل المبادىء وقبل ما يترتب عليها من نتائج وكانوا أكثر نقاءا وأكثر عمقا وظهر من قوادهم روبسبير وذهبوا فى منطقهم حتى الغاء نظام الرق والتخلى عن المستعمرات. ولكن المجلس الوطنى امتنع عن اختيار هذا الطريق أو ذلك ، وأقفل على نفسه الباب واستمر فى المناقشة وهو مصمم على عدم الوصول إلى نتيجة .

وكان من غير الممكن تجاهل هذه المستعمرات خاصة وأنها كانت تتسبب في مشكلات تتطلب الحلول . وكانت أولى هذه المشكلات هي مشكلة تمثيلهم في الجمعية التأسيسية وأرسل المزارعين نوابهم الى باريس بعد أن حرموا من المشاركة في مجلس طبقات الامة . واضطرت الجمعية التشريعية لاستقبالهم ولكنها فكرت في أن يصبح لكل مستعمرة مجلسها الخاص كما كان عليه الحال في المستعمرات الانجليزية ، فنشأت مجالس مستعمرات ووعدت باريس باستشارتها في نصوص القوانين التي تخصها . والنقطة الثانية كانت هي تحديد من يشاركهم في انتخابات نواب هذه المجالس ، وأستقر الرأى على أن يكونوا هم دافعي الضرائب . وترتب على ذلك مشكلة جديدة وهي مشكلة الزنوج ، خاصة وأنهم قد أصبحوا أحرارا ويدفعون الضرائب ، أى أن في امكانهم الاشتراك في الانتخابات ، رغم معارضة المزارعين للسماح الزنوج بالمشاركة في الانتخابات ، وذلك لخوفهم من إمتداد هذا الحق من الزنوج المحررين الى الزنوج العبيد الذين كانوا لا يزالون يعملون في مزارعهم . وكان كبار المزارعين يخشون من صغار البيض أو من فقراء البيض الذين يمكنهم أن يتغلبوا عدديا على كبار البيض أى على المعمرين الاغنياء . ولقد أكد المزارعون البيض أن الرجال الملونين ليست لهم أية حقوق في المستعمرات الانجليزية ولا في الولايات المتحدة ، وأنهم سيصبحون ملوكا للمستعمرات بمجرد دخولهم في مجالس هذه المستعمرات . وذكروا بأن هذه السياسة ستضطر البيض الى هجرة المستعمرات والى بيع ممتلكاتهم ، وأن المستعمرات لن ترى الا تغير سيد بسيد آخر . وأكد غيرهم أن التأييد المعنوى لازم لسيطرة عدد بسيط من الرجال البيض والملونين ، وأن هذه المسافة التي تفصل بينهم

هى أساس بقاء الهدوء فى المستعمرات ، وأن الزنجى سيتغير بمجرد معرفته لمساواته بالرجل الأبيض ، وسيتغير بالتالى هدوء المستعمرات وأمكانية معيشة البيض فيها . ورغم أن نظام الرق كان غير منطقى الا أنه كان قائما بالفعل ولا يمكن تغييره فجأة دون أن يتسبب ذلك فى مصائب كبيرة .

أما أنصار الزنوج فكانوا يتساءلون عما إذا لم يكن الزنوج من البشر وعما إذا كان اللون يغير طبيعة شعور وقلوب المواطنين . وتساءلوا عن امكانية التضحية بالمبادىء الانسانية من اجل بعض المعمرين ، كما تساءلوا عما اذا كان الابقاء على طبقتين من الرجال يعرفون حقوقهم ، الواحدة مستعبدة والثانية مستعبدة يمكنه أن يحتفظ بالمستعمرات فى حالة من الهدوء والاستقرار . وطالبوا بألا ينسخ إعلان قانون الانسان وعلى حساب طبقة من الرجال الاحرار من ذوى الاملاك ودافعى الضرائب والوطنيين فى المستعمرات والذين يسمون بالملونين وتساءلوا عما اذا كان منحهم حقوقهم سيفقد فرنسا مستعمراتها ، فى الوقت الذى منحت فيه فرنسا هذه الحقوق لكل ابناءها ولم يزد بنيانها الا صلابة . ونادى آخرون بضرورة التنازل عن المصالح من أجل العدالة وضرورة التنازل عن المستعمرات من أجل المبادىء . ونادى روبسبير بسقوط المستعمرات إذا كانت ستكلف فرنسا شرفها ومجدها وحريتها . كما نادى بسقوطها إذا كان المعمرون يرغبون فى اجبار الفرنسيين على تقرير ما هو مجرد مصالح لهم . إن الشعب لا يخضع لرجل واحد ، فلينطلق الجميع الى الامام وليعلموا أنه ليس هناك شعب ملك لشعب آخر .

ولكن الاتجاه العملى كان يعارض هذه المنفرجات فوافقت الجمعية

التأسيسية على حل وسط ينص على أن الرجال الملونين المولودين من آباء احرار يحصلون على حقوق المواطن . وقامت نفس الجمعية بالغاء امتيازات شركة الهند وأعلنت حرية التجارة مع المستعمرات وأنها تجارة بين اخوان وتجارة الأمة مع جزء من الأمة . وأحتفظت حكومة الوفاق بهذه التجارة للعلم الفرنسي سنة ١٧٩٣ ، وبشكل يدعم البحرية الفرنسية أمام البحرية البريطانية . وكان معنى ذلك اعادة العمل بقانون الملاحة . والاحتفاظ بالمستعمرات التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من الجمهورية الفرنسية .

ورغم ذلك فلم يكن من السهل تناسي مشكلة الرق . ورغم مناداة اصدقاء الملونين بالغاء هذا النظام ، فان المعمرين قد وضعوا ممتلكاتهم في حماية الأمة وكان العبيد يكونون جزءا من هذه الممتلكات . وجاء الوقت الذي اصبح هذا الموقف يتضارب تماما مع مبادىء الثورة وأصبح فيه المواطن الملون يمثل الشعب ، وكان تحرير العبيد يعني خلق المشكلات أمام انجلترا التي سينضم عبيدها الى مبدأ الثورة الفرنسية .

وشهد عام ١٧٩٤ مظاهرة فريدة في نوعها حين جاء ثلاث نواب من سان دومينجو للاشتراك في المجلس أحدهما أسود والثاني أصفر والثالث أبيض وكانوا أول رجال ملونين يجلسون في المجلس ودل ذلك على المساواة بين الجميع . وكان استقبالهم حماسيا واقترح النواب في الجلسة التالية الغاء نظام الرق في كل اقاليم واراضي الجمهورية وأعلن النواب انهم قد حطموا اغلالهم وأن من واجبهم القيام بنفس العمل تجاه الرجال الملونين . ووقف كل النواب وأعلن رئيس المجلس الغاء نظام الرق وسط الاف الصيحات والهتافات للجمهورية . وأصبح كل الرجال الذين يقومون في المستعمرات ، ودون اعتبار لونهم ، مواطنين فرنسيين ولهم نفس الحقوق التي يضمنها الدستور

وأعلن دانتون وسط هذا الحماس لنواب الشعب الفرنسى أنهم كانوا لم يعلنوا الحرية حتى ذلك الوقت الا بطريقة أنانية ولانفسهم فقـط ، وانهم يعلنونها اليوم أمام العالم حرية عالمية . أنه اليوم الذى تموت فيـــه النظم الانجليزية . ولكنه فشل فى منحهم هذه النقطة الاخيرة . ذلك أن انجلترا كانت قد ساعدت الثورة الفرنسية ، ومن أولهـا ، ولـكى تهـدم فرنسا . وستقوم الآن بانتهاز فرصة الثورة لمحـاربة فرنسا . ولم تأبه انجلترا لالغاء الرق ، إذ انها كانت تستعد لنهب المستعمرات ولاستعباد العالم .

(٤) النهب البريطانى :-

كانت جزيرة سان دومينجو أعز الجزر على الفرنسيين . كانت هى جزيرة هسبانيولا السابقة التى اكـتشفهـا كولومب وهايتى التى احتفظ الاسبانيون بنصفها الشرقى . وكانت سان دومينجو سببا فى إثراء تجار نانت وبوردو والهافر . ولكن سكانها كانوا ينقسمون الى طوائف كـثيرة ، وكان كبار البيض يحتقرون صغارهم ، وهؤلاء بدورهم يحتقرون المخلطين ، ويحتقر المخلطون الرجال الملونين الاحرار ، ويقوم هؤلاء باحتقـار العبيد الذين كانوا أكبر طائفة من السكان .

ولقد كون المزارعون والذين كانت لهم فى عهد الملكية غرفة تجارية ، بتكوين مجلس له اتجاه استقلالى بمجرد اعلان الثورة الفرنسية . ووضعوا دستورا وعرضوه على الملك سنة ١٧٩٠ . وكانت هذه العملية صدمة للمجلس الوطنى فى باريس ، فقام بالقبض على عدد كبير من أعضاء مجلس سان دومينجو وحل مجلسهم . وظهر أن الولاء تجاه الملك كان آخر رباط يوحد بين سان دومينجو وفرنسا فى ظل الفوضى التى سادت مع الثورة . وأخذ أنصـار

الثورة يقاتلون رجال الملكية فى الجزيرة . وحاول الخلطون أن يستفيدوا من الموقف ثم حاول العبيد بعد اعطاء حقوق المواطنين للرجال الملونين الاحرار أن يعلنوا الثورة . ولكن الجزيرة بقيت فى أيدى الزنوج الثائرين بعد سنوات طويلة من الحروب الداخلية المستمرة .

وكان رئيس الزنوج هو توسان ذلك الرجل الطموح الفخور الحازم البليغ . وتمكن من التخلص من الانجليز كما تخلص من مندوبي الجمهورية وحكم القسم الاسبانى من الجزيرة كما حكم القسم الفرنسى . ومد حمايته على الرجال البيض الذى كان محتاجا لهم ، ولكنه كان يصادر ممتلكاتهم فى حالة رفضهم العودة الى الجزيرة . وقام بتحرير الزنوج ، ولكنه أرغمهم تحت ضرب السياط على أن يعملوا إجباريا على أراضى سادتهم السابقين ، وأعطاهم ربع غلة هذه الاراضى . ولم يعترف لفرنسا الا بسلطة اسمية ، رغم انه نظم جيشه من الزنوج على الطريقة الفرنسية . وحينما أصبح بونابرت قنصلا أعلن توسان نفسه رئيسا مدى الحياة واحتفظ لنفسه بالحق فى تعيين خلفائه . وكان له حرسه الخاص ، وبلاطه ، وقصوره ، وستراته الجميلة .

ولقد كتب الجنرال الرئيس توسان لوفريتر الى بونابرت بصفته رئيسا للزنوج الى رئيس البيض ، وعرض عليه سنة ١٨٠١ مشروع دستوره الذى لم تكن فيه أية إشارة الى الروابط مع فرنسا . ولقد ضحك بونابرت من هذه الطريقة وأنعم على توسان برتبة فريق ولكنه أرسل الى الجزيرة فريقا أول هو ليكليرك ، زوج أخته بولين . وأرسل القنصل الاول مع ليكليرك أسطولا يتكون من عشرين سفينة وعشرين فرقاطة تحمل عشرين الف جندى

حتى لا يحدث لبس عند توسان فى نوايا فرنسا .

ونجحت عملية انزال الجنود الى البر . ولم يتمكن توسان الا من أشعال الحرائق ثم الهرب الى الجبال ومعه الاسرى من البيض لقتلهم . ولكنه سلم بعد ذلك فأعاد الفرنسيون له لقبه ورتبته ، كما أعادوا له ممتلكاته ولكنه حاول القيام بثورة جديدة ، فاستدرجه الفرنسيون الى احد الكمائن واسروه وارسلوه الى فرنسا حيث مات سنة ١٨٠٢ . وكان توسان قد أعلن ان الفرنسيين بأسقاطهم أياه لم يقوموا الا باسقاط جذع شجرة حرية الزنوج ، لكن الجذور باقية وستنبت من جديد لانها عميقة وكثيرة .

وكانت أقواله حقيقية ، خاصة وأن مناخ سان دومينجو كان يخدم الزنوج وينهك البيض . فمات لبكليرك ، وقضت الحمى الصفراء على ١٥ ألف رجل من جنوده ، فقام أنصار توسان بدعوة الزنوج الى الثورة وذبحوا المحتلين وأصبحوا سادة على جزيرتهم . ولم يتمكن الفرنسيون من البقاء بصعوبة على بعض نقط من المنطقة الاسبانية الا حتى ذلك اليوم الذى نزل فيه الانجليز فى الجزيرة وانهوا هذه المغامرة سنة ١٨٠٩ .

إن هذه القصة المؤثرة كانت تحمل الكثير الى تاريخ الاستعمار ، خاصة وأنها روت قصة أول دولة وطنية تحاول أن تدعم استقلالها . حقيقة أن الوطنيين لم يكونوا من أبناء الجزيرة الذين قابلهم كولومب عند مجيئه اليها ، والذى كان جنسهم قد قضى عليه ، وأن الزنوج لم يكونوا الا مهاجرين من هذه الجزيرة ، ولكنهم كانوا يمثلون « الشعب » حسب تعريف الثورة . ولم يكن توسان يمثل واشنطن أسود ولكنه

كان يمثل قائدا للعبيد فى المستعمرات الجنوبية يحـــاول أن يلقى بواشطن الى البحر .

وانتهت هذه التجربة الفريدة فى نوعها بعملية غزو بريطانى ، وكان هذا هو مصير المستعمرات الاوربية فى ذلك الوقت . لقد حاربت انجلترا الثورة حتى صلح إميين ، وحاربت الامبراطورية حتى سقوط نابليون . وكانت انجلترا هى سيدة البحـار والمحيطات ، وتمـكنت من جمـع ونهب المستعمرات . ونهب كـل المستعمرات الفرنسية ، ومستعمرات حلفاء فرنسا ومستعمرات الدول التى تحتلها فرنسا .

وكان ويليام بت هو الذى يحرك المقاومة والهجوم البريطانى . كان ابنا لذلك الرجل الذى أعطى كندا والهند لانجـلترا . ولم يتردد كما لم يتردد والده من قبل فى تعبئة كل موارد بلاده من أجل هـذه الغاية . وتمـــكن أسطوله الذى انتصر على البحرية الفرنسية والإسبانيـة والهولنـــدية من السيطرة على كل أسواق التصـــدير فيما وراء البحار ، وبشكل جعـــله لا يأبه كثيرا بالحصـار البرى الذى فرضه نابليون على انجلترا . وتمـكن من عزل المستعمرات البعيدة ومنع وصول الإمداد لها من فرنسا . فسقطت فى أيدى انجلترا الواحدة بعد الأخرى .

وتمكن الإنجليز فى المرحلة الأولى ، مرحـلة الثورة ، من الإستيلاء على معظم جزر الأنتيل وعلى مراكز الهند كما تمكنوا من الاستيلاء على مستعمرة الرأس وملقة ثم غيانا وسيلان من هولندا التى احتلتها الجيوش الفرنسية . وأفلست الشركة الهولندية للهند بعد أن عجـزت عن منـــافسة

البريطانيين . واستولى الانجليز على ترينداد من أسبانيا بعد أن خرجت من التحالف المضاد لفرنسا .

أما فى المرحلة الثانية ، مرحلة حكم نابليون ، فان لندن قدجددت عملية الحصاد . واستولى سنة ١٨١٠ على كل الممتلكات الفرنسية بما فيها سان دومنجو وجزر فرنسا والبوربون ، التى ستصبح جزيرة ريونيون ثم جزيرة بونابرت . ولقيت جزر الانتيل الدانمركية نفس المصير . وفقد الهولنديون مستعمرة الرأس مرة ثانية ، ومستعمرة جاوة ، بعد أن دخلوا فى النظام القارى الذى أنشأه نابليون .

وكانت انجلترا تبحث عن قواعد استراتيجية أكثر من بحثها عن المستعمرات الواسعة وعن الأسواق اللازمة لتصريف المنتجات فاختارت نقطها على جزر ، أو شبه جزر ، وعند تقاطع الطرق وعند مدخل المضايق ولم تترك انجلترا جبل طارق وأنشأت قواعد مشابهة له فى كل الآفاق ، عند هليجولاند التى احتفظت بها لمدة قرن وجعلت منها مركزا وقلعة عند مصب الإلب والويزر ، وفى ملطة التى رفضت إعادتها بعد صلح إميان ، والتى أعطتها الإشراف على البحر المتوسط ، وفى جزيرة بينانج التى حصل عليها أحد القباطين الإنجليز عند زواجه بابنة سلطان هذه الناحية ، والتى أعطاها إلى حكومة الهند كميناء ممتاز عند مضيق ماقة ، وفى سنغافورة التى اشتروها من أحد السلاطين المحليين نظير دفع معاش له والتى أصبحت نقطة حراسة هامة لجزر التوابل قبل أن ينشأ فيها ميناء يجذب إليه معظم حركة التجارة الخاصة بالمنطقة . وكذلك نزل الانجليز فى مديرا وفى البليار

وفى كورسيكا، وحتى على الجزر الصغيرة القريبة من السواحـل الفرنسية . ونزل الإنجليز فى الجزر الأيونية وفى جزر بحر دلماشيا ، وكأن كل الجزر قد أصبحت من حقهم .

ولقد ظهرت الثورة الفرنسية مع الإمبراطورية لفرصة مواتية لانجلترا . رغم أنها كانت تكلفها الكثير . ذلك أنها كانت تكلفها الكثير . ذلك أنها قد أبعدت كاثوليك كندا عن فرنسا بشكل نهائى ، وحطمت نفوذ الملكية الفرنسية فى أنام وانهارت تجارة فرنسا الخارجية واحتاجت فرنسا إلى ٣٦ سنة لكى تعود إلى نفس الأهمية الدولية والتجارية التى احتلتها قبل الثورة وعلى العكس من ذلك نجد أن الإنجليز قد تخلصوا من منافسيهم وأصبحت لهم كل الحرية فى توسيع ممتلكاتهم . فتمكنوا سنة ١٧٩٢ من إنشاء سيراليون ، وعلى ساحل أفريقية الغربية ، بمساعدة الزنوج التى حصلوا عليهم من تجار العبيد ، واستكشفوا النيجر . وتمكنوا من استعمار الهند ، وكانت هذه العملية هى أهم العمليات .

وما الذى كان فى وسع فرنسا أن تفعله لإمداد تيبو صاحب ، نواب ميسور ، الذى حاول أن يقف فى وجه ولسلى ؟ لقد أرسلت اليه فرنسا ثلثمائة رجل من جزيرة فرنسا ، وكان لا يمكنهم القيام بشىء يذكر فقتل تيبو صاحب عند حصار البريطانيين لآخر معقل له واستولى الإنجليز على ميسور ، واستندوا فى كل الهند إلى طبقة حاكمة كانت تعمل سابقا مع المغول وعهدوا إليها بأعمال القضاء والأمن تحت اشرافهم . وكان من الطبيعى أن يصبح الإنجليز هم الطائفه السامية فى بلاد الطوائف . وأصبحت الهند انجليزية بعد تيبو صاحب ، رغم أن سان دومنجو قدخرجت من أيدى

فرنسا بعد توسان . وبدأت عملية استعمار جديدة ، بعد أن انتهت عملية سابقة . وأصبحت المراسيم الثورية لا تؤثر كثيرا فى مجالس المستعمرات أو فى عمليات الاسترقاق ، مادامت فرنسا قد أصبحت بدون مستعمرات تطبق فيها هذه المراسيم وهذه المبادىء .

الفصل السادس عشر

الثورة ونابليون

لم تجد الثورة الفرنسية رغم نجاحها الوقت الكافى للتنظيم . لقد استولت وصادرت وضحت وفرضت مبادئها باسم الحرية ، وانهت حكم الطغاة ، فكيف يمكن أن تتهم بالطغيان . وكانت جيوشها تهاجم وتنسحب مثل موجات البحر ، وارتبط بهذه العملية وبسرعتها ، وباختلاف نظمها المتعاقبة تعيين المندوبين والمديرين . واختلفت المسألة تماما مع بونابرت لأنه عمل على وضع كل شيء طبقا لنظام معين . واصبحت كورسيكا تستعمر فرنسا بالفعل ، خاصة وأن جماعة معينة كورسيكية قد جاءت الى فرنسا مع الامبراطور واحتلت أحسن المراكز فيها . وأصبح لفرنسا لفترة طويلة موظفين من كورسيكا ويحتلون كل درجات الوظائف من أول حارس الجمارك إلى المحافظين والحكام. وقد كانت كورسيكا فخورة بأنها أعطت امبراطورا لفرنسا ، فزادت التصاقا بالوطن الأم . وبعد ان كانت كورسيكا تثور على كل مستعمر سابق ، اتحدت بفرنسا وبكل قواها،وحاولت أن تصبغ فرنسا بصبغة كورسيكية . وربما كان ذلك هو النتيجة الطبيعية للاستعمار والتى رأتها فرنسا من قبل مع هنرى الرابع وناڤار ، وهى أن تقوم إحدى الأمم باستعارة رجل عظيم من مستعمراتها لكى يقودها .

(١) امبراطورية نابليون :-

كان نابليون رجل دولة يمتاز بطموحه الاستعمارى . وتمكن من إنهاء

تأريخ البندقية تم قضى على جماعة فرسان مالطة ، وبدأ مشروعاته الكبيرة ولحسابه الخاص . وكان يحلم بالمشروعات الاستعمارية ، فاقترح على القيصر تقسيم الامبراطورية العثمانية ، وذهب بنفسه حتى مصر .

وكانت الاطماع الاستعمارية واضحة فى الحملة الفرنسية على مصر . لقد كان من الممكن اعتبارها مجرد مناورة لسياسة دولية تحاول اقفال الطريق البرى المؤدى إلى الهند أمام انجلترا ، أو مجرد مناورة لسياسة داخلية عمدت من ورائها حكومة الديركتوار الى ابعاد أحد الجنرالات الذين تخشى منهم ، أو ان بونابرت كان يرغب فى زيادة مجده الشخصى . ولكن الحملة الفرنسية على مصر كانت ستعود بالفوائد على فرنسا .

ولقد اصطحب بونابرت معه عدداً من الاداريين والمهندسين والعلماء ، وعمل فى مصر وكأن البقاء الفرنسى سيكون فيها مستمرا ، فاهتم بالرى وبالترع وفكر فى وصل النيل بالبحر الأحمر وأنشأ ادارة للبريد وادخل نظام طواحين الهواء ونظم مجمع القاهرة أو المجمع المصرى . وترك بونابرت الادارة فى مصر كما هى ، ولكنه أخضعها للاشراف الفرنسى ، وأخذ يختار بعض الشخصيات المصرية من بين الأعيان . وحاول أن يشكل مجلسا استشاريا محليا . أما بالنسبة الى الاسلام فان سياسة بونابرت كانت تحتمل كثيرا من المتناقضات ، فكان يظهر كل احترام تجاه دين البلاد ويشارك فى الأعياد الاسلامية ويعطى المنح لرجال الدين ويرتدى الملابس العثمانية ويعد ببناء أحد المساجد حتى سماه بعض الأهالى بالسلطان الكبير . ولكن بونابرت تدخل باسم الصحة العامة لابعاد المدافن عن المدن ، وتدخل باسم الأمن لهدم الأبواب التى تسد مداخل الحارات ، ومنع استخدام الحجاب ،

وتدخل باسم العدالة لفرض ضرائب معينة على المنازل والحوانيت فى المدن . وتسببت هذه الاجراءات فى اغضاب عدد من الزعماء المصريين ، وتكاتفت عوامل تسجيل الأملاك وإنشاء الإدارة المدنية وحماية الأقباط واليهود ، وفرض الضرائب على المؤن والأسلحة فى إثارة الأهالى . أما التقارب بين حقوق الانسان وبين القرآن ، ذلك التقارب الذى حاول بونابرت أن يشرحه لهم ، فان المسلمين قد رفضوا الاعتراف بمنطقيته ، وبدأت النفوس فى التغير، ثم نشبت الثورة .

وإذا كان بونابرت قد أراد أن يخلق من مصر إحدى المقاطعات الفرنسية فان ذلك لم يكن إلا وسيلة وإلا مرحلة من المراحل ، خاصة وأنه ترك مصر لكى يعود إلى فرنسا ويقوم بأعمال أخرى . وفكر بونابرت بعد بضعة شهر من عودته من مصر فى العالم الجديد ، وفكر فى ستعادة لويزيانا التى كانت فرنسا قد تركتها لاسبانيا منذ ثلاثين سنة . وعرض القنصل الأول سنة ١٨٠٠ على مدريد استبدال لويزيانا بتوسكانا . وكانت هذه هى الفترة التى بدأت فيها أحلام بونابرت الاستعمارية فى النضوج وساعد صلح إميان، الذى لم يكن إلا هدنة مؤقتة ، على إعطائه الوقت اللازم للتفكير. وقام بعقد عدة معاهدات مع طرابلس وتونس، وتباحث مع داى الجزائر وارسل سباستسيان فى مهمة فى الشرق الأوسط ، ورأيناه يرسل ليكليرك الى سان دومنجو ، وعين الجنرال فيكتور فريقا أول على لويزيانا ،ويقرر إرسال أحد المحافظين معه ، ومع اثنى عشر سفينة وأحد الآيات المدفعية ، وآلاى آخر من المشاة . ولكن الأمريكيين لم يرغبوا فى رؤية الفرنسيين جيرانا لهم مع الميسيسبى ، فهاجموا فلوريدا الاسبانية ،وحاولوا الاحتفاظ

بحرية التجارة على الميسيسبى . وتسببت عودة الفرنسيين الى نيو اورليانز فى إلقاء الأمريكيين فى أحضان انجلترا . وكانت الحرب قد بدأت بين لندن وباريس ، وفشلت حملة سان دومنجو ، وكانت مشاغل بونابرت كثيرة ، كما كان لاينظر الى حملة لويزيانا إلا كوسيلة للتسلية فى وقت السلم . وكان بونابرت لا يرغب فى الاحتفاظ باحدى الممتلكات التى تسوء علاقاته بالأمريكيين أو تعمل على فتور علاقاته معهم ، بل كان يرغب فى استخدامها وسيلة للايقاع بينهم وبين الإنجليز ، ولذلك فانه قرر بيع لويزيانا للولايات المتحدة .

ووصل مونرو الامريكى إلى باريس وهو يأمل فى الوصول الى الحصول على حق الملاحة على الميسيسبى ، أو ربما شراء نيو أورليانز . وكانت دهشته كبيرة حين عرض عليه تاليران كل لويزيانا . فنقل الاقتراح الى الرئيس جيفرسون الذى كان رغم بخله ، لايمكنه أن يرفض السماح بمضاعفة مساحة الولايات المتحدة وفتح طريق الغرب أمامها نظير مبلغ ٦٠ أو ٨٠ مليون فرنك . وانتهت الصفقة سنة ١٨٠٢ وبعد تخفيض التعويضات الخاصة بالامريكيين بقى لفرنسا أن تتسلم ٥٤ مليون فرنك .

ولم تذهب سياسة بونابرت الاستعمارية الى أبعد من ذلك . فلقد حاول أن يدعم ما بقى له من سلطة على بعض الممتلكات فيما وراء البحار ، وألغى مجالس المستعمرات رغم أنف المعمرين ، وأعاد العمل بنظام الرق الذى لم يكن قد ألغى فى الحقيقة الا فى جزيرة سان دومنجو . وعوض فرح المعمرين بهذه القرارات الأخيرة غضبهم لإلغاء المجالس ، وربما كانت جوزفين ، زوجته المخلصة، لها أصبع أو أصابع فى هذه القرارات.

وحاول نابليون أن يبنى امبراطورية من نوع جـديد ، امبراطورية أوربية ، وعلى القارة وتشبه امبراطورية روما . وكان نابليون يعرف ذلك جيداً ، وأخذ من روما ألفاظها ونظام حكام المقاطعات ، ونسورها . وكانت امبراطورية نابليون إستعمارية مثل امبراطورية أغسطس وجاءت نتيجة لظروف أكثر من كونها نتيجة لطموح نابليون . ذلك أنه كان يفضل أن يكون امبراطورا للسلم ، ولكن نظام المحالفات الذى قامت به إنجلترا ، وظروف الحصار القارى التى حاول عن طريقه أن يقفل أوربا فى وجـه الصادرات البريطانية أجبره على الإستمرار فى حرب مستديمة ، وعلى الظهور بمظهر الأمبريالى المتسلط .

ولقد قام نابليون باسقاط أسر حاكمة قديمة وبتعيين قواده وأفراد أسرته وتوزيع التيجان والإمتيازات . لقـد عزل نابليون أسرة بزنطة وأبعـد البوربون فى اسبانيا عن الحكم ، واعتبر البابا خاضعا له . ولقد ظهر نابليون فى أول الأمر وكأنه يرغب فى إنشاء نظام اتحـادى أو فيديرالى ، يمكنه أن يبقى على النظم والتقاليد الموجودة فى الدول الخاضعـة . فاحتفظ لجنـوة بدوقها وبمجلس شيوخها ، رغم أنه عين أعضائه ، واحتفظ لجمهورية سويسرا بسبعة عشر كـنتون شبه مستقلة وبمجلس شيوخ اتحـادى ، كما احتفـظ لإيطاليا بقنصلها ولهولندا بالوصى عليها .

ولكن ظروف الحصار اضطرت الامبراطور سنة ١٨١١ إلى ترك المبادىء الإتحادية إلى مبادىء الوحدة . فضم ممالك وجمهوريات لبعضها وبشـكل جعل امبراطورية الغرب تشتمل على ١٣٨ مقاطعة ويعيش فيها ٤٣ مليون نسمة فاصبح هناك محافظين فرنسيين فى همبورج وفى لاهاى وفى فلورنسا

وتورينو، وأصبحت أسماء المقاطعات تشبه أسماء المقاطعات الفرنسية ومرتبطة بالطبيعة .

أما على الحدود فقد كانت هناك دول خاضعة للامبراطورية ، دون أن تدخل فى النظام ، وذلك مثل حالة مملكة إيطاليا التى كان نابليون ملكا عليها وايوجين نائبا للملك . و كانت ميلانو هى عاصمتها ، وتشتمل على ٢٤ مقاطعة . و كانت هذه أيضا هى حالة الأقاليم الأربع الواقعة فى شمال اسبانيا والمقاطعات السبعة فى دلماشيا .

وكانت الدول الخاضعة تكمل المجموعة . فكانت هناك الممالك غير المضمومة مثل اسبانيا التى تولاها جوزيف ، ونابلى التى حكمها مورا ، ووستفاليا التى حكمها جيروم ، وكانت كل هذه الممالك تأخذ أوامرها من نابليون .وكان هناك إتحاد الراين الذى جمع فيه نابليون ٣٧ دولة ، والإتحاد السويسرى ودوقية وارسو التى عين عليها أميراً يدين له بالولاء .

وكانت باريس هى مركز كل هذا المجموع ، وكان التويلرى هو مركز باريس وقلبها . ولم يعد أكبر مستعمرى الماضى الارعايا ومحميين للامبراطورية الفرنسية، وتساوت فى ذلك روما وجنوه وأمستردام والبندقية واشبيليه . لقد أصبحت باريس عاصمة للعواصم وأصبح نابليون حاكما على حكام أوربا .

وكان النظام المركزى الذى اتبعه نابليون دقيقا فى تطبيقه وينتهى إلى شخصه سواء أكانت السلطة تمر عن طريق اخوانه او مساعديه . وكان من رجال الوحدة وأنشأ نظاما موحداً للموظفين ونظاما قضائيا واحداً وجيشا

واحداً . وسارت الإدارة والعدالة على الطريقة الفرنسية حتى فى دوقيه وارسو ، ودخل القانون المدنى كل البلاد الخاضعة وبشكل ساعد على توحيد أوربا وجعلها اسرة واحدة وساعد اهتمام نابليون بانشاء الطرق وتمهيدها على توحيد أوربا ، ومرت الطرق فى الممرات الجبلية بين شمال أوربا وجنوبها ووحدت بين شرقها وغربها ، ووصلت إلى البلقان ، كما كانت روما قد عملت من قبل .

أما الجيش الامبراطورى فكان يجمع الجنود من كل الدول وزاد عدد الأجانب فيه على عدد الفرنسيين وشارك فيه البولنديون والباقاريون والسكسون والهولنديون والداعاركيون . واعتقد نابليون أن هذا الجيش يساعد على انهاك اوربا ، ولكنه فى الواقع كان يزيد عوامل ضعفه عن حكم القارة . لقد كانت الوحدة التى فرضها نابليون على أوربا ضعيفة ، ولم يستمر الملوك والأمراء التى صنعهم نابليون على ولائهم له ، وكان بعضهم يفضل مصالح الشعوب التى يحكمها والتى يرغب فى الإستمرار فى حكمها على ارضاء قرارات نابليون . ولكن الأمبراطور كان يرى فى قرارته وسائل لوصول الشعوب إلى سعادتها ، وأن رفض الشعوب تطبيق هذه القرارات يستتبع عقوبتها ، وهو نفس مبدأ الإستعمار القديم الخاص بالعمل على رفع مستوى الشعوب واسعادها رغما عنها .

ولكن الشعوب الخاضعة كانت ترفض هذه السلطة وكانت لا تأبه كثيرا بالمشاركة فى مجد الامبراطورية ، خاصة وان ضرائب الحرب وعمليات التجنيد والحصار كانت تتعارض مع مصالحهم كأهالى ومستهلكين . واختفت سلع كثيرة من الأسواق وحاولت الدولة أن تشجع زراعة القطن فى نابلى

والاندلس لكى تواجه اختفاء المنسوجات . وجاء إستخدام القانون المدنى متضاربا مع العادات والتقاليد القديمة، وجاء نزع حقوق الإقطاعيين ومصادرة أملاكهم سببا فى خلق أعداء جدد . وقابل الناس هذه القوانين الجديدة مقابلة سيئة خاصة وأنها كانت علمانية وتساوى بين الجميع وتحرر اليهود وتعترف بالطلاق وتقسم الميراث. ورفض البروتستانت فى هولندا الإعتراف للكاثوليك بنفس حقوقهم . أما فى بولندا فان رجال الكنيسة قد أظهروا قلقهم ،فى الوقت الذى أظهر فيه النبلاء اشمئزازهم . وساعدت كل هذه الحركات غير الراضية على تهيئة الجو لنشأة القوميات الجديدة .

ولقد بدأ هذا النظام فى التفكك بعد الرجوع من الروسيا سنة ١٨١٢ ، وأخذت الشعوب فى التحرر . وبعد سنتين من دخوله إلى موسكو اصبح نابليون سيداً اسميا على جزيرة البا . وجاءت المعاهدات التى انهت هذه المغامرة لكى تعيد وضع الحدود وتعيد توزيع الامبراطوريات الاستعمارية. واستعادت فرنسا مراكزها التجارية الخمسة فى الهند كما استعادت جزيرة بوربون ونقط السنغال وغيانا والمارتنيك وجوادلوب وسانت دومنجو. ولكن إنجلترا احتفظت لنفسها بجزر بتاجو وسانتا لوتشيا وجزيرة فرنسا لؤلؤة المحيط الهندى والتى كان الإنجليز يخشون من عودة فرنسا إليها على ممتلكاتهم فى الهند .ولذلك فان إنجلترا ستحتفظ بها وتحولها إلى جزيرة موريس. وإذا كانت إنجلترا قد أعادت جاوة إلى هولندا فانها قد احتفظت بمستعمرة الرأس وسيلان .كما أنها لم تترك مالطة ولا هليجولاند ولا كورفو أما جزر الأيونية فانها وضعت تحت الحماية البريطانية .

ولقد خرجت فرنسا من الثورة ومغامرة نابليون منهكة ، ومستعمراتها

مسلوبة أما انجلترا فانها قد خرجت بامبراطورية كبيرة تسمح لها بالاحتفاظ بالسيادة طوال القرن التاسع عشر . لقد أصبحت انجلترا ملكة البحار والنقل وملكة البنوك والاموال ، وبدون منافس ، وكانت فرنسا تنزف دما على القارة ، أما فى بقية العالم فان آخر منافس ممكن للعظمة البريطانية وآخر وارث لامبراطورية شارل الخامس كان هو الامبراطورية الاسبانية والتي كانت قد إنتهت .

(٢) تحرر أمريكا اللاتينية : —

لقد عاشت هذه الامبراطورية الامريكية التى منحها الغزاة لقشتالة مدة ثلاثة قرون . عاشت مع التحكم ومع الروتين ، ولكنها عاشت على أى حال . واستمر الإسبانيون فى استغلال الوطنيين وفى اجبارهم على شراء ملابسهم وتموينهم بأعلى سعر ممكن . ومنعوا زراعة عدد من المحصولات ومنعوا عدد من الصناعات حتى لا ينافسوا إسبانيا . واهمل الاسبانيون بعض المقاطعات ، مثل الجزء الاسبانى من سان دومنجو . ورغم كل ذلك فلقد احتفظت اسبانيا بممتلكاتها ودون أن تكون سياستها هى سياسة الطغيان على طول الخط . فنلاحظ أن بعض الاصلاحات المتحررة قد عملت على استقرار نظام التجارة الخارجية ، ووضعية الهنود ، فازدهرت الزراعة ونمت المدن . أما فى كاليفورنيا فان الاستعمار قد تقدم ، واخذت المكسيك تنتج ثلثى معدن الفضة فى العالم ، واخذ ميناء بونس ابرس فى تصدير جلود مواشى البمبا .

وإذا كانت امريكا قد أخذت فى التحرك ثم فى الغليان فان الاسبانيين كانوا مسئولين عن ذلك إلى درجة كبيرة . لقد احتفظت اسبانيا للاسبانيين

المولودين فيها بشغل واحتلال الوظائف العامة . أما المخلطين ، وعدد منهم من دماء اسبانية ، رغم أنهم ولدوا فى أمريكا، فانهم قد أخذوا يحسدون ثم يحقدون على من ولدوا فى اسبانيا وأما المخلطين من الهنود والزنوج ، والذين كانو يكونون طوائف ادنى ، فقد كان لهم أن يشتكوا اكثر من غيرهم . وحينما أعلن توباك أمادرو الثورة ثم قتل اعتبره الهنود آخر ابناءالشمس ، رغم أنهم احتفظوا باتجاه سلبى تجاه الحكومة .

وكان الاسبانيون المولودون فى أمريكا هم العناصر الرئيسية التى يمكنها أن تتخلص من الطغيان . وكانوا قد قرأوا روسو ورينال وديدرو وعرفوا كيف قام روبيرتسن بالقضاء على الطغيان الاسباني فى كتابه عن تاريخ امريكا التى منعت مدريد نشرة وتداوله . وكانوا يعرفون مثل التحرر الذى اعطاه لهم معمروا امريكا الانجليزية وزنوج سان دومنجو. وساعدت كل هذه العوامل على ارتفاع درجة الحمى تحت شمس المناطق المدارية .

وكان للحركة التحررية انصارها فى مدريد نفسها فنجد ،أن الكونت دارندا يقترح الا تحتفظ اسبانيا الا بكوبا وبورتوريكو وبجزء من امريكا الجنوبية ، وتضحى ببقية امبراطوريتها ، وتنشأ عدداً من الممالك المستقلة فى المكسيك وفنزويلا وبيرو ، ولصالح ابنائها فى العالم الجديد . ولم يهتم أحد بهذا المشروع . ولكن الاسبانيين فى امريكا اللاتينية كانوا يعرفون أن البذور قد أخذت فى الانبات .

ووجد الاسبانيون فى امريكا خلفاءاً يعضدونهم ، خاصة وأن الولايات المتحده الامريكية كانت تعارض الاتجـاه التجارى الاسبانى ،

وكانت انجلـــترا قد بدأت فى الاتصال بالصادرات الامريكية ، أما اليسوعيون الذين كانوا بعيدين عن نسيان الظروف التى طردوا فيهـا من باراجواى فانهم قد رحبوا بالآراء الثورية فى العـالم الجديد وعضدوها ضد مدريد .

ولم يكن من السهل قيام ثورة بدون قيادة ، ولم يفتقر العالم الجـديد لقواد ثوار فى هذا العصر . فنجـد أن ميراندا قـد ولد فى كاراكاس من ابوين اسبانيين ، ودرس الثورة على واشنطون ثم فى جيش دوموريه ، ثم يقوم ببعض المناورات والمآمرات فى فرنسا ويفـاوض فى انجلـترا وفى الولايات المتحـدة ويبدأ اولى عمليـات الثورة . أما سـان مارتان فكان من ابناء منطقة لا بلاتا وبطلا مصمما يمكنه أن يصل إلى الاستقلال . واخـيراً فهناك بوليفار الذى ولد فى كاراكاس والذى قـرأ بلوتارك وروسو وكان رومانتيكيا أمام الرومانتيكيين فى الوقت الذى كان فيـه عمليا ومنظما . وامتاز على الآخرين بشعبيته وكرمه ، وكان لا يخشى شيئا كما كان يحب المواقف الطنانة والبلاغات . لقـد اقسم أمام محفل قادس الماسونى على الا يعترف بحكومة وطنية الا تلك التى تنتخبها الارادة الحرة والتلقائية للشعب . كما أقسم فى روما وهو راكع على تحـرير وطنه . ورغم هذه الحركات المسرحية فقد كان مخلصاً ومصمما على الوصول الى مبتغاه . كان ذلك فى سنتى ١٨٠٣ ، ١٨٠٤ ، وبقى عليـه أن ينتهز الفرصة التى سنحت حينما طرد نابليون البوربون من مدريد وترك امريكا يتيمة بدون اسرة حاكمة . وحينما ثارت اسبانيا حاولت امريكا الاسبانية أن تبقى مخلصة للبوربون ، ولكن نابليون اعلن أنه لن يعارض فى تكوين

دول مستقلة فيها . وسمح هذا لأحد رجال الدين القرويين فى المكسيك ، وهو ميجويل هيدالجو باعلان الإستقلال الذاتى . أما فى بونس ايرس فان الثوار قد اعدموا نائب الملك رميا بالرصاص . وتكونت جماعة حربية ، أو مجلس ثورة فى فنزويلا وادعت أنها تحتفظ بحقوق السيادة الشرعية وسمحت بانتخاب مؤتمر تضاربت فيه وجهات نظر الملكيين انصار اسبانيا ووجهات نظر الجمهوريين انصار الحرية . واختار هذا المؤتمر ميراندا قائدا عاما سنة ١٨١١ مما سمح له بالوصول إلى سلطات الدكتاتور فيما بعد .

ورغم كل ذلك فان العملية لم تكن قد انتهت بعد . ذلك أن الانجليز ، حلفاء اسبانيا ، كانوا لا يقدرون على تعضيد الثوار واكتفوا بالحصول على حرية التجاره مع أمريكا . وساعد ذلك على عودة الاسبانيين إلى السلطة هناك . أما المكسيك فانهم قد تمكنوا من القضاء على هيدالجو ، أما فى فنزويلا فانهم قد نجحوا فى إثارة الزنوج ضد المخلطين ، وجاءت إحدى الزلازل لكى تثبت أن السماء كانت ضد الحكومة الثورية وتدفع السذاج الى ضرورة العودة للولاء للحكم الشرعى . ولقد اضطر ميراندا إلى التسليم وأنهى حياته فى سجون اسبانيا .

وجاءت بعد هذه موجة ثانية قام فيها بوليفار بالسيطرة على العمليات وبدون رحمة وفضح فيها الاسبانيين كأعداء طبيعين لا يمكن مهادنتهم بل من الواجب محاربتهم حتى الموت وبدون شفقة أو رحمة ولكن مع العزم والتصميم على انهاء الطغيان ، حتى ولو كان ذلك عن طريق مواجهتهم بطغيان آخر . لقد كانت حربا أهلية بين الامريكيين تتواجه فيها قوات أنصار التحرر وانصار الولاء لمدريد . أما الاسبانيين المولودين فى أمريكا

والذى نجح بوليفار فى اثارتهم فانهم قد اضطروا الى مواجهة المخلطين الذين يسكنون السهول ويعملون كمعمرين ويحصلون على الاسلحة من اسبانيا . ولقد نجح بوليفار فى أخذ كاراكاس ، ولكنه فقدها بعدذلك وحينما عاد البوربون إلى عرش مدريد سنة ١٨١٥ أرسلوا جيشا يبلغ عشرة آلاف رجل ، مزودا بالمدفعية ، وتمكنوا من اعادة غزو أمريكا ، فيما عدا الأرجنتين ، فاضطر بوليفار الى الإلتجاء الى جامايكا .

ولكن انتصار الاسبانيين كان ضعيفا ، ولم يكن فى وسع اسبانيا أن تستمر فى كبت الشباب الامريكى . وكانت اسبانيا قد ضعفت فحاولت أن تجد لها مخرجا مع مبادىء الحرية التى كانت قد أخذت فى الانتشار فى كل مكان . واعطى الاسبانيون أنفسهم مثلا لاسبانيى أمريكا حين غيروا نظمهم الدستورية فى الوطن الام ، وكان ذلك مثلا يمكن لابناء امريكا أن يفيدوا منه .

وجاءت عملية الهجوم الثالث ونجحت فى كل مكان . فتمكن إيتوربيد باستناده الى اليسوعيين فى المكسيك من اعلان العصيان ، وأعلن نفسه امبراطوراً . أما بوليفار فقد اختارته فنزويلا رئيسا للجمهورية . فزحف عبر المناطق الهندية وفاجأ الحاميات الاسبانية فى غرناطة الجديدة سنة ١٨١٩ ، ووحد الامتين تحت اسم كولومبيا العظمى وأعترف بأن هذه التسمية كانت لتخليد ذكرى هؤلاء الرجال الذين عملوا من أجل الانسانية . وكان كولومب اسبانيا فى نظر الاسبانيين ، كما كان واشنطون انجليزيا فى نظر الانجليز . انهم أبناء أوربا الذين يتحررون من الوصاية الاوربية ، وفى الوقت الذى لا يكسب فيه الوطنيون أى شىء . لقد اعلن بوليفار أنه ورجاله

ليسوا من الهنود ولا من الاوربيين ، ولكن من عنصر متوسط يقف بين الملاك الشرعيين للبلاد والمغتصبين الاسبانيين . أى أنهـم أمريكيون بالمولد وأن حقوقهم هى حقوق الاوربيين وعليهم بعد ذلك أن ينتزعوا بقية حقوقهم من الاهالى .

ولقد تمكن الجنرال سان مارتان سـنة ١٨١٧ من المجىء من لابلاتا ومن عبور مناطق الهنود ومن تحرير شيلى ثم بيرو حيث اتصـل ببوليفار الذى أتى من كولومبيا فى سنة ١٨٢٤ . وقامت حملات أخرى برئاسة الجنرال سكر وانتهت بتحرير الاقاليم التى أصبحت بوليفيا وإبعاد الاسـبانيين منها نهائيا سـنة ١٨٢١ أما الولايات المتحدة فأنها كانت قد حصلت من مدريد على فلوريدا ، فلم تتمالك إلا اعلان اعجابها بتحرر العالم الجديد .

لقد انهارت الامبراطورية التى عاشت ثلاثة قرون فى عشر سنوات . ورغم فظاعة القواد وجنرالات المنتصرين فان الحرب لم تكن قاسية . لقـد كان من الطبيعى قتل أسرى الحرب ومشاهدة انتشـار السـلب والنهب والسبى الذى يريح الجنود بعد عملياتهم الحربية ، ولكن اعداد هذه الجيوش كانت لا تزيد على بضعة آلاف أو بضعة مئات ، ونجحت فى هـذه العمليـات . ووصل الحال الى أن تنتهى بعض المعارك باقل من عشرين قتيل. وربما كان تحرير أمريكا من هذه الناحية لا يثير اهتمام دارسى الحروب إلى مدى بعيد .

وعلينا أن نقرر بأن أغلبية سكان أمريكا سـواء أكانوا من المخلطين بين الاسبانيين والهنود ، أو من المخلطـين بين الاسـبانيين والزنوج أو من الزنوج،لم يتغير حالهم لدرجة كبيرة ، رغم أن الاسـبانيين المولودين فى أمريكا كانوا قد تمكنوا من التخلص من منافسة الاسبانيين القادمين من

الوطن الام وبدأوا فى التنازع على السلطة . وبعد عصر طويل من السلم الاسبانى الذى يمكن تشبيهه بالسلم الذى فرضته روما فى العصور القديمة جاء عصر مليء بالثورات والفورات والخصومات بين الاحزاب وبين المدن والمناطق والاقاليم والدول . ولقد فشلت أمريكا الاسبانية فى التخلص من مؤامراتها ومن بلاغاتها ومن ظهور الدكتاتوريات فيها . وكم من رجال عملوا باسم تحريرها أنهوا حياتهم كمجرمين أطلق عليهم الرصاص أو فى المنفى مثل سان مارتان وبوليفار نفسه .

وكذلك نجحت البرازيل فى الانفصال عن البرتغال ، وإن كان ذلك الانفصال قد حدث دون مشكلات . فعندما طرد الفرنسيون الملك يوحنا السادس من دولته ذهب وأقام فى ريو سنة ١٨٠٨ وفتح البرازيل للتجارة الأجنبية . وأعجبته البرازيل بدرجة أنه نسى أن يعود الى بلاده بعد أنهيار امبراطورية نابليون . فاضطر الكورتيز إلى الاصرار على ضرورة عودته الى البرتغال سنة ١٨٢١ وسمحوا له بترك ابنه بيدرو نائبا عنه هناك ووصيا على العرش . ولكن كل المستعمرات الاسبانية المجاورة كانت قد نجحت فى التخلص من سيطرة مدريد ، ولذلك فانه حينما قام الكورتيز فى لشبونة بمحاولة اعادة البرازيل الى وضعيتها المستعمرة وطلب من بيدرو فى سنة ١٨٢٢ العودة الى البرتغال، اعلن البرازيليون أن بيدرو هو حاميهم ثم امبراطورهم الدستورى . فانتهى الانفصال برئاسة أباطرة من نفس الاسرة المالكة فى البرتغال قبل أن تأخذ البرازيل سيرها فى شكل جمهورية لها معيشتها الخاصة

لقد تحررت كل أمريكا اللاتينية ولم يبق فيها الا المستعمرات الاوربية فى غيانا وهندوراس البريطانية . ورغم ذلك فان اسبانيا قد احتفظت بجزر الانتيل وخاصة كوبا التى حضر اليها أنصار الملكية بعد طردهم من شبه جزيرة إيبيريا . أما إذا تساءلنا عن السبب الذى لم تسمح لكوبا بالتحرر فاننا

نلاحظ أن الولايات المتحدة بعد ضمهـا لفلـوريدا كانت تعتبر أن كوبا هي إمتداد طبيعى لشبه جزيرة فلوريدا ، فلتترك فيها الاسبانيين حتى لا تقـع فى أيدى الانجلوسكسون .

وكانت سان دومنجو آخر هذه المستعمرات . لقد عاد القسم الغربي من هذه الجزيرة لفرنسا على الورق سنة ١٨١٥ وفى أثناء معاهدات الصلـح . ولكن المخلطين والزنوج كانوا يسيطرون عليهـــا ، رغم أنهم كانوا يتحاربون فيما بينهم ، فرفضوا المفاوضة مع منـدوبي باريس . ولم يكن هناك داع للاصرار ، خاصة وأن تحرير العبيد كان يغير أحوال الانتاج ، كما كانت منافسة سكر البنجر قد هزت أجهـــكار سكر قصب السكر من أساسه . ولذلك فان حكومة باريس قد تنازلت عن ادعاءاتهـا سنة ١٨٢٥ نظير وعد بتعويض المتوطنين القدماء . وأصدرت فرنسا مرسوما ملكيا فى نفس السنة منحت فيه الاستقلال للمواطنين فى سان دومنجو ، رغم أنهم كانوا مستقلين بالفعل منذ سنوات طويلة .

وحينما إشتعلت جمهوريةهايتي على كل الجزيرة كانت تختلف عن جمهوريات أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، لانها لم تـكن دولة للمعمرين ، بل كانت أولى العمليات التى ينجح فيهـا الرجال الملونون أمام استعـمار الرجل الابيض .

(٣) مونرو ومذهبه : —

لقد مر الوقت سريعا ، ومرت سبعون سنة منذ أن فقدت فرنسا الهند وكندا . ولم تكن فرنسا قد قبلت هذه الخسارة إلا لانهـا كانت تحتفظ بسان دومنجو . ولكن الوقت جاء لـكي تفقـد فرنسا سان دومنجـو

بعد أن فقدت جزيرة فرنسا« ايل دى فرانس »

وكانت انجلترا فى أثناء ذلك الوقت قد قبلت فقدان مستعمراتها الثلاثة عشر الامريكية ، كما كانت هولندا قد فقدت مستعمرة الرأس وسيلان، أما البرتغال فانها كانت قد فقدت البرازيل ، وأما إسبانيا فانها كانت قد فقدت كل ممتلكاتها على القارة الأمريكية. لقد أصاب النظام الاستعمارى اضطراب عنيف وأثر هذا الاضطراب على كل الدول الاستعمارية . فهل كان ذلك نهاية حكم أوربا للعالم ؟

لقد كانت أسباب هذا الاضطراب معروفة وترجع فى غالبيتها الى موقف الرأى العام وخاصة المثقفين الذين هاجموا النظام الاستعمارى تحت شعار المساواة . ولم يكن من مجرد الصدفة اشتراك كل من لافاييت وواشنطن وسان مارتان وبوليفار فى الواج الماسونيين الاحرار . لقد درسوا فى هذه الألواج الماسونية روح التحرير والتحرر .

والواقع أن حركة الاستقلال كانت قد بدأت فى أوربا قبل أن تبدأ فى المستعمرات . وإذا كان بعض الناس قد نظر اليها كعملية سلمية ، فان غيرهم قد اعتبرها علامة ضعف من الدول الاستعمارية . ولذلك فان الغاء قانون الدمغة ثم تراجع إنجلترا فى أمر رسوم الاستيراد لأمريكا الانجليزية، وكذلك إصلاحات شارل الثالث وطرد اليسوعيين من أمريكا الاسبانية ، وكذلك المرسوم الذى أعطى حق الانتخاب للرجال الملونين فى سان دومنجو ، وموقف جان السادس البرتغالى الذى ترك إبنه بدرو للبرازيليين — كانت كلها تعتبر مظاهر لضعف الدول الاوربية .

وكانت مواقف الشدة لا تأتى فى الوقت المناسب لهـا، بل كانت تجىء فى أوقات يظهر فيهـا ضعف الوطن الام أو اشـــتداد الروح التحررية فى المستعمرات وعدم التمكن من كبحها . فاذا كانت انجلترا قـد حاولت أن تفرض نفسها على أمريكا ، وإذا كان بونابرت قد حاول اعادة غزو سان دومنجو ، وإذا كان البوربون الإسبانيون قدحاولوا استعادة امبراطوريتهم الامريكية ، فان هذه القرارات كانت قد جاءت متأخرة، وبعد فوات الفرصة.

وأخيراً فان المواطنين فى دول أوربا نفسـها كانوا قـد بدؤا فى الثورة باسم الحرية ، وأخذ المعمرون فى التأثر بهذه الأراء. فاذا كان الفرنسيون قد استولوا على الباستيل فما الذى يمنع الزنوج من التحرر ؟ . واذا كان الاسبانيون قد ثاروا ضد رجوع البوربون فلم لا يشارك المعمرون فى هذه الحركة ؟

وكانت اخطاء اوربا هى السبب فى فقدها لمستعمراتها نتيجـة لضعف السلطة المركزية فى بلادها . وكان هذا المثل ينطبق على الدولة العثمانيـة والتى أخذت فى الضعف والتفكك . وحاول بونابرت أن يأخذ نصيبه من ميراث الرجـل المريض ، فاحتل مصر ومهـد بذلك لظهور محمد على تحت السيادة الاسمية للسلطان . وقامت ثورات أخرى فى جانينا والمورة وانتهت باستقلال اليونان . لقد بدأت الدول الاوربية القديمة فى التفكك ، فما هـو موقف رؤساء الدول ؟

لقد كان أول صوت ارتفع هو صوت مونرو رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، والذى كان قد فاوض فرنسا لشراء لويزيانا . لقد أخـــذ موقفا صريحا هذه المرة مع استقلال الشعوب المستعمرة والى جانبها . وبعد

تحطيم الأسطول العثمانى فى موقعة نافارين حصلت اليونان على استقلالها سنة ١٨٢٧ وبعد ذلك نجح السلاف والرومانيون فى التحرك داخل نطاق الامبراطورية العثمانية التى عجزت عن الاحتفاظ بسلطتها عليهم وإن كانت سكرات موتها قد امتدت لمدة سنوات.

وليس معنى ذلك أن كل المشروعات الاستعمارية قد انتهت، بل انها لم تنتهى إلا تلك المشروعات التى عجز القائمون عليها عن مواصلتها واستمرت دول ثلاث فى عملية توسعها الاستعمارى وهى انجلترا، والولايات المتحدة الامريكية، والروسيا، التى مدت حدودها إلى أقصى درجة ممكنة .

ولقد اختار التوسع الانجليزى نصف الكرة الأرضية الجنوبى ميدانا لتوسعه بعد أن أخذ الهند وكندا من فرنسا . واختار مستعمرة الرأس التى التى لم تعد مجرد محطة بحرية، واستراليا التى أنزل اليها قطعان الأغنام فى نفس الوقت الذى أرسل اليها المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، والتى ستصبح مستعمرة للصوف .

وتوسع الأمريكيون فى سهول الغرب وأخذوا فى تكوين ولايات جديدة، الواحدة بعد الأخرى . وبعد أن كان النهر الكبير هو حد الولايات المتحدة الغربي، نشأت ولاية ميسورى على الضفة المقابلة، وأخذ المضاربون فى شراء الأراضى وأخذ المزارعون فى فلاحتها، فى الوقت الذى استمر فيه المضاربون فى عمليات البيع والشراء ووصل بعض الأمريكيين إلى الغرب من جبال روكى الصخرية وحتى المحيط الهادى . ولم يكن الامريكيون بمفردهم على هذا الساحل إذ أن الأسبانيين كانوا قد وصلوا اليه من فى الجنوب، كما أن الكنديين كانوا قد وصلوا اليه فى الشمال ، وبدؤا

اتصالهم مع الروس .

وكان الروس قد وصلوا إلى القارة الأمريكية بعد أن عبروا سيبيريا وهاجموا سخالين ووصلت شركة بيرنج إلى الاسكا . وأعطى القيصر بولس عقد امتياز لشركة روسية أمريكية لاستكشاف هذه المناطق وللاتجار فى أغنائها والقيام بانشاء التحصينات الحربية ، ولكنها أعلنت افلاسها وخاصة بعد أن بدأ المعمرون يموتون من الجوع والإسقربوط وحاولت الروسيا أن تستغل زراعة القمح إلى الجنوب من هذه المستعمرة التى لا تشتهر إلا بالفراء حتى تدعم بقاءها فيها . ووصل ريزانوف إلى سان فرنسيسكو فى سنة ١٨٠٨ ، وكان الاسبانيون يقيمون فيها، فتزوج من ابنة الحاكم المحلى، وعاد بسفنه محملة بالقمح واللحوم اللازمة لمستعمرة الالسكا. وأنشأ الروس قلعة الى شمال سان فرنسيسكو وحجزوا لنفسهم التجارة فى الجزء الشمالى من المحيط الهادى سنة ١٨٢١ .

لقد كان هذا سببا أساسيا فى تدخل الأمريكيين الذين يعتبرون أنفسهم فى بلادهم ، ويعتبرون ساحل المحيط الهادى ملكا لهم ، مثل ساحل المحيط الأطلسى . وإذا كان الأمريكيون قد تخلصوا من الفرنسيين والإسبانيين فانهم لن يقبلوا مجىء الروس ، خاصة وأن الامريكيين يعتبرون أنفسهم فى ذلك الوقت أعداء الإستعمار ، الإستعمار الأوربي فى المناطق التى حجزوها لأنفسهم . فوقف مونرو فى الكونجرس وأعلن موقف الولايات المتحدة سنة ١٨٢٣ .—

« إننا مضطرون ، مع العلاقات الودية القائمة بين الولايات المتحدة والدول الاوربية ، إلى أن نعلن أننا نعتبر كل محاولة من جانبهم لمد نظمهم إلى أى جزء من نصف العالم هذا كخطر يهدد أمننا وسلامتنا . إننا لم

تدخل ولن نتدخل فى شئون المستعمرات الحالية للدول الأوربية . ولكننا لا نتمكن من قبول أى تدخل من أى سلطـة أوربيـة كانت فى الدول التى أعلنت وحافظت على استقلالها ، وأى تدخل يهدف التحكم فيها أو السيطرة على مستقبلها بأى شكل من الأشكال » .

لقد كان ذلك إنذارا للاسبانيين إذا ما أرادوا إعادة غزو ممتلكاتهم الأمريكية : « فمن المحال أن يمد الحلفاء نظمهم السياسية إلى أى جزء من من إحدى القارات الأمريكية دون أن يهددوا سلامنا وسعادتنا، ولا يمكن لأحد أن يعتقد أن اخواننا الجنـــوبيين سيقبلون أنفسهم الخضوع لمثل هذا النظام . »

وكان هذا تهديدا للروس إذا ما فكروا فى التوسع صوب كاليفورنيا:

« إن القارات الامريكية لا يمكنهـا ، بعد أن انتزعت استقلالهـا ، أن تقبل أبدا العودة إلى نظام المستعمرات لأى دولة أوربية كانت . »

لقد كان هذا الإنذار واضحا ، وكان على أوربا أن تفهمه جيدا . ولم يكن فى وسع اسبانيا أن تتحرك ، أما الروسيا فقد فهمت ، وأما انجلترا فقد وافقت لأنها كانت ترغب فى إبعاد المنافسين ، رغم أنهـا كانت قـد أخطأت فى حساب مقومات الإستقلال الامريكى خاصة وأن الولايات المتحدة كانت قد بدأت فى التصنيع وعملت على فرض الرسوم الجمركية لحماية صناعتها ومصنوعاتها واستغنت عن المصنوعات البريطانية .

لقد دلت كل الدلائل على أن الاستعمار الاوربى قد بدأ فى الإنهيار خاصة وأن الروح التحررية القومية قد أخذت فى الإنتشار فى أوربا نفسها سواء فى بلجيكا أو فى بولندا أو فى ايرلندا . وأخذ الرأى العام ينظر الى

مذابح الأتراك فى خيوس نفس نظرتهم لعمليات القمع التى يقوم بهـا النمساويون ضد الثوار الإيطاليين . وبدا أن مناجم الذهب قد أخذت فى النضوب ، أما التوابل فتوجد فى كل مكان ، وأما السكر فقد وجد منافسات قوية، وأصبحت القوة من صفات الدول التى تمتلك الفحم ،وظهر أن النمو الصناعى مربح أكثر من المنتجات الاستوائية . لقد دخل العالم عصر البخار وأخذ الناس يظهرون دهشتهم لاهتمام أسلافهم بالقرفة والجنزبيل ، وأخذ غيرهم يفكر فى قيمة الاستغلال الزراعى فى المستعمرات بعد تحرير العبيد .

لقد كانت انجلترا أول دولة أعلنت الغاء نظام الرق والاتجار فى الرقيق سنة ١٨٠٧ ، وان كانت تفكر فى تحطيم اقتصاد المستعمرات الأمريكية السابقة ، وبشكل يسمح لها بالتفوق فى الاستغلال الزراعى والتجارى فى الهند . وأعلن نابليون فى أثناء حكم المائة يوم سنة ١٨١٥ الغاء الرقيق . وتمكنت انجلترا فى مؤتمر فيينا من الحصول على اعلان دولى ضد هذه التجارة الشائنة ، رغم أن عدم انضمام اسبانيا والبرتغال كان يجعله غير كبير قيمة . ولكن الدول العظمى كررت تعهداتها فى كل مؤتمر دولى . والغت الولايات الشمالية ، من الولايات المتحدة الأمريكية ، والتى لم تكن فى حاجة الى العبيد ، نظام الرق فيها ، وأعلنت كل من واشنطن ولندن أن تجارة الرقيق تعتبر عملا من أعمال القراصنة . واستندت البحرية البريطانية الى ذلك لزيارة السفن وتفتيشها فى المحيطات ، والسيطرة بالتالى على كل بحار العالم .

لقد كان الغاء تجارة الرقيق ، وتغير طرق استغلال المستعمرات،واقفال امريكا أمام المشروعات الأوربية يعتبر أساسا لمناقشة مبدأ الاستعمار و الغاء

ضروريه. وذكر بوليفار أن حالة امريكا فى ذلك الوقت تشبه حالة انهيار الامبراطورية الرومانية . أما نابليون فقد ذكر وهو فى سانت هيلانة أن العصر الاستعمارى الذى عرفه الاوربيين قد انتهى بالنسبة اليهم وانتهى بالنسبة لكل القارة الأوربية ، وأن على الأوربيين أن يقبلوا ذلك . ولكن عظماء الرجال كانوا يعتقدون دائما أن العالم سيتغير ماداموا قد تغيروا ، وأنه سينتهى ما داموا قد انتهوا . وكان هذا السؤال قد وضع من قبل ولمرات عديدة ، ولم ينتهى الاستعمار .

الباب السادس

الامبراطوريات الجديدة

الفصل السابع عشر

الهنـــد

لقد شهد القرن التاسع عشر تطوراً ونمواً وتوسعاً فى الإستعمار لم يشهده أى قرن من القرون السابقة ، ووصل بتوسع العناصر البيضاء إلى قمتها وأعطى لأوربا ثروات لم نشهد مثلها من قبل . ورجع ذلك إلى تفوق أوربا والأوربيين ، وشعورهم بهـــذا التفوق على غيرهم واستنادهم اليه . وكما تفوقت أوربا تفوقت بريطانيا بنوع خاص . وأثر ذلك على الهند وعلى البلاد الواقعة على طريق الهند .

(١) التفوق الاوربى :–

لقد كان القرن التاسع عشر قرن سلام بالنسبة لأوربا . ومرت مائة سنة بعد حروب نابليون لم يقع فيها صراع شديد على القارة . لقد حدثت اصطدامات يمكننا اعتبارها على أنها محلية ، وكانت عبارة عن حروب سريعة ولا تؤثر إلا فى الشعب المهزوم . واحتفظت الدول العظمى بشكل عام بحرية التصرف واستندت إلى التفكير والى الثروات لكى تشغل نفسها فى أماكن أخـرى . وشغل الإستعمار أوقات فراغهم وأرضى شراهيتهم للعظمة والمجد .

وجاءت العملة لكى تكمل العمليات الحربية ـ ذلك أن الجنيه الاسترلينى والفرنك قد أعطوا مثلا للثبات الذى يساعد على الإدخار وعلى ازدهـــار رؤوس الأموال وعلى تمويل المشروعات الإستعمارية طوال هذا القرن . ولم ينهزم فى هذا الميدان إلا اسبانيا وتركيا ، وكانت كل منهما لا تستند إلى

عملة ثابتة القيمة،وأدى ذلك الى تفكك امبراطورياتهم ، وشهد القرن التاسع عشر فشلهم فى السياسة الإستعمارية .

ولقد نمت الثروات وزاد تعداد الأهالى داخل ذلك الإطار من الأمن المادى . فزادت نسبة المواليد بدرجة جعلت مالتوس يخشى منها . واذا كان سكان أوربا لا يتضاعفون كل ٢٥ سنة فان عددهم قد زاد من مائة وثمانين الى اربعمائة وستين مليون نسمة . وكانت الهجرة [وسيــــلة من وسائل التخلص من زيادة السكان . وشهد هذا القرن هجرة ستين مليونا من الأوربيين الى ما وراء البحار .

ولكن ، هل كانت الثروة أو الفقر هو سبب هذه الهجرة ؟ لقــد [كانا سويا أسبابا لها ، خاصة وأن الثروة هى حقيقة جماعية والفقر حقيقة فردية ، وكل منهما مرتبط بالثورة الصناعية، بما اشتملت عليه من معرفة موارد جديدة للطاقة، مثل البخار ثم الكهرباء ، وظهور الآلة وانتشار الرأسمالية التى تعنى الرخاء والأزمات فى نفس الوقت. لقد شهدت أوربا ازدهــار البورجوازية وأزمات المزارعين والعمال ، وزيادة المكاسب ، وصغر الرواتب ، وزيادة الإنتاج ، وتقلب عمليات التسويق . لقد زادت الثـروة فى أوربا بشــكل يسمح لها بالحصول على مستعمرات بعيدة ، وبنفس طريقة الأثرياء الذين يمكنهم شراء الضياع والقصور . أما الأوربيين الذين أجبرتهم ظروف العمل الجديدة على أن يتحولوا الى بروليتاريا والذين هددتهم الأزمات الاقتصادية بالبطالة فقد أخذوا فى البحث عن الهجرة لكى ينتقموا من البؤس أو يفروا منه . وهكذا تجمعت كل أسباب التوسع لكى تتمكن أوربا من الحصول على المستعمرات ، ومن تزويدها بالمعمرين .

وكان المهاجرون يتركون بلادا مزدحمة أو فقيرة والحياة فيهــا صعبة .

وظهر ذلك واضحا فى ايرلندا التى زاد فيها عدد الأطفال على طاقة الاراضى وعلى احتكار الصناعة الإنجليزية لهم ، وظهر ذلك فى اسكتلندا حيث تزايدت قطعان الأغنام ، دون أن تسمح بتحمل زيادة الأهـــالى ، وفى المانيا التى كانت أجزاء كبيرة منها غير صالحة للزراعة . وجاء بعـــد ذلك السلاف واللاتين الذين شعروا بفقر بلادهم وتأخرها فى الميدان الصناعى .

وكانوا يهاجرون صوب أراض جديدة تحتاج لأيدى عاملة وتتوفر فيها الأراضى الزراعية . وكـان عدد منهم يسير وهو يحلم بالذهب مثل الغزاة الإسبانيين فى القرن السادس عشر . الا أن أغلبهم كان يعمل فى الفلاحة وفى وفى تربية المواشى ، وكـان عليه أن يعمل ويستمر فى عمله قبل أن يتمكن من النجاح . ولكن المستعمرة كانت تمنحه فرصا يعجز الوطن الأم عن منحه اياها .

ورغم أن دولا كثيرة كانت تفقد أبناءها الا أنها كانت تقبل دفـع ضريبة الدم هذه . ومنعت بعض الدول الدعاية للهجرة وحددت من خروج رعاياها كما حددت من خروج رؤوس الأموال معها ، الا أنها اعترفت بحق الهجرة للمواطن . وساعدت قوانين الغاء عبودية الأرض فى كل من ألمانيا والروسيا على تحرير أعداد كبيرة من الفلاحين . وقامت الجمعيات الإنسانية والدينية بتنظيم نقل المهاجرين . وساعد على ذلك تطور وسائل النقل وزيادة سرعة السفن ذات الساريات الثلاث أو الخمسة ، ثم البدء فى استخـدام السفن البخارية المصنوعة من الحديد والتى تستخدم الرفاصات ويمكنها شحن و نقل أعداد كبيرة من المهاجرين وبأجور منخفضة . فلقد انخفضت أسعار النقل فى مدة قرن من مائة الى خمسة . وزادت وسائل الامن فى الملاحة كما زادت سلامة السفن . وجاءت السكك الحديدية لكي تنقل المهاجرين وتقربهم من

مناطق التوغل . فخدم التقدم التقنى عملية الاستعمار وجعلها فى متناول الاهالى حتى وإن كانوا لا يرغبون فى القيام بها .

ورغم ذلك فان عملية الاستعمار لم تكن سهلة ، فكانت الأراضى الحالية صعبة فى الوصول اليها أو صعبة فى ظروفها الصحية. وكانت أشهر الأراضى المغرية وأغناها هى التى تقع فى غرب أمريكا . أما أوسع الأراضى فكانت فى قلب افريقية وفى وسط الغابات الاستوائية أو السافانا أو الصحراء. وكانت أبعدها تقع فى المحيط الهادى . وكانت فى مجموعها تمثل قارات بأكلها ، وكان على الانسان الابيض أن يغزوها .

لقد كان هناك مكان لكل فرد فى هذه المناطق الشاسعة ، ولكن أحسن الثمرات أقتطفت قبل غيرها . وبدأ تسابق بين الدول الأوربية للحصول على المستعمرات ، ونشأ عن ذلك تنافس فيما بينها لاحتلال الأراضى الموجودة أو المفضلة . وشهد العالم تنافس المستكشفين وتصادم القواد وتضارب النشاط بين بعثات التبشير . ولم يكن الأمر يقتصر على مجرد النفوذ السياسى، إذ أن البحث عن المستعمرات كان يعنى الحصول على المواد الأولية والسيطرة على الأسواق . وكما قام الفينيقيون بالبحث عن القصدير أو الهولنديون بالجرى وراء التوابل فان مستعمرى القرن التاسع عشر كانوا يبحثون عن الأخشاب والمطاط والقهوة والقطن والفول السودانى، وكانت شهيتهم تتسع مع ارتفاع الأسعار . ولكنهم فكروا فى توسيع أسواقهم وزيادة عدد المستهلكين لمنسوجاتهم القطنية ولمصنوعاتهم الحديدية وتزايدت شهيتهم مع ارتفاع الأسعار ومع تهديد الازمات الاقتصادية.

واذا كان التنافس الدولى هو الدافع الرئيسى للمستعمرين والمظهر الاساسى

لحركة الاستعمار ، فان الغزو كان يكفى غالبا لإثارة سلسلة من الغزوات والحروب تهدف اكمال الميدان الاساسى باعطائها نافذة على الخارج أو إعطاء ظهير لاحدى القواعد ولتوسيع الحدود أو لإبعاد بعض الجيران الخطرين . فنجد أن المعمرين فى مستعمرة الرأس يحاولون السيطرة جزءاً فجزء على الأراضى الواقعة إلى الشمال من منطقتهم ، وأن احتلال الجزائر تسبب فى احتلال كل من تونس والمغرب ، وأن احتلال الإرتريا يعطى فكرة السيطرة على أتيوبيا . وأن المعمرين فى جزيرة ريونيون يفكروا فى مدغشقر ، ومعمرى كاليدونيا الجديدة يفكروا فى هيبريده الجديدة. وأصبح أصعب شيء هو التمكن من الوقوف ، أو وقف الحركة .

وليس معنى ذلك أن حركة الإستعمار قد سارت رغم أنف الأوربيين ورغم أنف الرأى العام ورغم أنف الحكومات فى بعض الحالات. ولكنها سارت كذلك نتيجة لعوامل اقتصادية عميقة. ولقد نظر كل من جلادستون وبسمارك وكليمانصو الى الاستعمار نظرة الحذر ، وتردد الإنجليزى المتوسط عند رؤية تلك المبالغ الضخمة تنفق فى سبيل الاستعمار ، وتردد الفرنسى من الذهاب الى ما وراء البحار وتبرأ من ارسال الحملات الى المستعمرات ، وأظهر أنه لم يترك كندا لكى يعطوا له مستعمرات جديدة . وسقط شارل العاشر بعد ثلاثة أسابيع من احتلال قواته لمدينة الجزائر ، كما سقط لوى فيليب بعد استسلام الأمير عبد القادر بشهرين ، أما نابليون الثالث فقد سقط بعد افتتاح قناة السويس بعشرة أشهر. وكانت المجالس الوطنية ترفض الموافقة على الميزانية اللازمة للعمليات فى المستعمرات أو تقلل منها وتقلل من عدد الجنود المشتركين فيها ، كما كان الفرنسيون يفضلون الاستماع الى رجال السياسة الذين يتحدثون عن الانتقام فى الشرق أو يتحدثون عن

العمل فى فرنسا على الاستماع الى جول فيرى وهو يتحدث عن تونس أو الهند الصينية .

ولكن قادة الإستعمار اضطروا الى الإلتجاء الى الاغلبية وعمدوا الى وضع السلطات العامة أمام الامر الواقع . وشارك فى هذا الميدان رجال التبشير الذين يعملون باسم الدين ، والجنود الذين يعملون باسم الوطن ، والرياضيون الذين يحققون أرقاما قياسية ودون أن يفكروا فى الأحزاب والإنتخابات . وكان الرأى العام بعد تردده فى البداية يستجيب فيما بعد لعمليات ظهر نجاحها،ويؤيد المواقف الوطنية فى الخارج خاصة.أمام المنافسين الأجانب . وهكذا راقب الإنجليز حرب جنوب أفريقية بشغف ، وتبنى البلجيكيون الكونغو ، وأظهر الفرنسيون إعجابهم بتلك المساحات التى ازدادت إتساعا على الأطلس وعرفوا أنها تمثل امبراطوريتهم. فأخذ الأوربيون جميعا فى تعضيد حركة التوسع الاستعمارى وأصبحت التسلطية تستند إلى مجموعات من الرجال،وتحولت انجلترا إلى بريطانيا العظمى ، كما تحولت فرنسا إلى « الإمبراطورية الفرنسية الكبيرة » . وبعد هذا جاء دور الروس والألمان والامريكان والإيطاليين ثم اليابانيين . إنها امبراطوريات جديدة وتعتمد كلها على التفوق لكى تستعمر غيرها .

(٢) التفوق البريطانى :ـ

كانت انجلترا هى أحسن الدول الأوربية وضعا بالنسبة للاستعمار وخاصة بعد أن خرجت منتصرة من حروبها مع نابليون وأصبحت لها كل مقومات التفوق . فكان شعبها فى ازدياد مستمر ، وكان لديها الفحم والحديد ، وكانت صناعتها متقدمة عن صناعة غيرها وكانت أثمان منتجاتها

أقل بكثير من أثمان مصنوعات الآخرين . وكان لها نظام تأمين متفوق ونظام مصرفي وتجاري مهيأ لغزو الأسواق ، كما كانت لها بحرية تجارية معدة لتوزيع السلع ، فظهرت لندن بشكل متفـــوق . ولكن ضعف المملكة المتحدة الوحيد هو أن وحدتها لم تكن تامة ولا قوية . ورغم أنها كانت قادرة على استعمار العالم فانها لم تتمكن من التغلب على تلك الجزيرة الايرلندية التي كانت تقف منها موقف التحدي واستمرت في هذا التحدي طوال القرن التاسع عشر رغم محاولات بريطانيا العديدة للسيطرة عليها .

ورغم ذلك فقد استمرت انجلترا في توسعها الإستعماري وساهم كل من المستكشفين أمثال لفنجستون وبناة الامبراطورية أمثال سيسل رودس، والوزراء أمثال دزرائيلي في هـذه العملية . لقد عمل الجميع وأسهم في بناء الإمبراطورية،وحول الملكية البريطانية المتمثلة في الملكة فيكتوريا ، وحول نظرية هي حرية التجارة .

كانت فيكتوريا تمثل كل من انجلترا والإمبراطورية في نفس الوقت وأصبح عيد ميلادها هو عيد الإمبراطورية ، وأوصـــل حكمها الطويل والذي بلغ ثلاثة وستين عاما الإمبراطورية البريطانية الى أوج قوتهـا . وكان من حقها أن تستشار وأن تشجع وأن تحـــذر ، وتمكنت بنفوذها وهيبتها من اعطاء اسمها لقرن من الزمان ولسياسة ولطريقـة معينة للحياة .

واذا كانت فيكتوريا هي صورة الامبراطورية فان حرية التجارة كانت وسيلة هذه الامبراطورية . وكانت انجلترا حتى ذلك الوقت قد عاشت في ظل قانون الملاحة الذي أعطى الحماية الجمركية لها ولمستعمراتها،ولكنها

شعرت بعد ذلك بقوتها أمام كل المنافسات . واعتقدت أن سيرها طبقا لمبدأ الحرية سيدفع بعض الدول الأخرى إلى التشبه بها ، مما يسمح لهـــا بغزو الأسواق المفتوحة . وكان مبدأ حرية التجارة هو سلاح الاقتصاد القــوى ويخدم مصالح المستهلكين ، ولم تكن انجلترا تأبه كـثيرا لتحطيم المنتـجين الأجانب رغم أنها كانت تهدف إثراء المنتجين البريطانيين وكان مبدأ حرية التجارة هو وسيلتها فى غزو العالم .

وكان مبدأ حرية التجارة بالنسبة للمستعمرات هو إلغاء المذهب التجارى السابق . فقامت لندن فى سنة ١٨٢٣ بانهاء حلف المستعمـرات ، ثم قامت فى سنة ١٨٤٩ بالقضاء على قانون الملاحة الذى كان الأثر الأخير الباقى من هذا الحلف . وبعد اختفاء المستعمرات المملوكـة وهضم مستعمرات الشركات ذات المراسيم لم يبق إلا مستعمرات التاج وبدون أى امتيازات . وبعد أن كان النظام الاقتصادى السابق يجبر الممتلكات البعيدة على إعطاء المـــواد الأولية والمنتجات الزراعية نظير استيرادها لبعض المصنوعات الإنجليزية ، جاء نظام حرية التجارة الذى سمح بدفع أثمان غالية للمواد الأولية والمنتجات الزراعية حتى يتمكن المنتجون فى المستعمرات من الحصول على أكبر كمية ممكنة من مصنوعات الوطن الأم . لقد أصبحت انجلترا فى حاجة الى إثراء عملائها حتى يتمكنوا بدورهم من إثرائها . وأصبح على تجار وصـانعى المنسوجات القطنية فى منشستر أن يشتروا أكـــبر كمية من المنسوجات القطنية .

ولكن الحرية التجارية كانت تستتبع الحرية السياسية ، وما دامت لندن لا ترغب فى ارغام المعمرين فيما وراء البحار على أن يزودوها بالمواد الاولية أو يصبحوا عملاء للصناعات البريطانية . فمن واجبها أن تعطيهم الثقة فى كل

ميدان . وما داموا قد أصبحوا سادة فى اقتصادهم فمن الطبيعى أن يصبحوا سادة فى نظامهم السياسية ، ومن الطبيعى إذا إن تحصل المستعمرات على حريتها . وسار جلادستون على هذه السياسة فى برنامجه .

وما دامت المستعمرات ستنشىء حكوماتها ، فعليها أن تتـــولى الانفاق على هذه الحكومات . ولقد أعطت بريطانيا فى خـــلال القرن التاسع عشر نظام التمثيل السياسى لمستعمراتها التى عمرت بأبنائهـــا ، ثم أعطتها النظام البرلمانى ، ثم نظام الدومنيون الذى يبعد بعض المسئوليات الداخلية عن الوطن الأم . ولكنها احتفظت باشراف دقيق على مستعمراتها الاستوائيـة والتى كان معظم أهلها من الوطنيين وأدعت أنهم لم يصلوا بعد إلى مرحـــلة حـــكم أنفسهم بأنفسهم .

ولقد راقت هذه السياسة فى أنظار بعض الدول الأخرى وبشكل مربح لانجلترا ، فنجد أن نابليون الثالث قد فتح حدوده للمنتجـات والمصنوعات البريطانية ووحد الرسوم الجمركية فى المستعمرات على المنتجات الواردة من أية دولة سنة ١٨٦٠ ، أما هولندا فانها قد منحت المساواة للعمل فى موانيها وفى مستعمراتها للسفن التى تحمل العلم البريطانى ثم لـكل سفن العالم . أما الدانمارك فانها قد تركت مراكزها فى الهند ، فاشترتها انجلترا منها .

ولـكن بريطانيا نجحت فى التوفيق بين حرية التجـــارة والتسلطية ، ذلك أن التنافس قد سمح بنجاحها فى السيطرة التجارية ، وسمح أكثر من ذلك باستغلالها لموارد جديدة فيما وراء البحـار ، فأخـــذت فى تمويل زراعات القطن والشاى والأشغال العمومية والاستكشافات واستغلال المناجم . واستعدت رؤوس الأموال البريطانية لكى تحل محـــل الموظفين فى النظم الاستعمارية السابقة .

وكان دزرائيلي استعماريا من الدرجة الأولى ، وخاصة ذلك النوع من الاستعمار الاقتصادي ، وكان من أبناء بعض اليهود من البندقية ، وكان كيهودي يعرف كيف يمكن للمال أن يغزو العالم . وتأكد في عصره ومن بعده تضامنا ماديا ومعنويا بين هذه المستعمرات المبعثرة في جميع أنحاء العالم . وكان هذا التضامن ماديا ما دامت المواصلات البحرية قد أصبحت منتظمة ، وما دام التبادل قد زاد كما توطدت الروابط المالية والمصرفية . وكان هذا التضامن معنويا بذلك اللون الانجلوسكسوني وبتلك العزيمة التي أظهرها سكان المجموعة البريطانية في العيش بنفس الطريقة وفي مشاركة نفس الانتصارات .

وكان شعار دزرائيلي هو الاحتفاظ بالامبراطورية وكان هو نفس شعار فيكتوريا . وأصبحت هذه الامبراطورية في نهاية القرن التاسع عشر تشتمل على خمسة وعشرين مليونا من الكيلومترات المربعة وتشتمل على ثلاثمائة وتسعين مليونا من السكان ، أي ربع سكان العالم في ذلك الوقت . لقد كانت الامبراطورية البريطانية أوسع الامبراطوريات التي نشأت حتى ذلك الوقت ، وأعلن جوزيف تشمبرلين فيما بعد أنه لا يمكن لأي امبراطورية في العالم أن تفوقها في العظمة أو في السكان أو الثروة أو في تنوع الموارد .

وسارت اللغة اليومية مع تلك الحمى التي نادت بالمستعمرات ثم تغنت بها فظهرت كلمة المستعمر ويستعمر والاستعمار ثم كلمة المتسلط والتسلطية ، وعبرت هذه الألفاظ الخليج البريطاني لكي تدخل القارة الأوربية وتدخل كل اللغات الأوربية .

وجاء العيد الماسي بعد حكم فيكتوريا بستين عاما في سنة ١٨٩٧ لكي

يشهد العالم مئات الشعوب المتجمعة حـول التاج البريطانى . وجاء رؤساؤهم ووزراؤهم ، ومن الزنوج والهنود الحمر الكنديين والهنود والصينيين ورؤساء الزولو وشيوخ النيجر والسودان ، وكل فى ملابسه الوطنيـة لكى يعلنوا ولاءهم لتلك الملكة التى أعطت إسمها لاحدى الدول الاسترالية ولأكبر بحيرة وأكبر شلال فى افريقية ولمدينة فى كندا وأخرى فى تكساس . لقد ثبت أن لندن وملكتها يسيطران على العالم وبدرجة لم يصل اليها الاسكندر أو قيصر أو شارل الخامس ، رغم أن انجلترا تقل عن واحد من مائة من هذه الامبراطورية الشاسعة .

(٣) الهند جوهرة التاج :ـ

كانت الهند هى أجمل الأملاك الاستعمارية وأكثرها ازدحاما بالسكان . وإذا كانت كل من لشبونه وباريس قد احتفظت فيهـــا ببعض المراكز التجاريه المتواضعة ، فان انجلترا كانت فى وضع يجعلها تسيطر عليها .

وتمكنت انجلترا من توسيع أملاكها فى الهند ، وذلك بفرض سيادتها على الأمراء الوطنيين الذين احتفظوا باستقلالهم المحلى ، وباحتـــلال بعض المقاطعات التى حافظت على استقلالها ، وباخضاع بعض القبـــائل التى كانت ثائرة ، وبتوكيد سيطرتها على الجنـــوب ، وبالسير صوب الشرق والشمال والغرب ، وبضم آسام وبغزو السند والبنجاب سنة ١٨٤٩ ، الذى أوصـل البريطانيين إلى نهر السند بعد ثلاث سنوات ، والذى أعطاهم الواجهـــة البحـــرية لبورما فى نفس الوقت . لقد تمكنت بريطانيا من إخضاع مناطق الوهابيين ونيبال واحتلال مرتفعات بورما . وضحت بريطانيا كثيرا لكى تصل إلى هذه النتيجة .

وكان البريطانيون يجدون فى طريقهم الهنود والأفاعى والأمراء المعادين والقبائل الثائرة . وقابلوا كذلك الروس الذين كانوا قد وصلوا عن طريق بحر قزوين والأورال وحاولوا الوصول إلى الهند .

وكان الزحف الروسى صوب الجنوب والجنوب الشرقى يحمل معنى الحرب المقدسة ، وكان المسيحيون الارثوذكسيون يحاولون إبعاد المسلمين الذين تمكنوا من الاستيلاء على بيزنطة وعلى بيت المقدس ، ويحاولون تقديم الحماية للمسيحيين الذين خضعوا للاتراك والفرس . ولكن الهدف الدينى تحول سريعا إلى حجة ، خاصة وأن القياصرة كانوا يطمعون فى القوقاز ، وأرمينيا وأواسط آسيا . وأستولت جيوشهم على ماوراء القوقاز ، بلاد الجراكسة ، ثم على التركستان ، ثم وصلت إلى طشقند وإلى سمرقند فى سنة ١٨٦٦ . وتداخلت حدود القياصرة بعد ذلك مع الفرس والأفغانستان . فهل تقع هاتان الدولتان التى تمر فيهما طرق الحرير القديمة تحت رحمة الروس أو تحت السيطرة البريطانية ؟ . إنهما دولتان استعماريتان متسلطتان يتناقشان على هذه المنطقة الهامة من العالم .

ولقد تتالت الحملات ، وتوالت الاصطدامات . وتحارب الروس والفرس ضد الهنود والبريطانيين . وكانوا يتنازعون المدن الهامة والممرات الأساسية وتمكن الانجليز من ابعاد الخطر الروسى ثلاث مرات . وأضطر جلادستون الى الجلاء عن الأفغانستان حتى يبعد المشكلات فى سنة ١٨٨١ . وأخيراً تعادلت القوى المتنافسة ، ولن يصبح الخليج الفارسى خاضعا لأى منهما ، وكذلك التبت التى شاهدت نفس التنافس . وتعهدت الدولتان باحترام السلامة الاقليمية ، وبالامتناع عن كل تدخل فى الشئون الداخلية فى سنة ١٩٠٧ .

وتمكنت الهند . فى ظل هذا التناقض وحمايته من أن تصبح انجليزية ٠ ورغم ظروف المناخ لم تكن تسمح باستعمار توطن انجليزى فى الهند فان حكومة لندن قد عملت على أن تخلق من شبه القارة الهندية إحدى الممتلكات المثالية ٠

فهل كان من الممكن ترك شركة الهند ، وهى تستغل منذ عهد الملكة اليزابيث الأولى ؟ كانت هذه الشركة قد أنشأت من أجل التجارة وظهر أن العملية الاستعمارية قد أصبحت أضخم من مجرد استغلال خاص ٠ ولذلك فان انجلترا قد تركت هذه الطريقة وبدأت ، حسب طريقة الأحرار بسحب الاحتكار التجاري من هذه الشركة التجارية فى سنة ١٨٣٣ ، ولم تترك لها الا ادارة الاقاليم التى كانت تمتلك بعضا منها ، وكان البعض الآخر يخضع لها أو يتحالف معها ٠ وبقى سلطان دلهى صاحب السيادة الاسمية ، ولكن الشركة كانت تحكم بطريق مباشر ثلثى الهند ٠ وعن طريق ادارة انجليزية ٠

وكان فى وسع بريطانيا أن تحافظ على هذا النظام الذى يعطى الأرباح لحملة الأسهم الانجليز دون أن يكلف دافعى الضرائب أى شىء . ولكن الثورات قلبت الأوضاع رأساً على عقب . ذلك أن الشركة التى عملت لمدة سنوات طويله على أحترام العادات والتقاليد المحلية ، وأعطت المعونات للمعابد وللاحتفالات الدينية ولمدارس البراهمة بدأت فى شن حرب ضد العادات البربرية ، وأشتدت ضد عادة تقديم القرابين البشرية التى كان الهندوس يقدمونها لكى يحصلوا من الآلهة على محاصيل جيدة ، ومنعت أحراق الأرامل أحياء ، وسمحت حتى باعادة زواجهن ، كما سمحت بزواج الرجال والنساء من طوائف مختلفة ٠ نظر الهنود إلى ذلك نظرتهم إلى مهزلة ، وإلى تدخل فى

شئونهم الخاصة . فاضطر الانجليز إلى وقـف معوناتهم للمعابد ، وسمحوا لرجال التبشير بزيادة نشاطهم وبفتح مدارس مسيحية . وإذا تركوا العـادات والتقاليد الشخصية فانهم حاربوا تطبيق قوانين العقـوبات الخاصة بالهنود . ولا شك أن الانجليز كانوا يحاولوا فى هـذه العملية تحطيم نظـام الطوائف الموجود فى الهند . ولـكن ، فما هو معنى هـذه السكك الحـديدية التى تسير وسط الأراضى الزراعية ، وما هو معنى مد خطـوط أسلاك البرق ؟ لقد بدأ البراهمة فى التململ ، وبدأ الشعب فى الهمس ، وظهر عدم الرضا على الجنـود الوطنيين الذين يخدمون الشركة والذين بلغ عددهم ستة أضعـاف العسكريين البيض فى نفس الشركة . وأعلنت إحدى الفرق العسكرية التمرد فى سنة ١٨٥٧ ثم أعلنت دلهى الثورة ، وبدأت فى قتل الانجليـز ، وأعلن السلطان بهادور ، حفيد تيمور لنك أمبراطـورا وحملته عبء الوقوف أمام الغـاصبين البريطانيين .

ولـكن هذا السلطان المغولى كان مسلما ، وكانت الهند ملأى بالأجناس والديانات التى تقسمها وتمنعها من الوقوف أمام الانجليز فى شكل جبهة متحدة فنجحت بريطانيا بمساعدة السيخ فى إعادة النظام إلى نصـابه ، وكانت هـذه الثورة سببا فى تفكير انجلترا فى تغيير أسس حكمها فى الهند .

لقد أنهت بريطانيا الشركـة البريطانية التى الغاها البرلمان بعد تاريخ أمتد إلى قرنين ونصف قرن من الزمن . وأنتقلت كل اختصاصاتها وسلطاتهـا إلى التاج سنة ١٨٥٨ . وبدلا من مجلس المديرين أصبح هنـاك وزيرا للدولة ، ومجلسا للهند فى لندن . أما فى كاليكوت فان نائب الملك قد أستند إلى معاونة مجلس يشبه وزارة محلية ، ونشأت أربع رئاسات لـكى تسيطر على اقاليم الهند الأولى فى البنغال والثانية فى البنجاب والثالثة فى مدراس والرابعة فى بمباى .

وتمكن خمسة آلاف موظف بمساعدة سبعين الف جنـــدى بريطانى ، ومائة وثلاثين الف من الجنود الوطنيين من الاحتفاظ بالسلم فى الهند .

وبعد أن قتل أحفاد المغول بقى العرش خالياً ، فهل تحتله فيكتوريا ؟ لقـد فكرت فى ذلك ، وكانت ترغب فى ذلك ، وشجعـها عليه دزرائيلى ذلك الصديق المخلص بحركـاته وبألقابه . ولـكن الانجليز لم يكونوا قد تعودوا بعد سماع ذلك اللقب الامبراطوري ، وكـانوا لا يرغبـون فى التجديد ؛ ولـكن الملكة أصرت، وما دام القيصر ينافس انجلترا ، فن الواجب رفع الملـكة إلى المصاف الأمبراطورى . ووافق دزرائيلى ، وحصل هو نفسه على لقب لورد بيكونزفيلد ، وحصل من البرلمان على قرار بأن تحمل الملـكة فى الخارج لقب امبراطوره الهند فى سنة ١٨٧٦ .

لقد توحدت الهند وهدأت وخضعت ولـكن هل ازدهرت ؟ لقـد ازدهرت فى مجموعها وفى ظاهرها ، مثل انجلترا ، ولـكن هذا الازدهار لم يكن عميقا ولم يكن بنفس بؤس الطبقات الشعبية . كـانت الهند تصدر أقطانها وكـانت منشستر سعيدة بحصولها على هذه الأقطان وخاصة فى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية . وكانت الهند تصدر كذلك الأفيون والأرز والجوت والقمح والشاى ، وبعد الثورة تضاعفت تجارة الهند الخارجية فى مدة عشرين سنة ، وتضاعفت خمس مرات فى مدة خمسين سنة . ولـــكن صناعة الغزل والنسج فيها ، والتى كانت تنافس انجلترا وجدت صعوبة كبيرة فى أن تقف على أرجلها وزاد شعب الهند نتيجة لمحاربة المجاعات والـــكوليرا من ١٣٠ إلى ٣٠٠ مليون فى مدة قرن واحد من الحـكم البريطانى ، وأصبحت المشكلة هى ايجاد الطعام الكافى لتلك الأفواه المتزايدة فى الهند . لقد نشأت حركة هجرة من الهند صوب ماليزيا وجنوب افريقية وجزيرة موريس وترينيداد

وجامايكا ، وبدأوا ينسون بؤسهم من منفاهم وهم يعلمون أنهم يحلون محل العبيد والزنوج وأنهم يأتون لكي يصبحوا شبه خدم .

ولقد أثارت الهند مشكلة الإستعمار الحديث فى أجلى معانيها ، إذ أنها كانت فريسة لمستعمر أنانى ليس له هدف إلا السيطرة والربح . لقد خضعت وأستعبدت رغم مساواة البريطانيين بين الطوائف ورغم انتشار الطرق والقنوات ومشروعات الرى وأختفاء الأمراض . لقد تزايد سكانها ، وتناقص مستوى معيشة أهلها ، وإذا كان الحكم البريطانى قد أتى لها بالفوائد ، فانه قد أكمل لها المتناقضات .

ورغم ذلك فان انجلترا قد اعتزت بمجدها ، ومجد ملكتها الامبراطورة وواصل الجنود والموظفون الرحلات لصيد النمر ولعب البولو فى الوقت الذى كان فيه الفقراء والشحاذين يأكلون النار وينامون على المسامير لكى يحصلوا على بعض قطع من النقود من السادة المستعمرين . لقد أصبحت الهند أكبر جوهرة فى تاج فيكتوريا ، ولكن بالنسبة للانجليز .

(٤) على طريق الهند :-

عملت لندن على الاحتفاظ بالاشراف والسيطرة على الطرق المؤدية الى الهند ، وهما طريق الشمال الذى يمر من البحر المتوسط ومصر ، وطريق الجنوب الذى يمر بجوار رأس الرجاء الصالح . وكان من الواجب أن يتحول المحيط الهندى الذى يلتقى هذان الطريقان الى بحر بريطانى . وكان هذا هو السبب الذى دفع بريطانيا لاحتلال المواقع الهامة المحيط به ، فى سنغافورة التى تحرس شبه جزيرة ملقه ، وسيلان جزيرة المطاط والتى تشرف على الهند ، وسيشل التى تشرف على الهند . وكانت أشهر قلعة وأهمها هى جزيرة موريس

التى بقى معظم أهلها من الفرنسيين ، والذين رفضت بريطانيا أعطاءهم حقوق المستعمرين البيض .

أما فى البحر المتوسط فان حكومة لندن قد احتفظت كذلك بالنقط الاستراتيجية التى تسمح لها بحرية المواصلات ، ورغم أنها كانت قد تركت مينورقة لإسبانيا منذ صلح إميان فانها احتفظت بجبل طارق وبمالطة وبالجزر الايونية التى خضعت لحمايتها رغم أن الاهالى كانوا يطالبون فيها بوحدتهم مع اليونان . ولقد أعطاهم جلادستون استقلالهم فى سنة ١٨٦٣ ، ولكن دزرائيلى عوض هذه الخسارة باستيلائه على قبرص ١٨٧٨ ، وفى نظير تحالف بريطانيا مع الدولة العثمانية ضد روسيا . وكان ضعف الامبراطورية العثمانية وبدء تفككها عاملا يساعد على تغيير القوى الموجودة فى البحر المتوسط ، وخاصة أمام نمو وزيادة الأطماع الروسية والنمساوية والانجليزية . ورأت انجلترا أن مصر هى أحسن فريسة بالنسبة اليها ، وبالنسبة للهند .

وكانت مصر تعيش داخل نطاق الامبراطورية العثمانية دون أن تكون جزءاً منها ، وتغير لقب حاكمها من وال الى خديو ، وبدأت مصر تصبح دولة حديثة فى نظمها وإداراتها . وتأثرت مصر بمشروع ربط البحر المتوسط مع مياه الهند بقناة السويس .

وكان مشروع قناة السويس قد بدأ فى التنفيذ باشراف أحد الفرنسيين ، وهو فرديناند ديلسبس ، وبرؤوس أموال فرنسية ، وبمهندسين فرنسيين ، وانتصر على الصحراء وحقق نصراً للملاحة والمواصلات . ووافقت مصر على اعطاء إمتياز القناة لمدة ٩٩ سنة ، ووافقت تركيا ، وانزعجت بريطانيا . وكان فرديناند ديلسبس ، بعد شان لوى والجنرال بونابرت يمثل خطرا على بريطانيا

بوجود فرنسا فى مصر . ألم تكن القناة تهدد أمن الهند ؟ . لقد كافح بالمرستون ضد هذا المشروع بكل قواه . ولكن المشروع تم رغم كل ذلك ، وافتتحته الامبراطورة يوجينى بين مظاهر العظمة والرخاء فى سنة ١٨٦٩ . فاضطرت لندن إلى تغيير موقفها ، خاصة وأن المسافة بين ليفربول والهند قد نقصت الى النصف . ووجدت بريطانيا أن من مصلحتها استخدام قناة السويس ، حتى تعمل على زيادة الروابط بين امبراطوريتها ، ولكن على أساس أن تبقى سيدة للبحر المتوسط . لقد أصبح فى وسع تجار الأقطان والمنسوجات الانجليز استيراد المواد الأولية ، وتصدير المصنوعات بتكاليف أقل . ولذلك فان دزرائيلى قد أمر وزير الخزانة البريطانية فى سنة ١٨٧٥ بشراء ١٧٦ ألف سهم كانت ملك الخديوى ورغب فى بيعها ، فأصبحت الحكومة البريطانية عضوا مساهماً فى شركة قناة السويس ، وأصبحت هذه القناة أحدى الطرق الامبراطورية البريطانية .

وكانت هذه خطوة أولى فى سبيل السيطرة على الخديو وعلى مصر ، ولما كان الخديو محباً للعظمة والمخفخة وتسبب فى اضطراب المالية المصرية ولم يضمن مصالح الدائنين الغربيين فتدخلت بريطانيا وأنشأت صندوقا للدين تحت اشراف فرنسى بريطانى على الميزانية في سنة ١٨٧٦. وتسبب هذا الحكم الثنائي فى رد فعل قومى فى مصر وتذرعت كل من باريس ولندن بالذرائع لتحويل الاشراف المالي الي سيطرة سياسية ، ولكن حكومة باريس ترددت ، ولم يكن كليمونصو يرغب فى القيام بمغامرات بعيدة ، فنزلت إحدى الفرق البريطانية فى الاسكندرية ، ونزلت حملة أخرى عند القناة وسارت الى القاهرة واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ . ورغم أن بريطانيا لم تعلن حمايتها على مصر ، وأعلنت أن بقائها فيها كان بقاءاً مؤقتاً ، إلا أنه لم يكن له زمن معين

وكان معنى الاشراف البريطانى فى مصر هو مد النفوذ البريطانى إلى السودان ، ولم يكن فى وسع بريطانيا السيطرة على مصر دون أن تضمن السيطرة على أعالى النيل . وبعد محاصرة غوردون فى الخرطوم وصلت الامدادات البريطانية سنة ١٨٨٥ لإنقاذه ، ولكنها وصلت متأخرة ووجدت أن الدراويش قد قتلوه ، فحزنت عليه الملكة ، وكل الرأي العام البريطانى ، واستمروا فى حزنهم مدة أثنتى عشر سنة إلى أن تحول هذا الحزن الى غضب ومطالبة بالثأر . وتوغل كتشنر فى السودان وأخذ فى قتل السودانيين واستولى على الخرطوم ، وأنشأ حكما ثنائيا انجليزيا مصريا ، وتحت السيادة البريطانية . وهنا انتهت الأحزان ، وهدأ الرأى العام البريطانى بعد أن حصل على السودان ، وصاحت فيكتوريا بأنها قد انتقمت لغوردون ، وكأنها كانت تعرفه .

أما على الطريق الشمالى للهند فان انجلترا قد تمكنت من إنشاء المحطات فى البحر الأحمر وعلى المحيط الهندى . وتمكنت من السيطرة على مضيق باب المندب من جزيرة بريم التى استولت عليها سنة ١٨٣٩ . أما عدن التى استولت عليها فى نفس السنة فانها قد تحولت الى محطة للفحم والى قلعة حصينة . ومدت بريطانيا حمايتها على طول الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية والسلاطين الموجودين فيه ، والذين اعترفوا بالمقيم البريطانى كقاض وحكم ووسيط بينهم فى سنة ١٨٦١ . وتمكنت بريطانيا من زنزبار التى ابعدت عنها المنافسة الألمانية من الإشراف على ساحل إفريقية الشرقية ، وزادت بريطانيا من ممتلكاتها على القارة نفسها بين البحيرات العظمى الأفريقية والمحيط ، فحصلت على كينيا ثم على الهضاب العالية فى أوغندا . وأصبحت تحكم على سلسلة مستمرة من الممتلكات تمتد من القاهرة الى ممبسة وتدور حول اثيوبيا وتصل البحر المتوسط بالمحيط الهندي .

أما طريق الهند الجنوبي فانه قد فقد أهميته في الوقت الحاضر الذى غيرت فيه قناة السويس طرق المواصلات التجارية . ولكن القناة كانت مهددة ، وكان الحصول على طريقين أسلم من الحصول على طريق واحد ، ولذلك فان بريطانيا لم تتخلى عن مراكزها الافريقية ولا سانت هيلانه ولا رأس الرجاء الصالح . حتى إذا كانت السفن التى تصل اليها قد أصبحت نادرة فان مستعمرة الرأس كانت تحتل موقعاً فريداً وكانت تبشر بمستقبل باهر : وكانت أفريقية الجنوبية تسمح باستيعاب عدد من المتوطنين الأوربيين، وارسلت انجلترا إليها عدداً من المعمرين حتى لا تترك المجال خاليا أمام البوير ، والذين كانوا من أصل هولندى . واكتشفت أول ماسة بجوار نهر اورانج فى سنة ١٨٦٧ وتسببت فى مجيء أفواج كثيرة من المهاجرين والمعمرين وأصبحت مناجم كيرلى من أشهر مناجم العالم . ثم اكتشفت أكبر مناجم للذهب هناك فى سنة ١٨١٤ وتسبب ذلك فى مجيء أفواج جديدة . وعملت بريطانيا على الاحتفاظ بهذه المستعمرة وبأى ثمن كان .

أما البوير فأنهم كانوا قد سئموا البريطانيين فحل عــــدد منهم امتعته على عرباته وسار شمالا وأسسوا جمهورية ناتال . ولكن الانجليز اقتفوا أثرهم وضموا جمهورية ناتال فى سنة ١٨٤١ . فواصل البوير سيرهم بعد الاورانج وأسسوا جمهوريات أورانج والترنسفال ، واضطرت بريطانيــا الى الاعتراف باستقلالها . ولكنها تدور حول دول البوير وتسيطر على قبائل الزولو وتتوسع صوب الشمال وصوب البحيرات العظمى وكأنها تحاول الاتصــال من رأس الرجاء الصالح بوادي النيل والقاهره .

ولقد فــــكر أحد الرجال من أجلها وهو سيسل رودس ، أبن راعى الكنيسة الذى أصبح رجل أعمال . وكان قد كون ثروة كبيرة من الماس فى

سنة ١٨٨٠ ونجح في تجميع جملة شركات صغيرة في شركة واحدة أصبحت لها حقوق أحتكارية . ثم عمل من أجل الذهب نفس العملية التى قام بها من أجل الماس فكون مجموعة رأسمالية باسم جولد فيلد في سنة ١٨٨٦ . وكانت لسيسل رودس موارد ضخمة ، وكان عضوا في برلمان مستعمرة الرأس ، ثم وزيرا . ولما كانت الشركات ناجحة ، فهـو يواصل تكوين شركات جديدة ، والإستعمار اقاليم السافانا في الشمال ، وحصل على امتياز من حكومة لندن لشركة فى سنة ١٨٨٩ سماها شركة جنوب افريقية البريطـانيه التى أصبح لها جيشا وخزانة ، وأصبحت تبنى القلاع وتقيم المدن . وتخطى وكلاؤها منطقة الزمبيزى ووصلوا الى بحيرة نياسا .

وبفضل سيشل رودس تمكنت انجلترا من منع الألمان المقيمون فى جنوب غرب افريقية من الاتصال بجمهوريات البوير ، ومنع البرتغاليين فى أنجولا من الاتصال بالبرتغاليين فى موزمبيق . وبدلا من أن تنقسم إفريقيـة بين الغرب والشرق بأراض أجنبية ، أنقسمت أفريقية بين الشمال والجنوب بممتلكات انجليزية . وصدر مرسوم ملكي يسمى هذه الاراضى التى تصل بين الممتلكات البريطانية فى جنوب افريقية ووسطها وحوض النيل باسم روديسيا .

ولكن جمهوريات البوير كانت عاملا مضايقا للبريطانيين على جانب افريقية الجنوبية . وأتهم رجال التبشير الانجليكانيون البوير بالإحتفاظ بالزنوج كعبيد وكانت مستعمرة الرأس قد ضمت مقاطعة كمـبرلى فى سنة ١٨٧١ وحاولت شركة جنوب افريقية البريطانية الأغارة على جـوهانسبرج عاصمة الذهب ، وأعلنت لندن الحرب ضد الترنسفال والاورانج فى سنة ١٨٩٩ .

ولقد قاوم فلاحوا كروجر جنود الملكة لمدة تقرب من ثلاث سنوات وكـانت حربا بين البيض ، أما الوطنيون فـكانوا يميلون إلى جانب الانجليز

أ كثر من ميلهم إلى جانب البوير . ولم يخسر الانجليز فى هذه الحرب إلا ستة آلاف قتيل .

ولم يكن هناك إحد يشك فى نتيجة هذه الحرب . فما الذى يمكن لنسمين الف رجل وبدون أسلحة حديثة أن يفعلوه أمام مائة وخمسين فامت كبرى دول العالم بتسليحهم ؟ لقد سقطت بريتوريا فى سنة ١٩٠٢ وضم التاج أورانج والترنسفال ، وأنتهت حرب العصابات ، وأقيمت الزينات فى لندن .

وكانت انجلترا تعرف كيف تسيطر على نفسها ساعة الانتصار رغم أنها لا تتورع عن القسوة فى أثناء الحرب ، وهى أ كثر تفاهما فى مدة السلم . وبكل روح رياضية هتف سكان لندن للقواد البوير الذين جاءوا للاتفاق على شروط السلم مع حكومتهم . ودفعت لندن ثلاثة ملايين جنيه للمزارعين لإعادة إنشاء مزارعهم . وأحتفظت الدولتان المقهورتان بلغتهما وأعترفت لهما بريطانيا بالحق فى إنشاء حكومة برلمانية . ودخلوا فى اتحاد جنوب افريقية فى سنة ١٩٠٩ .

وكان لمستعمرة الرأس برلمان وحكومة مسئولة منذ وقت طويل ولكنها كونت بعد ذلك مع ناتال وأورانج والترنسفال نوعا من الدومينيين الذى تجتمع هيئته التشريعية فى مدينة الرأس وهيئته التنفيذية فى بريتوريا . أما المملكة المتحدة فان حمايتها تمتد على الاقاليم السوداء مثل بتشوانالاند وباسوتولاند وشوازيلاند ، وسترى البوير مثل بوتا وسمطس ، والذين كانوا رؤساء عصابات ثائرة ، يحلون محل رودس فى منصب رئيس وزراء هذا الدومينين الجديد . ولكن المهم هو أن البوير بعد وصولهم إلى السلطة والحكم وبعد أندماجهم وإعلان ولائهم مع الانجليز قد أستمروا فى أبعاد الزنوج عن الحياة العامة والحياة السياسية

لقد أصبحت دولة اتحاد جنوب افريقية أول منتج للذهب في العالم ، وأصبح صوف الرأس ، مثل قطن وادى النيل، مادة أساسية للغزل والنسج البريطانى . وجاء المعدن النفيس لكى يزيد رصيد بنك انجلترا ، وغطاء الجنيه الإسترلينى ، زعيم العملة المستقرة .

وعلى طول طريق الهند حافظت بريطانيا على ممتلكاتها ، وبنت امبراطورية جديدة .

الفصل الثامن عشر

المحيط الهادى وأمريكا

شهد الشرق الأقصى تنافساً استعماريا وأطماعاً شاركت فيها كل من انجلترا والروسيا وفرنسا والبرتغال وأمريكا والمانيا بعد ذلك . وكان لهذا الميدان خصائصه التي أعطت له استراتيجية خاصة أثرت على توازن القوى فيه واثرت على مستقبله . وكان نزول الولايات المتحـدة الأمريكيـة إلى هـذا الميدان ، بعد اقترابها منه عاملا هاما فى تغيير توازن القوى ، وعاملا أساسياً فى ظهور الإمبريالية الامريكية بجوار غيرها من الإمبرياليات .

(١) الشرق الاقصى :-

لقد اصطدمت انجلترا فى الشرق الأقصى بحضارات قديمة وتسبب ذلك فى إثارة المنافسات الأوربيـة . وكانت الروسيا هى أول المنافسين ، وذلك بضغطها المستمر على القارة الاسيوية وزحفها فى سيبيريا ،وغزوهـا لآسيا . وتمكنت من توطين مئات الآلاف من المجرمين السياسيين ومن اليـولنديين المنقولين ومن عبيد الأرض تحت إدارة بيروقراطية طاغية . وتمكن خط سكة الحديد العابر لسيبيريا بعد عشر سنوات من العمل المتواصـل من عبور عشرة آلاف كيلو متر والوصول حتى المحيط الهادى ، فوصـل أولا إلى فلاديفوستك ، ثم الى بورت آرثر سنة ١٩٠١ .

وكانت الصين تحت حكم الأباطرة من أسرة المنچ قد بدأت فى التدهور وفى الخوف من كل ما يحمله إليها الأجانب،سواء أكان ذلك تقدماً فنياً أو

سياسياً . وكانت ترفض التجديد ، كما كانت تقبل بعثات التبشير المسيحية في بعض الأوقات وتطردهم في أوقات أخرى . ولم تكن تقبل التجار الغربيين إلا في بعض الاماكن والمدن والموانى ، فكان البرتغاليون يعملون في مكاو ، وباع الانجليز أفيون الهند في كانتون . واشتروا بأثمانه شاى الصين .

وظهر الغربيون في الصين على أنهم تجار مخدرات ، ولكن الصين سايرت تجارة الافيون وانتشرت فيها أماكن تدخينه . ورغم أن السلطات منعت استيراد هذه المواد ، إلا أن الانجليز أخذوا في تنظيم عمليات تهريبها بالاتفاق مع بعض الموظفين الصينيين . وألقت سلطات كانتون عشرين ألف صندوق من الأفيون في البحر سنة ١٨٣٩ ، وكان الانجليز يبيعون الأفيون بخمسة أضعاف ثمنه ، فطالبوا بتعويض رفضته الصين ، وتدخل الاسطول البريطاني في سنة ١٨٤٢ وأضطرت بكين الى التراجع ، وفتحت معاهدة نانكين خمس موانٍ للتجارة ، وأعطت لانجلترا مدخل نهر كانتون وجزيرة هونج كونج ملكا لها .

وكان هذا مثلا على أن الصين غير قادرة على أن تعارض النفوذ الأوربي بالقوة . وحينما كان الاوربيون يتحدثون إليها عن التجارة كانت ترد عليهم بالبروتوكول والاحتفالات ، وعاشت وهي تحتقر الغرب ، ولكنها عجزت عن مقاومته . واضطرت الصين شيئاً فشيئاً إلى أن تقدم تسهيلات تجارية جديدة للأمريكيين ثم للفرنسيين ثم قبلت دخول بعثات التبشير المسيحية فيها . ولكن أوربا كانت تنتظر أقل حادثة لكى تستند اليها وتحصل على إمتيازات جديدة . فاذا صادفت بعض بعثات التبشير صعوبات ، أو أصاب بعض التجار غبن كانت الدول الأوربية تسرع بتدخلها العسكري لكي تؤكد تفوق البيض .

وحدث ذلك فى سنة ١٨٥٨ حينما ذهبت حملة فرنسية انجليزية واحتلت تيان تسن ، وحملة أخرى دخلت بكين . ونظراً لأن الصينيين قد قتلوا بعض الضباط الأسري ، فان الأوربيين قد أحرقوا قصر الشتاء التى روت القصص عن عظمته ودقة فنه . فاضطرت الصين الى الاستسلام سنة ١٨٦٠ ودفعت كل التعويضات المطلوبة ووسعت منطقة هونج كونج التى أصبحت ملجأ لرجال العصابات الصينيين ومركزا للتجارة الأوربية ، وفتحت للتجارة عشرة موان جديدة وقبلت إعادة تنظيم الجمارك وباشراف أحد الانجليز . وانتهز الروس فرصة انهيار الصين لكى يحصلوا على الضفة الغربية لنهر آمور والمناطق الواقعة إلى جنوبه على ساحل البحر حتى كوريا . فاصبحت نهاية سيبيريا فى مواجهة اليابان .

وبدلا من أن تقتنع أوربا بهذه المكاسب ، بدأت شهيتها فى الظهور ، وظهرت الصين وكأنها ثمرة ناضجة أمام من يرغب فى الإستيلاء عليها . وبدأت الدول الاوربية نشاطها دون أن تعمل على تقسيم الصين، فاستولى الألمان على كياو تشيو سنة ١٨٩٧ ، وحصل الروس على امتداد خط سيبيريا عبر منشوريا وحصلوا على امتياز بورت آثر سنة ١٨٩٨ ، أما الانجليز فانهم قد احتلوا بعض المواقع عند مدخل خليج بتشيلى وحصلوا على حقوق للملاحة على النهر الأزرق ، وحصل الفرنسيون على ايجار خليج كوانج تشيو وحق بناء سكة حديد يونان سنة ١٨٩٨ . وفكر المستعمرون الغربيون فى أن شمال الصين سيصبح روسيا ، أما الوسط فسيصبح بريطانيا مع منطقة للنفوذ الألمانى ، وأما الجنوب فسيصبح فرنسيا . وجعلت هذه الأخطار الصين تفكر فى أنه ليس لها جنود أو أسلحة أو ذخائر . فاضطر القصر إلى إثارة أهالى بكين مع جمعية البوكسير السرية سنة ١٩٠٠ ، وقتل فى هذه الحوادث عدد من الدبلوماسيين

وأدى الأمر الى تدخل أجنبى جديد وتمكنت الروسيا من احتلال منشوريا عسكريا .

ولقد ساعدت زيادة السكان فى الصين على هجرة عدد من الصينيين الى الأقاليم المحيطة بالمحيط الهادي، إلى جاوة وسومطرة وماليزيا وأمريكا ، فى نفس الوقت الذى أصبحت فيه هونج كونج مخزنا وقاعدة للتجارة البريطانية. ونمت المستعمرة الانجليزية فى شنغهاى وخاصة بعدأن اتحدت معها المستعمرة الأمريكية . وأخذ البيض يتجمعون فى بلاد الصفر ، وفى أحياء خاصة بهم وفى حراسة شرطتهم وحماية السفن الحربية الراسية فى الميناء . وأصبح للبيض حقوقاً وامتيازات فى جميع أنحاء الصين ولم يخضعوا إلا لحكم المحاكم القنصلية .

وحاول الأوربيون إن يفعلوا فى اليابان ما فعلوه فى الصين . وكانت اليابان على طريق الملاحة الأمريكى بين سان فرانسيسكو وكانتون . ونزل الكومودور بري فى خليج ايدو وتمكن من فتح مينائى شيموداوهاكودات للتجارة الأمريكية . وكانت هذه أول مرة تسمح اليابان باعطاء امتيازات للأجانب فى سنة ١٨٥٣ ، بعد الامتيازات التى أعطتها للهولنديين وللصينيين للمتاجرة مع ناجازاكى . وحاولت انجلترا بعد ذلك الوصول إلى اليابان والمتاجرة فى الموانى المفتوحة ، ثم جاءت الروسيا وشاركت فى العملية. ونجحت كل هذه العمليات بعد عدد من قذائف المدفعية، انتهت بعقد معاهدات مع الدول العظمى .

ولكن إذا كانت الصين تستسلم دون مقاومة ، فان اليابان كانت تلاحظ أسباب تفوق البيض ، فعملت على إصلاح أداتها الادارية ، وبدأت فى

انشاء أسطول وصناعة . وتمرنت على يد الأجانب ، ثم تفوقت عليهم بعد أن استخدمت وسائلهم الفنية وأسلحتهم . ومعنى ذلك أن اليابان لن يسهل استعمارها ، بل انها هى نفسها التى ستستعمر الغير . واتخذت الشعارات الحديثة وعملت على نسقها شعار « آسيا للآسيويين » ، ولليابانيين قبل غيرهم. لقد نجحت اليابان فى أن تفرض على الصين الضعيفة أمر سيادتها على كوريا ، وترك فورموزا وجنوب منشوريا سنة ١٨٩٥ . ولكن الموقف كان يهدد باصطدام مع الروس ، أى اصطدام بين دولتين متوسعتين . وتراجعت طوكيو فى أول الأمر ، ولكنها ضمنت موافقة الانجليز وهاجمت إمبراطورية القياصرة وتعقبت جيوشهم وأغرقت أسطولهم فى سنة ١٩٠٥ . فرأت الروسيا التى كان توسعها صوب الشرق قد اصطدم على القارة الأمريكية بمذهب مونرو ، أن توسعها على القارة الآسيوية قد توقف ، واضطرت إلى الاعتراف بنفوذ اليابان وتفوقها فى كوريا وفى جنوب منشوريا ، وأصبح بورت آرثر يابانياً ، وضمت اليابان كوريا سنة ١٩١٠ . ونجح امبراطور اليابان فى إبعاد النفوذ الأجنبى عن بلاده وفى صد أحد المستعمرين البيض . وكانت لهذا الانتصار آثار بعيدة واستمرت طوال سنوات القرن الذى شاهد بدايته هذا الانتصار .

ولكن الدول الأوربية نجحت فى الهند الصينية . وورثت فرنسا منذ عهد الملكية ذكرى امتيازات حاول نابليون الثالث الافادة منها واستغلالها باحتلال سايجون وثلاث مقاطعات من الكوشين صين ، ثم الكوشين الغربية ، مع فرض حماية على مملكة كمبودج فى سنة ١٨٦٣ . فهل كان يحاول حماية بعثات التبشير الكاثوليكية ؟ أو كان يحاول فتح أسواق جديدة ؟ . لم تكن الصين ولا آنام ولا سيام فى موقف يسمح لها بمعارضة التدخل الفرنسى ومعارضة إنشاء امبراطورية فرنسية فى الشرق الأقصى . وإذا

كانت بداية الأمبريالية الفرنسية فى عصر نابليون الثالث تحمل بعض المسئولية فى الهند الصينية ، فان المسئولية فى غالبيتها تقع على كاهل الجمهورية الثالثة التى مدت احتلالها على كل الهند الصينية واستولت على هانوى ودلتا النهر الأحمر ، ثم تدخل جول فيرى وعقد معاهدة حماية على آنام. وتمكن الأسطول الفرنسى من تحطيم الأسطول الصينى الجنوبى ، واضطرت الصين فى سنة ١٨٨٦ إلى ترك آنام وتونكين . ورغم ذلك فان الرأى العام الفرنسى لم يقدر هذه الامبراطورية حق قدرها ، بل أظهر قلقه من هذه المغامرة ، ومما تكلفه لفرنسا التى حاولت أن تنسى فى الشرق الأقصى مقاطعتى الالزاس واللورين . ولكن رجال الأعمال وبعض الضباط أفادوا من هذه المغامرات الاستعمارية وعوضوا عن نفسهم ما فاتهم فى الحرب الفرنسية الألمانية . ويمكننا أن نضيف اليهم جول فيرى نفسه الذى لم تكن له نظرية محددة ، وأخذ ينادى « بعظمة الأمة ، وشرف العلم » . وتمكنت أقلية من بناء الهند الصينية الفرنسية رغم الرأى العام الفرنسى . وبعد القضاء على القراصنة والعصابات والدخول الى لاوس سنة ١٨٨٧ انتهت عملية التهدئة ، واعلن اتحاد الهند الصينية . فتعددت الطرق وبنيت الموانى ، واحيى الزي إقتصادا بعد عصور طويلة من الذبول .

واحتفظت سيام الواقعة بين الهند الصينية الفرنسية ، وبورما الإنجليزية ، باستقلالها ، نتيجة للتنافس الفرنسى البريطانى . وما دام الطرفان يتنازعانها فانها لن تصبح لأى منهما . ولقد أجبرت فرنسا انجلترا على الاعتراف بضم لاوس الى الهند الصينية فى سنة ١٨٩٣ . وتمكنت انجلترا من عقد معاهدات حماية مع بعض سلاطين شبه جزيرة ماليزيا وحصلت من سيام على سلطنات الشمال فى سنة ١٩٠٩ . ونتيجة لذلك تعهدت كل من باريس ولندن باحترام بانجوك .

ولم ينجو من أيدي المستعمرين البيض الا اليابان والافغانستان وفارس وسيام ، اما بقية آسيا فانها قد خضعت للأوربيين ، سيبيريا الروس والهند للانجليز ، والهند الصينية للفرنسيين ، والصين لكل الغرب . ولم تعد آسيا الا شبه جزيرة صغيرة تخضع لأوربا .

(٢) استراليا والمحيط الهادى : —

كان كوك قد استكشف أجزاءا كثيرة من ذلك المحيط ، ثم جاء الانجليز لكى يرسلوا الى استراليا بالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وبالمساجين . ولكن المناخ كان يسمح بتوطن عناصر بيضاء ، وكانت الاراضى تسمح بتربية الاغنام التى ستنتج نصف ما يستهلكه العالم من الصوف . ثم ظهرت الثروة المعدنية وأكتشف الذهب فى استراليا سنة ١٨٥٠ ، فأسرع اليها المهاجرون الذين حولوا شكل أهلها . وحينما انتهت عروق الذهب الواضحة على سطح الأرض أخذ المتوطنون فى تربية الأغنام وزراعة القمح . ومع زيادة المتوطنين وانتشارهم داخل القارة نشأت دول جديدة باستمرار . ولما كان معظم المهاجرين من الانجليز فقد وافقت لندن على اعطائهم استقلالهم السياسى الداخلى بمجالس تمثيلية وانتخابات عامة وحكومات مسئولة . وانتهى الأمر بانشاء الاتحاد الاسترالى الذى ضم عدة دول ، أصبحت عاصمتها فى كانبيرا ، التى تمثل واشنطن فى الولايات المتحدة الأمريكية .

أما الأهالى فقد كان عددهم صغيرا ، ولم يأبه بهم أحد ، أى أنهم كانوا يقتلون دون أن يتحدث أحد عنهم ، فأنتهت بذلك المشكلة .

وكانت زيلاندا الجديدة عبارة عن جزيرتين على بعد الف وخمسمائة كيلومتر الى شرق استراليا . وكانت كل من فرنسا وانجلترا قد حاولت احتلال هذه

الجزر التى كان تاسمان الهولاندى قد اكتشفها ، وكان كوك الانجليزى قد زارها ، وأرسلت كل من الدولتين سفينة اليها، ولكن السفينة الانجليزية بلغتها قبل السفينة الفرنسية بثلاثة أيام . فأصبحت زيلاندا الجديدة انجليزية سنة ١٨٣٩ ، وأصبحت مستعمرة للتاج . وهى جزر خصبة مناخها معتدل وبدأت فى الازدهار بالمعمرين. ولقدحصلت زيلاندا الجديدة على برلمان لها سنة ١٨٥٣، ثم أصبحت دومنيون سنة ١٩٠٧.

وكان الهولانديون فى جزر التوابل يستغلون الاهالى فى زراعة النيلة والشاي والطباق . وكان هناك الاسبانيون كذلك فى الفلبين ، ولم يحدث تغيير يذكر فى هذين الاقليمين . أما بقية المحيط الهادى ، الممتلىء بآلاف الجزر فقد اصبح ميدانا للتنافس الاستعمارى بين الدول البيضاء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكان ذلك هو التسابق من أجل الأراضى الأخيرة الباقية ، ومن أجل آخر المراكز الاستراتيجية . وقامت الدول برفع أعلامها على جزر مجهولة وشبه خالية من السكان . ولكن الحظ أثبت أن بعض هذه الجزر كانت لها قيمتها . واستولى الانجليز على جزر كثيرة منها فاستولوا على فيجى وعلى ايليس وعلى كونجا وعلى فينيكس وارخبيل كوك وغينيا الجديدة ، أما الفرنسيون فانهم قد استولوا على جزر ماركيز وتاهايتى وتواموتو وجمبيه وضموا كاليدونيا الجديدة التى استخدموها لنفى المجرمين ثم اكتشفوا فيها النيكل والكروم والكوبالت . أما الألمان فانهم قد حضروا إلى ساموا وتاجروا فى ملح البارود وفى جوز الهند ثم استولوا على جزء من غينيا الجديدة ومن ساموا ، وأما الامريكيون فانهم قد اعتبروا أن جزر المحيط الهادي متممة لقاراتهم ، فاعلنوا حمايتهم على هاواي التى ضموها بعد ذلك ، ووصلوا الى ويك ثم إلى مارشال . وأصبحت كل جزر المحيط الهادى خاضعة للعناصر البيضاء. ولم تتم هذه العملية دون اصطدامات،

بل لقد شهدت تنافساً بين بعثات التبشير الكاثوليكيين والبروتستانتيين كما حدث فى هاواى . أما تاهايتى فان الملكة كانت تحبك المؤامرات مرة مع القنصل البريطانى ومرة مع الكاثوليك الفرنسيين ، وأما الالمان والاسبانيون فانهم قد تخاصموا بشأن كارولينا، كما تخاصم الالمان مع الامريكيين بشأن ساموا ، وتخاصم الالمان مع الانجليزفى غينيا الجديدة ، والانجليز والفرنسيين بشأن هبريدة الجديده . وكانت معظم هذه المنافسات لا تتعدى المشكلات الدبلوماسية أو المظاهرات البحرية . ولكن صراعاً أهم من ذلك نشأ فى الفيليبين بين مستعمرين جدد ذلك أن اسبانيا لم تكن ترغب فى ترك املاكها بعد طردها من العالم الجديد ، وفى الوقت الذى أخذت فيه الولايات المتحدة الامريكية تعمل ما تعمله الدول العظمى الأخرى . وكانت الحرب بين الدولتين ظاهرة هامة تدل على بدء التوسع الامريكى .

٣ ـ التوسع الامريكى :

كان نمو امريكا الانجلوسكسونية واضحا من الناحية الديموجرافية ومن الناحية الاقتصادية . فهل كان نمو الشعب هو الذى يؤدى إلى نمو الاقتصاد ؟ أو كان الازدهار الاقتصادى هو الذى يساعد على زيادة السكان ؟ الواقع أن العاملين مرتبطان . ولم يحصر الامريكيون أنفسهم فى مكان واحد أوفى أطار المقاطعات الشرقية التى كانت مهد الامريكيين ، بل اتسعوا من الشرق صوب الغرب ، مثل الرومان فى اوربا ومثل الروس فى سيبيريا ، ومثل الاستراليون فى جزيرتهم ، وقاموا بالاستعمار . ويكفى بعض الارقام لتحديد زيادة الأهالى فى القرن الممتد من نهاية الحروب الامبراطورية حتى الحرب العالمية الأولى . لقد زادت كندا من مليون الى ثمانية ملايين فى السكان، أما الولايات المتحدة فقد زاد عددها من ثمانية الى مائة مليون . وجاءت أفواج من المهاجرين

الاوربيين فى كل عام، وبمئات الآلاف ، وكان بينهم الفلاحون والمحامون والمتعطلون والخطابون واللاجئون السياسيون والباحثون عن الثروة، وكان الجميع يبحث عن وطن جديد ويحاول إنشاء دار جديدة . لقد جاء الى العالم الجديد كل من الانجليز الذين طردهم بؤس الصناعة والايرلنديون الذين طردهم الجوع والالمان الذين استمعوا الى نداء الغرب والبولنديون الذين هربوا من الظلم والإيطاليون الذين كانوا يحلمون بالثروات . وكانوا يقنعون بعد وصولهم بمهنة صغيرة ، وبالمعيشة فى أحد الأحياء التى تجمع بين أبناء جنسهم وكأنهم يحاولون الاحتفاظ بدمائهم نقية وبلغتهم و بتقاليدهم . ولكن أمريكا مزجت بينهم جميعا ، وأنشأت منهم شيئا خاصا .

كانوا يصلون الى موانى الشرق ، وكان معظمهم يبقى فيها ، وقليل منهم من وصل الى المناطق الصخرية والى ساحل المحيط الهادى . وكانوا فى غالبيتهم يبتعدون عن ولايات الجنوب التى يعمل فيها الزنوج . وغالبا ما كان قدماء المهاجرين الذين يعيشون فى الشمال الشرقى هم الذين يهاجرون صوب الغرب نتيجة لمنافسة المهاجرين الجدد ، وبأمل تحسين مستقبلهم . ولذلك فان اوربا لم تكن تعمر غرب امريكا . بل كان شرق امريكا هو الذى يعمر غربها

وكانوا يسافرون على الخيل أو فى العربات المغطاة التى تجرها الخيل والبغال والثيران ، ويعبرون الانهار ، ويحصلون على قطع من الاراضى غالبا ما تكون فى الغابات ، فيقطعون الاشجار التى تساعدهم على انشاء أحد الأكواخ ، واذا كان الموقع ممتازا فانه يتحول الى قرية ، وإذا كان على تقاطع طرق أو قريبا من أحد المناجم فيمكنه أن يتحول بسرعة الى مدينة .

واستمرت حركة الاستعمار فى النمو إلى أن جاء عصر القنوات واتصل الهدسن بالبحيرات العظمى وبشكل ضمن فوز نيويورك على فيلادلفيا ، كما اتصلت البحيرات فيما بينها ومع الأهيو والمسيسبى ، فسهلت الهجرة صوب وسط الغرب ، وزودت ولايات كثيرة بالمهاجرين .

ثم جاءت بعد ذلك حمى السكك الحديدية ، ونشأت شركات متنافسة فى الولايات المتحدة وفى كندا لانشاء السكك الحديدية عبر السهول . وبدأت هذه السكك الحديدية امتدادها صوب الغرب مع « إتحاد الباسيفيكى » ومن سان فرانسيسكو صوب الشرق مع « الباسيفيكى المركزى » ، وتقابلت السكتان الحديديتان بسرعة ، لأن كل ميل من السكك الحديدية الممدودة كان يعنى معونة بالدولارات للشركة التى بنته ، ومساحة من الأرض على جانبى الخط تمنح لها . وكان المهاجرون يسيرون مع السكة الحديدية فى تقدمها ، وكانت الشركات تبيع الأراضى بأسعار متهاودة ، وتمنحهم المساكن وتعطيهم السلفيات حتى تضمن زبائن لها . ونشأت المدن على طول هذا الطريق .

وكانت كل محطة للسكك الحديدية عبارة عن مفرق طرق يسافر عليها المعمرون بوسائلهم الخاصة ، بمفردهم أو فى قوافل . فكانوا يتقدمون صوب الشمال وكندا ، وصوب المكسيك الجديدة ، ويعبرون الصحارى ويمرون فى الجبال رغم البرد والحر والديبة والهنود . فاكتشفوا النحاس والرصاص والفضة والبترول . وتمكنوا من تربية البهائم فى السهول ووردوا لحومها لمصانع اللحوم المحفوظة فى وسط الولايات المتحدة .

أما كندا التى كانت تعيش من غاباتها ومن تجارة الفراء فانها قد تخصصت فى تربية المواشى ، واهتمت بزراعة القمح قبل أن تعثر على النيكل ، وتقدمت

عناصر المهاجرين فيها صوب الغرب وصوب كولومبيا البريطانية. وبعد أن أصبحت دومنيون سنة ١٨٦٧ كونت دولة فيدرالية كان لكل اقليم فيها مجلسه التشريعي وحكومته المسئولة . واحتفظت مقاطعة كويبيك بلغتها الفرنسية ، وتعاون أبناء كندا على استعمار السهول ، ووجدوا فى هذه العملية أساس وحدتهم ودعامتها . وحصلت كندا على أقاليم واسعة كانت ملكا لشركة خليج هدسن ، ثم حصلت على كولومبيا البريطانية، وحاولت أن تحصل على نيوفوندلاند، ولكن هذه الجزيرة كانت تخشى من أن يؤدى ضمها الى كندا الى زيادة الضرائب التى تدفعها ، كما كانت تخشى من زيادة ضغط العناصر الكاثوليكية فى كويبيك ، فبقيت بصفتها مستعمرة للتاج .

وكانت هذه الولايات المتحدة الحديثة عامرة بالصحة وتمثل أمام الاوربيين المحصورين داخل نطاق تقاليدهم وطن التقدم والحرية ، التى يمكنهم أن يجدوا فيه الأرض وحتى الذهب ، والقوانين والنظم التى تعطى الحظ والأمل للرجال.

ورغم ذلك فان الولايات المتحدة قد عملت على الاحتفاظ بنمط معين للأمريكيين يقوم أساسا على العناصر البريطانية الممزوجة ببعض الألمان والاسكندافيين والايرلنديين واليهود، كما يقول اندريه سيجفريد ، وعملت على منع أو تقليل الهجرة الزائدة التى هددت بقلب التوازن الموجود بين الأجناس فى أمريكا ، فحددت دخول العناصر اللاتينية والسلافية ومنعت دخول الصينيين. فهل كانت هذه السياسة أساساً لنشأة قومية جديدة مع نشأة الجنسية الأمريكية ؟

وأخذت الحكومة فى بيع الأراضى فى الغرب للمتوطنين وبأسعار زهيدة، واشترى المتوطنون هذه الأراضى وحسب إمكانياتهم، وإن كان ذلك لم يمنع

فقراءهم من احتلال أى منطقة من الأرض تروق فى أعينهم.واستمرت الهجرة صوب الغرب منذ عام ١٨٤٧ وساعد ذلك على نمو المدن وعلى نشأة الولايات وامتدادها حتى المحيط الهادى . ورغم أن الاتحاد قد شعر بضرورة التوسع، إلا أن معاهدتين قد حددتا من الشمال حدوده مع كندا ، خاصة وأن واشنطن كانت تشعر بخطورة مهاجمة انجلترا . أما من الجنوب فان الولايات المتحدة كانت متصلة ببقايا الامبراطورية الاسبانية وبتكساس التى استقلت عن المكسيك وانضمت الى الولايات ، وبالمكسيك نفسها . وجاءت حرب سنة ١٨٤٨ السريعة لكى تنظم الحدود فى هذه المنطقة وتركت المكسيك للولايات المتحدة منطقة مكسيكو الجديدة وشمال كاليفورنيا نظير مبلغ خمسة عشر مليونا من الدولارات . وبعد بضعة أيام من التوقيع على هذه الاتفاقية اكتشف عامل من عمال أحد المتوطنين السويسريين بعض التبر فى أحد روافد نهر السكرامنتو الذي يصب فى خليج سان فرانسيسكو ، فأخذت كاليفورنيا شكل الإلدورادو، وحضر إليها آلاف من الرجال باحثين عن الذهب .

ولقد أثارت هذه العملية شهية الولايات المتحدة التى اشترت بعد ذلك من المكسيك أراض جديدة فى سنة ١٨٥٣ دخلت فى نطاق ولايات الامازون ومكسيك الجديدة، وبمبلغ عشرة ملايين من الدولارات. ولما كانت دبلوماسية الدولار قوية فان الحكومة الفدرالية استخدمتها لكى تتوسع أكثر من ذلك . وسمحت لها هذه السياسة بأن تصبح مالكة لصحراوات الالسكا فى سنة ١٨٦٧ ، تلك الصحراوات التى كانت مساحتها تبلغ ½ مساحة الولايات المتحدة، والتى دفعت فيها سبعة ملايين دولار للروس الذين قد بدأوا فى إهمالها بعد أن قضوا على معظم الوحوش والحيوانات ذات الفراء الموجودة فيها . ورغم أن الأمريكيين قد نظروا الى سيوارد الذي فاوض هذه العملية مع

الروس على أنه مخبول، فانهم سرعان ما قدروا قيمة هذه الأراضي المغطاة بالثلوج، حين اكتشفوا فيها الذهب سنة ١٨٨٠ .

(٤) الامبريالية الامريكية : ـ

لم تكن التسلطية الامريكية تعنى توسعا استعماريا فى أراض مجاورة ، خاصة وأن الولايات المتحدة الامريكية كانت قد قفزت هذه المرة ، عبر كندا، لكى تصل الى الألاسكا ، وظهر أن أمريكا قد أخذت فى السير بنفس خطوات الامبرالين الأوربيين، رغم إعلانها إحتقارها لعملياتهم .

واستمرت عملية التسلط الامبريالى الامريكى فى توسعها ، وتمكنت الولايات المتحدة من ضم جزر هاواى فى سنة ١٨٩٨ . واذا كان الأهالى قد عزلوا ملكتهم وطالبوا بانضمامهم إلى الجمهورية الامريكية الكبرى فان هذه الجمهورية من جانبها لم ترفض طلب هذه الجزيرة المملوءة بقصب السكر والاناناس . واعتبرت أمريكا أن الانتيل أحد ملحقاتها ، ومثل هاواى تماما ، واشترت واشنطن جزيرة سانتوما ثم انتهزت فرصة محاولة كوبا التخلص من السيطرة الإسبانية وإصرار مدريد على اعتبار مستعمراتها وسيلة لتعيين الموظفين الفاشلين ، وتدخلت واشنطن فى ثورة كوبا، وطالبت برحيل وجلاء الإسبانيين . ونشبت الحرب بعد انفجار وقع فى احدى المدرعات الامريكية الراسية فى هافانا ، وكانت حربا صغيرة تمكنت فيها الاساطيل الامريكية الحديثة من تحطيم الاسطول العتيق الذى ورثته اسبانيا عن شارل الخامس . وتمكن الامريكيون من الاستيلاء على مانيلا فى الفلبين ، وفى الوقت الذى اعلن فيه سكان الفلبين استقلالهم . وقفت هذه الحرب الصغيرة السريعة سنة ١٨٩٨ واضطرت مدريد الى طلب الصلح للانسحاب من الحرب ، وتركت كوبا وبورتوريكو والفلبين وبعض الجزر الصغيرة .

ولم تتراجع الولايات المتحدة عن عمليات الاستعمار رغم احتجاج بعض الامريكيين وخاصة منتجي السكر الذين خشوا المنافسة الجديدة. ونشأت جمهورية مستقلة فى كوبا ولكنها تعهدت بالا تتنازل عن أى قواعد أو تحصل على سلف أو ديون من دولة أجنبيـــة ، واعترفت فى سنة ١٩٠٣ للولايات المتحدة بحق التدخل لحمايتها ضد أى اعتداء ولتأييد حكومتهـــا وحماية الحرية ونظام الملكية . واعطت كوبا للولايات المتحدة الأمريكية فى نظير ذلك قاعدتين بحريتين وبعض مخازن الفحم ، واحتفظت أمريكا لمدة سنوات عديدة بعد ذلك بحكام امريكيين فى هافانا وادعت أن وجودها هناك يساعد على الازدهار الاقتصادي .

أما فى بورتوريكو فان اسبانيا كانت قد منحتها الاستقلال الذاتى من قبل واعطتها الولايات المتحدة حق انتخاب برلمان رغم اختيار الامريكيين لأحد المجالس ولحاكم الجزيرة . ثم تطور الأمر فيما بعد وأصبح هذا المجلس منتخبا كما أصبح سكان بورتوريكو مواطنين أمريكيين فى سنة ١٩٠٠ .

أما فى الفلبين فان أمريكا قد بدأت باعلان ضم الأرخبيل فى سنة ١٨٩٩ رغم اعلان الاستقلال . وادعت أمريكا أن المانيا كانت تفكر فى هذه الجزر، مثلها فى ذلك مثل اليابان . وكانت هذه الجزر تمتاز بأهمتها الاستراتيجية وثرواتها الطبيعية .

أما فى بنما ، تلك المنطقة التى توصل الأمريكيتين ، والتى نزل فيها كريستوف كولمب ، والتى حاول فيها ديليسبس حفر القناة فان أمريكا اشترت امتيازات فرنسا هناك بأربعين مليون دولار فى سنة ١٩٠٣ ، وأعلن رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت أن السياسة الأمريكية تحتاج الى قناه تخضع لسيطرة

الأمريكية . ووافقت كولومبيا،التى كان البرزخ فى أرضها ،على إعطاء القناة الجديدة للولايات المتحدة لمدة مائةسنة، مع أراض يبلغ عرضها خمسة أميال، ونظير مبلغ عشرة ملايين من الدولارات نقداً،وربع مليون دولار كل سنة ؛ ولكن كولومبيا شعرت بالخطأ وبالغبن،ونشبت فيها ثورة بسبب بنما ، وأعلنت فيها جمهورية مستقلة . ولكن الجمهورية الجديدة أعادت منح منطقة القناة لأمريكا بعد أن وسعت منطقتها الى عشرة أميال،ومنحت لأمريكا حق تحصينها ووضع الحاميات فيها . وحينما انتقد أعضاء الكونجرس الرئيس تيودور روزفلت على هذه السياسة أجاب بأنه وفر على بلاده نصف قرن من المناقشات ، وأنه اختصر الطريق ، وبطريقة أمريكية ، لكى يحصل لأمريكا على القنـــاة ، ثم يسمح لها بنصف قرن من المناقشة بعد ذلك . ويعتبر الحاكم الأمريكى فى منطقة بنما مسئولا عن الادارة،ورئيسا لشركة القناة فى نفس الوقت .

وحصلت أمريكا على الجانب الآخر من المحيط الأطلسى وعلى ساحل إفريقية على أرض ضمتها اليها كان بعض رجال الجمعيات الإنسانية قد حاولوا إعادة الزنوج من أمريكا اليها فى سنة ١٨٢٢ . وحصلت شركة الإستعمار الأمريكى على قطعة من الأرض سمتها ليبيريا ،أوارض الحرية وتحول هذا الإقليم الى جمهورية للسود تحت حكم وكلاء الشركة فى أول الأمر ثم إلى جمهورية مستقلة بعد ذلك . ولكن ليبيريا الحرة ليست فى واقع الأمر إلا جزءا من أمريكا ، وكانت عاصمتها مونروفيا تحاول تخليد اسم مونرو . أما الرجال الســـود الأمريكيون فيها فقد أخذوا فى محاربة « الوطنيين » الإفريقيين حتى يتمكنوا من المعيشة فى افريقية ، وكان علم ليبيريا يشبه العلم الأمريكى ، والمهم هو أن اقتصاد هذه الدولة كان خاضعا لسيطرة الشركات الأمريكية ، وأن أسطول ليبيريا سيمثل بعد ذلك جزءاً من اسطول الولايات الأمريكية ، مثله فى ذلك مثل أسطول بنما .

ولم تنفى أمريكا عن نفسها أنها عرفت حمى الاستعمار وأنها قد بدأت عصر تسلطيتها، وذكر تيودور روزفلت أن مذهب مونرو يمكنه أن يجبر الولايات المتحدة رغم أنفها على أن تقوم فى حالات الفوضى أو الضعف بعمليات وسلطات البوليس الدولى . وطبقا لهذا المبدأ كانت الولايات المتحدة قد طلبت من فرنسا فى عصر نابليون الثالث أن تتراجع فى أمر حملة المكسيك ، وسيطرت على الإدارة المالية وادارة الجمارك فى هايتى، وتوسطت فى مشكلة بين انجلترا وفنزويلا بشأن حدود غيانا . وامتد طموح الأمريكيين إلى ابعد من ذلك، وبدأوا يتحدثون عن الجامعة الأمريكية، ونادى السناتور هنرى كابوت لودج بضرورة وجود علم واحد ودولة واحدة من ريو جراند الى المحيط المتجمد الشمالى . واجتمع مؤتمر أمريكى فى واشنطن سنة ١٨٨٩ واقترح على كل القارة توحيد نظم الجمارك والنظم المالية فيها، أى اقترح سيادة وسيطرة صناعة الولايات المتحدة والدولار على الجميع . ولكن أمريكا اللاتينية خشيت من الأمر، واكتفت بانشاء مكتب للجامعة الأمريكية وبدون اختصاصات واضحة.

ولم يصطدم هذا التوسع الأمريكى بشعوب ملونة، إذ أن الأمريكيين كانوا قد قرروا عدم الاعتراف للهنود والزنوج بأي حق أمام تفوقهم الأمريكى . ورغما عن أن الهنود كانوا بضعة ملايين فى بداية الاستعمار الانجليزى فى أمريكا، فان عددهم قد انخفض كثيراً بعد ذلك . فاذا كانوا قد انهزموا وهم كثرة ، فهل يمكنهم المطالبة بأى حقوق وهم قلة واضحة ؟ . لقد قام المعمرون الأول فى زحفهم نحو الغرب بنقض معظم الاتفاقات المعقودة مع الوطنيين، وابعدوهم عن طريقهم وعاملوهم معاملة الحيوانات التى يتعقبها الصيادون. ولقد طالب الأمريكيون بحق المرور ثم استولوا على الأراضى التى رفض الهنود بيعها لهم ، وامتلأت كتابات الأمريكيين بأوصاف خاصة للهنود الحمر، أظهرتهم على أنهم متوحشين يهاجمون القوافل، ويسلخون جلود المسافرين

ويهاجمون القطارات ويستخدمون الأسلحة النارية ضد الأمريكيين . ونادى غلاة المستعمرين الأمريكيين بضرورة القضاء على الهنود الحمر قضاءاً تاماً، بما فيهم من رجال ونساء وأطفال ، أو بتقليل عددهم إلى درجة تمنعهم من القيام بأى هجمة ، ولو مفردة . واستخدم الأمريكيون المشروبات الروحية والويسكي للقضاء على الهنود الحمر .

ولقد قام البيض ببناء القلاع لصد الهنود الحمر وإبعادهم، ثم نظموا الحملات التى إمتدت حتى سنة ١٨٩٠ حين قتل آخر زعيم وطنى من الهنود الحمر ، فقلت مقاومة من بقى منهم ، خاصة وأن عددهم قد انخفض إلى بضع مئات من الآلاف،وسمحوا للأمريكيين بالاحتفاظ بهم فى بضع مناطق محددة لهم ، وكأنهم وحوش فى حديقة الحيوانات ، ويمكنهم أن يعيشوا فى سلام ويحصلوا على الجنسية الأمريكية ويأخذوا بعض عادات وتقاليد الأمريكيين .

أما مشكلة الزنوج فانها قد ظهرت بشكل آخر . وهى ليست مطابقة تماما لمشكلة الرق التى جعلت من الولايات الشمالية التى لم تكن لديها الأيدى العاملة الكافية تتصادم مع الولايات الجنوبية والتى استخدمت الزنوج بكثرة فى حقول القطن . ولقد بدأ اتحاد الولايات الأمريكية بمنع تجارة الرقيق ، ولكن بعض الولايات من المنطقة الوسطى،مثل فرجينيا وماريلاند، كانت متخصصة فى تربية الزنوج وكانت تبيعهم كعبيد لكبار الزراع فى الجنوب . فتطورت المناقشات كلما نشأت ولاية جديدة ، عما إذا كانت هذه الولاية ستبيح أو تمنع تجارة الرقيق فيها، وبالتالى عما إذا كانت أغلبية الولايات ستصبح من أنصار أو من أعداء تجارة الرقيق . ونشأت حرب أهلية طاحنة بين الطرفين فى سنة ١٨٦٢،إلا أن انتصار الشمال فى سنة ١٨٦٥ واعلان تحرير

الرقيق لم ينهى المشكلة . ذلك أن الزنوج قد أصبحوا فجأة بدون سـادة ، وبدون مأوى . وقبل الجنوب حريتهم ولكنه رفض مساواتهم بالبيض . وظلت قوانين الزنوج تحكم على الزواج المختلط وتنظم عملية الفصل بين الأجناس . وكان على الزنوج أن ينتظروا طويلا قبل أن يحصلوا فى الواقع على تطبيق عملى لتلك الحقوق التى يطالبون بها، والتى ظل الأمريكيون يرفضونها لهم . ولذلك فان الامريكى الأبيض له سلوك عنصرى واضح حينما يمنع هجـرة ودخول العناصر الصفراء، وحينما يحتفظ للزنوج بوضعية خاصـة ، وحينما يحتفظ بالهنود فى مزارع معينة .

الفصل التاسع عشر

افريقيـــة

كانت افريقية قد بقيت بعيدة عن نفوذ وسلطـــة المستعمرين الأوربيين نتيجة لمناخها ونباتاتها وحيواناتها التى كانت معادية للأوربيين . فبعـــد الساحل كانت هناك الصحارى والغابات، خطوطا طبيعية تدافع عن هـذه القارة ضد الدخلاء ، وكانت مليئة بالثعابين والوحوش وذئاب تسى تسى ، كما كانت الحمى الصفراء والطاعون والجذام والملاريا تحد كثيرا من شجاعة المغـامرين الأوربيون . فهل يمكن بعد ذلك لأفريقية أن تصبح أمريكة جـديدة بالنسبة لأوربا ؟ كان من الواجب أن يدفع الفضول العـلمى أو الإيمـان بالرسالات السماوية بعض الرجال دفعا إلى دخول مثل هذه القارة . وقد عملوا سويا ، المبشرون والمستكشفون، لـكى يمهدوا الطريق للتسلطية الأوربية على افريقيـة، سواء علموا أو جهلوا ذلك .

(١) تقسيم أفريقية السوداء :ــ

لقد تساءل الناس كثيرا عما يشتمل عليه رمـل الصحراء من معادن ، كما تساءلوا عن أسرار تمبكتو وعن مكان منابـع النيل ، وعن الإقليم الذي يبدأ منه نهر الـكونغو . وحاولت الجمعيات الجغرافيـــة والمجامع العلمية والرحالة فى كل من لندن وباريس إيجاد حل لهـــذه المشكلات ، والإجابة على هذه الأسئلة . وبدأ المستـكـشفون يتوغلون فى ذلك العالم ، كما جاء رجال التبشير معهم وبعدهم، وأعلنوا أنهم يحاربون تجارة الرقيق .

ويمكننا أن نذكر من بين طلائع رجال الاستكشاف والاستعمار رينيه كابيه الفرنسي،الذى تمكن من الوصول متنكرا إلى تمبكتو سنة ١٨٥٤ ، وبارت الألماني الذى استكشف تشاد والنيجر الأسفل سنة ١٨٧١ ، ولفنجستون الانجليزى ، والذي كان طبيبا ومبشرا فى نفس الوقت،وصل إلى الزمبيزى فى نفس السنة ثم ساح فى منطقة البحيرات العظمى . وهناك أيضا ستانلى الأمريكى الذى أرسلته جريدة نيويورك هيرالد للبحث عن لفنجستون، والذى نزل الكونغو وعبر افريقية من الشرق إلى الغرب . لقد أصبحت أفريقية مفتوحة بعد ذلك ، وعرف العالم أنها غنية بالأخشاب النادرة وبالمنتجات الاستوائية وبالفول السودانى،واعتقدوا أنها غنية بالمعادن النفيسة بعد أن قرأوا الكثير عن دولة غانا القديمة . وكان فى وسع افريقية أن تصبح ميدانا ممتازا للاستعمار فى اليوم الذى يتمكن فيه الرجل الأبيض من الكفاح ضد الحميات والأمراض والأوبئة أن يتأقلم فيها .

وكانت أوربا تحتل القواعد اللازمة لبداية الزحف من الساحل صوب داخل القارة ، وتحتل بعضها منذ زمن طويل . فلقد كان البرتغاليون موجودين فى انجولا وموزمبيق . وكذلك الانجليز الذين تمكنوا فى غرب القارة من مد مراكزهم ومن الاستيلاء على المراكز الدانماركية والهولندية الموجودة فى خليج غينيا ، وكانوا فى جامبيا وفى سيراليون عندمصب النيجر . وأخذ الايطاليون يبحثون عن محطة فى البحر الأحمر ، وقد ظهر أن الألمان والفرنسيين كانوا أكثر الناس شراهة لالتهام هذه القارة العذراء .

أما بالنسبة للألمان فان فردريك غليوم قد أنشأ شركة خاصة لافريقية، وقام أودلف لودرتز بانشاء محطة على الساحل الغربى لافريقية الجنوبية فى إقليم الهوتنتوت،واشترى من أحد الملوك المحليين كل المنطقة الساحلية فى سنة ١٨٨٢ .

وكان بسمارك معاديا لمثل هذه المشروعات الاستعمارية،وكان يصرح بأنه لا يسير مع الاستعمار ، وأن ألمانيا ليست من الغنى والثروة بدرجة تسمح لها بمثل هذه الكماليات . وكان بسمارك يفضل أن تنهك الدول الأخرى قواهـا في افريقية،ويفضل أن يعاونها على ذلك حتى يحصل على الحرية الكاملة في أوربا. ولكنه غير أفكاره في هذا الميدان ونزل إلى الميدان الاستعماري ، وضم بلاد لودرتز،وأخذ في المفاوضة مع الوطنيين،وفرض عليهم الحماية الألمانية ومنح هذا الإقليم الذي بلغت مساحته ٨٢٥ الف كيلومترمربع لإحدى الشركات الألمانية لاستغلاله سنة ١٨٨٤ . ولقد قام الدكتور ناشتيجال باستكشاف الكمرون وتوجو الذين وضعتهم ألمانيا تحت حمايتهـا . أما كارل بيترز فانه قد سار من زنزبار ووقع على عقـود واتفاقيات مع بعض رؤساء الزنوج في شرق افريقية،وأسلم هذه المناطق لإشراف دولته سنة ١٨٨٤ .

أما الفرنسيون فانهم كانوا يعرفون افريقية السوداء منذ زمن.وكانت محطة السنغال قد تبقت لهم بعد انهيار امبراطوريتهم الأولى . ولكن الفرنسيين استندوا اليها ونظمها فيدرب ، وأنشأ ميناءا في داكار سنة ١٨٧٥ ثم تقدم جالييني حتى النيجر وأنشأ بعض القرى لتجميع قدماء العبيد فيها . واتسعت منطقة الإحتلال الفرنسي من القواعد القديمة في غينيا وعلى ساحل العـاج حتى مملكة داهومي سنة ١٨٩٣ . أما في جابون فان برازا الايطالي والذي حصل على الجنسية الفرنسية وأصبح ضابطا في بحريتها،قد اتصل بالأهالي ووقع على اتفاقيات وأخذ في توزيع العلم الفرنسي على الوطنيين وأنشأوا المعسكرات في كل مكان .

أما في منطقة مدغشقر فان فرنسا كانت قد احتلت منذ عهد لوى فيليب أحد المواقع وأجرته من أحد الرؤساء الوطنيين الذين كانوا يقيمون في جزر

القمور . ولكن البرلمان الفرنسى لم يشجع على ارسال حملة اليهـا ورفض التوسع أكثر من ذلك ، رغم أن الفرنسيين ظلوا ينافسون البريطانيين فى جزيرة مدغشقر . ولكن فرنسا حصلت على أحد المراكز التى تتحكم فى البحر الأحمر ،وفى الوقت الذي ظهر فيه أن أهميته ستزداد بعد فتح قناة السويس . ومادام الانجليز قد احتلوا عدن وبريم فيمكن لفرنسا أن تحصل على أوبوك . وأشترت فرنسا هذا الموقع ١٨٦٢ الذى سيصبح مركزاً لمستعمرة جيبوتى أو ساحل الصومال الفرنسى،والذى سيبدأ منه الطريق صوب الداخل وهرر والحبشة . ولقد قام بعض الفرنسيين باستكشاف منطقة جنوب الحبشة ابتداء من هذه القاعدة وعملوا على تزويد ملوكها بالأسلحة والذخائر .

كان هذا هو موقف كل المتنافسين وقت تقسيم القارة الافريقية . وكانوا كلهم على خط البدء حينما ظهر منافس غير منتظر هو ليوبولد الثانى ملك البلجيك الذى شعر بأن بلاده لا تكفيه،والذى كانت له روح رجال الأعمال،ويشجع المستكشفين وأصحاب البنوك ومديرى الشركات . ولقد سافر ليوبولد الثانى كثيراً ، وكانت بلاده صناعية وتجارية،فأخذ يحلم بأسواق تجارية كبيرة . وفكر فى إنشاء شركة تجارية فى فرموزا ، وإنشاء مؤسسة فى المغرب ، وفى طلب الفلبين من اسبانيا، كما حاول شراء كناريا : لقد كان ينادي بضرورة حصول بلجيكا على مستعمرات ، ولكنه كان فى واقع الأمر يحاول الحصول على مستعمرات لنفسه لا لبلجيكا .

ولقد استدعى ليوبولد الثانى مؤتمرا دوليا جغرافيا للانعقاد فى بروكسل سنة ١٨٧٦ وجمع فيه معظم مستكشفى القارة الافريقية . وأعلن أن أهدافه إنسانية،وأنه لا يسعى إلا لإدخال الحضارة والمدنية فى أرض افريقية الوسطى .

ونتج عن هذا المؤتمر انشاء الجمعية الافريقية الدولية التى أصبح رئيسا لها ، وأصبح لها علمها الأزرق ذى النجم الذهبى . ولما كان ستانلى قد وصل الى الكونغو بعد أن نجح فى أول عبور لافريقية ، حاول ليوبولد أن يضمه الى الجمعية ، ثم الى لجنة دراسات اعالى الكونغو التى أنشأها سنة ١٨٧٨ للبحث عن أسواق جديدة.وطلب ليوبولد من برازا كذلك أن يتعاون معه ، ولكن هذا الأخير كان يعمل من أجل فرنسا،ولا يرضى بالعمل مع ملك البلجيك . وحاول ليوبولد بعد ذلك أن يستخدم فرديناند ديليسبس ثم غوردون باشا ، الكولونيل الانجليزي .

وتقابلت الأطماع الاستعمارية على جوانب الكونغو . فلقد كان هناك ستانلى الذى كان يبحث عن أقاليم لليوبولد الثانى ، والذى حصل على تنازل من بعض الرؤساء الوطنيين عن سيادتهم نظير بعض الأنسجة والخرز ، وكان هناك برازا والفرنسيون ، كما كان هناك البرتغاليون الذين استندوا الى حقوق تاريخية قديمة ، وكان هناك الانجليز الذين يؤيدون ادعاءات لشبونه ، وكانت هناك الدولة العثمانية التى امتدت أعلامها وأعلام الاسلام ذات الأهلة مع المصريين الى هذه المنطقة . ولكن ليوبولد نجح حينما اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بالعلم الازرق ذى النجمة الذهبية،ودون أن يعرفوا إن كان هذا الاعتراف يؤيد ليوبولد أو ستانلى ، يؤيد مشروعا يحارب الرق أو مشروعا للاستعمار البلجيكى . لقد لعب ليوبولد رسميا البطاقة العالمية ، رغم أنه قد أفهم كل من فرنسا وانجلترا على حدة بأنه يعمل من أجلهما ، وأفهم بسمارك أن حوض الكونغو سيصبح المانيا فى يوم من الأيام .

وانعقد مؤتمر فى برلين لحل المشكلات الافريقية سنة ١٨٨٤ وكان هدفه الرسمي هو « تنظيم أحسن الشروط لتنمية التجارة وازدهار المدنية فى

بعض المناطق الافريقية » أما الهدف الألماني الفرنسي فكان محاولة موازنة التفوق الاستعماري البريطاني في افريقية ، وأما هدف ليوبولد فكان يتلخص في الحصول على اعتراف بدولة الكونغو الحرة ، أي دولته هو . وعمل ليوبولد من وراء الكواليس وانتهى المؤتمر باتفاق الجميع على شروط تقسيم افريقية في فبراير سنة ١٨٨٥ .

لقد اتفقت الدول الأوربية فيما بينها على أن كل دولة متحضرة تحتل جزءا من الساحل وتبلغ ذلك الاحتلال الى غيرها ، لها الحق في ظهير هذا الاقليم الساحلي ، وأن الاحتلال ضروري للاحتفاظ بالحقوق . أما حوض الكونغو فانه تنشأ فيه دولة مستقلة ومحايدة ، ومفتوحة لتجارة كل الدول . وكانت هذه القرارات هزيمة للبرتغال التي لم تترك لها المؤتمر إلا ميناءين صغيرين في شمال الكونغو ، وانتصرت الجمعية البلجيكية ، أو الدولية التي اعترف بها دولة ذات سيادة ، كما انتصر ليوبولد الذى أصبح سيدا مطلقا على الكونغو .

ولم يعد ليوبولد بعد ذلك في حاجة الى الجمعية الدولية ، التي أحرق وثائقها ، ولا الى لجنة الدراسات التي أصبحت غير ذات موضوع . لقد أصبح مسيطرا على اقليم يمتلكه شخصيا ، وفي الوقت الذي حاولت فيه معظم الدول الاستيلاء على الساحل ، أهمل ليوبولد هذا الساحل وتوسع في الداخل وسيطر على مساحة تبلغ عشرين مرة مساحة بلجيكا ، وأخذ في أرسال الحملات وفي كل الاتجاهات ، وضم أوروا وكاتنجا ، وكل المقاطعات التي لم يفكر فيها مؤتمر برلين ، وأنشأ شركات مالية لاستغلال هذه الدولة ، وأقترض ، وأنفق ، واستغل . بدأت الطرق ، وبدأت السكك الحديدية ونشأت ليوبولدفيل وستانليفيل ، وجاء الابنوس والعاج والمطاط . وحاول ليوبولد

أن يكون مثاليا فى استعماره وفى مستعمرته التى أوصى بها فى سنة ١٨٨٩ الى بلجيكا بعد موته ، وحاول أن يضمن لبلجيكا بذلك أسواقا ضرورية لتجارتها ولتصريف مصنوعاتها . وحتى هذه الوصية كانت مناورة سياسية من ليوبولد ، واستخدامها للحصول على قرض بلغ ٢٥ مليون فرنك بلجيكى، لاكمال خط السكة الحديدية فى الداخل حتى الشلالات .

ولقد حاول ليوبولد الحصول على موارد أخرى للانفاق على مشروعاته الكبرى ففرض رسوما جمركية ، وفرض الضرائب على الاهالى ، وأجبرهم على احضار كميات معينة من الأخشاب لموظفى الضرائب . ولقد قامت بريطانيا بفضح جرائم استعمار ليوبولد فى الكونغو وأعمال السخرة واستخدام السياط، وشرحت أنها مشينة للحضارة والمدنية . وأضطر ليوبولد سنة ١٩٠٥ الى قبول تحقيق لجنة دولية فى المظالم وفى مساوىء الحكم فى الكونغو . وقررت هذه اللجنة وجود الظلم والطغيان والاستبداد . ولم يتراجع الملك عن اعطاء الكونغو بدون تأخير الى بلجيكا سنة ١٩٠٦ ، ولكنه قام بعد عامين بانشاء اتحاد مناجم كاتنجا العليا ، وشركة البحيرات العظمى التى شارك فى تمويل كل منهما تاج بلجيكا .

ولقد وافق برلمان بروكسل على الضم وبوثيقة استعمارية تنص على انشاء مجلس برئاسة وزير المستعمرات. ورغم ذلك فان بلجيكا كانت ترهب الكونغو وكانت ترى فى الاستعمار عبئاً ثقيلا.

وكان تقسيم افريقية قد سار ببطء بعد مؤتمر برلين ، وطبقا لمناورات الدول العظمى وأطماعها ، فامتد النفوذ الفرنسى على غينيا وعلى ساحل العاج وداهومى والسودان، واحتل جوفر تمبكتو ، وجانتيل تشاد ، ووصل مارشان إلى النيل حيث تقابل مع كتشنر ، وعبر لامى الصحراء الكبرى . فأصبحت

الأقاليم المنفصلة على الساحل متصلة ببعضها من الداخل، وتحيط بممتلكات الدول الأخرى . وانقسمت إداريا إلى قسمين : افريقية الغربية وعاصمتها داكار ، وافريقية الإستوائية وعاصمتها برازافيل . أما فى مدغشقر فان فرنسا قد أنشأت إحدى القواعد البحرية ، ثم فرضت حمايتهـا على الهوفا ، ثم احتلت تاناناريف و ضمت كل الجزيرة ، وأضافت اليها فيما بعد جزر أخري محيطة بها أهمها جزر القمور .

أما انجلترا فانها حاولت أن تمنع فرنسا من احتلال القارة الأفريقية بين الشرق والغرب ، وسارت هى طبقا لمشروع سيسل رودس لتوحيدافريقية من الشمال إلى الجنوب ، ومن القاهرة إلى رأس الرجاء الصالح ، تحت سيطرتها . وامتدت سلطتها على كينيا وحمايتها على أوغندا وعلى نياسالاند ، ولم يفصل بين هذه الممتلكات إلا الألمان الذين استولوا على تنجانيقا .

وكانت ألمانيا قد شاركت فى هذا التكالب على المستعمرات فى افريقية، ووسعت حدود مستعمراتها وممتلكاتها فى أفريقية الشرقيـة ، وفى توجو والكاميرون وفى افريقية الجنوبية الغربية . ورغم ذلك فان عوامل المناخ فى فى تلك الأقاليم لم تساعد الألمان على التوطن .

أما إيطاليا ، وريثة روما ، فانها لم تكن ترغب فى البقاء بعيدا عن هذه المنافسة . فأنشأت مستعمرة الارتريا على البحر الأحمر عند عصب ، واحتلت جزءا من بلاد الصومال المطلة على المحيط الهندى سنة ١٨٨٥. وحاول كريسبى أن يسيطر على الحبشة ، ولكن الجيش الإيطالى انهـزم أمام قوات النجاشى فى عدوة سنة ١٨٩٦ ، وكانت أول هزيمة للرجال البيض فى افريقية .

ولقد نشأت مشكلات حول تقسيم افريقية ، وكادت مسألة فاشودة أن تصل إلى اصطدام بين الفرنسيين والانجليز، ولكننا نلاحظ أن معظم هـــذه المشكلات بين الدول المتنافسة كانت تسوى عن طريق الاتفاقات أو عن طريق التبادل ، ولو بين حق فتح في منطقة نظير حق فتح في منطقة أخرى . وهكذا نجد أن فرنسا تترك أعالى النيل لانجلترا ، وأن انجلترا تترك لها في نظير ذلك منطقة تشاد ، ونجد أن فرنسا تتنازل عن إدعاءاتهـا في زنزبار ، حينما تتنازل انجلترا عن ادعاءاتها في مدغشقر ، وأن فرنسا تترك لألمانيا إقليما في الكونغو حينما تترك ألمانيا لفرنسا حرية العمل في سلطنة المغرب .

لقد غمر المد الاستعماري كل القارة الافريقية في مدة ربـع قرن ، وأصبحت ثلث مساحة افريقية تخضع لفرنسا وثلثا آخر يخضـع لانجلترا ، أما الباقي فكـان مقسما بين البلجيكيين والألمـان والإيطاليين والبرتغاليين والاسبانيين .

(٢) افريقية الشمالية :ــ

كانت ظروف افريقية الشمالية تختلف عن ظروف افريقية السوداء ، ذلك أنها كانت تواجه أوربا ، وتغريها على المجيء اليها من ناحية ، وكـانت من ناحية أخرى متحدة مع الدولة العثمانية . ولـكن الدولة العثمانية كـانت قد بدأت في الاحتضار، وعجزت عن الاحتفاظ بقوتها الأولى أو عن النهـوض من جديد كما حدث في العالم الغربي . وكانت ميزانيتها مضطربة ، وجنـودها بدون رواتب ، فسرت الفوضى في كل مـــكان . وكان العرب والبربر في افريقية قد بدأوا في تقليل طاعتهم وولائهم لممثلي السلطان حينما حدثت حادثة بين داى الجزائر وفرنسا في عهد شارل العاشر . وبعد ظهور الأطماع الفرنسية في اقليم الجزائر ومعرفتها بأهميته من الناحية الاستراتيجية وأهمية موارده

الاقتصادية،وخصوصا القمح الذى ذاقت طعمه فى عهد نابليون ورفضت دفع ثمنه ، استبدت فرنسا الى ما سمته ضربة المروحة،واتخذت ذلك ذريعة لإعلان الحصار البحرى ثم مهاجمة الجزائر . لقد ادعت فرنسا أنها تحاول القضاء على حركة القرصنة فى شمال افريقية ، ورغم ذلك فان شارل العاشر كان من أنصار العظمة الفرنسية وكانت حكومته ترغب فى توجيه الانظار الى الخارج . ولقدعارض البرلمان ارسال الحملة الى الجزائر،وهاجمت صحف المعارضة المشروع، ولكن سرعان ما استسلم الداى وكذلك البكوات فى وهران وتيترى، و جدت فرنسا نفسها على أبواب اقليم كبير ويلزمها المجهودات والامكانيات للسيطرة عليه . وجاء لوي فيليب وهو لا يعرف ماذا يفعل بالجزائر ، وكان لا يرغب فى الاصطدام بلندن ، ولكنه إذا كان من السهل النزول إلى الجزائر فلم يكن من السهل الخروج منها ، خاصةوأن المستعمرين الذى كان من بينهم عدد من تجار مرسيليا وعدد من العسكريين الذين يعشقون الحرب، طالبوا بالاستمرار فى المغامرة ٠ وظهر بوجو فى هذا الميدان ٠ وحاولت فرنسا أن توفق بين سياسة الاحتلال فى مناطق معينة والتوسع فى كل اتجاه٠ وغيرت فرنسا سياستها فى الجزائر اكثر من مرة، كما غيرت حكامها هناك .

ولقد استمرت عملية الغزو لمدة ثمانية عشر سنة ، خاصة وأن أهداف فرنسا لم تكن محددة ٠ وبدأ بوجو، وهو من أنصار الاحتلال التام، فى تطبيق سياسة الانتقام،حتى يخضع القبائل عن طريق الجوع ، وجند بعض القوات الاحتياطية من الوطنيين ، واستخدم الجنود فى جمع المحصول، وعمل على تحويلهم الى معمرين ٠ ولكن الأمير عبد القادر نادي بالجهاد،وعمل على توحيد صفوف المقاومة التى استمرت مدة طويلة، وساعد فيها أبناء المغرب وبعد صفحات مجيدة من المقاومة أضطر عبد القادر الى الاستسلام للدوق

دومال سنة ١٨٤٧ . وانتهت عملية اخضاع الجزائر بالاستمرار فى العمليات فى منطقة القبائل والتوغل فى منطقة الواحات .

ثم عملت فرنسا بعد ذلك على تنظيم الأقاليم التى احتلتها . فهل تصبح الجزائر مستعمرة توطين كما هو الحال فى استراليا ، أو مستعمرة استغلال كما هو الحال فى الهند ؟ . لم تتمكن فرنسا من اختيار هذا الشكل أو ذلك ، إذ أنها اختارت الشكلين مندمجين معاً . وكان مناخ الجزائر يسمح باقامة الأوربيين، إلا أن الجزائر لم تكن خالية من السكان . وكانت أرض الجزائر تنبت القمح والكروم والموالح ومنتجات زراعية تشبه منتجات فرنسا أكثر من شبهها بمنتجات دول أخرى . واحتارت فرنسا بين اعتبار الجزائر امتداداً أو تكملة لها أو مقاطعة منها ، وبين اعتبارها إحدى الممتلكات فيما وراء البحار وعجزت فرنسا عن حل هذا الاشكال المليء بالمتناقضات .

وجاء المعمرون من كل جهة ، ومن فرنسيين واسبانيين وايطاليين ، وكانت الأراضى تجذبهم الى الجزائر ، وحضروا كعمال وإن كانوا قد فشلوا، ثم كمزارعين تمكنوا من التأقلم ومن العمل . وانتهز عدد من أبناء الالزاس واللورين تغيرات سنة ١٨٧٠ لكى يهربوا ويقيموا فى الجزائر بدلا من من أن يخضعوا للحكم الألمانى . وكانت بعض أوبئة وأمراض النباتات التى تجتاح منطقة جنوب فرنسا تشجع على التوسع فى الزراعة فى الجزائر . وساعدت المدخرات الفرنسية على تمويل سريع لاستغلال الجزائر وعلى ازدهار الاقتصاد بشكل واضح . واشتهرت الجزائر بزراعة الخضروات البكرية فى منطقة متيجة والكلمنتين فى منطقة وهران وبالحديد والفوسفات والطباق وغيرها .

ولكن سياسة فرنسا تجاه الأهالى كانت مترددة ، وكان فى هذا خطر جسيم

وترددت فرنسا بين ضم الجزائر تماما وبين الاحتفاظ لها بشخصية معينة. ولقد قسمت فرنسا الجزائر الى مقاطعات والحقتها فى أول الأمر بوزارة المستعمرات ثم بوزارة الداخلية . وادعى نابليون الثالث أنه امبراطور العـــرب ، فى نفس الوقت الذي كان فيه امبراطوراً على الفرنسين . كما ادعى اعطاءه للجزائريين حقوق الفرنسيين المدنية . ولكن هذا الإدعاء كان على غير أســاس ، إذ لم يكن من السهل على المسلم الجزائرى أن يخضع للقانون المدنى فى الأحـــوال الشخصية دون أن يترك حقـوقه فى قانون الأحوال الشخصية الإسلامى. ولذلك فان المعمرين الفرنسيين تمتعوا وحدهم فعلياً بهذه الحقوق واستمروا فى انتخاب ممثليهم فى برلمان باريس . ولـكن فرنسا أعطت اليهود الجزائريين حقوق الجنسية الفرنسية سنة ١٨٧١ وعمل ذلك على إثارة المسلمين وثورتهم . ثم عملت فرنسا على تنظيم اللجان المالية التى شارك فيها الأهـالى والتى كانت تقرر الضرائب والميزانية فى الجزائر . فهل معنى ذلك أن الجـزائر كـانت تسير صوب الحكم الذاتى ؟ لقد كان كل ذلك مجرد تجــارب ، وظلت السياسة الفرنسية متجهة صوب الضم التام .

ووجدت فرنسا أنه يصعب عليها البقاء فى الجزائر مادامت حدودها تتصل بكل من تونس والمغرب . فبدأت فرنسا بالصحراء فى الجنـوب وتوغل فلارز فيها وفى بلاد الطوارق . واعترفت الحـكومة البريطانيــــة بأن كل الصحارى الممتدة بين ممتلـكات فرنسا على البحر المتوسط ، وبين خط يمر من النيجر إلى تشاد هى ملك لفرنسا فى سنة ١٨٩٠ .

أما من جانب تونس فان فرنسا قد استندت إلى وجود بعض هجمات من رجال القبائل على الحدود وتدخلت فى الولاية . والمهم هـــــو أن الدول الأوربية الأخرى لم تتدخل ضد فرنسا فى هذه العملية . فـكانت ألمانيا فى

عهد بسمارك رغب فى تحويل أنظار فرنسا بعيداً عن الشرق ، وكانت انجلترا ترغب فى الاحتفاظ بحرية العمل فى قبرص ، ولم يكن فى وسع تركيا أن تقاوم ، أما إيطاليا التى كانت قد حصلت فى تونس على امتيازات للسكك الحديدية وعلى مزارع للزيتون . فانها لم تتمكن من سبق فرنسا . وتولى جول فيري العملية ، ووافق الباى فى معاهدة الباردو سنة ١٨٨١ على نوع من الحماية . وأرغى سلطان القسطنطينية وأربد ، ولكن ذلك لم يغير من واقع الأمر شيئاً وجاء موظفون فرنسيون لإدارة تونس .

وأما من ناحية المغرب فان الحوادث قد استمرت على الحدود . وكانت السلطنة الشريفية المغربية قد احتفظت حتى ذلك الوقت باستقلالها حيال الدولة العثمانية وحيال الغرب . وتمكن الاسبانيون وحدهم منذ القرن السادس عشر من الاحتفاظ ببعض المواقع على ساحل البحر المتوسط ، وخاصة فى سبتة ومليلة . ووعدتهم فرنسا بمنطقة نفوذ فى المغرب فوافقوا على ترك حرية العمل لها سنة ١٩٠٤ . أما الانجليز المقيمون فى جبل طارق فانهم قد رفضوا رؤية دولة جديدة فى منطقة المضيق ، فاضطرت فرنسا إلى التساهل معهم فى أمر مصر ، وفى إحدي المواعد فى سنيوفوندلاند حتى تحصل على موافقتهم . أما الايطاليين فان فرنسا قد أعطتهم حرية العمل فى طرابلس . ولكن الألمان قد أظهروا أطماعهم صوب المغرب وكرروا الحوادث وصعب أمر التفاهم معهم ، ورغم ذلك فان فرنسا قد تركت لهم ٢٧٥ ألف كيلو متراً مربعاً فى افريقية الاستوائية تسمح لمستعمرتهم فى الكميرون بالوصول حتى حدود الكنغو ، وذلك فى سنة ١٩١١ .

ولقد اعترف مؤتمر الجزيرة الخضراء المنعقد سنة ١٩٠٦ بحقوق فرنسا واسبانيا فى موانى المغرب فى نفس الوقت الذى أكد فيه سيادة السلطان .

ولكن هذه السيادة لم تكن فعلية ، إذ أن المغرب لم يكن أكثر من منطقة تسودها الفوضى الاقطاعية .

وإمتد النفوذ الفرنسى على الامبراطورية المغربية فى بضع سنوات، وبدأ من وجدة التى احتلها ليوتى سنة ١٩٠٧، ثم إمتد على ميناء الدار البيضاء ، وعلى فاس التى طالب السلطان فيها الحماية سنة ١٩١٢ بعد أن هددته إحدى الثورات. لقد أعلنت فرنسا حمايتها على المغرب وحددت منطقة النفوذ الاسبانى من العرائش إلى الملوية ، واستمر ليوتى المقيم العام فى اخضاع القبائل، وحاول التعاون مع الأهالى [1]

ولقد أنشىء نظام خاص لطنجة التى تتحكم فى منطقة استراتيجية هامة، والتى أصبحت مركزا لمنطقة دولية داخل المنطقة الاسبانية ، واشتركت فى إدارتها كل من اسبانيا وفرنسا وانجلترا وإيطاليا ، وأصبحت مدينة مفتوحة لكل العالم.

أما إيطاليا التى فشلت فى تونس فانها قد حاولت العثور على تعويض فى طرابلس سنة ١٩١٢ . وهكذا أصبحت كل افريقية الشمالية خاضعة للدول الأوربية ، من القاهرة التى خضعت للانجليز حتى موجادور التى خضعت للفرنسيين . ومع نزول الاستعمار الى هذه المناطق بدأت صفحة جديدة من تاريخها ، وإذا كان الاستعمار قد عمل على استغلال افريقية السوداء والبيضاء ، فان افريقية قد أفادت من وجود الأوربين معرفتها لشخصيتها وبدؤها العمل على التحرر من السيطرة الأجنبية .

---

(١) أنظر « المغرب الكبير » للمؤلف — الجزء الثانى — الدار القومية ١٩٦٥ م.

الباب السابع

غروب الاستعمار الأوربى

الفصل العشرون

إنهيار الغرب وفقره

شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين انهيار امبراطوريتين من أكبر الامبراطوريات في العالم وهما الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الألمانية . وتسبب هذا الانهيار عن ظهور الحركات القومية واشتداد ساعدها ومحاولتها الانفصال بنفسها عن الوطن الأم ولقد أثر ذلك على خريطة أوربا ، كما أثر على خريطة العالم كلها،وخاصة مع تسويات الحرب العالمية الأولى . ومع توالى السنوات ظهرت قوى جديدة ، وخاصة فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين . وجاءت الحرب العالمية الثانية لكى تتم إنهيار الامبراطوريات الأوربية وتنزل بدوله التى كانت مراكزاً لامبراطوريات واسعة إلى دول من الدرجة الثانية .

١ ـ انهيار الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الالمانية :ـ

كانت الامبراطورية العثمانية قد بدأت فى التفكك التام مع بداية القرن العشرين ، وأصبح السلطان يختلف تماما عن جده الأكبر سليمان القانونى ، وأصبح الأجانب سادة فى بلاده ، ولا يدفعون الضرائب ولا يخضعون للمحاكم العثمانية . وتمكنت الأقاليم ، الواحد بعد الآخر،من الحصول على استقلالها ، وبعد اليونان جاء دور رومانيا ثم بلغاريا ثم الصرب . وسيطرت النمسا على البوسنه ، كما سيطرت فرنسا على شمال افريقية ، وانجلترا على مصر وإيطاليا على ليبيا وجزر الدوديكانيز . ولقد حاولت جمعية تركيا الفتاة أن تعيد بعث الامبراطورية سنة ١٩٠٨ ، ولكن الوقت كان متأخراً ،وجاءت

حروب البلقان لكي تحرم تركيا من معظم أراضيها الأوربية، إلا شريطاً صغيراً يحيط بالمضايق . وكان لدخول تركيا الحرب الى جانب المانيا أكبر أثر في فقدها بقية ممتلكاتها في العالم الغربي .

أما المانيا فكانت قد نشأت من تجميع عدد من الدول الجرمانية الصغيرة التي حاول ريشيليو أن يحتفظ بها متفرقة . وكان نمو القومية الألمانية يعني انهيار فرنسا ، ونشأ إتحاد جمركي ثم إتحاد سياسي وجمع بين معظم الألمان حول بروسيا . وتمكنت هذه الامبراطورية الشابة من التفرغ لعملية التصنيع، ثم بدأت في الاستعمار ، واعترف لها مؤتمر برلين بمناطق نفوذ تشتمل في افريقية على تنجانيقا ، وافريقية الجنوبية الغربية وتوجو والكميرون التي تمت على حساب افريقية الاستوائية الفرنسية ، كما حصلت المانيا على بعض الجزر في المحيط الهادي . وقد بلغت مساحة المستعمرات الألمانية ما يقرب من مليونين ونصف مليون كيلو متر مربع،وسكنها ما يقرب من ١٢ مليون نسمة . وكانت لألمانيا مصالح اقتصادية هامة في تركيا ، وعلى طريق الهند .

ولقد سقطت كل من الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الألمانية في الحرب العالمية الأولى . ولقد حاولت المانيا أن ترسل حملة صغيرة من جنوب غرب افريقية لتهديد مستعمرة الرأس في سنة ١٩١٦ ، وحاولت جماعات المانية قيادة العرب وارشادهم في مهاجمة بعض المواقع الفرنسية في قلب الصحراء، ولكن الممتلكات الألمانية كانت مفصولة كلها عن أوربا، وانتهت بأن خضعت للاحتلال الانجليزي أو الفرنسي أو البلجيكي أو الياباني . أما على الجبهة التركية فان جيوش « الحلفاء » قد تمكنت من دخول القدس بعد أن تحالفت بريطانيا مع أمراء الصحراء في الجزيرة العربية . ودارت المعارك الفاصلة في شمال فرنسا وأثرت نتيجة هذه المعارك على مستقبل المستعمرات .

وجاءت عملية الصلح ، وأصبح على المهزوم أن يدفع ثمن هزيمته وأن يسلم كل مستعمراته سنة ١٩١٩ . وإذا كانت ألمانيا قد احتفظت بوحدتها فى أوربا فانها قد تركت مستعمراتها فى افريقية وفى المحيط الهادي كما نصت على ذلك المادة ١١٨ من معاهدة فرساى . فأصبحت ألمانيا فجأة دولة داخل حدود القارة الأوربية . وبعد توزيع هذه المستعمرات على المنتصرين وجدوا أنها غيرذات قيمة كبيرة ، ثم اكتشفوا أن حرمان ألمانيا من مستعمراتها قد ساعدها على تركيز مجهوداتها فى الصناعة ، وفى الدول والأقاليم المحيطة بها والتى تسكنها عناصر جرمانية .

أما تركيا فانها قد خسرت أقاليمها العربية ، وأصبحت دولة أناضولية محصورة بين القوقاز وبحر إيجة ، وخسرت بلاد ما بين النهرين وسواحل الشام المطلة على البحر المتوسط ، كما خسرت مصر نهائيا ، وخسرت كل الجزيرة العربية . ولقد فهم الأتراك هذا الدرس القاسى ووجدوا أنه من الضروري ترك الخلافة وأعبائها لكى يتمكنوا من إعادة بناء دولتهم التركية . واحتل كمال أتاتورك مكان آل عثمان ، وأصبحت أنقرة عاصمة بدلا من إستانبول ، وألغت الدولة المدارس الاسلامية والمحاكم الشرعية ، كما ألغت الطرق الصوفية وأقفلت التكايا . وسارت تركيا على سياسة علمانية ، وعلى نهج أوربى ، وكأنها تعطى المثل للدول الأوربية التى تستعمر المناطق الاسلامية . ولكن هذه الدول استمرت فى احتفاظها واحترامها للعادات والمعتقدات الاسلامية ، حتى تتمكن من الحصول على تأييد العناصر التى تسهل لها عملية الاستغلال .

ولم توافق الدول المنتصرة على منح الاستقلال للشعوب التى كانت خاضعة لألمانيا وتركيا ، بل كان عليها أن تغير مستعمر بمستعمر آخر . ومع ذلك فان المستعمرين الجدد قد كتبوا عناوين جديدة لهذه المستعمرات ، وقام

ممثلوا جنوب افريقية التى أصبحت من الممتلكات المستقلة، والولايات المتحدة الأمريكية برفض استخدام الألفاظ الاستعمارية . ورأى الجنرال سمطس ، الذى كان قائدا فى حرب البوير ثم أصبح وزيرا لاتحاد جنوب افريقية ، رأى فى عصبة الأمم التى كانت قد أنشئت حديثا ، الوارث الطبيعى للامبراطوريات المهزومة . وأحضر الرئيس ويلسون مبادىء جديدة فى هذا الموضوع ، فوضعت كلمة الانتداب بدلا من كلمة الاستعمار ، وعلى أساس أنه لن تكون هناك دولة تستبعد دولة أخرى ، بل إن عصبة الأمم هى التى « تنتدب » أحد أعضاءها للسير بالشعوب إلى مرحلة الوصول إلى النضج وحكم أنفسهم بأنفسهم ، وأن تساعد على ازدياد تطورهم ووصولهم إلى الإستقلال . ولذلك فان المستعمرات الألمانية السابقة ، والأقاليم العربية فى الشرق الأوسط والتى أعطيت لعصبة الأمم، قد عهد بها إلى دول يمكنها ، بامكانياتها وتجاربها وموقعها الجغرافى، أن تقوم بهذه المهمة . ولم يؤثر هذا اللعب بالألفاظ على الدول المستعمرة، خاصة وأن العصبة لا تطالبهم بأكثر من تقديم تقرير سنوى إلى لجنة الوصاية، التى كان من المفروض أن تشرف على هذه التجربة . والواقع أن المستعمرين لم يغيروا من طريقتهم ولا من أهدافهم .

ولقد استولت بريطانيا العظمى بهذه الطريقة على جزء من توجو ، وجزء من الكاميرون ، وشرق افريقية التى أكملت الاتصال بين القاهرة ورأس الرجاء الصالح . كما استولت على بعض أجزاء على الامبراطورية العثمانية ، مثل فلسطين التى ستنشىء فيها وطنا قوميا لليهود ، وشرق الأردن ، والعراق التى كان البترول قد ظهر فيها قبيل الحرب .

أما فرنسا فانها قد استولت على بقية توجو وبقية الكاميرون ، وعلى سوريا ولبنان .

وحصل إتحاد جنوب افريقية على انتداب على جنوب غرب افريقيـة الألمانيـة ، كما حصلت استراليا على انتداب على غينية الجديدة وأرخبيل بسمارك وجزر سالمون ، وحصلت زيلنـدا الجديدة على انتداب على جزر ساموا ، واليابان على جزر ماريان ومارشال وكارولين ، والبلجيك على إنتـــداب على رواندا وأوروندى التى تعتبر من أخصب أقاليم تنجانيقـا .

ووضعت عصبة الأمم نظم انتداب مختلفة لهذه المستعمرات،وفصلت بينها على أساس درجة تطورها ، وقسمتها إلى انتداب (ا) ، وهى الأقاليم التى لها درجة من النمو يسمح لها بأن تصل الى مرحلة الأمم المستقلة بعد أن تشرف الدول صاحبة الانتداب عليها ، مثل سوريا ولبنان والعراق . أما مناطق الانتداب (ب) ، فانها مناطق أقل نموا مثل مناطق وسط افريقية . ولقد منعت عصبة الأمم بناء القواعد الحربية فيها وفرضت نظام المساواة فى التعامل التجارى معها . أما المناطق (حـ) فانها الأكثر تخلفا، مثل جنوب غرب افريقية وجزر المحيط الهادى ، ويمكن للدولة صاحبة الانتداب أن تفعل ما يحلو لها فيها .

ولكن هذا التقسيم والتفريق كان صعبا على فهم الدول المستعمرة، وخاصة فى منطقة الشرق الأدنى العربية التى كان أهلها يتمتعون بدرجة من التقـــدم الظاهرة ، وكانت المنافسة بين الأوربيين فيها على أشـــدها . وكان الكولونيـل لورنس يحـلم بامبراطورية عربية خاضعـــه لانجلترا ، ومعنى ذلك الاستمرار فى عمـل الدسائس ضد الاطماع والمصالح الفرنسية . وتمـكن ابن سعود من توحيـد شبه الجزيرة العربية ، كما تمـكنت لندن من

تعيين أحد الأمراء على عرش العراق ، وتعيين أميرا آخر فى عمان . أما اليهود فانهم قد اصطدموا بالعرب فى فلسطين . وأما الفرنسيون فانهم قد واجهوا الأتراك ثم واجهوا الدروز، ودخلوا فى الخصامات الطائفية والدينية .

وهكذا نرى أن ما ورثه الغرب الاستعمارى من الامبراطوريتين العثمانية والالمانية لم يكن سهلا ، بل كان عبئا ثقيلا حملته الدول الاستعمارية على أكتافها .

(٢) ما بين الحربين : —

حاولت أوربا بكل شكل من الأشكال أن تحتفظ تسلطيتها على العالم فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين .

فنجد أن ليوتى قد عمل بين الرؤساء الاقطاعيين وضمن المغرب لفرنسا . وكانت فرنسا تسيطر على امبراطورية تشتمل على مائة مليون نسمة ، وأعطى معرض المستعمرات الذى أقيم فى باريس صورة واضحة لتلك الاراضى والشعوب والامكانيات التى كانت فرنسا تسيطر عليها .

أما البريطانيون فانهم قد استمروا فى السيطرة على امبراطورية أكبر، وتشتمل على عدد أكبر من السكان، وخاصة بعد أضيفت اليها الأراضى والاقاليم الخاضعة للانتداب . وساعدت سياسة تفضيل التعامل مع الامبراطورية على زيادة الرخاء فى انجلترا . وأصبحت المدينة فى لندن هى التى تمول عمليات ما وراء البحار ، كما أصبحت وزارة المستعمرات ووزارة الممتلكات المستقلة ووزارة الهند دعائم التسليطة البريطانية فى هذا العصر .

أما بقية الامبراطوريات الاوربية فلم يكن من السهل تجاهلها . وكان البلجيكيون يستغلون مناجم وموارد الكونغو . كما كان الايطاليون يقومون بتجاربهم فى ليبيا وفى الصومال وفى جزر الدوديكانيز . وأما الاسبانيون فانهم قد حاولوا التشبث بشمال المغرب وبصحراء جنوب المغرب وبأحد المراكز فى خليج غينيا ، وأما البرتغاليون فانهم قد أصروا على أدماج مستعمراتهم فى افريقية وفى الهند . وكان الهولنديون يعيشون فى رخاء من اندونيسيا ومن الهند الغربية ، ومع شركة رويال دتش التى سيطرت على جزء هام من بترول العالم . وأما الامبراطورية الدانماركية فقد امتدت على آيسلاند وجرنيلاند التى منحتها محكمة العدل الدولية فى لاهاى الى الدانمارك بعد تنافسها مع النرويج . وأما النرويج فانها قد مدت نفوذها الى سبتزبرجن .

وكانت الآراء الاستعمارية تعيش وتزدهر فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، وأيدها رجال الاعمال ورجال الصناعة واستندوا إلى انشاء الطرق وانشاء المدن الحديثة فى المغرب أو فى رودس وطرابلس وبنغازى لكى يتغنوا بفوائد الاستعمار ومزاياه . وإذا كان هناك قسم كبير من المفكرين والفلاسفة قد فضحوا الاستعمار ، فان بعض الكتاب قد تغنى بمزاياه فى هذه الفترة . ووصلت كلمة الاستعمار إلى أقصى درجة فى إزدهارها ، رغم أن الزوبعة واليقظة كانت قريبة الحدوث . وعلى أى حال فان الاستعمار لن ينهدم فى هذه الفترة بل ستؤدى العلاقات بين الدول المستعمرة إلى خروج البعض من الميدان وتركه للآخرين ولدول تسلطية جديدة .

وأخذت مظاهر إنهيار الدول الاستعمارية فى الظهور : فقلت نسبة

العناصر الاوربية بين سكان العالم، ونسبة رؤوس الاموال الاوربية فى العالم. ولم تعد أوربا هى أكبر منطقة للانتاج الصناعى على وجه الأرض. وتدهورت قيمة العملات الاوربية بأجمعها، وحتى الجنيه الاسترليني. وكانت هذه المظاهر تبشر بانهيار الغرب وتبشر بتحول أوربا إلى شبه جزيرة ملحقة بآسيا.

ولقد شعرت المستعمرات بهذا التحول، وإنتشرت فيها الثورات، خاصة وأن معاهدات الصلح كانت قد تحدثت عن حقوق القوميات وحقـــوق الاقليات بالنسبة للبولنديين والتشيكيين والمجريين، فلم لا تطبق هذه المبادىء على كل شعوب العالم ؟. وإذا كانت الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الالمانية والامبراطورية النمساوية المجرية قد انهارت وتفككت، فلم لا يطبق هذا المبدأ على الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية ؟.

وكانت ايرلندا هى أولى الدول التى التجأت الى الثورة والعنف سنة ١٩٢١ ونشبت فيها الحرائق وتوقف العمل بالسكك الحديدية وتمكنت من انتزاع نظام الممتلكات المستقلة من انجلترا. ولـكن المقاطعات البروتستانتية فى فى أولستر بقيت انجليزية. ولم يرض الايرلنديون بحل يقوم على تقسيم جزيرتهم وتشويه استقلالهم. ولقد أصبحت لهم حكومة وبرلمان وجيش وعلم، وتحدثوا من جديد بلغتهم الاصلية، ولـكنهم لم يوافقوا على بقـاء قوات انجليزية أو رؤية حاكم إنجليزى، حتى ولو كان وجوده شكليا لا يمثل سوى رباط الولاء للتاج. ولم يعارض الرئيس فاليرا أعمال العنف الا بعد جلاء آخر جندى بريطانى من بلاده سنة ١٩٢٢. ثم تحولت ايرلنده فى سنة ١٩٣٧ إلى جمهورية وقطعت علاقتها بلندن وبالتـاج، وأصبحت دولة مستقلة.

أما الهند فانها كانت قد حصلت من انجلترا على وعود فى سنة ١٩١٧ ، وفى أثناء أزمة الحرب . وكان الهنود المتعلمين على الطريقة الانجليزية يسيطرون على معظم مراكز الادارة ولم تكن حكومة لندن تحتفظ الا بالسيطرة على الجيش والشرطه . وأعطى قانون الهند الصادر فى سنة ١٩١٩ لشبه القارة مجلسين نيابيين ، وعددا من مجالس الأقاليم المنتخبة ، ووزراء يختارون من بين أعضاء هذه المجالس ، ومجلس لأمراء الدول السبع الرئيسية فى الهند . وكانت حكومة لندن تعرف أنها تسير صوب إنشاء حكومة هندية مسئولة ، ولكن بعد عشر سنوات .

وقاوم غاندى ، ذلك المحامى الذى دافع عن قضية بلاده بنضج ، تلك الحضارة التى جاءت لاستعباد بلاده بما تقدمه من آلات وما تعبده من مادة . ولم يكن مثل الايرلنديين يرغب فى العنف ، بل نادى باللاتعاون ، فهجر الهنود المدارس والمحاكم ورفضوا دفع الضرائب وقاطعوا المنسوجات الانجليزية وهم يعلمون أنهم سيجبرون عمال لانكشير الى التحول الى البطالة . وعارض غاندى آلات مانشستر بالانوال البدائية ، كما عارض قوات الامبراطورية ونائب الملك بموقف سلبى وبالاضراب عن الطعام . ومع ذلك فقد تحول موقف عدم استخدام العنف إلى تمرد فى نظر البريطانيين ، وثورة فى نظر الوطنيين .

واضطرت انجلترا الى التنازل تدريجيا وارسلت لجنة للتحقيق ولكتابة تقرير عن الهند ، ثم حولت الهند فى سنة ١٩٣٦ الى اتحاد الجامعة الهندية ، الذى أصبح إحدى الممتلكات المستقلة ، وأصبحت له مجالسه المنتخبة ولكن قراراته كانت تخضع لفيتو نائب الملك . وكانت هذه أول مرة فى التاريخ يحصل فيها ابناء احدى المستعمرات ، من غير الغربيين ، على مركز الممتلكات المستقله . ولكن غاندى استمر فى المطالبة بالاستقلال التام ، ورفض حزب

المؤتمر ، مع نهرو، إنشاء حكومات فى المقاطعات التى يكون الهنود فيها أغلبية ساحقة .

أما فى البلاد العربية فان حكومة لندن قد اضطرت الى التراجع فى سياستها، وبعد أن كانت قد استخدمت العنف ضد مصر ونفت زعماء الوفد اضطرت الى اعطاء الاستقلال للبلاد سنة ١٩٢٢ . وكان هذا الاستقلال مشوها، فاستمرت عمليات الاضراب والتخريب،واضطرت انجلترا الى تقليل نفوذها رغم احتفاظها بحاميات عسكرية . ثم وافقت انجلترا فى سـنة ١٩٣٦ على الاعتراف باستقلال مصر التام،وتعهدت بعدم وضع قواتها الا فى منطقة قناة السويس وسيناء . وتمكنت مصر من الغاء نظام الامتيازات الأجنبية وأصبحت عضوا فى عصبة الأمم .

وكذلك اضطرت بريطانيا الى التنازل عن انتدابها على العراق سنة ١٩٣٢ وعلى شرقى الاردن ، ولكن نظير تحالفهما معها .

وكانت الممتلكات المستقلة حتى ذلك الوقت تعتبر نفسها خاضعة لانجلترا . ولكنها أصبحت منذ سنة ١٩٢٦ تتعامل مع بريطانيا على قدم المساواة . ثم أصبح لهم ، طبقا لقانون وستمنستر سنة ١٩٣١ برلمانات تعادل فى اختصاصاتها مجلس العموم ، وأصبحت لهم إداراتهم وهيئاتهم الدبلوماسية واعلامهم وعملتهم ، وأصبحوا أعضاء فى عصبة الأمم . حقيقة أن الملك ظل يتمتع بالسيادة على الممتلكات الحرة فيما وراء البحار ، ويعين الحكام الذين يوافق عليهم الوزراء المحليين ، ولكن هؤلاء الحكام كانوا بغير سلطة .

وبعد اسم الدومنيون تحولت الامبراطورية البريطانية الى الكومنولث فى سنة ١٩٢٦ ، كمجموعة من الامم البريطانية ، وأصبحت درجة ولاء

الاعضاء مهددة . وإذا كانت زيلانده الجديدة هى أكثرهم ولاءاً ، وأستراليا تتأقلم داخل هذا النظام الجديد ، فان كندا لم تترك فرصة لتوكيد حريتها وللسير صوب أمريكا وكانت، جنوب أفريقيـــة تطالب بالإستقلال التام ، واحتفظت الهند بموقف عدائى تجاه هذا النظام .

وإذا كانت مسألة السيادة دعامة لوحدة الكومنولث فان هناك دعامة مادية أقوى منها كانت هى الرابطة الفعلية بين هـــذه المجموعة من الأمم ، وخاصة أمام الأزمة الإقتصادية التى اجتاحت العالم سنة ١٩٢٩ ، وأمام المنافسة المتزايدة للصناعات الأجنبية، وخاصــــة اليابانية والألمانية . لقد اضطرت مجموعة الأمم البريطانية إلى التضامن حول الجنيه الإسترلينى ، وجاءت إتفاقيات أتاوة سنة ١٩٣١ راسمة لاستراتيجية خاصة تحمى بها الأعضاء ، دون أن تقفل حدود الامبراطورية وجاركها ، وذلك بانشاء كتلة الجنيه الإسترليني التى تدعم العملة الامبراطورية وتصهرها مع الجنيه الانجليزى . وهكذا تحولت هذه الرابطة السياسية الى رابطة إقتصادية ومالية .

أما بقيـــة الدول المستعمرة الأخرى فكانت أقل مرونة من بريطانيا، وحاولت أن تقف فى وجه التطور والثورات . ففى الوقت الذى منحت فيه هولندا نظاما جديدا لاندونيسيا مع برلمان استشارى معظم أعضائه من الوطنيين فى سنة ١٩٢٥ ، قامت فرنسا باتخاذ موقف جامد فى المغرب مع ثوار الريف ، ورفضت فى تونس مطالب حزب الدستور وحزب الأحرار الدستوريين الجديد ، ورفضت استقلال سوريا بدعوى حمايتها للأقليات ، ولم تقم إلا باصلاحات بسيطة فى كل من الجزائر والهند الصينية . أما بلجيكا فانها قد قسمت الكونغو إلى أقاليم ومقاطعات ، واستغلت البرتغال الوطنيين السود فى مستعمراتها .

لقد كانت أوربا تقف موقف الدفاع ولكنها كانت تتقهقر ، وعلى طول الخط . فلقد تمكنت إيران من الغاء الامتيازات الأجنبية وتخلصت من احتكار بريطانيا للبترول . أما الصين فإنها قد أصبحت جمهورية وطالبت بالغاء الإمتيازات والحقوق التي حصل البيض عليها ، وأخذت جموع كبيرة من المهاجرين الصينيين تتوغل في سهول منشوريا وفي آنام وفي الهند الصينية وفي ماليزيا . لقد كانت تستعمر بطريقتها ، وإن كانت هذه الأقاليم ، أو معظمها ، تخضع لاستعمار الأوربيين . وعلى أي حال فإن زيادة سكان آسيا ، وزيادة وتضخم الإقتصاد الأمريكي ، كانا عاملان لهدم السيطرة الأوربية .

(٣) ثلاث امبراطوريات صغيرة :-

حاولت كل من اليابان وايطاليا وألمانيا بناء امبراطوريات جديدة ، وذلك للحصول على المواد الأولية والأسواق اللازمة لمصنوعاتهم .

أما اليابان فقد تضاعف عدد سكانها في نصف قرن ، وحاول اليابانيون الهرب والهجرة من جزرهم . ولكن البلاد الانجلوسكسونية كانت تحدد من الهجرة الصفراء أو تمنعها ، ولم تتمكن طوكيو مع معاهدات الصلح من الحصول على اعتراف بالمساواة بين الأجناس البشرية .

وكان اليابانيون قد انتصروا على الروس ، وشعروا بقوتهم ، وأصبحوا يسيطرون على كوريا . ودفعهم ذلك الى التوسع في الإستعمار على القارة . ولقد شعروا بعد استيلائهم على بعض القواعد الألمانية في المحيط الهادى بالأمن في هذا المحيط . وبدأ اليابانيون بمنشوريا سنة ١٩٣١ والتي كانت تعتبر حتى ذلك الوقت منطقة نفوذ روسي . ثم استمروا في شمال الصين سنة ١٩٣٧

واحتلوا بكين ثم شنغاى ونانكين وكانتون، وسيطروا على كل الواجهة البحرية للصين . ولم يتركوا للحكومة الصينية إلا داخلية البلاد . ولقد جولت اليابان منشوريا إلى منشوكو، ووضعت على رأسها آخر أباطرة الصين قبل إعلان الجمهورية ، ولم يكن فى وسعه رفض أى شىء لليابان . وكذلك الحال فى مقاطعات شمال الصين التى خضعت لحكومات تابعة لليابان .

حقيقة أن هذه الامبراطورية كانت تزود اليابان بالأرز والقمح وحتى الفحم والحديد ، ولكنها كانت مناطق مزدحمة بالسكان ، ولا يمكنها حل كل المشكلات اليابانية، فأصبح على اليابان أن تبحث عن حل فى مكان آخر . ولذلك فان اليابان قد حاولت الافادة من الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤١ خاصة وأن المحيط الهادى كان مفتوحا أمامها . فاستولت على الفلبين من أمريكا، وعلى أندونيسيا من الهولنديين ، وعلى جزء من كبير من الأرخبيل . ونزل اليابانيون فى الهند الصينية الفرنسية فى نفس السنة ،واستولوا على هونج كونج وسنغافورة من انجلترا ، واحتلوا بورما وهددوا الهند واستراليا . وامتدت امبراطورية الشمس المشرقة على سومطره ، وامتدت من نهر آمور إلى بحر المرجان، ووصلت إلى جزر سالمون ومارشال .

ولقد عمل اليابانيون على تنظيم « ممتلكاتهم » . واستعانوا ببعض الأهالى « المتعاونين » لإنشاء إدارة حديثة ، واستغلوا كل ما يلزمهم من أجل الحرب ومن أجل السلم . وأعلنوا أنفسهم محررين المحيط الهادى بعد أن طردوا البيض ، والغربيين والمسيحيين ، الذين كانوا يستغلون الوطنيين منذ قرون طويلة .

أما إيطاليا الفاشستية فانها قد اعتبرت نفسها وريثة عظمة روما . كانوا

يقطعون الرخام، واعتقدوا أن فى امكانهم تقطيع القارات . كانت لهم الدوديكانيز وقسم من الصومال والارتيريا وليبيا ، فأقاموا المعمرين على حدود الرمال وفى الواحات . ولكنهم لم ينسوا الهزيمة التى أذاقها لهم الاثيوبيون ، فصمموا على الانتقام . وحاولوا تجميع ممتلكاتهم فى شرق فريقية ، ومن البحر الأحمر حتى المحيط الهندى . وصمم موسولينى على الاستيلاء على اتيوبيا سنة ١٩٣٥ . وبعد حادثة حدود، توغلت القوات فى بلاد النجاشى ، ملك الملوك هايلاسلاسى . لقد انزعجت أوربا ، وانزعجت عصبة الأمم ، ولكن بأى حق يمكن للندن أن تتدخل ، ولها امبراطورية ، لكى تمنع ايطاليا من الحصول على امبراطورية أخرى ؟ . أنها نفس المشكلة التى توجه بريطانيا صوب اعطاء مصر استقلالها ،واعطاء الهند نظام الممتلكات المستقلة ، حتى تظهر أن عهد الاستعمار قد انتهى . ولكن هذه المظاهر والشكليات لا توقف إيطاليا التى تمكنت قواتها من دخول اديس ابابا . وأعلن الدوتشى مولد الامبراطورية الجديدة ، وأعلن فيكتور امانويل امبراطوراً على الحبشة . وحفر الايطاليون على رخام كنيسة قسطنطين مراحل نمو الامبراطورية الرومانية،ومراحل نمو الامبراطورية الايطالية فى افريقية . وازدانت روما بالاعلام ، واستسلمت عصبة الأمم للمرة الثانية ، بعد أن كانت قد استسلمت أمام اعتداء اليابان على منشوريا .

ولقد عمل الايطاليون كما عمل أجدادهم الرومان،فاستغلوا وبنوا وجملوا واحترموا عادات الأهالى وتقاليدهم ، وإن كان ذلك لمجرد المظهر الفولكلورى، وعينوا نائبا للملك على اتيوبيا . وجاءت سياسة تطبيق العقوبات على ايطاليا لكى تدفعها صوب المانيا وتجعل منها حليفة لها وتشترك معها فى تقسيم الاسلاب . فاستولت ايطاليا على البانيا سنة ١٩٣٩ ، وهى بلاد جبلية وفقيرة. ولكنها

تشتمل على قواعد هامة فى البحر الادرياتى . وأضاف فيكتور امانويل لقب ملك البانيا إلى مجموعة ألقابه. وحينما دخلت ايطاليا الحرب العالمية الثانية ضمت اقليم الكروات الذى عينت له نائبا للملك ، وطالبت بتونس وكورسيكا ونيس وسافوا . وكانت تحلم بأن تجعل من البحر المتوسط بحرا يخضع لروما .

وفى كل هذه العملية لم تستخدم ايطاليا كلمة « الاستعمار » أو كلمة « مستعمرة » ، بل إنها كلها مجرد أقاليم . وربما كان الفاشيست يرغبون فى إعادة النظام الامبراطورى القديم ، بمرونته وشكلياته ، ولكن أحداث الحرب لم تترك لهم الوقت الكافى لتحقيق أحلامهم !

أما المانيا فكانت هى مركز كل هذه العمليات . وكان لها رئيساً لهطابع خاص ، هو هتلر، الذى قدم لها نظرية ونظاما معينا . لقد كان يعتقد فى تفوق الجنس الآرى ، ويعتقد أن الألمان يمثلونه أصدق تمثيل . ونادى بضرورة سيادة هذا الجنس المختار على كل الاجناس الأخرى ، وشرح ذلك فى كتابه « كفاحى » الذى كان يطالب باستخدام العنف وسيلة لتحقيق هذه السيطرة العنصرية .

ولكن هتلر كان يشبه بسمارك فى أنه يفضل الاقاليم الأوربية المضمونة على المغامرات البعيدة . ولما كانت معظم الأماكن والأراضى الواقعة فيما وراء البحار قد توزعت ، فقد كان عليه أن يعمل على القارة الأوربية نفسها . وادعى هتلر أنه يرغب فى عدم الاصدام مع انجلترا ، وأنه لا يرغب فى الاحتكاك بالأجناس غير الأوربية ، وخاصة الزنوج ، وأنصاف القردة ، وأنه يخشى من حدوث تخليط مع دماء هذه الشعوب . ولذلك فانه

بفضل السيطرة على القارة ، وعلى ان تكون هـذه السيطرة طبقا لسياسة عنصرية محددة .

وبدأ هتلر في العمل منذ سنة ١٩٣٨ حتى يتمكن الشبان الألمان من أن يرسموا خريطة دولة عنصرية جديدة، ويوسعوها إلى الأبعاد اللازمة لها . فضم النمسا سنة ١٩٣٩ ، ثم ضم اقليم السوديت ، وابتلع تشيكوسلوفاكيا ، واستولى على ميمل ودانزيج وغزا بولنده واحتل الدانمارك والنرويج وفرنسا ويوجوسلافيا واليونان ، ثم غزا الروسيا سنة ١٩٤١ .

ولكن ألمانيا الاشتراكية القومية أخطأت خطأ كبيرا باحتلالها لأراض غير ألمانية . وكان من السهل على ألمانيا أن تبقى في النمسا والالزاس واللورين ، ولكنها وجدت صعوبة في استعمار بوهيميا ومورافيا ، واضطرت إلى انشاء نظام حماية جمركي ووضعت حاميات لضمان ولاء هذه الأقاليم واعتبر هتلر سلوفاكيا مستقلة تحت سيطرة الرايخ ، وترك لها حق إقامة المعسكرات وتجنيد جيش صغير أما بولندا فقد أصبحت حكومة عامة وأشرفت ألمانيا عليها إشرافا تاما . وأما اوكرانيا فانها قد أصبحت دولة مضمومة والواقع أن ألمانيا قد فرضت نفسها بالارهاب ، وفرضت تعاونا اقتصاديا اجباريا يشبه نظام الاستيلاء ، على كل الأقاليم التي احتلتها .

وعين هتلر رئيس الجستابو ، هيملر رئيسا لعملية الاستعمار ، أو مندوبا عاما لتدعيم النظرية الجرمانية . وكان معنى ذلك نقل جماعات بأكملها من الاهالي ، والقضاء على العناصر المشكوك في ولائها ، وتجميع العناصر الألمانية الموزعة في أقاليم البحر البلطي وفي التيرول الجنوبي وفي بولنـدا وبساربيا . وقامت شركة إعادة توزيع الألمان بتجميع المعمرين ، وبمئات الآلاف ، وفي

معسكرات خاصة، مثل لودز، حيث يصورون ويفحصون ويقاسون ويكشف عليهم طبيا ، ويخضعون لبعض الاختبارات والامتحانات ، ثم يزودوا بشهادات طبية ووراثية وسياسية . وكانت العناصر الألمانية تحصل على مساحات من الأراضي الزراعية، وخصوصاً في الشرق وهكذا أخذ هتلر في بناء هذه الدولة الألمانية الحديثة ، وبالشكل الذى اقترحه في كتابه « كفاحي » .

ويمكننا أن نتصور ، في حالة نجاح هذه السياسة ، مجموعات متتالية من الأمم ، مصنفة حسب درجة نقائها العنصري . ويمكننا أن نجد على رأسها الدول الألمانية الحقيقية، من فينيا إلى لوبيك ، ثم منطقة ثانية من أقاليم تعتبر شبه جرمانية ، مثل هولندا وأراضي الفلمنكيين والالزاس واللورين وبورجاندي ونورماندي ، إذ أنه اعتبر الأولى من أملاك الامبراطورية ، والثانية من سلالة الفايكنج ، ثم أراضي الشرق المستعمرة واسكندينافيا . أما المنطقة الثالثة فتشتمل على الدول التي تسكنها أجناس أقل سموا، وتشتمل على السلاف واللاتين، ومن الضروري أن تبقى خاضعة . وأما المنطقة الرابعة فتشتمل على القارة الافريقية ، وهي القارة التي ضمها الجغرافيون الى أوربا لكي يسمحوا لألمانيا باستغلالها . أما بقية العالم القديم فيمكن لألمانيا أن تتركه لحلفائها ، فتترك حوض البحر المتوسط إلى ايطاليا والشرق لليابان . أما أمريكا فان ألمانيا كانت ترسم أمر فرض سيطرتها الجرمانية عليها بدون أدنى شك .

وكانت لهتلر أطماعا كبيرة في المكسيك وفي البرازيل التي كان يرغب في إخراج العناصر اللاتينية منها ويرغب في تحويلها الى نظرية الاشتراكية القومية . وفكر هتلر كذلك في الولايات المتحدة الأمريكية ، وفكر في تحويلهم إلى الحضارة الجرمانية ، وتحويلهم إلى النظام النازى قبل أن يسمح بدخولهم في الرايخ الأعظم . وكان الفوهور يحلم بغينيا الجديدة

وباندونيسيا ، وعلى أساس ابعاد اليابان عنها صوب القارة الآسيوية . ولكن كل هذه الخطة بقيت فى عقله ، ووقفت انجلترا أمامه موقفا ثابتا ، وتعاونت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والروسيا فى الهجوم المضاد عليه . وقامت ثورة فى روما ، ووقعت حادثة انتحار فى مقر حكومة الرايخ، والقت أمريكا قنبلة ذرية على هيروشيما ، وانتهت بذلك تلك الامبراطوريات الثلاث الصغيرة .

(٤) تحرر الغرب وفقره :ـ

لقد عاد كل شيء الى نصابه، أو بدا على أنه قد عاد إلى نصابه فى سنة ١٩٤٥ . ففقدت الامبراطوريات المهزومة ما كانت قد غزته ، واضطرت المانيا إلى الجلاء من البلاد التى أخضعتها ، وجردت ايطاليا من ممتلكاتها الافريقية ، وعاد النجاشى واعتلى عرش إثيوبيا ، وفقدت اليابان كل ملحقاتها فى آسيا والمحيط الهادى ، وحتى فرموزا عادت الى الصين ، أما كوريا فانها قد استقلت وقسمت نصفين كما حدث فى ألمانيا . وانتهى حلم المانيا لاستعباد العالم وحلم موسولينى لبعث امبراطورية روما وحلم اليابان لاستعمار الشرق الأقصى . واضطرت « الدول الكادحة » التى حاولت الاستيلاء على ممتلكات الأغنياء إلى العودة الى كدحها من جديد .

ولكن بعض الدول الغنية كانت قد أنهكت وتحطمت من الحرب والحصار والاحتلال التى أثرت على مراكز الانتاج وحطمتها ، وأثرت على الصلات التجارية وقطعتها ، وعلى العملاء الذين أصبح من الضرورى اعادة إخضاعهم ، وأثرت على النشاط المصرفى ، وعلى العملة التى انهارت ، وأثرت على البشر وعلى المادة ، بتلك الأعداد من القتلى وتلك المصانع المحطمة . وبعد أن كانت

انجلترا وفرنسا أكبر مركزين لتمويل العالم أصبحوا من المدينين . وبعد أن كانت لندن توزع رؤوس الأموال على امبراطوريتها أصبحت تطلب المعونة والسلفيات من الممتلكات المستقلة ، وخضعت لالتزامات ثقيلة تجاه كل دول الكومنولث، وخاصة تجاه الهند . لقد انقلبت الاوضاع ، ورأسا على عقب . أما باريس فانها قد اضطرت من جانبها إلى خفض قيمة الفرنك مرات متتالية،حتى انفصل الفرنك الفرنسي عن فرنك افريقية السوداء وعن فرنك جيبوتى ، وأصبح من الصعب إعادة التوازن بينهم .

وقلت قيمة أوربا بالنسبة للعالم ، وذلك بالنسبة لسكانها ، وبالنسبة لصناعتها وتجارتها ، وأصبح الميزان التجارى فى غير صالح أوربا ،واضطرت أمريكا إلى تمويل العمليات الأوربية .

لقد فقدت أوربا نفوذها ، ورأى الوطنيون فى المستعمرات أن الشعوب البيضاء تتحارب فيما بينها ، ورأوا هزيمة تلك الشعوب التى تستعمرها ، سواء أكان ذلك على أيدى شعوب بيضاء أخرى،أو شعوب صفراء .

وكان الوطنيون قد شاركوا فى هذه العمليات ، وتعلموا استخدام الأسلحة الحديثة ، وتعلموا تنظيم عمليات المقاومة فى المناطق المحتلة ،وقطع المواصلات وأعمال التخريب . لقد تعلموا حرب العصابات ورأوا أن الغرب نفسه يرفع رجال المقاومة إلى مرتبة الأبطال، ويعلم ضرورة مقاومة المحتلين الأجانب . فكيف يمكننا بعد ذلك بأن نفاجأ حينما تثمر هذه الدروس فى جاوة وتونكين والهند وفلسطين وشمال افريقية ؟ إنها المقاومة ، إنها التحرير . لقد مرت هذه الكلمات من لغة الاوربين الى لغة الوطنيين .

ولقد ساعد التقدم الفنى على انتشار الآراء وانتشار الرجال والمصنوعات فى نفس الوقت. لقد انتشرت الطرق وعربات النقل والطائرات وأجهزة اللاسلكى ، بدلا من وسائل النقل والاتصال القديمة . ولقد استمرت أجهزة الراديو تنادى بالتحرر والتحرير مدة طويلة . وشعر الوطنى أنه رغم فقره يمتلك أرضا غنية ، وأن الأوربى قد جاء لكى يسرق ما تشتمل عليه هذه الأرض من حديد وقصدير وبترول . وتجمعت بذلك الأسباب والعوامل لثورته . وإذا كان المستعمر يرفض تصنيع المستعمرات، فمعنى ذلك أنه يرغب فى الاحتفاظ بها خاضعة اقتصاديا ، وإذا عمل على تصنيعها فانه يجمع آلاف من العمال فى ضواحى فقيرة وفى حالة بؤس واضحة . وإذا فتح المستعمر المدارس فانه يكون طبقة تحاول الوصول الى الحكم والاستقلال ، وإذا أهمل التعليم فانه سيتهم بالعمل على الاحتفاظ بالوطنيين فى الجهل ، وإذا أبعد المستعمر المثقفين الوطنيين فانه يصبح متحكما ، واذا أعطاهم المسئوليات فانه يقضى على حكمه .

لقد تغيرت عقلية الوطنيين ، فى نفس الوقت الذي تغير فيه المستعمرون ولم يصبحوا غزاة ولا حملة لمشعل الحضارة والمدنية . لقد تحول المستعمرون إلى مجرد موظفين يفكرون فى مستقبلهم ، أو مجرد مستغلين منشغلين بالانتاج . ونظر الوطنى اليهم على أنهم من المنتهزين وأصحاب الامتيازات . ومهما بنى المستعمر من المستشفيات والمدارس والطرق وادخل الوسائل الصحية ونشر التعليم فان هوة سحيقة قد اتسعت بينه وبين الوطنيين . أنه الاحتقار أو عدم الثقة والحقد من هذا الجانب أو ذلك .

ولقد أعطى المستعمرون عدداً من الوعود فى أثناء الحرب ، حتى يضمنوا ولاء الشعوب لهم . فتعهدت انجلترا وقت الهجوم اليابانى على آسيا سنة ١٩٤٢

تجاه الهند بأعطائها الاستقلال التام . أما فرنسا المنقسمة على نفسها بين أعوان الهدنة وأنصـــار الحرب والتحرير فانها قد اضطرت إلى مراجعة سياستها الاستعمارية . وانضمت مواقع كل من تشاد والكاميرون وكاليدونيا الجديدة سنة ١٩٤٠ ثم سوريا ومدغشقر وريونيـــون وجيبوتي وشمال افريقية، بعد الاحتلال الامريكي سنة ١٩٤٢ وافريقية الغربية الفرنسية إلى الجنرال ديجول . ولم تبق إلا الهنـــد الصينية خاضعة لحكومة فيشي وتحت اشراف اليابان . ورأت مدينة الجزائر نفسها عاصمة لفرنسا الحرة . وظهر من الضروري إرضاء العناصر الوطنية، ووضع نظام للأعيان المثقفين في افريقية الاستوائية الفرنسية والسماح للمسلمين الجزائريين بالاشتراك في انتخـــابات المجالس الجزائرية . واجتمع مؤتمر من افريقية الفرنسية في برازافيل سنة ١٩٤٤ وأوصى بضرورة التوسع في تمثيل المستعمرات في المجالس المقبلة ، وانشاء برلمان فيـــدرالي ونظام جديد للعمل وللانشاء والتعمير . والحقيقة أن قرارات برازافيل كانت تعمل على تدعيم الصلات بين فرنسا والمستعمرات، وكانت ترفض انشاء حكومات مستقلة، وتصر على فكرة الامبراطورية الواحدة . ولـكن الرأي العـــام شعر بازدياد أهمية المستعمرات الفرنسية ، وعلى حساب فرنسا ، وشعر بأن العلاقات بين الطرفين قد تغيرت. وبدأت فرنسا بعد المؤتمر ببعض الاصلاحات مثل الغاء الاعمال الشاقة في افريقية السوداء ومشروع التعليم ، وانشاء مجلس تمثيـــلي في مدغشقر ، وأشعرت هذه الاصلاحات نفسها العـــالم بوجود مشكلات لم يكن يجهلها ، وبدأ في الشعـــور بتفاصيلها ، وبدأ الوطني يفكر في طريقة حلها .

ولقد قامت الدول التجارية الغربية بنشر مبادىء تنص على ضرورة تحرير الشعوب. وكان الرئيس ويلسون قد أعلن في أثناء الحرب العالمية الاولى حقوق الشعوب في حكم نفسها بنفسها . ونصت نقط الرئيس ويلسون الاربعة عشر على

ضرورة تسوية المشكلات الاستعمارية بروح متحررة،وطبقـا لرغبات الأهالى .
وتفاوضت أمريكا وانجلترا والممتلكات المستقلة سويا بعد ثلاث وعشرين سنة من اعلان الرئيس ويلسون سنة ١٩١٨ ، وعقدت بينها وثيقـة الاطلنطى التى نصت على حق كل شعب فى اختيـار شكل الحكومات التى يرغب فى المعيشة فى ظلها ، ورفضت كل توسع اقليمى،وكل طموح استعمارى من جانب الدول المتحررة أو الدول المتحكمة . وكان ذلك فى سنة ١٩٤١ .

واجتمع المنتصـرون فى سان فرانسيسكو سنة ١٩٤٥ وكتبوا وثيقة جديدة وقعت عليها خمسون دولة ،وأصبحت صكا للأمم المتحدة . وأوصت الماده الخامسة والخمسين منه ، مع توصيتها على ضرورة رفـع مستوى المعيشة والتعـاون الدولى،على الاحترام العالمى والفعلى لحقـوق الإنسان،والحريات الاساسية للجميـع،دون تفرقة بين الاجناس أو العناصر أو اللغات أو الديانات. وذكرت المادة ٧٣ أن أعضاء الامم المتحـدة الذين لهم أو الذين يكلفون بمسئولية ادارة الاقاليم التى لا يحكم أهلها أنفسهم بأنفسهم ،يعترفون بمبدأ أولوية مصالح سكان هذه ، الاقاليم ويتعهدون بمساعدتهم على تنميـة نظمهم السياسية تدريجيـا، وفقاً للامال المشروعة لهذه الشعوب . ولم تزد هـذه النصوص عن مجرد الفاظ لا تشتمل على تحديد، أو فترة معينة للتنفيذ، أو عقوبة لمن لا ينفذها ، ولـكنها كانت دعائم لنمو الروح الوطنية والقـومية فى كل مكان .

ولقد وجدت نظرية الامم المتـحدة ميدانين لتطبيقهـا ، الاول هو المستعمرات السابقة للدول المهزومة ، والذى بقى تحت نظام الانتداب الذى ورثته الامم المتحدة عن عصبة الامم، والذى امتد نظريا على كل الاقاليم التى حاولت الدول الاوربية السيطرة عليها ، فأضيفت الممتلكات التى أخذت من

اليابان والتى أخذت من ايطاليا الى تلك التى كانت قد أخذت من المانيا أو تركيا فى الحرب العالمية الاولى ، فيما عدا الصومال، الذي عهد به الى وصاية روما .

وأشرف مجلس الوصاية على هذه العمليات، وشاركت فيه بعض الدول الوصية وبعض الدول غير الوصية . وساعدت هذه الطريقة على تحول بعض الدول غير المستعمرة الى دول تحاول التدخل فى شئون مستعمرات الاخرين .

والواقع أن الامم المتحدة قد تحولت سريعا الى منظمة معادية للاستعمار، وذلك لأن الدول غير المستعمرة ، والدول الحديثة الاستقلال أصبحت تشكل غالبيتها العظمى . وكان من بين أول أعمالها التصويت على اعلان حقوق الانسان فى سنة ١٩٤٨ والذى بنت عليه الهيئة العامة ضرورة البحث عن الطرق والوسائل اللازمة لضمان حقوق الشعوب والامم فى تولى أمورها بنفسها سنة ١٩٥٠ ، وحددت طريقة الاستفتاء وزادت من لجان الدراسة والتحقيق فى البلاد المتخلفة والنامية، وطالبت بالاشراف على مجموع المستعمرات سنة ١٩٥٢.

وهكذا ظهرت فلسفة جديدة معادية للاستعمار فى القرن العشرين ، تشبه فلسفة القرن الثالث عشر ، وتختلف عنها فى نفس الوقت .

الفصل الحادى والعشرون

حركات الكفاح الوطنى والتحرر

بعد أن تغنى العالم بالاستعمار فى القرن التاسع عشر جاء القرن العشرين لكى ترتفع فيه الأصوات بمعاداة الاستعمار، والكفاح ضد الاستعمار. لقد ظهر الاستعمار على أنه إخضاع شعوب بغير حق. واستغلال قوى لشعوب أخرى دون موافقتها، أو التفكير فى حاجاتها. واذا كان الناس قد تغنوا فى أثناء القرن التاسع عشر بثمار الاستعمار ومحاسنه، فانهم قد بدأوا يتحدثون عن تأخيره وتعطيله للنمو والإزدهار الاقتصادي فى القرن العشرين. ولقد اشتدت قوة الحركة المعادية للاستعمار بشكل أثر فى الدول الاستعمارية نفسها وجعلهم يتساءلون عن واجبهم ويعترفون بجرمهم، ويوافقون أنفسهم على إنهاء الإستعمار.

(١) حركة الكفاح ضد الاستعمار :-

تختلف الأسباب المؤدية إلى الكفاح ضد الإستعمار من أقليم لأقليم، ومن قارة لقارة، وإن كانت كلها ترجع إلى أسباب واحدة وبسيطة فى حد نفسها. فترجع أولى الأسباب إلى المساواة التى اعترفت بها كل الديانات السماوية، والى الاخاء التى نادت به، كما ترجع الى مبادىء المساواة التى أعلنتها الثورة الفرنسية والتى أعلنتها التقاليد الأنجلوسكسونية، وترجع الى الماركسية التى تعتبر أن الإستعمار يعتبر تعبير عن مرحلة رأسمالية، كما يقول ماركس، ويمثل مرحلة عليا، بل أعلى مراحل الرأسمالية، على حد تعبير لينين. وإذا

كان المؤتمر العالمى الشيوعى الأول قد ظهر وكأنه يؤجل مسـألة تحرير المستعمرات ، ويشرطها بمسألة تحرير البروليتاريا الغربية ، فان المؤتمر الثانى ، والذى خابت آماله لبطء نشوب الثورات فى أوربا ، قد نادى على شعوب المستعمرات أن يهبوا للثورة . ولقد حدد لينين موقفه من مشكلة الإستعمار قائلا :

« يجب على الحزب الشيوعى أن يضع أمامه . . . مسـألة التفريق الواضح بين الامم المهضومة المستغلة ورغم كذب الديموقراطية البورجوازية التى تخفى العبودية الإستعمارية والمالية لغالبية الشعوب العظمى فى العالم ولصـالح أقلية صغيرة من الدول الإستعمارية المتقدمة . » ثم نادى بضرورة تعضيد « جميع حركات التحرر الوطنى فى المستعمرات » . ووضع لينين تـكتيكا خاصاً يتلخص فى أن تقدم كل الأحزاب الشيوعية معونتها المباشرة للحركات الثوريةوللامم الخـاضعة أو المهضومة الحقوق ، مثل أيرلندة وزنوج أمريـكا . . . وللمستعمرات . ويحتم ذلك على الوطنيين أن يتحالفوا مع الشيوعيين حتى تؤدى تحرير الشعوب المستعمرة إلى انهيار النظام الرأسمالى . وأكد سـتالين فى دراسته عن « الماركسية ومشكلة الاستعمار » ان ثورة اكتوبر قد بدأت عهداً جديداً هو عهد ثورات المستعمرات ، وفى البلاد المهضومة الحق فى العالم ، وفى تحالف مع البروليتاريا ، وتحت إشراف البروليتاريا .

ولقد شارك الـكتاب فى هذا الهجوم على الاستعمار ، كما حدث فى القرن الثامن عشر ، وشارك فى ذلك رامبو ، وجى دى هوباسان الذى ذكر أنه إذا ما كان هو الحـكومة ، لوضع كل المستعمرات من السنغال وجابون وتونس والهند الصينية فى حقيبـة ، وذهب لمقـابلة بسمارك وأعطاها له بأكملها وبكل تشكيلاتها ، وبما فيهـا من عرب وزنوج وهنود وصينيين ، وان

كان ذلك فى نظير بضعة كيلو مترات مربعة من الالزاس ومن اللورين . إن هذا الاحتقار للمستعمرات يستمر فى احتقار أندريه جيد للمستعمرين كما يظهر فى كتابه عن « رحلة إلى الكونغو » ، واحتقار ويلز لكل المستعمرين .

ولقد هاجم الكتاب حركة الاستعمار وتقدوها ، وحتى جبريل هانوتو الذى كان أول وزير للمستعمرات الفرنسية ، والذى كتب مجموعة تاريخ هذه المستعمرات ، قد نادى باستقلال المستعمرات الاسبانية وأشاد بالمبادىء الثورية ، دون أن يري فى ذلك حكما على المستعمرات الفرنسية . وكم من كاتب وجد أن اللورين أصلح لفرنسا من كندا ، وأن فرنسا قد أنشأت امبراطورية استعمارية كبيرة دون فائدة ، وتساءل عما إذا كان من الحكمة لدولة تحتاج إلى الدفاع عن حدودها مثل فرنسا ، الاحتفاظ بامبراطورية استعمارية واسعة. ورغم ذلك فان المعمرين والمستعمرين لم يروا خطورة هذا التطور الفكرى ، ولم يقدروه حق قدره . ومرت حركات الكفاح ضد الاستعمار من الرجال النظريين الى الرجال العمليين الذين أخذوا فى التنظيم وتقدموا بالمطالب . ووقف غاندى فى آسيا يواجه بالحكمه الشرقية جنون المادية الغربية . ولقد اعتقدت لندن فى ضرورة وضع خطة المعونة الاقتصادية لمواجهة موجة التحرر الاسيوى ، فجاء مشروع كولومبو ، والذي مولته انجلترا والدومنيون سنة ١٩٥٠ يهدف تحسين أحوال المعيشة فى الهند وفى بورما وسيام ومالنزيا واندونيسيا . وكان فى وسع المعونات المادية أن تؤثر فى حركة فكرية . وجاءت باندونج سنة ١٩٥٥ رداً على مشروع كولومبو ، واجتمع مندوبوا تسع وعشرين أمة فى احدى مدن جاوة ، وأكدوا حقوق الشعوب ونادوا بالكفاح ضدالاستعمار . وإذا كان أعضاء المؤتمر منقسمين على أنفسهم فى مسائل شتى ، الا أنهم قد أجمعوا ضد أوربا وضدالاستعمار .

ومن آسيا مرت الحمى إلى افريقية . وكان عدد من الأفارقة قد شارك فى

باندونج مثل مصر وليبيا والسودان واتيوبيا وليبريا وغانا ، وشـــاركوا فى مهاجمة الاستعمار وتكتيل المجهود للـــكفاح ضد الاستعمار.

وظهر الاسلام ، وبلاد الإسلام على أنها أكبر قوة تحارب الاســـتعمار والتسلطية ، خاصة وأنه دين ينتشر بين شعوب تمتد بلادها من الهنـــد الى المغرب ، ومن السودان الى جزر التوابل . ويشعر المسلمون بترابطهم فيما بينهم بل وبشخصية خاصة بهم ضد المستعمرين . ونمت حركة الكفاح ضد الاستعمار فى كل مكان ، وقام المفكرون فى البلاد المستعمرة بفضح سوء أحوالهم الاجتماعية أمام الجماهير وشرح معرفتهم بأسباب هذا التدهور الاجتماعى . ولقد فضحوا ما تقاسية الشعوب من سوء التغذية ومن ضغط السكان ، وكان تحسن الأحـوال الصحية وتزايد الأفواه يعمل على زيادة الحاجات دون التمكن من زيادة الإنتاج .

وبدلا من أن تتعاون الدول البيضاء أمام نمو هذه الروح الوطنية ، أخذوا فى إضعاف كل منهم للآخرين . لقد قامت الروسيا بهز الدول الرأسمالية حين استندت الى آمال الوطنيين فى المستعمرات ، وأخذ الغربيون فى الدس كل منهم للآخرين . فتنافس الفرنسيون والاسبانيون فى المغرب ، ورفض الانجليز إعادة ليبيا لإيطاليا ، بعد أن كانوا قد قاموا فى عهد لورانس بمحاولة توجيه حركة القومية العربية ضد فرنســـا . فاستمرت المخـــاصمات والمشاحنات والمنازعات الاستعمارية . وانتهى الأمر بانجلترا بمعرفة ضرورة تضامن الدول الاستعمارية ضد كل المستعمرات .

أما موقف أمريكا فانه كان يثير دهشة الأوربيين أكثر من ذلك ، خاصة وأن روزفلت قد عمل ضد فرنسا فى المغرب ، كما ساعدت الولايات المتحدة على إخراج هولندا من أندونيسيا ، وفرنسا من الهند الصينية ، وانجلترا من الشرق الأدنى ، وقامت أمريكا بعد ذلك بالادعاء بأن باندونج هى طريق التقدم الطبيعى .

لقد وجدت أوربا فى هذه السياسة كل المتناقضات ، فكيف يمكن لأمة قضت على الهنـــود الحمـر وأخضعت الزنوج ، واشـترت تـكساس واستعمـرت الألسكا وهاواى وبنما وبورتوريكو أن تقف ضـــد حلفائهـا الغربيين ؟

وكيف يمـكن لأمة ولدت من المعمرين البيض أن تخلط بين حالتها وحالة المستعمرات التى يحاول الوطنيون فيها طرد المعمرين البيض ؟ .

ولـكن أمريكا تجيب بأنها قد منحت حقوق المواطنين للهنود الحمر والزنوج ، حتى ولو كان ذلك من الناحية النظرية ، وأنها قد حررت بعض ممتلـكاتها الخارجية مثل كوبا والفلبين بعد أن تقدمت ونمت هـــذه الأقاليم ، وأن من حق أمريكا المتحررة أن تقف موقفا معاديا للاستعمار ، وأنه من واجبها أن تعين الشعوب المتحررة ، والتى ترغب فى التحرر ، حتى يمكنها أن تتحالف معها ضد الروسيا ، وتحصل على تأييدها فى الأمم المتحـدة ، وتحصل على ميزات إستراتيجية واقتصادية ومعدنية وبتروليـة فى أقاليمها . والأدهى من ذلك هو أن أمريكا تدعى بأنها لا تفعل كل ذلك الا من أجل الغرب ، ومصلحة الغرب .

وبعد مذهب مونرو ، ونقط الرئيس ويلسون ، جاء روزفلت وأعلن أن سياسته معادية للاستعمار ، وحاول أن يمنع عودة المستعمرات الفرنسية إلى فرنسا بعد الحرب ، خاصة وأن فرنسا مرت فى ظروف صعبـة ، كما حاول إبعاد بريطانيا عن بعض مناطق نفوذها .

وهـكذا تعاونت مواقف لينين وغاندى وروزفلت ضـد الإستعمار . ولم تـكن القوة الحقيقية لهذه الحركة تكمن فى المادية الجـدلية ولا فى الوسائل الإستعمارية ، ولـكنها كانت متبادلة بين نمو الوعى فى المستعمرات ، وسيادة الضعف فى أوربا .

(٢) تحرر آسيا :—

لقد امتدت حركات التحرر فى آسيا التى أعطت اليابان فيهـــا مثلا واضحا لليقظة ، والتى قاومت الثورات الصينية والتركيـــة فيها محاولات التوغل الإستعمارى .

وكانت الصين هى أول من حقق انتصارات واضحـة فى تحرير آسيا . وتمكنت حكومة شان كاى شيك ، فى أثناء الحرب من مقـاومة الغـــزاة اليابانيين ، وتنازل الانجليز والفرنسيون عن ممتلـكاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها هناك فى أثناء القرن التاسع عشر ووعدوا بتسليمهـــا للصين بمجرد نهاية الحرب العالمية الثانيـــة . ولقد تمكنت الصين من استعـادة فرموزا ومنشوريا،ولم تترك لروسيا الا حق استخدام بورت آرثر . ولقـد تمكنت قوات الشيوعيين الصينيين بقيادة ماوتسى تونج من هزيمـــة شان كاى شيك، وأقامت الصين الجديدة ابتـــداء من سنة ١٩٤٩ ، تلك الصين التى طردت الغرب من أراضيها . ولم تسمح الصين الشعبية إلا بمركزين تجاريين عند مصب نهر كانتون وببقـاء البريطانيين فى هـــونج كونج ، وهى مستعمرة للتـاج البريطانى ، والبرتغاليين فى ما كاو . وانتهى عصر التفـــوق الأوربى هناك .

ونجحت أندونيسيا فى التحرر كذلك من هولندا ، خاصة وأن هولنـدا كانت قد خضعت للغزو الألمانى ، وخضعت أندونيسيا للغزو اليـابانى سنة ١٩٤٢ ، ذلك الغزو الذى أشرف على حكومة سوكارنو الوطنيـة ، دون أن يترك لها سلطات كبيرة . وحينما جلا اليابانيون عن أندونيسيا فى سنة ١٩٤٥ تركوا الوطنيين فى أماكنهم ، مع كميات كبيرة من الأسلحة ، ومع شعور

بأنه لا يمكن للبيض إعادة حكم الآسيويين . ولكن الهولنديين حاولوا استعادة باتافيا بمجرد خروجهم من الاحتلال الألماني ، والتي كان الوطنيون قد حولوها إلى جاكرتا . ونجح الهولنديون في إبعاد رجال سوكارنو الوطنيين الذين أعلنوا الاستقلال ، ولكن وسائل الهولنديين لم تكن تسمح لهم بالانتصار على الثوار . ورفضت أمريكا معاونة هولندا ثم فرضت حلا وسطا في سنة ١٩٤٩ ، فاضطرت امستردام إلى القبول، واعترفت باستقلال اندونيسيا وسيادتها سنة ١٩٥٠ . ورغم ذلك فقد ظلت الاتجاهات المتضاربة داخل اندونيسيا المستقلة، من صراع بين عناصر إشتراكية وشيوعية وعناصر إسلامية ، هذا علاوة على بعض القوى والعصابات غير الخاضعة في سومطرة وملقه . كما أن هولندا لم توافق على ترك إيريان الغربية ، وظلت هذه المشكلات تهدد الجمهورية الاندونيسية ، وتجبرها على محاولة إقامة توازن بينها .

أما بالنسبة لمشكلة الهند فان بريطانيا لم تكن تقوى أو ترضى عن التراجع في الوعود التي قطعتها على نفسها زمن الحرب أمام المطالب الهندية الوطنية. وبعد سلسلة من عمليات التنازل المستمرة توقع الكثيرون رؤية الهند مستقلة . إلا أن بريطانيا ادعت أنه يصعب عليها ترك شعبين أو جنسين مختلفين يتحاربان ، ويمثلهما مائة مليون من المسلمين وثلثمائة مليون من الهندوس . وقررت نتيجة لذلك ضرورة تقسيم الهند الى دولتين ، الهندستان البرهمانية والباكستان الاسلامية ، وحتى هذه الأخيرة كانت منقسمة في في أراضيها الى إقليمين . وترك اللورد مونتباتن ، نائب الملك ، الهند في سنة ١٩٤٧ ، مع القوات البريطانية . وتلى ذلك عودة نظم الطوائف وضم بعض الامارات السلطة المركزية ونقل بعض الأهالي والقبائل من منطقة

لأخرى وبعض عمليات القتل والإرهاب • وسقط غاندي نفسه قتيلا بيـــد أحد المتعصبين .

ولقد عملت بريطانيا فى نفس الوقت على إعطاء الإستقلال لسيلان وبورما،فأصبحت الأولى دومنيون داخل نطاق الكومنولث ، أماالثانيةفانها قد خرجت من المجموعة البريطانية .

وكان هذا تحولا خطيرا لكى يقبل الملك نزع تاج الهند من على رأسه، وخفض العلم البريطانى من على دلهى الجديدة . ولم يكن الوقت بعيد عن عصر فيكتوريا ، الملكة الامبراطورة .

وكانت أسباب فقد فرنسا للهند الصينية لا تختلف كثيرا عن أسباب فقد بريطانيا للهند . وبدأت المشكلات مع هانوى وسايجون وتكاسلت حكومة باريس فى حـــل هذه المشكلات • وكانت هذه المشكلات قد بدأت نتيجة لانقسام الفرنسيين ولضعف حكومة فيشى التى أضطرت لقبـــول الوجود ثم الأشراف اليابانى على الهند الصينية . وكما حدث فى اندونيسيا مان طوكيو قد تركت الأسلحة والذخائر الـلازمة للثورة فى الهنـــد الصينية . ولم يكن الفرنسيون هم الذين استلموا الهند الصينية بعد استسلام اليابان بل لقد قام بذلك الجيش الصينى فى الشمال ، والبريطانيون فى الجنوب ، وفى الوقت الذى أعطت فيه أمريكا بعض التصريحات والوعود للاستقلال سنة ١٩٤٥ ، والذى قام فيه حزب اشتراكى من الفيتميين بتنظيم خلاياه فى كل البلاد واستولى على السلطة فى هانوى .

واضطرت فرنسا لكى تنزل الى الهنـد الصينية من جـديد فى سنة ١٩٤٦، إلى أن تتفاوض مع الصينيين ، « وتنظف » البلاد ، وتتفاوض مـع الفيتمين ، وتعد بأن تصبح الفيتنام ـ وهى تشتمل على تونكين وآنام وكوشين صين ـ

دولة حرة داخل الاتحاد الهنـــدى الصينى . ولـكن الفيتمين نقضوا الهدنة وهاجموا القوات الفرنسية فى هانوى ، وقاموا بعمليات واسعة للتخريب ولأعمال العصابات . وتطورت حرب العصابات الى حرب نظامية ، وكان الجيش الفرنسى بعيدا عن قواعده ، ولا يشتمل الا على عـدد من المتطوعين ، ورجال الفرقة الأجنبية ومجندى شمال افريقية ، فلم يتمكن من السيطرة الا على المدن . وانحصرت بعض الوحدات فى ديان بيان فو سنة ١٩٥٤ ، واضطرت الى التسليم . ولم تـكن المعركة فاصلة ، خاصة وأن الفيتمين كانوا قد بـدءوا فى الشعور بالضعف . ولـكن الرأى العام الفرنسى أخذ يمج العمليات الحربية فى الهند الصينية ، وتذكر مشكلة كندا منذ قرنين ، ورأى عمليات تهريب العملة من الهند الصينية وفضيحة المطاط ، فما هو الداعى لانفـــاق الاموال وفقد الشبان فى بلاد بعيدة ، وفى بلاد ستتحرر ، ولمصلحة من ؟ . لقد اجمعت فرنسا فى بضعة أسابيـع على ضرورة ترك الهند الصينية ، ولم يناقش أحـد ضرورة الاحتفاظ باحدى القواعد فى هايفونج أو فى رأس سان جاك . لقد قررت فرنسا اخلاء الهند الصينية ، فتأسست جمهورية فيتنام الشعبية فى الشمال وباشراف الفيتمين ، وبرئاسة هوشى مين . أما فى الجنوب فان فيتنام اخرى قد حصلت على الاستقلال ، مثلها فى ذلك مثل كمبوديا ولاوس ، ولم يعرف كثير من الفرنسيين شروط حصول دول الجنوب الثلاثة على استقلالها الداخلى او الخارجى ، ولا درجة ارتباطها بالجمهورية الفرنسية فى سنة ١٩٥٦ . لقد اعلن دستور فيتنام الجنوبية انشاء جمـهورية واحدة مستقلة ، طبقا لمبـادىء وشعارات الثورة الفرنسية ، وأعلن فى الوقت نفسه كفاحه من اجل الاحتفاظ بالحرية وضد كل حركة للسيطرة أو الاستعمار ، وطبقا لمبادىء وشعارات باندونج .

ولقد تنازلت فرنسا كذلك ، ولكن بدون نقاش عن مراكزها الخمسة التي ورثتها على سواحل الهند ، فخرجت فرنسا نهائيا من آسيا .

ورغم ذلك فان دولة صغيرة مثل البرتغال لا تزال متشبثة بالبقاء في ماكاو وفي جوا . أما في بريطانيا فقد حاولت الاحتفاظ بمالزيا التي تغل لها المطاط والقصدير اللازم للحصول على الدولارات والتي تعتبر سنغافورة قاعدة هامة تسيطر منها على كل الأرخبيل . ولكن بريطانيا اضطرت إلى مواجهة الهجرة الصينية ، ثم اضطرت إلى إنشاء اتحاد ماليزيا الذي اشتمل على تسع دول ومركزين استعماريين،في إنتظار تحوله إلى مملكة إسلامية داخل نطاق الكومنولث سنة ١٩٥٧ ، وأما سنغافورة فانها قد تحولت إلى مستعمرة للتاج .

لقد خرجت أوربا بشكل عام من الشرق ، خرجت من بكين وسايجون وكراتشي وجاكارتا ، وأصبحت آسيا مستقلة ، ولكنها أصبحت تؤثر على مستقبل العالم بسكانها الذين يمثلون مئات الملايين من الشعوب التي استغلتها أوربا سنوات طويلة،والتي أصبحت تعيش في ظروف متخلفة وتشعر بهذه الظروف ، ويمثل هذا الشعور خطر على أوربا نفسها .

(٣) تحرر البلاد العربية :ــ

لقد هب ريح التحرر على العالم العربي كما هب على مناطق أخرى من العالم،رغم ارتباط الغرب بمصالح قوية في هذه المنطقة ، مصالح استراتيجية في القناة وفي الجزائر،ومصالح إقتصادية في البترول وايران والعراق والصحراء ، وحتى مصالح دينية ومعنوية في الأراضي المقدسة وفلسطين .

ولـكننا نلاحظ أن أطماع الدول الإستعمارية فى هـذه المنطقة كانت أكثر من وسائلهـا . وكم من خطء ارتـكبته انجلترا وفرنسا ساعد على تقريب نهاية الاستعمار فى العـالم العربى ، وكم من موقف تشددوا فيـه وكان يتطلب اللين ، وموقف تساهـلوا فيـه وكان يتطلب الحـزم . وكان ذلك ناتج عن تعاقب العمال والمحافظين على الحـكم فى لندن ، وتعاقب الوزارات قصيرة الأجل فى باريس . وخلف ذلك نلاحظ وجود قوى أكبر، تتمثل فى عداء ومنافسة كل من الولايات المتحدة الأمريـكية واتحاد الجمهوريات الأشتراكية الروسية لنظام ونفوذ الاستعمار الغربى فى العـالم العربى . وأدت هذه القوة الـكبيرة ، مع تناقضات القوى الاستعمارية ومع نمو وازدياد الوعى القومى والتحررى إلى إنهاء النظام الاستعمارى فى البلاد العربية .

لقد ظهر هذا التناقص مركزا فى منطقة الشرق الأدنى العربيـة مع مشكلة فلسطين التى أدخل الغرب فيهـا عناصر اليهود عاملا جديدا لضرب العرب، مسلميهم ومسيحييهم والاحتفاظ بهم فى مركز التابعين . لقد ضحى الغرب بالمسيحيين الشـرقيين وبمصالحهم أمام مصالح وأطماع اليهـود الصهيونيين ، وقطع بذلك كل رباط روحى يمكنه أن يستند اليه فى الاتصال بالعناصر المسيحية العربية، ووطد دعائم الروابط بين المسيحيين والمسلمين كقوميين عرب ، يكافحون كلهم ضد الاستعمار . وكانت حـرب فلسطـين سنة ١٩٤٨ وموقف الغرب الاستعمارى منها عاملا هاما فى إتمام يقظة العالم العربى الأساسية، وبدأها فى الـكفاح الفعلى ضد الاستعمار .

حقيقة أن الحرب العالمية الثانية كانت قد سمحت للفرنسـيين والبريطانيين

بالتعايش سلميا فى سوريا ، ولكن تشرشل رفض أن تحتفظ فرنسا بمركزها السابق فى هذا الإقليم العربى ، وكان يرغب فى حقيقة الأمر فى أن يرث مناطق الانتداب الفرنسية السابقة أو يحولها على الأقل إلى مناطق نفوذ بريطانية مع مجموع دول الجامعة العربية التى كان يرسم أمر إنشائها · وشجع ذلك الحركة التحريرية فى سوريا التى كسبت الانتخابات ، وأنتهى الأمر بعمليات شد وجذب ، بين سياسة اللين وسياسة الشدة، مما أدى الى الاضطرابات وتدخل بريطانيا سنة ١٩٤٥ومما أضطر فرنسا إلى اخلاء دمشق والاعتراف باستقلال سوريا ولبنان سنة ١٩٤٦ .

لقد تحررت البلاد العربية بسرعة ، فتحرر العراق وشرق الأردن وسوريا ولبنان ، واحتفظت بريطانيا ببعض القواعد العسكرية وبالمصالح الاقتصادية ، فى عدن والبحرين وجنوب الجزيرة وعمان وقطر والكويت .

أما مصر فانها قد اهتزت منذ حرب فلسطين ونشبت فيها ثورة وطنية سنة ١٩٥٢ أنهت الحكم الملكى وطالبت بجلاء القوات البريطانية من منطقة قناة السويس . ووجدت بريطانيا أن من مصلحتها إخلاء قواعدها قرب القناة. ولكن روح التحرر دفعت مصر الى تأميم قناة السويس فى سنة ١٩٥٦ حتى لا تخضع لمساومات الغرب فى عملية تمويل السد العالى · ودفع الضعف حكومات لندن وباريس الى استخدام القوة ضد حكومة القاهرة ، فكانت حرب السويس التى أثارت اشمئزاز العالم والامم المتحدة،والتى انتهت بتأكيد هزيمة الغرب الاستعمارى،وانتصار حركات الكفاح والتحرر الوطنى ، وساعدت على أن تصبح مصر مركز اشعاع وطنى ومركز عالمي للكفاح ضد الاستعمار ·

وكانت بريطانيا قد حاولت ، قبل أن تترك مصر أن تحصل على قواعد

أخري فى ليبيا ، التى كانت قد رفضت اعادتها لايطاليا ، ولكن حركات التحرر امتدت الى ليبيا ، واضطرت فرنسا الى اخلاء قواعدها فى منطقة فزان سنة ١٩٥٦ ، تلك القواعد التى كان الجنرال ليكليرك قد احتلها حينما سار فى أثناء الحرب العالمية الثانية من تشاد الى تونس .

أما السودان الذى يسيطر على مياه النيل فان انجلترا لم تتمكن من البقاء فيه ، خاصة وأن استفتاء السودان لم يعط لبريطانيا أى أمل فى البقاء فيه .

وكما تحررت بلاد الشرق الأدنى العربية وصلت روح الثورة الى بلاد شمال افريقية . وبدأت العملية فى تونس التى عمل فيها الحبيب بورقيبه مع الحزب الحر الدستورى الجديد ، ثم امتدت للمغرب التى عمل فيه حزب الاستقلال . ولقد فشلت فرنسا فى أن تتفاهم مع الدستوريين ومع الإستقلاليين ، خاصة وأن أطماعها الاستعمارية كانت تتعارض مع فى نمو هذه الاتجاهات الوطنية، والتى تمثل المصالح البورجوازية . فانتشرت أعمال الارهاب واضطرت فرنسا سنة ١٩٥٥ ، وبعد أن قررت الانسحاب من الهند الصينية ، الى أن تعد تونس بالاستقلال الداخلى . ولكن هذا الوعد تطور فى بضعة أشهر الى استقلال تام، وأصبحت تونس عضوا فى الأمم المتحدة . فكيف يمكن لفرنسا أن ترفض للمغرب ما منحته لتونس ؟ وارتكبت فرنسا نفس الإخطاء ، وكما قبضت على بورقيبه وسجنته ثم تركته لكى يعود منتصرا الى تونس ، قامت بعزل الملك محمد الخامس ونفته الى مدغشقر ، ثم أرجعته الى بلاده لكى يحتل عرشه المستقل .

لقد حاولت فرنسا أن تلعب بالالفاظ وجعلت الاستقلال مشروطا بالتكافل والترابط معها . ولكن المغرب وتونس رفضتا هذه الدبلوماسية ، كما رفضتا بقاء قوات الإحتلال الفرنسية ، والتعاون مع

فرنسا ، خاصة وأنها كانت تتفرس فى الجزائر ·

ولقد تمكن المغرب من استعادة المنطقة التى كانت خاضعة لاسبانيا ، ولم تحتفظ اسبانيا فى المغرب إلا بافنى وسبته ومليلة ·أما طنجة فانها قد انضمت الى المملكة المغربية وألغى النظام الدولى فيها ·

ونصل بعد ذلك الى الجزائر الذى لم يكن من المتوقع بقائها بعيدا عن حركات التحرر العربية · وبعد تطورات كثيرة فى العلاقات الفرنسية الجزائرية نشر فرحات عباس البيان الجزائرى ، ثم نشأت جبهة التحرير الوطنية الجزائرية التى تمكنت من الاستناد الى اخوانها العرب المتحررين ، والمكافحين ضد الاستعمار ، فاستندت الى مصر وإلى تونس وإلى المغرب ، ونظمت رجالها ونزلت بهم الى المعركة ·وكانت معركة طويلة عجمت فيها عودها لمدة سبع سنوات وتمكنت بعدها من انتزاع حقوقها واستقلالها من الاستعمار . واذا كانت اتفاقيات ايفيان قد حددت بعض الشيء من مظاهر الاستقلال الجزائري ، أو ربطت بين الجزائر وفرنسا ، فان هذه الاتفاقيات لم تعش لمدة طويلة ·

ومن خلال عمليات تحرر البلاد العربية شعر الغرب بنقطتين أساسيتين هامتين يحتاج فيهما للعالم العربى ، بل ويخضع فيهما له : قناة السويس كطريق ملاحة عالمى يربط الشرق والغرب ، والبترول الذى يشتمل العالم العربى على أكبر مودع منه فى العالم - وبعد كان الغرب يفرض نفسه على غيره ،أصبح فى وسع البلاد العربية أن تفرض نفسها على الغرب،وفى هذين الموضوعين ·

(٤) تحرر افريقية السوداء :ـ

اعتقدت أوربا أن فى وسعها الاحتفاظ بافريقية لأطول مــــدة ممكنة ،

ولكن روح التحرر الوطني والكفاح ضد الاستعمار امتدت إلى هذه القارة، وعملت على تحريرها . ولم تأت عمليات الكفاح ضد الاستعمار من اتحاد جنوب افريقية الذى يظهر من الخارج وكأنه أكثر المناطق الافريقية ارتباطا بالحضارة والمدنية الغربية ، ذلك أنه لا يزال يحتفظ فى داخله بالتفرقة العنصرية ويحرم الوطنيين من حقوقهم المشروعة ، حتى كمواطنين . وتمتد هذه السياسة الاستعمارية متدرجة صوب الشمال فى روديسيا الجنوبية ، ثم روديسيا الشمالية ونياسالاند .

ولم تأت عمليات الكفاح ضد الاستعمار من شرق افريقية ، رغم أن أثيوبيا قد تمكنت من الحصول على استقلالها ، كما تمكنت الصومال من إنهاء الوصاية الدولية عليها .

ولكن هذه العمليات بدأت من كينيا وأوغنده والتى كان المعمرون الأوربيون فيها يستغلون أحسن الأراضى ويرفضون اعطاء السلطة للافريقيين والهنود . ولقد استخدم البريطانيون العنف فى أقسى معانيه ضد حركة الماو ماو وثورة شعب كينيا . وكانت هذه المنطقة نبراساً لحركات التحرر والكفاح ضد الاستعمار فى افريقية السوداء .

أما فى افريقية الغربية فان بريطانيا قد استخدمت وسائل متحررة ، وتركت الاهالى يصلون الى بعض المناصب فى الادارة، وتركتهم يمتلكون الأراضى، ولكن بشرط أن تضمن بريطانيا لنفسها تصدير القطن والكاكاو والفول السودانى وزيت النخيل . وكانت أولى الدول التى استقلت فى هذه المنطقة هى ساحل الذهب التى تحولت فيما بعد الى غانا . وساهم كوامى نكروما فى انجاح حركة الكفاح للتحرر من الاستعمار فى بلاده . وكان قد تعلم

تعليما أتمه في أمريكا ووضع نفسه على رأس العناصر الوطنية غير الراضيـــة وطالب بحكومة تمثلية . وبعد حوادث الشغب في أكرا سنـة ١٩٤٨ قبض عليه وسجن . ثم وافقت بريطانيا بعد ثلاث على اعطاء الاستقلال الداخلى لساحل الذهب وسمحت بالانتخابات التى انتهت بفوز نكروما ، فخـرج من السجن لـكى يصبح رئيسا للوزراء، ولكى يضع دستورا يعطى لبـلاده الاستقلال التام . وفقدت انجلترا إحدى المستعمرات واعتقدت انها استضمها الى الكومنولث، ولـكن نكروما حضر حفلة عيد الاستقلال بملابس المساجـين ، وكانت فى الحفلة أميرة تمثل التاج البريطانى ، ونائب رئيس الولايات المتحدة ، وممثلى الدول التى سارت بعد ذلك إلى باندونج .

وجاءت نيجيريا بعد غانا ، ولمع فيها نجم أزيكوى الذى كان قد تعـلم كذلك فى أمريكا ، والذى مر كذلك بالسجون الإنجليزية قبـل أن يحصل على استقلال بلاده . وبعد محاولات دستورية أصبحت نيجيريا سنة ١٩٥٧ اتحاداً من ثلاث دول، لـكل منها مجلسه ، ثم وعدت لندن باعطائها الاستقلال داخل حدود الـكومنولث .

وحصـلت سيراليون كذلك على حـكومتها، ولم تتحـــرك بريطـانيا كثيرا أمام هذه الموجة العارمة التى اجتاحت كل مستعمراتها السابقة .

أما فى افريقية الفرنسية فقد حصلت توجو على استقلالها فى سنة ١٩٥٦، وكانت مجاورة لغانا ، وأصبحت جمهورية مستقلة . وعجزت فرنسا بعد ذلك عن أن تحرم أقاليم افريقية الأخرى مما منحته لتوجو ، خاصة وأن الحركات الوطنية أخذت تشتد فى الـكاميرون وفى داهومى وفى ساحل العـــاج وغينيا والسنغال . وطالب سكان افريقية الاستوائية الفرنسية بما منحته فرنسا لسكان

افريقية الغربية . أما مدغشقر فانها كانت قد أعلنت الثورة التى كبتت بشدة . ولكن فرنسا اضطرت إلى منحها دستور ومجالس إقليمية ومجلس حكومة فى سنة ١٩٤٧ . وهكذا حصلت أقاليم افريقية كثيرة على ما تصبوا اليـه ، وكانت كل افريقية قد صممت على الحصول على حريتها الكاملة .

وجاءت سنة ١٩٦٠ لكى تشهد حصول كثير من الدول الأفريقية على استقلالها وتحررها من النظم الاستعمارية الغربية . ورغم تباين الاتجاهات والارتباطات بين الدول الافريقية ، صوب أوربا أو أمريكا أو باندونج ، فان فكرة مؤتمر الوحدة الافريقية وإنشاء منظمة إقليمية للدول الافريقية كانت تراود عقول معظم أبناء افريقية .

ويعتبر بذلك تاريخ الاستعمار قد وصل الى مرحلة حاسمة ، إن لم تكن نهائية فى حياته . ولكن نهاية التحكم العسكرى والسياسى لم يكن يعنى نهاية التحكم الاقتصادي ، وهو شكل جديد من أشكال الاستعمار التى ظهرت فى القرن العشرين .

الفصل الثانى والعشرون

التخلف

تواجه القوى الوطنية اليوم مشاكل عويصة فى كل من آسيا وأمريكا الجنوبية وبخاصة فى إفريقية . فهى فى الوقت الذى تحاول فيه بناء استقلالها الوطنى والتحرر من القيود السياسية والإقتصادية والإستعمارية تجد أن حالتها قد أصبحت يرثى لها وخاصة من الناحية الإجتماعية . وهذا هو ما يسمى « التخلف » الذى يظهر واضحاً فى مستوى المعيشة وفى مشكلات السكان والإنتاج ويتميز بانتشار الجوع وقلة الأغذية وتفشى الأمراض والجهل. وعلينا أن نحاول رسم الخطوط العامة لهذه الحالة قبل التحدث عن موقف القوى الوطنية من الإستعمار المقنع ، والخطة التى يجب عليها إنتهاجها .

١ - مستوى المعيشة :

إن فى أستطاعة الأوربى أو الأمريكى أن يزور الآن وفى شهر واحد نفس المناطق التى قضى ماركوبولو عدة سنوات فى زيارتها وتفهم أحوالها . ولكنه يجد أن شعوب هذه البلاد لازالت تعيش معيشة العصور الوسطى وهى فى قلب القرن العشرين . فهناك مئات الملايين من البشر لم ينعموا بالذهاب إلى المدارس وليست لديهم أى أدوات حديثة للعمل ويعيشون فى فقر مدقع . إن حوالى ٦٠٠ مليون ينعمون الآن بنتائج التقدم الحديث وخاصة فى أمريكا الشمالية وأوربا وأستراليا ، أما بقية العالم فيعانى الشقاء ويبلغ تعداد أهله حوالى ثلاثة أضعاف هذا العدد موزعين على إفريقية وأمريكا الجنوبية ، ومكدسين فى آسيا .

بلغت قيمة الانتاج العالمى فى سنة ١٩٥٥ ، ٩٣٥ مليارا من الدولارات (باستثناء الدول الشيوعية) ، وكان نصيب الولايات المتحـــدة منها ٣٨٧ مليارا ، ونصيب أوربا ٣٤٥ مليارا ، والباقى للدول المتخلفة ولا يتعدى ١٤٥ مليارا بكثير .

ويبلغ متوسط دخل الفرد فى الولايات المتحدة ١٨٧٠ دولارا وفى فرنسا ٧٤٠ دولارا ، ولـكنه ينخفض فجأة إلى ١٢٠ دولارا فى بيرو و٧٠ دولارا فى باكستان و٦٠ فى الهند و٥٠ فى بورما .

وهكذا يظهر أن ١٠ ./ من سكان العالم يستهلكون ٨٠ ./ من الانتـــاج العالمى . حقيقة أن بعض راجات الهند يعتبرون من أغنى أغنياء العالم وتوجد إلى جوارهم الملايين من الأهالى بدون طعام يسد رمقهم . ولـكن هناك أيضا وسائل التقدم العلمى والفنى الذى ينعم بها الأوربيون والأمريكيون فى الوقت الذى لا يجد فيه الآسيوى طعاما ولا مأوى هناك من يقاسون التخمة وهناك من يتضورون جوعا [1] .

٢ ـ السكان والانتاج :

ويساعد زيادة عدد السكان فى مناطق كثيرة ، نتيجة لتقدم الطب وازدياد الوسائل الصحية ، على زيادة تدهور الحالة .

وعلينا أن نلاحظ أن تقدم الحالة الصحية تكلف أقل بكثير من مشروعات التنمية الاقتصادية . فلقد انخفضت الوفاة فى سيلان بنسبة ٤٠ ./ بعد إنفاق

---

(١) أنظر Drogat, Noél‘ Pays sous-développés er coopération technidue, paris, 1959 pp. 12 13

نصف دولار لكل فرد ، ولكن يلزمنا ٢٥٠ دولارا لكل هندى لتحسين ظروف الانتاج الزراعى فى بلاده ٠

وتنبأت احدى هيئات الأمم المتحدة بأنه يمكن أن يصل تعداد السكان فى العالم الى أربعة مليارات فى عام ١٩٨٠ وما بين ستة وسبعة مليارات فى نهاية القرن ٠ ولا زال أكثر من نصف سكان العالم يعيشون فى المناطق الموسمية المزدحمة فى آسيا ، ويعيشون على الكفاف ٠ ان زيادة السكان بطيئة فى البلاد المتقدمة وتسير فى نفس الوقت مع التقدم الفنى ومع زيادة وسائل الانتاج ٠ ولكن المناطق الآسيوية والافريقية ومناطق امريكا الجنوبية ترى تضاعف عدد سكانها وتدهور الحالة الاقتصادية فيها ٠

وليست زيادة السكان هى المسؤولة الوحيدة عن بعد المسافة واتساعها بين المتقدم والمتخلف ، بل هى مسألة « وسائل » وأدوات . فيمكن لمن يمتلك هذه الوسائل أن يزيد من دخله ويجابه زيادة السكان ، اما المتخلف فيعجز عن الانتاج اللازم لمواجهة زيادة السكان ٠ ويمكننا أن نشبههما بقاطرتين احداهما لاتقدر على السير الا بسرعة عشرة كيلو مترات فى الساعة والثانية بسرعة مائة . وبدأت السريعة سيرها وهى متقدمة عن البطيئة ، فستزداد المسافة بينهما اتساعا ؛ وباستمرار ، رغم سيرهما على نفس الخط .

ان هذا التشبيه ينطبق على الانتاج ، ويزيد الخرق على الواقع اذا لاحظنا أن الشعوب المتخلفة هى أشد تكاثرا وأسرع من الشعوب المتقدمة .

٣ ـ مناطق الجوع :

لم تتقدم حالة التغذية فى المناطق المتخلفة بل زاد الحال سوءا فى بعض المناطق رغم المجهودات التى استخدمت فى السنوات الاخيرة ٠

وكان إنتاج المواد الغذائية قد انخفض فى سنة ١٩٥٥ ــ سنة ١٩٥٦ بنسبة ٥ إلى ١٠ ٪ عن كمية الإنتاج قبل الحرب العالمية الثانية فى أمريكا اللاتينية والشرق الأقصى . وانخفض بنسبة ٢٥ إلى ٣٠ ٪ فى نفس المدة وفى منطقة جنوب آسيا الممتدة من باكستان حتى بورما وماليزيا ، هذا فى الوقت الذى زاد فيه إنتاج المواد الغذائية فى المناطق المتقدمة من العالم .

وتشهد منظمة الأغذية الدولية .F.A.O بأن زيادة الانتاج الزراعى قد حدثت فى البلاد الحديثة التجهيز والاعداد مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، مما اضطر هذه الدول إلى إعادة النظر فى سياستها الانتاجية، ويقاسى ثلث سكان العالم من نقص الغذاء الأساسى ، أى أنه لا يتمكن من الحصول على الحد الأدنى الغذائى اللازم للاحتفاظ بسلامة جسده . وتجد أن كمية الأغذية ونوعها تنقص شعوب البلاد المتخلفة ، ويظهر هذا واضحا فى قلة المواد البروتينية والفيتامينات والأملاح المعدنيـــة التى تتناولها أهلها .

ويمكننا أن نشاهد الآن فى الهند قبائل أو قري بأجمعها وقد شابه أهلها الهياكل العظامية أكثر من شبههم بالآدميين ، ويزيد انتشار هذه المناظر كلما قل المطر . وازداد الجوع ، وهناك الكثيرون ممن يهيمون على وجوههم فى المدن الكبرى ، بحثا وراء الطعام .

أما فى إفريقية السوداء فان الطعام فقير فى مواده الغذائية إذ لا يكفى ملء المعدة بالموز مثلا فى الوقت الذى يحتاج فيه الجسم إلى قطعة، ولو صغيرة، من اللحم . وإن قلة البروتينات بين عناصر الطعام لتؤثر على صحة الأطفال فنجد زيادة نسبة الوفيات بين الأطفال قبل عامهم الخامس ، أما بعد هـــذا السن فيمكن للطفل أن يغذى نفسه ببعض ما يجده من الفواكه أو الجراد أو بيض

الطيور . وتبلغ نسبة الوفيات بين الأطفال من أهالى رواندا الذين هاجروا الى أوغندا ٥٠ ٪ وفى منطقة مناجم الماس فى سيراليون ٦٣ ٪ وفى بعض مناطق تنجانيقا ٥٠ ٪ . ويضطر الأهالى فى بعض المناطق الإفريقية إلى أكل حبوب مخزونة ومليئة بالحشرات ، ورغم ذلك فهم يتناولون منها وجبة واحدة كل يومين أو ثلاثة حتى تكفيهم طول العام ، ويتزودون فى وجباتهم الأخرى . بما يجدونه فى الغابات من خضروات وحشائش وبعض الحيوانات الصغيرة وبيض الطيور .

وتصل مشكلة الجوع فى بعض المناطق إلى درجة أن يفكر البعض فى عدم تحسين الحالة الصحية حتى لا يزيدوا من عدد الأفواه التى تنادى بالطعام . وليس ارتفاع نسبة وفاة الأطفال هى النتيجة الوحيدة لسوء التغذية ، بل إن العامل لا يستطيع إتقان عمله مالم يتزود جسمه بما يلزمه من عناصر غذائية كافية .

وهكذا نجد ١٦٠٠ر١ مليون بشرى فى مناطق متخلفة لا يأملون فى أن تمتد حياتهم إلى أطول من ٢٨ سنة . ويموت ١٢٠ طفلا قبل عامهم الأول من بين كل ألف فى آسيا بينما لا تبلغ هذه النسبة فى الولايات المتحدة إلا ٢٩ فقط . أما فى أوربا وأمريكا الشمالية فيبلغ متوسط العمر ٦٣ سنة .

٤ — الامراض :

يزيد انتشار الأمراض الوبائية بشكل خاص فى المناطق الحارة التى يمتلىء جوها بالحميات وينتشر فيها الجذام وتكثر بها البلهارسيا وتجتاحها الطواعين ويقاسى أهلها من السل .

ويقدر عدد المرضى بالسل فى الهند بثلاثة ملايين فى كل عام . وفيها مليونان من مرضى الجذام خلاف ما يجتاحها من الكوليرا والطاعون .

ولا تمتلك الهند إلا ٧٠٫٠٠٠ طبيب وعشرة آلاف مستشفى بها ١٢٥٫٠٠٠ سرير ، أى بمعدل سرير لكل ثلاثة آلاف مواطن. هذا فى الوقت الذى يتسبب فيه سوء الجو وقلة المياه الصالحة للشرب وسوء الحالة الصحية وقلة التغذية وسوئها ، فى حصد المرضى حصدا وبدرجة تفوق أي منطقة أخرى فى العالم .

ولا يختلف الحال كثيرا فى أندونيسيا الذى يفوق تعدادها تعداد اليابان، وليس لديها سوى ١٫٢٠٠ طبيب ، فى الوقت الذى نجد فيه أكثر من ١١٫٠٠٠ طبيب فى هولندا ، ولا يبلغ تعداد سكانها إلا عشرة ملايين . ليس فى استطاعة هذا العدد من الأطباء مواجهة أى وباء يجتاح البلاد . ويؤثر هذا بطبيعة الحال على حياة السكان وعلى قدرتهم الإنتاجية وبالتالى على مستوى معيشتهم .

أما فى إفريقية السوداء فان الحميات والأوبئة والجذام تنتشر فى كل مكان . وقدرت السلطات الفرنسية عدد المرضى بالجذام فى افريقية الإستوائية الفرنسية فى عام ١٩٥٣ بـ ٣٠٫٠٠٠ ، ولكن هذا الرقم ارتفع فى أربع سنوات الى ١٤٣٫٠٠٠ نتيجة للنزول الى ميدان محاربة هذا المرض والقيام بعمليات احصائية تستند الى أسس علمية . ولا يكفى عدد الأطباء لمعالجة الأمراض فى هذه القارة اذ أن هناك طبيب واحد لكل ٢٠٫٠٠٠ افريقى فى افريقية الإستوائية الفرنسية وطبيب واحد لكل ٥٨٫٠٠٠ افريقى فى نيجيريا.[1]

---

(١) أنظر Drogat, Noel ; Pays sous—développé s et coopé—ration téchniques Paris; 1959 pp. 14—19.

أما فى أمريكا الجنوبية فان الحالة الصحية أسوأ مما عليه فى أى مكان آخر ، وخاصة بين الأهالى الوطنيين فى الداخل الذى تبلغ نسبة وفاة الاطفال لديهم فيما بين ٢٥٠و٧٠٠ فى الألف ، وليست فى مناطقهم أى وسائل صحية أو علاجية تقريبا .

٥ ـ الجهل :

فى الوقت الذى تقدمت فيه نسبة التعليم فى كل من أوربا وأمريكا نجد بقية العالم تقاسى من الجهل . فنجد أن ٧٠ إلى ٨٠٪ من الأطفال فى إفريقية السوداء لا يجدون فرصة للتعليم ، لعدم وجود المدارس ولعدم وجود المدرسين ولتفرق الأهالى فى مساحات واسعة من القارة . ونجد أن نفس هذه النسبة تقريبا موجودة فى المناطق الجبلية فى الجزائر حتى يومنا الحالى ، بل إن مناطق كثيرة منها تعيش بدون رؤية المدرس أو ساعى البريد أو وسائل المواصلات الحديثة .

ورغم أن الاحصاءات التى يستند إليها فى هذا الشأن تأتى من الأمم المتحدة الا أنه لا يمكن الركون إليها ما دامت بعض الدول تعطى نسبا للتعليم تختلف عن الحقيقة ، حتى لا تظهر بمظهر المتبربرة . وهناك أيضا مرحلة التعليم ومستواه اذ أن هذا المستوى يختلف من بلد لآخر ، حتى بالنسبة لتعليم الدرجة الأولى .

وعلى أية حال ، فان بعض دول أمريكا اللاتينية تذهب الى أن ٣٥ أو ٤٠٪ من أطفالها يذهبون للمدارس . أما فى آسيا فان هذه النسبة قد تنخفض الى ١٠٪ كما هو الحال فى الهند وأندونيسيا .

وليس في مقدور الدول المتخلفة بما لديها من متعلمين أن تبدأ جديا في

تنمية مواردها الاقتصادية واستغلالها بدرجة تكفى أهلها وتسد حاجاتهم ، اذ أن العمال المهرة ينقصونها دون التحدث عن المهندسين اللازمين لادارة المصانع

* * *

وبهذا العبء الثقيل تعمل الشعوب الافريقية والآسيوية على الكفاح من أجل الحياة . إنها تعمل على التخلص من الاستعمار والتسلط ، وتحاول بناء بلادها على أسس تسمح لها بمواصلة الحياة وإعطاء فرص أفضل لأبنائها . وتمكن لهم العيش فى ظل الحرية والكرامة .

ولكن الطريق طويل ومحفوف بالمخاطر ، خاصة وأن الدول الغربية الاستعمارية تدعى أنها قد أنهت عهد الاستعمار ، وتعرض ألوانا جديدة لربط هذه الدول الحديثة الاستقلال بعجلتها ، إن الدول الغربية تحاول فى حقيقة الأمر أن تواصل استعمارها واستغلالها للدول الحديثة الاستقلال ، وتستغلها من النواحى الإقتصادية والإستراتيجية . فعلى هذه القوى الوطنية أن تجد لنفسها الطريق رغم وعورته ، وكثرة العقبات فيه ، وثقل العبء الذى تئن تحته . ولقد وجدت هذا الطريق بعد تجارب ، ونتيجة ليقظتها .

